العبارة وتأليفها

في كتابي (نقد النثر) والبرهان

بشرح

الدكتور محمد السعدي فرهود

القاهرة

١٣٩١ هـ — ١٩٧٢ م

مطبعة زهـــران
سيد اسماعيل وشركاه
٤ ش حمام المصبغة بالكحكيين ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

محمد بن عبد الله النبي العربي المبين

تقديم

فى شعبان سنة ١٣٥١ هـ — ديسمبر سنة ١٩٣٢ م صدر عن الجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) كتاب « نقد النثر » — بتحقيق الدكتور طه حسين والدكتور عبد الحميد العبادى — منسوبا إلى « قدامة بن جعفر »، عن نسخة خطية محفوظة فى مكتبة « الأسكوريال » برقم (٢٤٣) . وقدم الدكتور طه للكتاب بمقدمة فى (البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر)، وأعقبها بيان من الدكتور العبادى عنوانه (تحقيق فى حياة قدامة ونسبة كتاب نقد النثر إليه) .

واجتذب الكتاب الباحثين والدارسين من ناحيتين : من ناحية مؤلفه ، ومن ناحية موضوعه . فأما المؤلف فهو « قدامة بن جعفر » صاحب المصنفات الكثيرة ، وأشهرها بين دارسى النقد والأدب كتابه (نقد الشعر) ، وهو كتاب ذو وزن وخطر ، درس فيه معالم الشعر ، ونعت الألفاظ والأوزان والقوافى والمعانى بنعوتها مفردة ومركبة ، وأقام عليها رأيه فيما ينبغى أن يكون عليه تأليف الشعر عند المدح والهجاء والرثاء والوصف والنسيب .. الخ ما تناوله من مسائل ، يمكن عدها من قوانين النقد ومن قوانين البلاغة،

والنقد والبلاغة فى ذلك الزمان — القرن الرابع الهجرى — كانا مشتجرين؛ لأنهما كانا يتناولان الكلام تناولا فنيا أكثر منه تناولا علميا .

وقامت ضجة حول نسبة الكتاب — نقد النثر — إلى قدامة ، ومن الباحثين من اقتنع بما ساقه الدكتور العبادى فى بيانه من استنتاجات تثبت نسبة الكتاب إلى قدامة ، ومن الباحثين من ارتاب فى هذه النسبة ارتيابا مقدما بين يدى ريبته استنتاجات أخر ، أهمها — فى نظرى — ما بين كتابى نقد النثر ونقد الشعر من اختلاف فى المنهج والرأى والأسلوب . ولم يتفق ذوو الريبة على شخص المؤلف ، ومنهم من زعم أنه أبو عبدالله محمد بن أيوب ، ومنهم من ظنه جعفر بن قدامة بن زياد (والدقدامة بن جعفر) . وظل الأمر كذلك حتى نشر الدكتور على حسن عبد القادر — فى مجلة المجمع العلمى العربى سنة ١٩٤٩ م . المجلد الرابع . الجزء الاول — مقالا أبان فيه أن هذا الكتاب المنسوب إلى قدامة غير مكتمل ، وأنه عثر على الكتاب كاملا فى مكتبة (تشيستر بيتى فى دبلن) . وأن عنوانه (البرهان فى وجوه البيان) ، وأن مؤلفه هو أبو الحسين اسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب — من كتبة القرن الرابع الهجرى . ثم نشط المحققون لتحقيق الكتاب الجديد ، ونشره فى العراق سنة ١٩٦٧م الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى ، ونشره فى الجمهورية العربية المتحدة — مصر — سنة ١٩٦٩ الدكتور حفنى محمد شرف .

هذا عن مؤلف الكتاب . أما عن موضوعه فهو البيان — فى أوسع معانيه — وقسمه المصنف أربعة أقسام ، هى : البيان بالاعتبار ، والبيان بالاعتقاد ، والبيان بالعبارة ، والبيان بالكتابة .

فالبيان بالاعتبار هو بيان الأشياء بذواتها ودلالتها على نفسها وعلى منشئها ومبدعها . وبعض هذه الأشياء ظاهر يدرك بالحس ، وبعضها باطن

يحتاج إلى الاستدلال عليه ؛ وهنا يبحث المصنف فى وجوه الاستدلال وطرقه ، ويعرف بالقياس ، والحد ، والوصف ، والرسم ، ويعقد فصلا للخبر وللحدس كطريقين للاستدلال ، ويجعل هذا الخبر نوعين هما خبر اليقين وخبر التصديق ، ويصنف الخبر الأول ثلاثة صنوف هى الأخبار المتواترة وأخبار الأنبياء والرسل وأخبار الخواص .

والبيان بالاعتقاد هو بيان ينشأ فى القلب من إعمال الفكر واللب ،وهو نتيجة لما يحدثه القياس والخبر فى النفس من : حق يصل إلى درجة العقيدة، أو علم تدعمه الحجة ، أو باطل يلزم تكذيبه .

والبيان بالعبارة هو منطق اللسان ، وهو بيان ينفرد به الانسان ؛ ليخبر به عما فى نفسه من الحكمة التى أفادها والمعرفة التى اكتسبها . ويتحقق هذا البيان بالشعر وبالنثر ، وكلاهما ألوان وفنون ؛ درسها المصنف ، وتكلم فى خصائصها ، وبلاغاتها ، ومواطنها ، وأمثل الأساليب والقوالب إلى تأليفها .

والبيان بالكتابة هو نقل المعارف إلى من غاب فى الزمان وفى المكان. وتناول المصنف فى هذا: الكتبة وأنواعهم ووجوه وما ينبغى أن يتوفر فيهم وفى صنعتهم ؛ من الحفاظ على اللغة ، وممارسة الأساليب ، ورصد أحكام الشريعة لمن يكتب فيها ، ورعاية مقتضيات الأحوال ، ومخاطبات الخواص والعوام والساسة والرعية .

وظهرت ثقافة المصنف متسعة متنوعة متعددة ؛ فهى ثقافة : لغوية ، ونحوية ، وبلاغية ، وإخبارية ، وفقهية ، وأصولية ، ومنطقية ، وفلسفية ، وأدبية ، ونقدية . . . الخ

واخترنا من أقسام البيان القسم الثالث — البيان بالعبارة — لنشرحه فى هذا الكتاب ، لأنه أمس الأقسام بطبيعة الدراسات الأدبية والنقدية التى نهضنا لها . ولأنه أحفل الأقسام بالشواهد الأدبية ، وخصه المصنف للحديث عن العبارة وتأليفها ، وتناول فيه : الاشتقاق ، والتشبيه ،واللحن، والرمز ، والوحى ، والاستعارة ، والأمثال، واللغز، والحذف ،والصرف، والمبالغة ، والقطع ، والعطف ، والتقديم ، والتأخير ، والاختراع . وتكلم فيه عن تأليف الشعر، وعرف بأصل الشعر ، وبلاغته ، وموقف الدين منه، وقيمة الشاعر الاجتماعية ، وأدواته وثقافته ، وفنون الشعر ، وتكلم عن المنثور وفنونه من خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وخصائص كل فن واستعمالاته ، وأدوات قائـــله وثقافته ، وما ينبغى له ، وما يستحسن منه وما يستهجن . والمصنف فى هذا كله يستشهد بالقرآن المجيد،وبحديث الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وبأمثال العرب وأشعارهم ومنثورهم ، ويدلى برأيه فى وجوه البيان مستقلا برأيه فى مواضع ومتابعا غيره فى مواضع .

والشىء الذى يذكر للمصنف أنه احتفل بفحوى الــكلام ومضمونه أكثر من احتفاله بظاهر لفظه ، وأنه اهتم بالداعى إلى الــكلام والغرض منه، وأنه تلمس الحالة النفسية الموحية بالعبارة .

ولم نشأ أن نقحم قلمنا على تحقيق السادة المحققين ؛ فقد بذلوا جهدا طيبا نذكره لهم بالخير، بيد أنه قد يعن لنــا أن ننتقى لفظة من هنا أو نختار لفظة من هناك ؛ لأنا نرى هذه أو تلك أنسب أو أوضح أو أيسر أو أكثر دلالة.

وشرحنا الشواهد ، وفسرنا كثيرا من آيات القرآن الــكريم ، وترجمنا للمنشئين ترجمات فيها تلخيص واف ، وعرفنا - جهد الطاقة - بــكثير من المصطلحات التى جاء بها المصنف ، ووازنا بين ما ارتضاه وما يقوله النقدة والبلاغيون ، وحاولنا أن نبدى وجهتنا فى أكثر موضع .

وإلى نجلى « عصام » أهدى هذا العمل ، الذى أرجو أن يرضيه ، كما أرجو أن يرضى عنه القارئ العربى الحصيف .

وفقنا الله - وإياه - وهدانا جميعاً السبيل السوى ؟

القاهرة { ٢٥ من ذى القعدة ١٣٩١ هـ
١١ من يناير ١٩٧٢ م

محمد السعدى فرهود

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم . إن أولى ما افتتح به اللبيب كتابه ، وابتدأ به الأديب خطابه ، ما افتتح الله به القرآن ، وجعله آخر دعوى أهل الإيمان ؛ فالحمد لله شكراً لنعمته ، واعترافا بمنته . وصلى الله على « محمد » وعترته ، والأخيار من ذريته(١) .

وأما بعد ؛ فإنك ذكرت لي وقوفك على كتاب « عمرو بن بحر الجاحظ »(٢)

---

(١) عترة الرجل : نسله ورهطه وعشيرته الأدنون ممن مضى وغبر . وذريته : ولده — عن القاموس المحيط .

(٢) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة ، ينتهي نسبه إلى كنانة بن خزيمة وهم بطن من مضر ، وينتسب بالولاء إلى الليث بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة . ولد في البصرة حوالى سنة ١٦٠ هـ ، ونشأ فيها في قمة ازدهارها وتموجها بالحياة العقلية والفكرية والأدبية . وتتلمذ لكثير من أعلام البصرة وعلمائها ، ومن أشهرهم : الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ) ، وسيبويه (١٨٠ هـ) ، وقطرب (٢٠٦ هـ) ، وأبو عبيدة معمر ابن المثنى (٢٠٨ هـ) والأخفش (٢١٥ هـ) ، والأصمعي (٢١٦ هـ) وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام (٢٢١ هـ) ، وابن الأعرابي (٢٣١ هـ) .

ألف الجاحظ أكثر من ثلثمائة كتاب في مختلف العلوم والفنون ؛ في اللغة، والأدب ، والبلاغة ، والنقد ، وفي الفقه ، وعلوم القرآن ، والكلام ، وفي الاجتماع ، والسياسة ، والاقتصاد ، والأخلاق ، والتاريخ ، وفي الحيوان ، =

الذى سماه « كتاب البيان والتبيين(١) » ، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارا منتخلة ، وخطبا منتخبة ، ولم يأت فيه بوصف البيان ، ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ، وكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذى نسب إليه ؛ وسألتنى أن أذكر لك جملا من أقسام البيان ، آتية على أكثر أصوله ،

= والنبات . واشتهر بخمسة كتب ، هى (البيان والتبيين) ، و (البخلاء) ، و (الحيوان) ، و (المحاسن والأضداد) ، ورسالة (التربيع والتدوير) .

وتتميز كتابته بعدة أمور ، منها : الاعتماد على العقل والبرهان واستخدام الجدل والشك أساساً المنطق ، وإيراد الكلام على طريقة المعتزلة ، ومزج الأدب بالفلسفة والفكاهة والسخرية والنادرة ، وخلط الجد بالهزل ، وإيثار اللهجة الخطابية ، والاستقصاء والاستقراء ومحاولة الإحاطة بالمعانى ، وإيثار العبارة الواضحة وإن جاء الاستطراد والجمل الاعتراضية عبئاً عليها .

وللجاحظ نظم قليل لايعطيه صفة الشاعرية ، لقلته ، وعدم اتساع معانيه . ولم ينقد له الشعر انقياد النثر ، إذ صار فى النثر إماما وعلما ، وفى الكتابة صاحب طريقة ، احتذاها ابن العميد (٣٦٠ هـ) والآمـــدى (٣٧١ هـ) والمرزبانى (٣٨٤ هـ) وأبو حيان التوحيدى (٤١٣ هـ) .

وفلج الجاحظ فى أخريات أيامه ، ولم يعقه الفالج عن الاستمرار فى الكتابة والتأليف ، حتى توفى فى سنة ٢٥٥ هـ .

(١) أهم ما فى هذا الكتاب فيما يتصل بالبيان : تعريف الجاحظ له بأنه اسم جامع لكل شىء يكشف لك قناع المعنى ويهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله . وإيضاح غايته فى الفهم والإفهام . وتقرير أن المعانى قائمة فى الصدور مضطربة فى النفوس متصورة فى الأذهان متصلة بالخواطر حادثة عن الفكر . وإنما تحيا تلك المعانى فى ذكرها والإخبار عنها . وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح =

محيطة بجماهير فصوله، يعرف بها المبتدئ معانيه، ويستغنى بها الناظر فيه، وأن أختصر لك ذلك لئلا يطول به الكتاب؛ فقد قيل: «إن الاطالة أكثر أسباب الملالة»؛ فتثاقلت عن إجابتك إلى ما سألت، لما قد حذرت منه ونهت عنه العلماء من التعرض لوضع الكتب؛ إذ كانت نتائج اللب، وكان المتجاسر على تأليفها إنما يبدى صفحة عقله، ويبين عن مقدار علمه وجهله. ثم رأيت حق الصديق عند العلماء فوق حق الشقيق؛ ووجدتهم يجعلون الاخوان من عدد الزمان. فقال على ـ عليه السلام ـ: «المرء كثير بأخيه(١)». وسئل بعضهم فقيل له: أيما أحب إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: إنما أحب أخى إذا كان صديقى. وقال قائلهم: «الاخاء الصادق أقرب من النسب الشابك(٢)»، وقال بعض الفلاسفة: «الأصدقاء نفس واحدة فى أجساد متفرقة». وقال على ـ رضوان الله عليه ـ: «ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن: لا يعرف الشجاع إلا عند الحرب،

= والإشارة أبين وأنور كان البيان أنفع وأنجع. وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه. وإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة. ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة.

(١) وردت العبارة فى طبعة سنة ١٩٣٩ (المرء كثير باخوانه) وهى العبارة الشائعة على الألسنة.

(٢) الشابك: المتداخل المختلط. والنسب شابك على سبيل المجاز، ومنه الشبكة (بالضم) وهى القرابة، واشتباك الأرحام — عن أساس البلاغة.

ولا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا يعرف الصديق إلا عند الحاجة » .
فلما تذكرت ذلك وتدبرته تحملت لك تأليف ما أحببته ورسمته ، على علم منى بأن كتابى لا بد أن يقع فى يد أحد رجلين : إما عاقل ؛ يعلم أن الصواب قصدى والحق إرادتى ، وأن نية الرجل أولى به من عمله ، فيتغمد سهواً إن وقع منى[١] ، ويغتفر زللا إن صدر عنى ، ويعود بفضل حلمه على زللى ، ويصلح بعلمه خطئى ، فقد وجب ذلك عليه لى ، لاعترافى قبل اقترافى ، وإقرارى بالتقصير الذى ركب فى جبلة مثلى[٢] . وإما جاهل ؛ أحب الأشياء إليه عيب ذوى الأدب ، والتسرع إلى تهجينهم ، وذكر مساويهم ، وذلك لمنافرته إياهم وبعد شكله من أشكالهم ؛ ومن أراد عيباً وجده ، ومن فحص عن عثرة لم يعدمها ، وكان يقال : « من حسد إنساناً اغتابه ، ومن قصر عن شىء عابه » ، ولذلك قيل : « من جهل شيئاً عاداه » . وقال على — رضوان الله عليه — : عداوة الجاهل للعلم على قدر قلة انتفاعه به » .
وقال الشاعر :

وأسرع ما علمت بظهر غيب ... على عيب الرجال ذوو العيوب

ويروى :

وأسرع ما علمت بظهر غيب ... إلى ذكر العيوب ذوو العيوب[٣]

---

(١) يتغمد سهوا : يستره — على سبيل المجاز — ومنه :
تغمد الله صاحبنا برحمته أى غمره بها وستره ، وأصله من غمد السيف أى جعله فى الغمد .

(٢) الجبلة (مثلثة ومحركة وبكسرتين مع تشديد اللام) : الطبيعة والخلقة .

(٣) ويروى هذا البيت فى البرهان : (وأطوع ما علمت . . .) ورواية الكامل للمبرد (٢/١٥١) والوساطة للقاضى الجرجانى (ص ٢٤٦) : =

فمن كانت هـــذه حاله ، كان اللبيب حقيقاً بترك الحفل به ، وقلة الاكتراث له(١) .

وقد ذكرت فى كتابى هذا جملا من أقسام البيان، وفقراً من آداب حكماء أهل هذا اللسان ، لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكنى شرحت فى بعض قولى ما أجملوه ، واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه ، وجمعت فى مواضع منه ما فرقوه ؛ ليخف بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والايضاح فهمه ، « وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب(٢) » .

* * *

= وأجرأ من رأيت بظهر غيب على عيب الرجال ذوو العيوب

وجعله الجرجانى كقول مروان بن أبى حفصة :

ماضرنى حسد اللئام ، ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وقد زاد فيه المتنبي فأحسن فى قوله :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

(١) الحفل بالشىء والاحتفال به : الاجـــتهاد فيه والاحتشاد له . والاكتراث بالشيء : المبالاة به ، وأكثر ما يستعمل الاكتراث منفيا فتقول : ما أكترث لفلان أى ما أبالى به ، وأنت لا تكترث له أى لا تتحرك له ولا تعبأ به .

(٢) سورة هود — الآية ٨٨ . وقد وردت على لسان « شعيب » وهو يجادل قومه ، والمعنى كما قال صاحب الكشاف : وما كونى موفقا لإصابة الحق فيما آتى وأذر ووقوعه موافقا لرضا الله إلا بمعونته وتأييده ، فهو قد استوفق ربه فى إمضاء الأمر على سننه ، وطلب منه التأييد والإظهار على =

وأما بعد ؛ فإن الله خلق الانسان ، وفضله على سائر الحيوان(١) ، ونطق بذلك القرآن ؛ فقال ـ عز وجل ـ : (ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)(٢). وإنما فضله على سائر أهل جنسه بالعقل الذى به فرق بين الخير والشر ، والنفع والضر ، وأدرك به ما غاب عنه وبعد منه ، والدليل على أن الله ـ عز وجل ـ إنما فضل الانسان بالعقل دون غيره ، أنه لم يخاطب إلا من صح عقله واعتدل تمييزه ، ولا جعل الثواب والعقاب إلا لهم ، ووضع التكاليف عن غيرهم ؛ من الأطفال الذين لم يكمل تمييزهم ، والمجانين الذين فقدوا عقولهم . فالعقل حجة الله على خلقه ، والدليل لهم إلى معرفته ، والسبيل إلى نيل رحمته . وقد أتت الرواية : « إن الله ـ عز وجل ـ لما خلق الخلق ثم العقل بعدهم ، استنطقه ثم قال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال له : أدبر ، فأدبر ؛ فقال : وعزتى

= عدوه ، وفى ضمنه تهديد للكفار وحسم لأطماعهم فيه ـــ اهـ . وفى الآية ثلاث عبارات تفيد الاختصاص والقصر : اختصاص التوفيق بالله ، وقصر التوكل عليه ، والإنابة إليه .

(١) سائر الحيوان : باقيه ـ اسم فاعل من سأر وسئر بمعنى بقى . وبعض الناس يستعمل السائر بمعنى الكل ، ونقل صاحب المصباح المنير عن الصغانى أن هذا من لحن العوام .

(٢) سورة الإسراء ـ الآية ٧٠ . ومذهب أهل السنة أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فضل بنى آدم على سائر خلقه ومنهم الملائكة ، وحملوا كلمة « كثير » فى الآية على معنى جميع ، استئناسا بحمل القليل على العدم كما قال الشاعر * قليل بها الأصوات إلا بغامها * أى لا أصوات لها ، وربما نظروا إلى أن الخلق قسمان : أحدهما بنو آدم ، والآخر غيرهم من الخلق وهذا القسم أكثر عدداً . ويرى الزمخشرى أن كلمة « كثير » على أصلها الدال على الكثرة لا على الكل ، وعنده أن تفضيل بنى آدم على غيرهم ليس على إطلاقه فهو لا يشمل الملائكة الذين هم فى رأيه أفضل من البشر .

وجلالى ماخلقت خلقاً أحب إلى منك ، ولا أكملتك إلا فيمن أحب ، أما إنى إياك آمر وأنهى ، وإياك أعاقب وأثيب ، وبك آخذ وبك أعطى » .
وروى عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ أنه قال لهشام :(١) « يا هشام ؛ إن لله حجتين : حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل ، وأما الباطنة فالعقل » . وعنه ـ عليه السلام ـ أنه قال : « حجة الله على العباد النبى .والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل » . ولولا العقل الذى بان به ذوو التمييز من ذوى الجهل ، لما كان بين الانسان وبين سائر الحيوان فرق فى تولد ولا نمو ، ولا حركة ولا هدو ، ولا أكل ولا شرب ، لأن سائر البهائم شركاؤه فى ذلك . فبالعقل إذن تنال الفضيلة ، وهو عند الله أقرب وسيلة .

وجوه البيان

البيان على أربعة أوجه ؛ فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها ، ومنه البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكرة واللب(٢) ، ومنه البيان الذى هو نطق باللسان ، ومنه البيان بالكتاب الذى يبلغ من بعد أو غاب .

فالأشياء تبين للناظر المتوسم والعاقل المتبين ؛ بذواتها ، وبعجيب تركيب الله فيها ، وآثار صنعته فى ظاهرها ؛ كما قال ـ عز وجل ـ : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) (٣) ، وقال : (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم

---

(١) أبو عبد الله هو جعفر الصادق ، وهو الإمام السادس من أئمة الشيعة الإمامية ـ توفى سنة ١٤٨ هـ . وهشام هو هشام بن سالم أحد صحابة الإمام جعفر (راجع كتاب « فرق الشيعة » للنوبختى) .

(٢) الفكرة والفكر : التأمل وإعمال النظر . واللب : العقل .

(٣) سورة الحجر ـ الآية ٧٥ . وجاءت فى معرض الحديث عما أصاب =

يعقلون)(١) . ولذلك قال بعضهم : قل للأرض: من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن هى أجابتك حواراً وإلا أجابتك اعتباراً(٢)، فهى وإن كانت صامتة فى أنفسها فهى ناطقة بظاهر أحوالها ، وعلى هذا النحو استنطقت العرب الربع وخاطبت الطلل ؛ ونطقت عنه بالجواب ، على سبيل الاستعارات فى الخطاب . وقد قال الله - عز وجل - فى هذا المعنى : (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم)(٣) . وقال الشاعر :

يا ربع بسرة بالجناب تكلم ... وأبن لنا خبراً ولا تستعجم
مالى رأيتك بعد أهلك موحشاً ... خلقاً كحوض الباقر المتهدم(٤)

= قوم «لوط» من الخسف ،عندما باتوا فى سكرتهم يعمهون وفى غوايتهم يتحيرون ، وانقضوا عليه فأخذهم الله بالصيحة مشرقين،وأمطرهم حجارة من سجيل ، وفى ذلك آيات للمتوسمين ، والمتوسمون أهل التوسم ، وأصله النظر المتثبت الذى يتعرف سمة الشىء وحقيقته .

(١) سورة العنكبوت ـ الآية ٣٥ . وجاءت فى قوم « لوط » أيضا ، ترك الله من قريتهم ـ بعد أن أصابها بالرجز والعذاب ـ آية بينة للعقلاء المعتبرين ، وهذه الآية هى آثار منازلهم الخربة أو الخبر عما أصيبوا به .

(٢) الحوار : المحاورة . والمراد : فإن لم تجبك بلسان المقال أجابتك بلسان الحال ـ عن طه حسين والعبادى . هامش ص ١٠ . طبعة ١٩٣٩ م.

(٣) سورة غافر ـ الآية ٢١ . وفيها دعوة لذوى الألباب أن يشهدوا مصارع الكافرين والمعاندين ،ويروا آثارهم رأى العين،والهدف منها الاعتبار بما حدث لهؤلاء وتقدير عواقب الأمور . وتكررت هذه الدعوة فى القرآن الكريم فى سبعة مواضع بصيغة الاستفهام ، وفى ستة مواضع بصيغة الأمر .

(٤) البيتان للحارث بن خالد المخزومى ، وبعدها على رواية الأغانى :

تسبي الضجيع إذا النجوم تغورت ... طوع الضجيع أنيقة المتوسَّم =

فاستنطق مالا ينطق بلسانه ؛ لأن أحواله مظهرة لبيانه . وقال آخر ، وأجاب عن صامت غير مجيب ، لما ظهر من حاله للقلوب :

فأجهشت للتوباد حين رأيته ... وكبر للرحمن حين رآنى
فقلت له : أين الذين عهدتهم ... حواليك فى عيش وخير زمان
فقال مضوا واستودعونى ديارهم ... ومن ذا الذى يبقى على الحدثان (١)

= قب البطون ، أوانس ، مثل الدمى ... يخلطن ذلك بعفـــة وتكرم

وهذا الشعر أنشده الحارث فى « عائشة بنت طلحة » تصريحا وتعريضاً بجاريتها « بسرة » ، وفيه كما ترى يخاطب ربعها بالجناب ، وهو موضع كانت نزلت به فى مكة عند الحج ، وقوله (لا تستعجم) نهى عن الاستعجام وهو السكوت والإمساك عن الجواب . وخلقا : باليا . والباقر : جماعة البقر مع رعاتها . والمتوسم : المشهد ، وامرأة ذات ميسم عليها أثر الجمال . وقب :(بالضم) جمع قباء وهى الدقيقة الخصر الضامرة البطن . والدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقوشة (التمثال) .

والحارث بن خالد أحد شعراء قريش المعدودين ، وكان يذهب مذهب عمر بن أبى ربيعة فى الغزل لا يجاوزه إلى مديح ولا هجاء . ووقع الخلاف بين النقاد فى المفاضلة بينهما (راجع كتابنا ـ اتجاهات النقد الأدبى العربى ـ ص١٤٨) ومما يذكر أن كثير عزة كان ينشد شعر الحارث ويفضله على نفسه ، وأن أبا عمرو بن العلاء كان يسأله عما استغلق عليه . عايش الحارث الأمويين فوصلوه وولوه مكة . (ترجمته وأخباره فى الأغانى ٣/٣١١ و ٩/٢٢٧) .

(١) الأبيات لمجنون ليلى . وأجهشت للتوباد : فزعت إليه مريدا البكاء والتوباد والتوباذ (بالدال وبالذال) : جبل فى نجد . والحدثان : الأحداث والحوادث . والاستفهام إنكارى .

ومجنون ليلى هو قيس بن الملوح ـ على الأشهر ـ ولقب بالمجنون لما أصابه =

وإنما تعبر هذه الأشياء لمن اعتبر بها ، وتبين لمن طلب البيان منها ؛ ولذلك جعل الله الآية لمن توسم وتفكر ، وعقل وتذكر ، فقال : (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) ، و (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ، و (إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون)(١) . فهذا وجه بيان الأشياء بذواتها لمن اعتبر بها وطلب البيان منها .

فإذا حصل هذا البيان للمتفكر صار عالماً بمعانى الأشياء ، وكان مايعتقد من ذلك بياناً ثانياً غير ذلك البيان ، وخص باسم « الاعتقاد » . ولما كان ما يعتقده الانسان من هذا البيان يحصل فى نفسه غير متعد له إلى غيره ، وكان الله - عز وجل - قد أراد أن يتم فضيلة الانسان ، خلق له اللسان ، وأنطقه بالبيان ، فخبر به عما فى نفسه من الحكمة التى أفادها والمعرفة التى اكتسبها ، فصار ذلك بياناً ثالثاً أوضح مما تقدم وأعم نفعاً ؛ لأن الانسان يشترك فيه مع غيره ، والذى قبله إنما ينفرد به وحده . إلا أن البيانين الأولين بالطبع فلا يتغيران ، وهذا البيان والآتى بعده بالوضع فهما يتغيران بتغير اللغات ، ويتباينان بتباين الاصطلاحات ؛ ألا ترى أن الشمس واحدة فى ذاتها ، وكذلك هى فى اعتقاد العربى والعجمى ، فإذا صرت إلى اسمها وجدته فى كل لسان من الألسن بخلاف ما هو فى غيره(٢) ؛ وكذلك الكتاب (٣) ، فإن

= من لوثة العشق . وشعره رقيق ، ونحله الرواة شعرا كثيرا يشبه شعره (ترجمته وأشعاره فى الشعر والشعراء ٢ / ٥٦٣ ، والأغانى ٢ / ١ ، وديوان المجنون) .

(١) الآية الأولى رقم ٧٥ من سورة الحجر ، والثانية رقم ٣ من سورة الرعد ورقم ٢١ من سورة الروم ورقم ٤٢ من سورة الزمر ، والثالثة رقم ١٣ من سورة النحل .

(٢) وما ينطبق على الشمس ينطبق على غيرها من الذوات والصفات والأفعال .

(٣) أى الكتابة .

الصور والحروف تتغير فيه بتغير لغات أصحابه وإن كانت الأشياء غير متغيرة بتغير الألسن المترجمة عنها .

ولشرف البيان وفضيلة اللسان قال أمير المؤمنين(١) ـ عليه السلام ـ : « المرء مخبوء تحت لسانه فإذا تكلم ظهر » . وهذا من أشرف الكلام وأحسنه وأكثره معنى وأخصره، لأنك لا تعرف الرجل حق معرفته إلا إذا خاطبته وسمعت منطقه. ولذلك قال بعضهم وقد سئل « فى كم تعرف الرجل ؟ » قال : « إن سكت ففى يوم ، وإن نطق ففى ساعة » وقال بعض الحكماء : « إن الله ـ عز وجل ـ أعلى درجة اللسان على سائر الجوارح ، وأنطقه بتوحيده » . وقال الشاعر :

وهذا اللسان بريد الفؤا د يدل الرجال على عقله (٢)

وقال الآخر :

وكائن ترى من معجب لك صامت زيادته أو نقصه فى التكلم(٣)

---

(١) يقصد على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ والمتشيعون يطلقون عليه هذا اللقب ، وإن كان المعروف أن أول من تسمى بأمير المؤمنين هو عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ (راجع كتابنا « الهدية السعدية شرح الأربعين النووية » ١/٣) .

(٢) البيت منسوب لابن المبارك فى كتاب (المستطرف من كل فن مستظرف) ص ٤١ .

(٣) معنى البيت : كم صامت يعجبك صمته فتستحسنه وإنما تظهر زيادته على غيره أو نقصانه عن غيره عندما يتكلم فالكلام هو المحك الذى تختبر به قيمة الإنسان . وكائن فى البيت لغة فى (كأيِّن) وتستعمل استعمال كم الخبرية ، وتوافقها فى خمسة امور : الإبهام ، والافتقار إلى التمييز ، والبناء =

. . . .

═ ولزوم التصدير ، وإفادة التكثير . وتخالفها في أربعة أمور : أنها مركبة من الكاف وأي المنونة ، وأن تمييزها مجرور بمن غالبا (ويأتي منصوبا كقوله : وكائن لنا فضلا عليكم ومنة .·. قديما ولا تدرون ما من منعم)، وأنها لا تقع مجرورة ، وأن مميزها لا يقع إلا مفردا (عن شرح الأشموني) .

وبعد هذا البيت :

لسان الفتى نصف ونصف فــؤاده
فلم يبق إلا صــورة اللحم والدم

ونسب البيتان إلى الاعور الشني (أدب الدنيا والدين - فصل الكلام والصمت) ، ونسبا إلى أبي الأعور السلمي (سر الفصاحة ٦٤) والأظهر أنهما لزهير بن أبي سلمى من معلقته التي مطلعها :

أمن أم أوفى دمنـــة لم تكلم بحـــومانة الدراج فالمتثلم

وهذه القصيدة أنشأها زهير في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف ؛ إعجابا بهما وتقديراً لدورهما في الإصلاح بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء . وقد أودعها زهير عدداً من الأمثال والحكمة وتجاريب الحياة.

واشتهر زهير بتنقيح شعره ، وبالصدق الأخلاقي في مديحه فكان لا يمدح أحداً إلا بما يراه فيه ، فإن أراد المبالغة خفف وقعها على النفس بمثل قوله :

ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وقوله :

لو نال حي من الدنيا بمكرمة افق السماء لنالت كفه الأفقا

وآثر زهير العبارة السهلة البعيدة عن المعاظلة والتعقيد ، ومثلت عبارته ما يسمونه في علم المعاني (المساواة) مع ميل إلى الإيجاز ونبذ لفضول الكلام ، وشاعت في شعره الأمثال والحكم البالغة ، التي استنبطها من تجاريب الحياة ، فصار بهـــا رائداً لشعراء الحكمة أمثال صالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية ═

واللسان هو ترجمان اللب ، وبريد القلب ، والمبين عن الاعتقاد ، بالصحة أو الفساد ، وفيه الجمال ؛ كما قال الله ـ عز وجل ـ : (ولتعرفنهم في لحن القول(١)) ، وكما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد سأله العباس ـ رضى الله عنه ـ بعرفة : فيم الجمال يا رسول الله ؟ فقال : « في اللسان » . إلا أنه لما كان النقص للناس شاملا ، والجهل في أكثرهم فاشياً ، وكان كثير منهم يسرع إلى القول في غير موضعه ، ويعجب بما ليس بمعجب من منطقه ؛ احتاطت العلماء على الدهماء بأن أمروهم بالصمت ، ومدحوه عندهم ، وأعلموهم أن الخطأ في السكوت أيسر من الخطأ في القول ، وقالوا كلهم : عثرة اللسان لا تستقال(٢) ، وقال الشاعر :

= وأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء المعري في العصر العباسي . (ترجمته وأخباره وأشعاره في الشعر والشعراء ١/١٣٧ ، والأغاني ١٠/٢٨٨ ، والموشح للمرزباني ص ٥٦ ، ولدى شارحي ديوانه أبي العباس ثعلب المتوفى سنة ٢٩٦ هـ والأعلم الشمنتري المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، والمعلقات) .

(١) سورة محمد — الآية ٣٠ . وهي في المنافقين وفيها يؤكد الله ـ سبحانه ـ لرسوله أنه لن يخفى عليه بعد الآن لحنهم ، وكانوا يلحنون بالقول نفاقاً ، أي يميلون به إلى نحو من الأنحاء أو أسلوب من الأساليب كالتعريض والتورية بحيث يفهمه نظراؤهم في النفاق ويخفى على من عداهم . وقيل المخطئ لاحن ، لأنه يعدل بالكلام عن الصواب ـ عن الكشاف .

(٢) العثرة : الكبوة ، وتضاف إلى اللسان والكلام والزمان مجازا ، وتطلق على الكذب ومعنى أنها لا تستقال : أنها لا ترجى الإقالة منها ولا تطلب الإقالة منها لأنها وقعت . وفي هذا أيضاً مجاز منقول من الاستقالة في البيع أي طلب فسخه . ومنه أقال الله عثرة فلان ؛ دعاء أن يرفعه من سقوطه .

« وجرح اللسان كجرح اليد »(١)

---

(١) هذا عجز بيت لامرئ القيس (الصناعتين ٢٩٣) ، وصدره :

* ولو عن نثا غيره جاءنى *

والنثا: ما يذيعه المرء عن غيره من خير أو شر .

وامرؤ القيس هو شاعر اليمانية فى الجاهلية . درج مترفاً منعما عابثا لاهياً متبطلا معتمداً على سلطان أبيه كملك على بنى أسد ، وقد أقصاه أبوه عنه لما رأى من مسلكه العابث ، فانصرف إلى العربدة والشراب والصيد والنساء ، وما زال فى غوايته حتى جاءه الناعى بمقتل أبيه ، وهنا استيقظ ، وشمر للثأر من قتلة أبيه حتى أفنى منهم خلقا كثيراً، ثم اجتمع عليه بعض العرب من أحلاف المناذرة ملوك الحيرة ونصرائهم من الفرس ، فرحل هو إلى الشام يستنصر الرومان عليهم ، ولكن الرومان حجبوا عنه نصرهم، فغادرهم معتلا، ولم يلبث أن مات من علته .

وشعر امرئ القيس أنموذج للشعر الجاهلى فى جريان المعانى والأخيلة على ما تقضى به الفطرة لا المنطق ، وفى انتزاع هذه المعانى والأخيلة من البيئة، واستيحائها عند التصوير والتشبيه ، وفى غلبة الألفاظ القوية الجزلة (وإن كانت سهلة ميسورة على ألسنتهم وأسماعهم) ، وفى إيثار الإيجاز . وقد أجاد امرؤ القيس فى الوقوف على الديار والآثار ، وبكاء الأطلال ، واستيقاف الصحاب ، وفى وصف الخيل والوحش ودبيب العشاق بأوصاف يعتبر فيها سابقاً ، كما شاع فى شعره التشبيب والتصريح بعلاقته بالنساء إلى حد الإفحاش . وله عدة مطولات أشهرها معلقته التى مطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(ترجمته وأشعاره فى الشعر والشعراء ١/١٠٥ والأغانى ٩/٧٧ ، والموشح ٢٦ ، وديوانه بشرح الوزير أبى بكر بن عاصم ، والمعلقات)

وقال آخر :

يموت الفتى من عثرة بلسانه   وليس يموت المرء من عثرة الرجل(١)

(١) ينسب البيت إلى ابن المعتز ، وفى كتاب (نقد النثر) أشار المحققان إلى أن بهامش الأصل إزاء هذا البيت : تمامه :

فعثرته من فيه ترمى برأسه   وعثرته بالرجل تبرى على مهل

وابن المعتز هو الشاعر العباسى المشهور ، ربى فى بيت الخلافة العباسية ، وتأدب بآداب الخلفاء ، وتلقى العلم عن أعلام زمانه وفى مقدمتهم أبو العباس المبرد نحوى البصرة (٢٨٥ هـ) وأبو العباس ثعلب نحوى الكوفة (٢٩١ هـ) وأحمد ابن سعيد الدمشقى المتأدب الفيلسوف . وعاش ابن المعتز معيشة أمثاله فى الترف والنعيم والسلطان ، وقد نادى به أنصاره خليفة بعد أن خلعوا المقتدر ، ولكنهم لم يحموه من غلمان المقتدر وبطشهم أكثر من يوم وليلة ، فقتله هؤلاء خنقاً بعد أن ظفروا به مستخفيا سنة ٢٩٦ هـ عن ثمان وأربعين سنة .

وشعر ابن المعتز انعكاس صادق لمعيشة الترف والنعيم والسلطان التى كان يحياها ، ومعظم شعره تنفيس عن مشاعره وانفعالاته الخصبة فى وصف الطبيعة والحضارة ومجالس الأنس ورحلات الصيد والطرد والغزل ، وبعض منه فى الفخر والسياسة والإخوانيات ومدح آل بيته .

ويمتاز شعره برقة التصوير ودقته ، وباتساع المعانى وجدتها . وامتلأ شعره بالتشبيه والاستعارة وألوان البديع ، سواء فى ذلك ما ابتكره وما قلد فيه غيره ، وإن كان يتكىء فى خياله على المرائى الحسية ، وعلى صناعة الصور أكثر من تصويره لخلجات نفسه .

ألف ابن المعتز عدة كتب ، أشهرها كتابه (البديع) ، جمع فيه ألوان البديع وسماها وعرف بها ، وأتى لها بالشواهد من القرآن الكريم وحديث الرسول و كلام الصحابة والأعراب وأشعار الأسلاف المتقدمين ، وهدفه منه أن يدلل على أن البديع قديم فى الأدب العربى وليس بدعا فى عصر بشار ومسلم وأبى نواس ومن تقيلهم كأبى تمام ، وإن كثر فى أشعارهم =

وعرفوهم أن الفائدة فى الصمت لصاحبه ، والفائدة فى النطق لغيره ، وقال بعضهم - وقد سئل عن لزومه الصمت -(١) : « أسكت لأسلم وأنصت لأعلم » .

وقيل : «الصمت حكم وقليل فاعله(٢)» . وقال أمير المؤمنين - عليه السلام - : « من كثر كلامه كثر سقطه(٣) » ، قال : وقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم(٤) » .

= فعرف فى زمانهم . واعتبر أصول البديع خمسة : الاستعارة ، والتجنيس والمطابقة ، ورد الأعجاز على الصدور ، والمذهب الكلامى . وعد ما سواها محاسن (كتابنا : اتجاهات النقد الأدبى العربى - ص ٢٨٣) .

(وترجمته وأشعاره وأخباره فى ديوانه ، والعمدة ١/٨٢ ، والأغانى ١٠/٢٧٤) .

(١) فى هذا الموضع وردت كلمة (فقال) فى نسختى نقد النثر والبرهان ، ونراها مزيدة دون داع ، ولهذا حذفناها .

(٢) الصمت حكم : أى الصمت حكمة ، وقد سمعت كلتا العبارتين . ويمكن أن يقال : الصمت حكم أى فقه وعلم ، من قوله تعالى فى صفة يحيى النبى : « وآتيناه الحكم صبيا » (مريم ١٢) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - الحكم : الفهم للتوراة والفقه للدين .

(٣) السقط : الخطأ - وزنا ومعنى .

(٤) هل : استفهام أريد به النفى والإنكار ، فصيغة الحديث هى صيغة القصر . ويكب الناس على مناخرهم : أى يصرعهم ويقلبهم . وحصائد ألسنتهم : أى كلامهم الذى لا خير فيه ، والحصائد فى الأصل جمع حصيد وحصيدة وهو الزرع المحصود .

وقال بعض الفلاسفة لرجل سمعه يكثر الكلام : « يا هذا ؛ أنصف أذنيك من لسانك ؛ فإنما جعل لك أذنان ولسان واحد ؛ لتسمع أكثر مما تقول ».
وقال الشاعر :

وفى الصمت ستر للغبي وإنما   فضيحة لب المرء أن يتكلما(١)

وكل هذا إنما أرادوا به حجر الناس عن الكلام فيما لا يعلمون والتسرع إلى إطلاق ما لا يحصلون ، وكما أن الصمت فى أوقاته وعند الاستغناء عنه حسن ، فإن الكلام فى أوقاته وعند الحاجة إليه أحسن . وقد روى عن على بن الحسين ـ رضى الله عنه ـ قول انتظم معنى ما أرادته العلماء فى النطق بأخصر قول وأشبهه بكلام أمثاله ؛ فقال : « السكوت عما لا يعنيك أمثل من الكلام فيه ، والكلام فيما يعنيك خير من السكوت عنه » . وحسب الأديب أن يستشعر هذا القول فإنه يهجم به على محاسن الأمرين إن شاء الله .
وقد يصمت الانسان ويستعمل الكتمان ؛ لمخافة ، أو رقبة(٢) ، أو إسرار عداوة أو بغضة ، ، فيظهر فى حركاته ولحظاته ما يبين عن ضميره ويبدى مكنونه ، مثل ما يظهر من الدمع عند فقد الأحبة ، ومن تغير النظر عند معاينة أهل العداوة ؛ ولذلك قال الشاعر :

---

(١) ورد هذا البيت برواية أخرى بعد بيت آخر منسوبين إلى الحطيئة جد جرير الشاعر ، وهما :

عجبت لازراء العيى بنفسه   وصمت الذى قد كان بالقول أعلما
وفى الصمت ستر للعيى . وإنما   صحيفة لب المرء أن يتكلما

(أدب الدنيا والدين — فصل الكلام والصمت) . والعيى : العاجز والذى لا يبين ، والذى لا يهتدى لوجه الصواب .

(٢) المخافة : الخوف . والرقبة (بالكسر أو الفتح) : الانتظار والتوقع ، (وبالفتح) : التحفظ والفزع .

إذا لقيناهم نمت عيونهم والعين تظهر ما فى القلب أو تصف

وهذا من بيان الأشياء بذواتها ، وهو من الباب الأول .

ثم إن الله ـ عز وجل ـ لما علم أن بيان اللسان مقصور على الشاهد دون الغائب ، وعلى الحاضر دون الغابر ، وأراد ـ تعالى ـ أن يعم النفع فى البيان جميع أصناف العباد ، وسائر آفاق البلاد ، وأن يساوى فيه بين الماضين من خلقه والآتين ، والأولين والآخرين ؛ ألهم عباده تصوير كلامهم بحروف اصطلحوا عليها ، فخلدوا بذلك علومهم لمن بعدهم ، وعبروا به عن ألفاظهم ، ونالوا به ما بعد عنهم ، وكملت بذلك نعمة الله عليهم ، وبلغوا به الغاية التى قصدها ـ عز وجل ـ فى إفهامهم وإيجاب الحجة عليهم . ولولا الكتاب الذى قيد على الناس أخبار الماضين لم تجب حجة الأنبياء على من أتى بعدهم ولا كان النقل يصح عنهم . ولذلك صارت الأمم التى ليس لها كتاب قليلة العلوم والآداب . وقد امتدح الله ـ عز وجل ـ تعليم الكتاب فى كتابه ، وبين احتجاجه على الناس ، فقال : (اقرأ وربك الأكرم ∗ الذى علم بالقلم ∗ علم الإنسان ما لم يعلم(١)) ، وقال ـ عز وجل ـ : (أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى(٢)) ، وقال : (ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم

---

(١) سورة العلق ــ الآيات ٣ و ٤ و ٥ . وفى تفسير الكشاف : ربك الأكرم الذى له الكمال فى زيادة كرمه على كل كرم وليس لكرمه غاية ولا أمد ، ودل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولاها ما استقامت أمور الدين والدنيا . ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به .

(٢) سورة طه ــ الآية ١٣٣ ، وقالوا : لولا يأتينا بآية من ربه . أو لم =

إن كنتم صادقين(١)) .

وكل هذه الأقسام التى ذكرناها من البيان لا تخلو من أن تكون ظاهرة جلية أو باطنة خفية ، وذلك لما دبره الله - عز وجل - فى هذا من الحكمة والدلالة عليه ؛ لأنه جعل بعض خلائقه محتاجا إلى البعض(٢) ؛ فالظاهر محتاج إلى الباطن لأنه معنى له ، والباطن محتاج إلى الظاهر لأنه دليل عليه . وكذلك سائر مصنوعات الله - عز وجل - محتاج بعضها إلى بعض ؛ ليعلم الإنسان أنه ليس يستغنى شىء بنفسه ويقوم بذاته غير الله — تعالى — وكل ما سواه فانما هو بغيره . ولو جعل الله — تبارك وتعالى — الأشياء كلها ظاهرة لتساوى الناس فى العلم ولم يتفاضلوا فيه . وفى تساوى الناس — حتى لا يكون فيهم رؤساء متبعون وأتباع مطيعون - بوارهم . وقد قيل : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا ، فاذا تساووا هلكوا ، وعلى ما قلناه دبرهم(٣)

= تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى » . فى الكشاف : « اقترحوا - على عادتهم فى التعنت — آية على النبوة ، فقيل لهم : أو لم تأتكم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز — يعنى القرآن — من قبل أن القرآن برهان ما فى سائر الكتب المنزلة ودليل صحته ، لأنه معجزة ، وتلك ليست بمعجزات ، فهى مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المحتج عليه إلى شهادة الحجة » .

(١) سورة الأحقاف — الآية ٤ . وفيها رد على المشركين ، يطلب إليهم الإتيان بما يشهد بصحة ما هم عليه من الكفر ، من كتاب أنزل من قبل القرآن ، أو أثارة - أى بقية - من علم بقيت لهم من علوم الأولين إن كانوا صادقين فى دعواهم .

(٢) الفصيح إخلاء بعض من (ال) ، وإن وردت مقترنة بها فى كلام كثير من النحاة .

(٣) أى الله سبحانه وتعالى .

وقال فى كتابه: ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ... ﴾ إلى آخر الآيات(١) ؛ فجعل علم آدم بما أظهره له وأخفاه عن ملائكته دليلا على فضله ورياسته وأنه المستحق من بينهم ما أفضى به إليه من خلافته(٢) ؛ لأن من حكمه ألا يسوى بين العالم وغيره ، ولو سوى بين الملائكة وبينه(٣) فى علم ما علمه إياه لم يكن هناك تفاضل يوجب له المنزلة التى جعلها له . ولو جعل – تقدست أسماؤه – الأشياء كلها خفية لم يكن إلى علم شىء سبيل ولتساوى الناس فى الجهل ؛ لكنه بحكمته ومتقن صنعته جعل بعضها ظاهرا مستغنيا بظهوره عن طلبه ، وبعضها باطنا يحتاج إلى إظهاره والفحص عنه ، وجعل الظاهر دليلا على الباطن وسلما إليه ، ولم يقنع من عباده بعلم الظاهر من الأشياء حتى يعرفوا معانيه وباطن تأويله ، وذم من اقتصر على علم ظواهر الأمور دون بواطنها ونفى العلم عنهم ؛ فقال : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم

---

(١) الآيات : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال: أنبئونى بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين * قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ؛ إنك أنت العليم الحكيم * قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم : فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » : (سورة البقرة – الآيات ٣١و٣٢و٣٣) .

(٢) أى نيابته عن الله – سبحانه وتعالى – فى الأرض ، وهى الخلافة التى أشارت إليها الآية الكريمة : « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة » (البقرة : ٣٠)

(٣) الضمير لآدم أى ولو سوى الله بين الملائكة وآدم فى علم ما علمه الله إياه .

غافلون ﴾(١)،وشبه من حمل التوراة حمل حفظ لظاهرها من غير تدبر لمعانيها بالحمار ، فقال : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾(٢) ، وقال فى ذم قوم: ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾(٣) ، وقال : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل

---

(١) سورة الروم ـ الآيتان ٦ ، ٧ . وجملة « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » بدل من « لا يعلمون » ، فلا فرق بين نعتهم أولا بالجهل وعدم العلم وبين نعتهم بالعلم المتجه إلى ظاهر الحياة الدنيا . وهذا يفيد ـ على ما شرحته التفاسير ـ أن للدنيا ظاهراً وباطنا ، فظاهرها ما يعرفونه من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها فى غفلة عن الآخرة ومتطلباتها ، وباطنها أنها مجاز إلى الآخرة بممارسة الطاعات والأعمال الصالحات .

(٢) سورة الجمعة ـ الآية ٥ . وفيها شبهت حال اليهود وقد حملوا التوراة وعلموها وأمروا بحفظها فجهلوا أو تجاهلوا أمرها بحال الحمار يحمل الأسفار التى هى أوعية العلم ومستودع الفكر ثم لا يحس ما فيها ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال فلا حظ له منها إلا الكد والتعب ، فكل من المشبه والمشبه به محروم من الانتفاع بأبلغ نافع وشقى باستصحاب ما يفيده من غير أن يستفيد منه . (راجع أسرار البلاغة ص ٨٠) .

(٣) سورة يونس — الآية ٣٩ . وهى تذم الكافرين الذين أسرعوا إلى تكذيب القرآن . وجاءت بعد قوله تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب ، لا ريب فيه ، من رب العالمين * أم يقولون : افتراه قل : فأتوا بسورة مثله،وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين » . وفى هذا رد على الكافرين الذين ادعوا أن محمدا افترى هذا القرآن،بأنه ما يصح أن يفترى هذا القرآن من غير الله ، إذ من المحال أن يكون مثل القرآن فى إعجازه ومموه مفترى ، وإنه لتصديق لما بين يديه ـ أى ما تقدمه ـ من الكتب السماوية وشاهد على صحتها ،وإن فيه لتفصيلا لما فى هذه الكتب،أو تفصيلا لما كتب وفرض من

الأحاديث﴾(١) . وقال الرسول — صلى الله عليه وسلم — : « نية المؤمن خير من عمله(٢) » ، والنية باطنة والعمل ظاهر ؛ ولذلك لم يقنع بعلم الباطن

= الأحكام والشرائع ، تصديقاً وتفصيلا من رب العالمين ، لا ريب فى ذلك .

وأمر الله رسوله أن يتحداهم فى دعواهم بأن يطالبهم بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ويستعينوا بمن شاءوا من الخلق إن كانوا صادقين فى دعواهم . وعقب على هذا بذمهم بالتسرع فى الحكم ، إذ كذبوا القرآن قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه مقلدين آباءهم فى الإسراع إلى التكذيب شأن الجهال ، وكذبوه بعد أن تدبروه بداعى التمرد والعناد . وجاءت جملة « ولما يأتهم تأويله » تحمل معنى التوقع ، للايذان بأنهم كذبوا بالقرآن بغيا وحسدا بعد أن علموا إعجازه وعلو شأنه ، وجربوا قواهم فى معارضته ، واستيقنوا عجزهم عن مثله (راجع تفسير الكشاف) .

(١) سـورة يوسف ـ الآية ٦ . ويجتبيك : يصطفيك من جبى الشىء وجبايته أى تحصيله ومن جباية الماء فى الحوض أى جمعه فيه . وتأويل الأحاديث : تفسيرها وعبارتها والأحاديث هى الرؤى المنامية . ويجوز — كما فى الكشاف ـ أن يراد بتأويلها بيان معانى كتب الله وسنن الأنبياء وماغمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها . وسميت أحاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسله فيقول : قال الله وقال الرسول . والآية حكاية مقال يعقوب لابنه يوسف ـ عليهما السلام — حين قص على أبيه أنه رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ، فنصحه الأب بألا يقص الرؤيا على إخوته لكيلا يكيدوا له ، وهذا يعقوب يخبر ابنه أن الله يجتبيه كذلك الاجتباء العظيم ، ويخبره أن الله يعلمه تأويل الأحاديث .

(٢) روى الطبرانى هذا الحديث . وبيانه : ان الغرض من الأعمال بالجوارح هو تعويد القلب إرادة الخير وتأكيد الميل فيه (أى فى القلب) إلى الخير ؛ ليفرغ من شهوات الدنيا ، ويكب على الذكر والفكر . والسر فى ترجيح

والعمل به دون الظاهر . وقال – عز وجل – : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾(١) ، وأعلمنا أن بالظاهر تقام الحجة فقال:﴿قل: سموهم،أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول(٢)﴾

=النية على العمل أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل ، والنية من جملة الخيرات ، والعمل من جملة الخيرات ، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل ، أى أن لكل منهما أثراً فى المقصود ، وأن أثر النية أكثر من أثر العمل ، فنية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته ، والغرض أن للعبد اختيارا فى النية وفى العمل ، فهما اثنان والنية خيرهما (راجع إحياء علوم الدين للامام الغزالى — كتاب النية والإخلاص والصدق) .

وقيل غير هذا : المعنى أن أجر النية خير من أجر العمل بلا نية . وقيل : النية المجردة خير من العمل المجرد عن النية . وقيل : نية المؤمن تبلغ إلى حيث لا يبلغ العمل ، لأن نيته تمتد فى الزمان آمادا بعيدة كأن يعبد الله لو عاش ألف سنة مثلا ، أما عمله فلا يبلغ ذلك. وقيل: النية سر والعمل ظاهر،والسر لا يطلع عليه إلا الله ولهذا فضلت النية . وقيل : النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم (راجع كتابنا : الهدية السعدية شرح الأربعين النووية : ١٤/١ فى شرح الحديث:« إنما الأعمال بالنيات،وإنما لكل امرئ ما نوى»).

(١) سورة الأعراف — الآية ٣٣ . والفواحش : الكبائر . والفاحشة أو الكبيرة ما توعد الشارع عليها بحد أو غضب أو لعن كالقتل والزنا والإفك، وما ظهر منها أى ما جهر به منها ، وما بطن منها أى ما ارتكب منها فى السر، وحرمها الله أى جعلها حراما ، والحرام الذى فيه ريبة والذى حرمه الشرع أى منع اقترافه .

(٢) سورة الرعد — الآية ٣٣ . وفيها رد على ما قال المشركون من أن لله شركاء ، قال تعالى : « وجعلوا لله شركاء . قل : سموهم . . . » ، أى جعلتم لله شركاء فسموهم له ونبئوه بأسمائهم،وفى هذا تجهيل بوجودهم وتحقير=

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « الإيمان عقد بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان » . وليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكنه ما وقر في النفوس وصدقته الأعمال ؛ وذلك لأن النية مغيبة عنا ، وليس يعلمها إلا الله — عز وجل — وصاحبها ، وإنما يستدل عليها بالقول والعمل. ألا ترى أن الإنسان إنما تعرف حكمته الباطنة بما يظهر من صحة قوله وإتقان عمله! وبيّن في العقل أنه لما كان الظاهر سبباً إلى الباطن وعلة لنيله والوصول إليه (وجب) أن يكون معلقا به وغير منفصل منه ، وأن يكون ما يدرك من فضيلة العلم منسوبا إليهما لاشتراكهما في إيضاحه ؛ لأن العلة بالمعلول تدرك ، والمعلول بالعلة يوجد ، وألا يكون الأمر كما ظن قوم أرذلوا علم الظاهر وتركوا العلم والعمل به(١) ، وهم مع ذلك مقرون أنهم لا يصلون إلى علم الباطن والإيضاح عن حقيقته إلا به(٢) . فجعلوا ما لا تدرك الحاجة إلا به غير

= لشأنهم . بل أتنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو في العالم بما في السموات والأرضين فاذا لم يعلمهم اتضح أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم ، والمراد نفي أن يكون له شركاء . بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لهذا حقيقة كقوله تعالى : « ذلك قولهم بأفواههم » (وانظر تفسير الكشاف) .

(١) في هذا تعريض بالباطنية والخرمية والقرامطة والإسماعيلية ومن إليهم من الفرق التي ترى أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا ، وتعول في فهم القرآن الكريم والسنة النبوية على التأويل ؛ بخلاف أهل الظاهر الذين يأخذون بظاهر الآيات والأحاديث ـ عن نقد النثر ، هامش ص ١٧ . طبعة سنة ١٩٣٩ .

(٢) الأولى أن تكون هذه الجملة على هذا النسق : (وهم مع ذلك مقرون أنهم لا يصلون إلى علم الباطن والإيضاح عن حقيقته إلا بعـــلم الظاهر) ؛ =

محتاج إليه ، وهذا هو المحال البين . ولو كان الأمر كما ظنوا لبطلت حقوق الناس ، وتعطلت تجاراتهم ، وفسدت معاملاتهم ، وسقطت أخبارهم ؛ لأنهم إنما يعملون فى جميع ذلك على الظاهر دون الباطن . ووضوح هذا يغنى عن الإطالة فيه .

* * *

= فالضمير فى (به) راجع إلى علم الظاهر . فاظهار الضمير أوجب ؛ لإزالة اللبس .

البيان بالقول وهو (العبارة)

البيان بالقول هو العبارة . وقد قلنا : إنه يختلف باختلاف اللغات، وإن كانت الأشياء المبين عنها غير مختلفة فى ذواتها(١) ، وإن منه ظاهرا ومنه باطنا ، وإن الظاهر منه غير محتاج إلى تفسير ، وإن الباطن هو المحتاج إلى التفسير(٢) وهو الذى يتوصل إليه بالقياس والنظر والاستدلال والخبر . ونحن نذكر الآن ذلك بشرحه — إن شاء الله — فنقول :

إن الذى يوصل إلى معرفته من باطن القول بالتمييز والقياس ، مثل قول الله - عز وجل - : ﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾(٣) ، وهو لم يفوض إليهم أن يعملوا بما أحبوا ولم يخلهم من الأمر والنهى . ومثل قوله:

---

(١) ارجع إلى ص(١٠) (٢) ارجع إلى ص(١٩)

(٣) سورة فصلت - الآية ٤٠ . قال - تعالى - : « إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة . اعملوا ما شئتم ، إنه بما تعملون بصير » . وفيها حديث عن الذين يلحدون فى آيات الله أى ينحرفون فى تأويلها عن جهة الصحة والاستقامة (على سبيل الاستعارة نقلا من ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر فى شق) ؛ يخبر الله عنهم — على سبيل الوعيد — أنهم لايخفون عليه . وتلا هذا الحديث سؤال على طريقة تجاهل العارف للتنبيه إلى أن الذين يحرفون الآيات مصيرهم النار وأن الذين يلزمون جانب الاستقامة والحق يأتون يوم القيامة آمنين . ثم يقول لهم : « اعملوا ما شئتم » أمرا على سبيل التهديد ، وهو — سبحانه وتعالى وكما قال المصنف — لم يفوض إليهم أن يعملوا بما أحبوا ، ولم يخلهم من الأمر والنهى .

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾(١) ، وهو لم يطلق لهم الكفر ولم يحتم إياه . فهذا وإن كان ظاهره التفويض إليهم فإن باطنه التهدد لهم والوعيد(٢) ، ويدل على ذلك قوله بعقب هذا :(١)﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا

(١) سورة الكهف — الآية ٢٩ . وفاتحتها : « وقل : الحق من ربكم ؛ فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ؛ إنا أعتدنا للظالمين نارا ... » الآية . بدأت الآية بتقرير أن الحق من عند الله ، ويتضمن هذا معنى جاء الحق ، وانضح لكل ذى بصر طريق السلامة بالإيمان واتباع الحق وطريق التعاسة بالكفر والانصراف عن الحق ، ولهذا أعقبه بعبارة التخيير « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » على سبيل التهديد ، وتلاه بالتذكير بمصير الظالمين وهم الذين يختارون طريق الكفر ، وشبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق (والسرادق الحجرة تكون حول الفسطاط . وقيل : هو دخان يحيط بالكفرة قبل أن يدخلوا النار . وقيل : هو حائط من نار يطيف بهم) وشبه شرابهم فى هذه النار بالمهل وهو ما أذيب من الأجساد وجواهر الأرض ، فان استغاثوا من عطش أغيثوا به فشوى وجوههم من شدة حرارته ، ولبئس هذا الشراب وساءت النار مرتفقا ، اى متكأ ، وهو من الارتفاق وهو الاتكاء على المرفق مع نصب الساعد . ولا ارتفاق لأهل النار ، وإنما جاء قوله : « وساءت مرتفقا » لمشاكلة قوله بعد : « وحسنت مرتفقا » فى صفة المنعمين فى الجنة تمثيلا لهم بالمنعمين فى الدنيا من الاتكاء على الأرائك . قال الزمخشرى فى الكشاف : إلا أن يكون من قول أبى ذؤيب الهذلى :

إنى أرقت ، فبت الليل مرتفقا   كأن عينى فيها الصاب مذبوح

يقصد أن الارتفاق كناية عن التحزن والتحسر . وفى الشطر الآخر كناية عن البكاء وانصباب الدمع ، والصاب نبت مر كالحنظل ، وذبحه شقه ليسيل منه ماؤه .

(٢) تصح هذه الجملة بأن يقول : فهذا — وإن كان ظاهره التفويض — باطنه التهدد لهم والوعيد . أو أن يقول : فهذا إن كان ظاهره التفويض فان باطنه التهدد لهم والوعيد .

أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ ، وأما ما يوصل إليه بالخبر فمثل « الصلاة » التى هى فى اللغة الدعاء ، و « الصيام » الذى هو الإمساك ، و « الكفر » الذى هو ستر الشىء ؛ فلولا ما أتانا من الخبر فى شرح مراد الله فى الصلاة والصيام ومعنى الكفر ، لما عرفنا باطن ذلك ولا مراد الله فيه ولا كان ظاهر اللغة يدل عليه ؛ بل كنا نسمى كل من دعا مصليا ، وكل من أمسك عن شىء صائما ، وكل من ستر شيئاً كافراً ؛ فلما أتانا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحدود الصلاة من التكبير والركوع والسجود والتشهد ، وبحدود الصيام من ترك الأكل والشرب والنكاح نهارا ، وأن الكافر الذى يجحد الله ورسله ؛ وصلنا إلى علم جميع ذلك بالخبر ، ولولاه ما عرفناه .

وللغة العربية (التى نزل بها القرآن ، وجاء بها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - البيان) وجوه وأحكام ومعان وأقسام ، متى لم يقف عليها من يريد تفهم معانيها واستنباط ما يدل عليه لفظها ؛ لم يبلغ مراده ولم يصل إلى بغيته . فمنها ما هو عام للسان العرب وغيرهم ، ومنها ما هو خاص له دون غيره ويجمع ذلك فى الأصل : الخبر والطلب .

والخبر : كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده ، كقولك : قام زيد ، فقد أفدته بقيامه . ومن الخبر ما يبتدئ المخبر به ، فيخص باسم « الخبر » ، ومنه ما يأتى به بعد سؤال فيسمى « جوابا » ، كقولك فى جواب من سألك : ما رأيك فى كذا ؟ فتقول(١) رأيى كذا . وهذا يجوز أن يكون ابتداء منك

(١) فى رأينا أن كلمة (فتقول) عبء على فصاحة العبارة ، والأولى حذفها .

فيكون خبرا ، فإذا أتى بعد سؤال كان جوابا كما قلنا(١).

والطلب : كل ما طلبته من غـــيرك(٢) ، ومنه الاستفهام ، والدعاء ، والنداء ، والتمنى(٣) ؛ لأن ذلك كله طلب . فانك إنما تطلب من الله بدعائك ومسألتك ، وتطلب من المنادى الاقبال عليك أو إليك ، وتطلب من المستفهم منه بذل الفائدة لك . ومن الاستفهام ما يكون سؤالا عما لا تعلمه

---

(١) نلاحظ أنه قسم الخبر إلى خبر وطلب ، وليس ينقسم الشيء إلى نفسه . لكن نظره دقيق فى اعتبار جواب السؤال خبرا .

(٢) فى كتب اللغة أن طلب يتعدى بالى بمعنى رغب . ووجدت الزمخشرى فى الكشاف فى تفسيره لسور هود والتحريم والقلم يعديه بمن . وفى أساس البلاغة (مادة طلب) : « وطلب منى فأطلبته : فأسعفته » .

(٣) المعروف أن أقسام الطلب ثمانية : الأمر – النهى – النداء – الاستفهام أو السؤال – العرض – التحضيض – التمنى – الترجى . والمصنف لم يتعرض لبعض هذه الأقسام ، والحق يقال أنه لم يزعم استيفاءها ، وإن أمكن القول بأن العرض والتحضيض مردهما إلى الاستفهام فالعرض كقولك : ألا تزورنا والتحضيض كقولك . هلا أديت الواجب – الأول فيه رفق ولين ، والآخر فيه عنف وشدة . ثم إن الشائع أن الدعاء هو النداء ، والمصنف جعلهما قسيمين ، وربما أطلق الدعاء على الرجاء ، والرجاء يتحقق بأدواته ، وهى : لعل ، وعل ، وعسى ، وحرى ، واخلولق ، ويتحقق بالأمر والنهى من الأدنى للأعلى كقوله تعالى «ربنا ؛ إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار* ربنا ، وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ؛ إنك لا تخلف الميعاد » (آل عمران – الآيتان ١٩٣ و ١٩٤) .

لتعلمه ، فيخص باسم « الاستفهام »(١) . ومنه ما يكون سؤالا عما تعلمه ليقر لك به ، فيسمى « تقريرا »(٢) . ومنه ما يكون ظاهره الاستفهام ومعناه التوبيخ كقوله : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا(٣) ﴾. ومن السؤال ما هو محظور ، ومنه ما هو مفوض.فالمحظور

---

(١) والأصل فى الاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوما للسائل بأدوات خاصة ، كما إذا سألتك مثلا : أين تقطن ؟ وأنا لا أعلم مكان بيتك .

والاستفهام يكون لطلب التصور وهو إدراك المفرد ، ويكون لطلب التصديق وهو إدراك وقوع النسبة أو عدم وقوعها أى مطابقتها للواقع أو عدم مطابقتها . وللتصديق أداتان : هل دائما ، والهمزة أحيانا ، وللتصور عشر أدوات : الهمزة أحيانا ومن وما ومتى وأين وأيان وأنى وكيف وكم وأى دائما .

(٢) والتقرير يقتضى حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه ، فالأول كقوله تعالى : «أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم» على ما ذهب إليه الإمام عبد القاهر (دلائل الإعجاز ص ٨٨) ، والآخر أى المنفى كقوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » على وجه ، ففيه حمل على الاعتراف بشرح الصدر . هذا ، واستعمال الاستفهام فى التقرير مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد . والمشهور أن الاستفهام التقريرى يكون بالهمزة ، ولعلك تعرف أنه يكون بغيرها مثل قولك لصديقك هل : تراخيت عن أداء واجبك — عند ظهور التراخى — تريد موافقته عليه والاعتراف به ، وكم وعانتك فى هذا الأمر — تريد حمله على الإقرار بالمعاونة ، ووراء هذا الرغبة فى الحكم عليه أو كشف أمره أو التشهير به . . . .

(٣) سورة الأنعام — الآية ١٣٠ . وتكملتها : « قالوا : شهدنا على أنفسنا » وفى هذه التكملة دليل الجواب فكأنهم قالوا : بلى . أتانا الرسل يقصون وينذرون . ووجود السؤال وجوابه — أو دليل جوابه — هو الذى حمل المصنف =

ما حظرت فيه على المجيب أن يجيب إلا ببعض السؤال ، كقولك : ألحماً أكلت أم خبزا ؟ فقد حظرت عليه أن يجيبك إلا بأحدهما . والمفوض كقولك : ما أكلت ؟ فله أن يقول ما شاء من المأكولات ، لأنك فوضت الجواب إليه(١) .

وليس فى صنوف القول وفنونه ما يقع فيه الصدق والكذب غير الخبر والجواب ، إلا أن « الصدق والكذب » يستعملان فى الخبر ، ويستعمل مكانهما فى الجواب « الخطأ والصواب » ، والمعنى واحد وإن فرق اللفظ بينهما . وكذلك يستعمل فى الاعتقاد فى موضع الصدق والكذب « الحق والباطل » ، والمعنى قريب من قريب .

= على التنبيه إلى أن الظاهر الاستفهام ومعناه التوبيخ . هذا، ويحتمل الاستفهام فى الآية الإنكار ويحتمل التقرير ، وكلاهما يؤدى إلى المقصود ، فالإنكار يتسلط على النفى ومدخوله ، أى يتسلط على عدم إتيان الرسل ، ونفى العدم ينتج عنه التسليم بإتيان الرسل ، والتقرير يعنى الحمل على الاعتراف بالنفى وهو إتيان الرسل . ويبقى فى طى هذا كله معنى التوبيخ الذى اعتبره المصنف . والنكت البلاغية لا تتزاحم وقد يعين بعضها بعضا .

(١) عبارة « البرهان » : ومن السؤال ما هو محصور (بالصاد المهملة) ـ بدل محظور ـ والحصر التضييق والحبس ويتعدى بعلى بالتضمين ، والحظر المنع والحجر ويتعدى بعلى بنفسه ، ولهذا آثرناه .

والمصنف أتى بمثالين من الاستفهام التصورى ولم يتعرض للاستفهام التصديقى .

ولعل وجهته أنه ليس من قبيل المحظور ، لأنك فى الإجابة عنه لا تجيب ببعض السؤال دون بعض ، وليس من قبيل المفوض ، لأنه لا يطلق لك أن تجيب بما تشاء . وفى تقديرنا أن الاستفهام التصديقى من قبيل (المحصور) فإن قولنا مثلا . أنجحت؟ وهل نجحت؟ يعنى احتمال نجاحك وعدمه، وقد حصرتك فى أحدهما ، وأنت عند الجواب تأخذ أحد الجانبين دون الآخر .

والخبر منه جزم ، ومنه مستثنى ، ومنه ذو شرط(١) . فالجزم مثل زيد قائم ، وقد جزمت فى خبرك على قيامه(٢) . والمستثنى : قام القوم الا زيدا ، فقد استثنيت زيدا ممن قام . وذو الشرط : اذا قام زيد صرت اليك ، فانما يجب مصيره اليه اذا قام زيد(٣) ، فهو معلق بشرط .

وكل واحد من هذه المعانى اما أن يكون مثبتاً واما أن يكون منفياً ، فالمثبت : كقولك قام زيد ، والمنفى ما قام زيد . والمستثنى من

---

(١) تحرير القول فى الجملة الشرطية أن أداة الشرط بمعناها قيد فى الشرط ، وأن الشرط قيد المسند فى الجزاء وقد أخرجت الأداة الشرط عن الخبرية واحتمال الصدق والكذب .

ويبقى الجزاء هو الذى ينصرف إليه الحكم والصفة فإن كان الجزاء جملة خبرية كانت الجملة الشرطية كلها خبراً وتحتمل الصدق والكذب ، تقول إذا اجتهد هشام تفوق وإن قصر لم يتفوق ، فمفهوم هذين المثالين الحكم بحصول التفوق لهشام عند حصول اجتهاده والحكم بعدم حصول تفوقه عند حصول تقصيره .

وإن كان الجزاء جملة إنشائية كانت الجملة الشرطية كلها إنشاء ولاتحتمل الصدق والكذب كقوله تعالى فى معاملة اليتامى عند بلوغهم الرشد : « فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا » (النساء ٦) والتقدير : ادفعوا إلى اليتامى أموالهم وقت إيناسكم الرشد منهم ولاتأكلوها. هذا ولعلماء المنطق وجهة أخرى مؤداها أن الحكم فى الجملة الشرطية بين الشرط والجزاء ، أماالشرط والجزاء نفساهما فلا حكم فيهما أصلا ، ومفهوم قولك (إذا اجتهد هشام تفوق) عندهم الحكم بلزوم التفوق للاجتهاد فالتفوق محكوم به والاجتهاد محكوم عليه .

(٢) الجزم القطع ، ولايقتضى هذا صرف الجملة عن احتمال الصدق والكذب لذاتها .

(٣) ربما كان الأوفق أن يقول : فانما يجب مصيرى إليك إذا قام زيد.

المثبت منفى ، والمنفى إذا استثنى منه مثبت(١) . وليس يخلو الخبر المثبت أو المنفى من أن يكون واجباً أو ممتنعاً أو ممكناً . فالواجب مثل حر النار(٢) ؛ لأنه واجب فى طبعها . والممتنع مثل حرارة الثلج ؛ لأن ذلك ممتنع فى طبعه . والممكن مثل قام زيد ؛ لأنه قادر عليه وجائز أن يقع وألا يقع .

ثم لا يخلو الخبر بعد هذا كله من أن يكون عما مضى مثل قام زيد ، أو عما يستقبل(٣) مثل يقوم زيد ، أو عما أنت فيه(٤) مثل قولك قائم زيد . ولا

---

(١) عبارة البرهان (والمستثنى من المثبت منفى ، ومن المنفى مثبت) ، وهى أدل مباشرة على المقابلة . مثال الأول : سافرت الصحبة إلا عصاما ، فقد أثبت السفر للصحبة ونفيته عن عصام ، ومثال الثانى : ما أكرمت الأصدقاء إلا خالدا وما أكرمت إلا خالدا ؛ نفيت الإكرام عمن عدا خالد وأثبت الإكرام له .

ولم يذكر المصنف مثالا لذى الشرط المثبت والمنفى ، وذلك كقول زهير :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ، ومن تخطئ يعمر فيهرم

فإن تدعوا السواء فليس بينى ومنكم — بنى حصن — بقاء

(٢) عبارة البرهان (فالواجب مثل حرارة النار) . وعبارة نقد النثر (فالواجب مثل حر النار وثرها) ومن معانى الثر الغزارة والهذر والصياح والتفريق والتبدد والاتساع . ولا وجه لنسبة أى منها إلى النار على سبيل الوجوب ، ولهذا لم نثبتها .

(٣) أورد محققا نقد النثر ما يلى : فى هامش الأصل هنا : « فى هذا الكلام دليل على أن الفعل المضارع أولى بالمستقبل من الحال ، وهو خلاف مذهب الحذاق من النحاة » .

(٤) عبر بما أنت فيه عن الزمن الحاضر أو الحال .

يخلو بعد ذلك من أن يكون عاما كلياً ، أو خاصاً جزئياً ، أو مهملا . فكل ما ظهر فيه حرف العموم فهو عام ، كقولك : كل القوم جاءنا ، وجميع المال أنفقت(١) ، ومنه قول الله - عز وجل - : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾(٢) ؛ فهذا لا يجوز أن يراد به الخصوص لظهور حرف العموم فيه . وكل ما ظهر فيه حرف الخصوص فهو خاص ، كقولك : بعض المال قبضت ، ومن القوم من جاءنا ، ومثله قول الله - عز وجل - : ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما﴾(٣) ؛ فهذا لا يجوز أن يراد به العموم لظهور حرف الخصوص فيه . وما لم يظهر فيه حرف العموم ولا حرف الخصوص فهو مهمل ، وقد يكون عاما وقد يكون خاصا ؛ واعتباره أن تنظر : فإن كان فى الأشياء الواجبة أو الممتنعة فهو عام وإن كان لفظه واحداً(٤) ، كقول الله - عز

---

(١) أورد مثلين لتمثيل العموم عمدة وفضلة ، وكذلك يفعل عند التمثيل للخصوص .

ونلحظ أنه يعتمد على القصد وليس على وضع اللفظ فى اعتبار العموم والخصوص .

(٢) سورة القصص — الآية ٨٨ . والوجه تعبير عن الذات العلية .

(٣) سورة التوبة — الآية ٩٨ . والمغرم الغرامة وهو ما ينفقه المرء وليس يلزمه فهو غرامة وخسارة والآية فى صفة بعض الأعراب يتخذ ما ينفق مغرما لأنه ينفقه رياء للمسلمين لا لوجه الله . وقد وصفتهم الآيات قبل ذلك بأنهم أشد كفراً ونفاقاً وأجهل بحدود الدين ، وبعد ذلك بأن منهم من يتربص بالمسلمين الدوائر ، ومنهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات وصلوات .

(٤) أى يدل لفظه على الواحد من حيث الوضع لا من حيث القصد فاذا قصد به الكل فهو مجاز مرسل علاقته الخصوص .

وجل ـ : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾(١) لأنه من الواجب أن يكون كل أحد على نفسه بصيرة . وإن كان فى الممكن فهو خاص ، كقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾(٢) ؛

---

(١) سورة القيامة — الآية ١٤ وفيها حديث عن أن الإنسان كل إنسان يأتى يوم القيامة بصيرة ـ أى حجة بينة وشاهداً ـ على نفسه ؛ لأن جوارحه تنطق عنه « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .

(٢) سورة آل عمران ـ الآية ١٧٣ . والشاهد فى لفظ « الناس » الأول ، وهو لفظ يدل على الجماعة كما قال بعد وذلك من حيث الوضع لا من حيث القصد فإذا قصد به الواحد فهو مجاز مرسل علاقته العموم ، والمقصود من الناس فى الآية هو « نعيم بن مسعود المجاشعى » وقصة ذلك كما روتها كتب السيرة والتفسير أن « أبا سفيان » نادى عند انصرافه من « أحد » : موعدنا موسم « بدر » القابل يا محمد إن شئت ، فرد عليه الرسول الكريم : إن شاء الله ، فلما كان القابل خرج « أبو سفيان » فى أهل « مكة » حتى نزل « مر الظهران » ، فألقى الرعب فى قلبه ؛ فبدا له أن يرجع ، ولقى « نعيم بن مسعود المجاشعى » وقد قدم معتمرا ، فقال له : يا نعيم ؛ إنى واعدت محمدا أن نلتقى فى موسم بدر ، وإن هذا عام جدب ، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لى ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج ، فيزداد جراءة ، فهل لك أن تلحق بالمدينة فتثبطهم ولك عندى عشر من الإبل أضعها فى يد « سهل بن عمرو » ويضمنها . ثم خرج « نعيم » فوجد المسلمين يتجهزون ، فقال لهم : ما هذا بالرأى ؛ فقد أتوكم فى دياركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريداً ، أفتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند =

فهذا خاص ، وهذا لفظه على الجماعة لأن القول بمن قال والجمع ممن جمع من الأشياء الممكنة ، وجائز أن يقع منهم وألا يقع. فهذا أصل يعمل به في الخاص والعام والمهمل .

ومن البين للعقل أن الأخبار المثبتة الجازمة فى الأمر الواجب: ماضيها ، ومستقبلها ، وما أنت فيه منها ، وعامها ، وخاصها ، ومهملها ؛ صدق أجمع ، وأن منفيات ذلك كله كذب ، وأن مثبتات هذه الأخبار فى الأحوال التى قدمنا ذكرها إذا كانت فى الممتنع فهى كذب ، ومنفياتها صدق ، وأن جميع هذه الأخبار فى هذه الأحوال إذا جاءت فى الأمر الممكن فقد يكون صدقا وقد يكون كذبا(١). وقد دللنا على جمل ما يعرف به الصدق فى ذلك من الكذب ولم نستقصها ؛ لئلا يطول الكتاب بها ، وهى فى كتب المنطقيين مشروحة ، فمن أراد علمها فليطلبها هنالك ؛ إن شاء الله .

= الموسم فوالله لا يفلت منكم أحد . فكره بعض أصحاب الرسول الخروج ، وأصر الرسول على الخروج ومعه جماعة من سبعين رجلا ، وبلغوا بدراً ، فأقاموا فيها ثمان ليال ، وانتظروا مقدم قريش ، ولما لم تأت عادوا غانمين سالمين . قال الزمخشرى فى الكشاف : أطلق « الناس » على « نعيم » مع أنه المثبط وحده ، لأنه من جنس الناس ، كما يقال : فلان يركب الخيل ويلبس البرود ، وليس له إلا فرس واحد وبرد واحد .

(١) والصدق والكذب فى جميع هذه الأخبار صدق أخلاقى وكذب أخلاقى ، وينشأ الصدق من إثبات الواجب أو نفى الممتنع ، وينشأ الكذب من نفى الواجب أو إثبات الممتنع ، وليس ينشأ كلاهما من ذوات الأخبار ، فالأخبار بذواتها محتملة للصدق والكذب .

واعلم أن من الأخبار أخبارا تقع بها الفائدة ولا يحصل منها قياس يوجب حكما ، فمن ذلك الخبر المنفى ؛ فإنه يفيدنا انتفاء الشىء الذى ينفيه ولا يحصل منه قياس يوجب فى نفوسنا حكما ، ومثال ذلك قولنا : زيد غير قائم ، فلم يحصل لنا من هذا القول غير العلم بانتفاء القيام عنه ، ثم لسنا ندرى على أى حال هو من قعود أو اضطجاع أو سجود . والخبر الذى بشرط لا يحصل فى النفس منه حكم ؛ لأنا إذا قلنا : إذا قام زيد صرت إليك ، فليس يحصل فى نفس المخاطب علم بمصير المخاطب إليه لأنه معلق بقيام زيد الذى يجوز أن يقع وألا يقع .

والكذب إثبات شىء لشىء لا يستحقه ، أو نفى شىء عن شىء يستحقه والصدق ضد ذلك ، وهو إثبات شىء لشىء يستحقه ، أو نفى شىء عن شىء لا يستحقه . والخلف فى القول إذا كان وعدا دون غيره ، وهو أن يعمل خلاف ما وعد ، فيقال : أخلف فلان وعده ، ولا يقال : كذب وقد يخلف الرجل الوعد بفعل ما هو أشرف منه ؛ فلا يقال : أخلف وعده ، وذلك كرجل وعد رجلا بثوب فأعطاه ألف دينار ؛ فقد تفضل عليه ، وإن كان قد عمل به خلاف ما وعده ؛ فلا يسمى ذلك مخلفاً لوعده . وبهذا تعلق من أبطل الوعيد ، فزعموا أن إنجاز الوعد كرم ؛ وأن إخلاف الوعيد عفو وتفضل(١) وأنشدوا :

---

(١) لعل المصنف يشير إلى رأى أتباع أبى الحسن الأشعرى فى قولهم : إن الخلف فى الوعيد كرم فيجوز من الله . وهو رأى مرجوح والمحققون على خلافه (عن محقق الأصل : هامش ص ٤٨) .

وكنت إذا أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادي وأنجز موعدي(١)

وعليهم في ذلك كلام لأهل الحق(٢) ليس هذا موضعه .

والنسخ في الحكم تبديله برفعه ووضع غيره مكانه . وأصله في اللغة وضع الشيء مكان غيره إذا كان يقوم مقامه ، ومنه نسخ الكتاب ؛ لأنه وضع

---

(١) البيت لعامر بن الطفيل العامري . ورواية البرهان :

وإني إذا أوعدته أو وعدته لأخلف ميعادي وأنجز موعدي

وروى أيضاً :

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وهاتان الروايتان أدعى للقبول من رواية نقد النثر لوقوع اللام في عجز البيت ، وهي تقع في خبر « إن » وليس في خبر « كان » . ووعد وأوعد كلاهما في الخير والشر ، وشاع إطلاق وعد في الخير وأوعد في الشر ، والميعاد الوقت والموضع ، والموعد كذلك ومصدر ميمي للوعد .

وعامر الطفيل شاعر مخضرم ، وكان سيداً وفارساً في قيس ، وهو ابن عم لبيد بن ربيعة الشاعر . اختار له أبو تمام في الحماسة ، وابن قتيبة في الشعر والشعراء (١ / ٣٣٤) . وله ديوان نشرته مع ديوان عبيد بن الأبرص لجنة تذكار « جيب » الانجليزية بعناية المستشرق « لايل » (تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/١١٥و١٢١) .

(٢) لعل المصنف اراد بأهل الحق أصحاب الرأي المقابل لما يقوله الأشعرية ويسب هذا الرأي إلى أتباع أبي منصور الماتريدي (عن محقق نقد النثر : هامش ص ٤٨) .

غيره موضعه وإقامته مقامه ؛ ومنه قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾(١) .

والنسخ لا يكون فى الخبر ؛ لأن الخبر إذا تبدل عن حاله بطل ، وفى بطلان قول الصادق وجوب الكذب لا محالة ؛ وليس يجوز للصادق أن يخبر بخبر فيكون ضده ونقيضه صدقا(٢) ، إلا أن يكون خبره الأول معلقاً

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ١٠٦ وقرئ « ننسخ » بالفتح والضم من النسخ والإنساخ ، والإنساخ الأمر بالنسخ ، ويمثل له بالوصية للأقارب نسخت بالتوريث ، وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ، والتوجه إلى المسجد الأقصى بالقدس نسخ بالتوجه إلى المسجد الحرام .
و « ننسها » من النسيان وهو الترك ، والمعنى نمحها من قلبك ، وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ نتركها لا ننسخها ، ومنه قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » (التوبة ٦٧) أى تركوه فتركهم . وقرى « ننسأها » أى نؤخرها ونذهب بها دون بدل ، وقرئ « ننسئها » أى نذهب بحفظها عن القلوب .
وقوله : « نأت بخير منها أو مثلها » معناه ـ والله أعلم ـ نأت بآية يكون العمل بها أكثر للثواب والأجر والنفع ، أو أخرى مثلها فى التكليف والثواب والنفع . وقد نزلت الآية فى اليهود أو الكافرين حين قالوا : ما بال محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، أرادوا أن يوحوا بأن القرآن من عنده لا من عند الله . قال الإمام الشافعى (الرسالة ص ٢٩ — طبعة القبانى) : أنزل الله الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة ، وفرض فيه فرائض أثبتها ، وأخرى نسخها ، رحمة لخلقه بالتخفيف عنهم ، وبالتوسعة عليهم ، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمه ، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم جنته والنجاة من عذابه ، فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ .

(٢) يطلق الضد فى اللغة على النظير والكفء والمثل ويطلق على المخالف والمباين ، وهذا الإطلاق الأخير هو الأشهر والنقيض المخالف المباين لا غير .

بشرط أو استثناء ، كما وعد الله قوم موسى ـ عليه السلام ـ دخول الأرض المقدسة إن أطاعوه فى دخولها ، فلما عصوه حرمها عليهم فلم يدخلها أحد منهم(١) ؛ وكما وعد(٢) قوم يونس العذاب إن لم يتوبوا ، فلما تابوا كشف

= والشائع قولهم : الضدان لا يجتمعان وقد يرتفعان والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، ومثال الضدين البياض والسواد لا يجتمعان فى شىء وقد يرتفعان ويوجد غيرهما كالاحمرار مثلا ، ومثال النقيضين البياض وغير البياض لأن الشىء لابد أن يكون إما أبيض وإما غير أبيض ، وكذلك الموت والحياة ، والليل والنهار ، كل نقيض الآخر .

(١) قال تعالى : « وإذ قال موسى لقومه : ياقوم ، اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين * ياقوم ، ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم ، فتنقلبوا خاسرين * قالوا ياموسى ، إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا : يا موسى ، إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون * قال : رب ، إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال : فانها محرمة عليهم أربعين سنة ، يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين » سورة المائدة : الآيات ٢٠ ـ ٢٦ .

(٢) فى البرهان (وكما أوعد) وقلنا آنفا : الوعد والإيعاد كلاهما فى الخير والشر .

عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا(١) ؛ وإلى هذا المعنى تذهب الشيعة فى البداء(٢) (على قبح هذه اللفظة وبشاعة موقعها فى الأسماع) . فأما الخبر إذا لم يكن معلقا بشرط ولا بشىء مما ذكرنا ، فلا يجوز أن يقع غيره موقعه ، فيكون صدقاً (٣) ، ولذلك قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد(٤) ﴾ .

---

(١) قال تعالى : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » سورة يونس : الآية ٩٨ .

(٢) البداء من عقائد الشيعة المعروفين بالمختارية أتباع المختار بن أبى عبيد الناجم بالعراق زمن عبد الملك بن مروان . ويقول الشهرستانى فى الملل والنحل : « إنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال إما بوحى يوحى إليه وإما برسالة من قبل الإمام ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة فان وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال : قد بدا لربكم » . (عن محققى نقد النثر ـ هامش ص ٤٩ طبعة ١٩٣٩) .

(٣) فيكون صدقا بنصب يكون عطفا على يقع ، والتقدير فلا يجوز أن يقع غير هذا الخبر موقعه ولا يجوز أن يكون هذا الغير صدقا . ويجوز رفع يكون عطفا على فلا يجوز ، ويكون التقدير : فيكون الخبر صدقا .

(٤) سورة (ق) ـ الآية ٢٩ . وهى من كلام رب العزة تعقيبا على المتخاصمين لديه يوم القيامة . والمعنى : لا تطمعوا أن أبدل قولى ووعيدى فأعفيكم مما أوعدتكم به ، وما أنا بظلام للعبيد فأعذب من ليس مستوجبا للعذاب وظلام بمعنى ظالم أو جىء به بصيغة المبالغة وهى شبيهة بصيغة الجمع لمشاكلة العبيد ، تقول : فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده .

والمعارضة فى الكلام المقابلة بين الكلامين المتساويين فى اللفظ . وأصله من معارضة السلعة بالسلعة فى القيمة والمبايعة(١) . وإنما تستعمل المعارضة فى التقية(٢) ، وفى مخاطبة من خيف شره فيرضى(٣) بظاهر القول ويتخلص فى معناه من الكذب الصراح ؛ وذلك مثل قول بعضهم؛ وقد سأله بعض أهل الدولة العباسية عن قوله فى لبس السواد ؛ [فقال](٤) : وهل النور إلا فى السواد ! وأراد نور العين فى سوادها ؛ فأرضى السائل ولم يكذب . وكقول شريح(٥) ؛ وقد خرج من عند عبد الملك فى الساعة التى مات فيها(٦) وقد

---

(١) فى كتب اللغة : عارض فلان فلانا بمثل صنيعه أتى إليه مثل ما أتى ومنه المعارضة . وعارض الكتاب قابله . وعرض المتاع للبيع أظهره للراغبين فى شرائه . وعرض بسلعته وعارض بها . والمعراض التورية ، وأصله الستر ، يقال : عرفته فى معراض كلامه أى فى لحن كلامه أو فى فحوى كلامه . وقال « أبو على القالى » فى كتاب « البارع » : عرّضت له وعرضت به تعريضا اذا قلت قولا وأنت تعنيه ، فالتعريض خلاف التصريح من القول ، كما اذا سألت رجلا : هل رأيت فلانا ولم يكن قد رآه ويكره أن يكذب فيقول : ان فلانا ليُرَى فيجعل كلامه معراضا ، فرارا من الكذب، وهذا معنى المعاريض فى الكلام ، ومنه قولهم : ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب .

(٢) التقية : المداراة والحذر .

(٣) وفى البرهان (فيرى) من التورية وصححها الدكتور حنفى ، بينما صوب الدكتور مطلوب (فيرضى) وكلا اللفظين — فى تقديرى — صحيح وصواب ، فالتورية سبيل الى الارضاء .

(٤) ما بين العاضدتين عبء على فصاحة الجملة .

(٥) هو القاضى شريح بن الحارث الكندى . ولاه عمر بن الخطاب الكوفة فأقام قاضيا حتى توفى سنة ٨٧ هـ عن أكثر من مائة عام .

(٦) توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ ، وهو خامس الخلفاء فى الدولة =

سئل عن حاله ؛ [فقال] : تركته يأمر وينهى ؛ فلما فحص عن ذلك(١) قال: تركته يأمر بالوصية وينهى عن النوح . وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « رأس العقل بعد الإيمان بالله - عز وجل - مداراة الناس » . ومن المعارضة قول مؤذن يوسف : ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾(٢) ،وهم لم يسرقوا الصواع ؛ وإنما عنى سرقتهم إياه من أبيه .

وإذا كان الكذب إنما استقبح في العقل وخرج عن شريعة العدل من أجل أنه مخالف لحقيقة الأشياء فى أنفسها من غير نفع يقصد به — حتى قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «الكذب مجانب للإيمان(٣)» ، وقال

= الأموية ، امتدت خلافته أكثر من عشرين عاما (٦٥ - ٨٦ هـ) وكان أديبا ناقدا بصيرا بوجوه الكلام ، واشتهر عهده بعقد المجالس الأدبية ، وإقامة المحاورات والموازنات والمناظرات والمباريات الأدبية والنقدية .

(١) فحص عن ذلك ببناء الفعل للمفعول ، والفحص عن الشيء البحث عنه أو التقصى فى البحث عنه ، مأخوذ من فحص المطر الحصا إذا قلبه ونحى بعضه من بعض ومن فحص القطاة التراب إذا اتخذت فيه أفحوصا وهو بيتها .

(٢) سورة يوسف - الآية ٧٠ . والعير : الإبل التى عليها الأحمال،وقيل: هى قافلة الحمير ، ثم كثر إطلاقها حتى قيل لكل قافلة (عير) ، والمراد أصحابها بدليل خطابها كقول القائل * يا خيل الله اركبي * والصواع (بضم الصاد أو كسرها) إناء للشرب أو هو الجام يشرب فيه أو هو الصاع . والصاع (وقرئ به) مكيال اختلف فى تقديره بين خمسة أرطال وثلث وبين ثمانية أرطال ، ومعيار الرطل الذى لا يختلف - كما قالوا — مقدار أربع حفنات بكفى الرجل المتوسطتين .

(٣) ذلك أن الإيمان فى أصله هو التصديق الباطنى ، وهو- كما أوضحنا =

الله - عز وجل - : ﴿ ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾(١) ، وسمى الكاذبين ظلمة ولعنهم فقال : ﴿ ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنة الله على الظالمين ﴾(٢) — كان الكذب إذا أريد به الصلاح

= فى كتاب الهدية السعدية شرح الأربعين النووية ١/٢٣ ومابعدها - عمل من أعمال القلب ، يصفيه ، ويجعله مقرا بوحدانية الله ، وبأنه متصف بكل كمال ، منزه عن كل نقص ومحال ، ومقرا بملائكة الله ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، وبسائر الغيبيات التى تخفى عن البشر وخاصة ما يتصل منها بأمور الساعة . والإيمان إذن يخلص صاحبه من شوائب الدنيا ، والكذب من هذه الشوائب ، فالكذب - كما قال الرسول الكريم - مجانب للإيمان .

(١) سورة البقرة - الآية ١٠ . وجاءت فى اليهود الذين نافقوا الرسول والمسلمين بدعوى الإيمان ، قال تعالى : « ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين* يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم ، وما يشعرون * فى قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » (البقرة : ٨ - ١٠) والمرض الذى فى قلوبهم هو النفاق ، زادهم الله منه كلما أنزل على رسوله الوحى فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم فكأن الله هو الذى زادهم ما ازدادوه إسنادا للفعل إلى المسبب له ، أو كلما زاد الرسول نصرة ازدادوا حسدا وغلا وبغضا وازدادت قلوبهم ضعفا وجبنا وخورا ، فلهم عذاب أليم أى مؤلم بسبب كذبهم وهو الكذب فى قولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر، فان إيمان اليهود بالله ليس بإيمان ، لقولهم : عزير ابن الله ، وإيمانهم باليوم الآخر ليس بإيمان ، لأنهم يعتقدونه على خلاف صفته ، فكان قولهم : آمنا بالله وباليوم الآخر خبثا مضاعفا وكفرا موجها (عن الكشاف) .

(٢) سورة هود - الآية ١٨ وتمامها : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ! أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد ... » الآية . فهؤلاء =

العام والمنفعة الحقيقية مطلقاً(١)، وقد روى: «لا كذب إلا فى ثلاثة مواطن: كذب فى حرب، وكذب فى إصلاح بين الناس، وكذب الرجل لامرأته ليرضيها به». وقال أمير المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ: «الكذب كله إثم إلا ما نفعت به مسلما أو دفعت به عن دين». وليس يدخل كذب الإنسان لنفع نفسه وضر غيره فى هذا المعنى، لأن النفع الحقيقى هو الذى لا يقع به ضرر على وجه.

وقد استعمل الناس أشياء ظاهرها كذب ولهم فيها معان تخرجها عنه؛ كتسميتهم الصبى بأبى فلان(٢)، وهو لم يستحق أن يكون أبا، وربما توفى قبل أن يولد له، وربما ولد له فسمى ولده بغير ما كنى به؛ فهذا على ظاهره كذب؛ ولذلك أبته رهبان النصارى وجماعة من أهل الأديان. والذى تقصد به العرب بذلك فى الصغير التفاؤل له بالحياة وطول العمر والولد؛ وتقصد به فى الكبير وذى الشرف التعظيم له عن التسمية باسمه. ولذلك ترى السلطان إذا شرف وزيرا من وزرائه أو ولياً من أوليائه كناه. وقد تجعل العرب

= الذين افتروا على الله كذبا وظلما وادعوا له ولدا وشريكا يعرضون فى الموقف على ربهم، يشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والنبيين فلعنة الله على الظالمين الكاذبين.

(١) جملة (كان الكذب إذا أريد به ... الخ) جواب اذا فى أول الفقرة وكان الكذب فى هذه الحال مطلقا أى جائزا ومباحا، نقلا من اطلاق الأسير والسجين أى تخليتهما واعطائهما الحرية، واطلاق الناقة نزع قيودها وتركها ترعى حيث شاءت.

(٢) فى نقد النثر (كتكنيتهم)، واخترنا عبارة البرهان لأنها أظهر، والتكنية التسمية بالكنية.

للرجل الكنية والكنيتين والثلاث على مقدار جلالته فى النفوس. وممن كان له كنى : أمير المؤمنين وحمزة ـ رضوان الله عليهما ـ ومن العرب : عامر بن الطفيل ، وعمرو بن معديكرب ، وغيرهما ، وذلك معروف فى أخبارهم (١).

ومما استعملت فيه العرب التفاؤل تسميتهم أبناءهم «أسداً» تفاؤلا بالشجاعة والنجدة والبسالة ،و«كلبا» تفاؤلا بالحراسة والوفاء والمحافظة ، وأشباه ذلك مما سموا به(٢). ومما قلبوه عن معناه وسموه بضدما يستحقه على سبيل التفاؤل

---

(١) أمير المؤمنين هو سيدنا على بن أبى طالب ـ وأشرنا لهـذا آنفا ـ وكنى « أبا حسن »و« أبا تراب » وحمزة هو عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكنى « أبا يعلى » « وأبا عمارة ». وعامر بن الطفيل (انظر ص٣٨) كنى « أبا على » فى السلام « وأبا عقيل » فى الحرب. وعمرو بن معد يكرب فارس العرب المشهور وصاحب (الصمصام) كنى « أبا ثور ». وغير هؤلاء كثير ، فالصديق كنى أبا بكر ، وعمر بن الخطاب كنى أبا حفص،وعائشة أم المؤمنين كنيت أم عبد الله باسم ابن أختها أسماء ، وصخر بن حرب كنى أبا سفيان ، وعبد الرحمن بن صخر كنى أباهريرة ، وامرؤ القيس كنى أبا الحارث ، والنابغة الذبيانى كنى أبا أمامة ، وعمرو بن كلثوم كنى أبا الأسود ، وأعشى قيس كنى أبا بصير ، ولبيد بن ربيعة كنى أبا عقيل ، وأمية بن أبى الصلت كنى أبا عثمان ، وحسان بن ثابت كنى أبا الوليد ، وعمر بن أبى ربيعة كنى أبا الخطاب ، وجرير كنى أبا حزرة ، والفرزدق كنى أبا فراس ، والأخطل كنى أبا مالك . . . الخ .

(٢)وممن سمى أسدا. أسد بن ربيعة،وأسد بن خزيمة بن مدركة ،وممن سمى كلبا : كلب بن قضاعة . ومن أسمائهم ، من السباع : أوس (الذئب) ، وكلثوم (الفيل) ، ومن الطير : عكرمة (الحمامة) ، والهيثم (فرخ العقاب) ، ومن الهوام : جندب (الجرادة) ، ومازن (بيض النمل)، ومن النبات : علقمة=

أيضاً « المفازة » وإنما هي مهلكة ، و « السليم » للملسوع وإنما هو التالف(١) . ومما أرادوا به التعظيم له ولرؤسائهم أيضا اللقب كتلقيبهم بذى يزن ، ومكلم الذئب ، والباقر ، والصادق ، والرضى ، وأشباه ذلك (٢) . واللقب يجرى على وجهين: أحدهما بالاشتقاق والتمثيل ، كتلقيبهم الغريض بالغريض لتشبيههم

=(واحدة العلقم وهو الحنظل ، وقتادة ، واحدة القتاد وهو شوك) ، ومن الصفات : الصمة (الشجاع) ، ونوفل (العطية) و الأخطل (من الخطل وهو استرخاء الأذن) — للاستزادة : أدب الكاتب لابن قتيبة .

(١) ومثله تسمية رفقة السفر « قافلة » تفاؤلا بقفولها أى رجوعها .

(٢) وذو يزن ملك من ملوك حمير ، ونسب إلى « يزن » — واد هناك — لأنه حماه . ومكلم الذئب جد جماعة من خزاعة ، رووا أنه جاء إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فحدثه أن الذئب أخذ من غنمه شاة فتبعه فلما غشيه بالسيف قال له الذئب : مالك تمنعنى رزقى ! فقال الرجل عجبا لذئب يتكلم ! قال الذئب : أعجب منه أن محمدا ظهر بينكم وأنتم لاتتبعونه ، وبهذا تفخر بنوه وحفدته . والباقر لقب الأمام محمد بن على الحسين ولد سنة ٥٧ هـ وأمه فاطمة بنت الحسن ، وتوفى سنة ١١٤ هـ ، قيل: لقب بالباقر لتبحره فى العلم ، وفى اللسان لأنه بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه ، والصادق لقب الإمام جعفر بن محمد الباقر ، والرضا لقب على بن موسى بن جعفر الصادق ، ولقب به أيضا جعفر بن دبوقا المقرى ، والرضا فى الأصل الضامر و المحب — وأشباه هذه الألقاب كثير فالصديق وعتيق لقبان لأبى بكر ، لصدقه وجماله ، والفاروق لقب عمر بن الخطاب لأنه فرق بين الحق والباطل ، والحيدرة لقب على بن أبى طالب لحسنه ووضاءته ، أو لقوته وشجاعته ولقبه العباس بن عبد المطلب (ذا الرقة) يوم حنين — والرقة الدهشة — ولقبوا شرحبيل بن قرط (ذا الجوشن) لأنه أول عربى لبسه — والجوشن الدرع — ولقبوا محمد بن ابراهيم المرادى المحدث (الرقاء) .

إياه فى بياضه بالإغريض وهو الطلع (١)، والآخر بالاتفاق كتلقيبهم بالقليزر والدحاك (٢)، وربما لقبوا الانسان بغير لسان العرب كتلقيبهم بالإخشيد وبرجيس (٣). ومما جرى من الألقاب على جهة التعظيم تلقيب الخلفاء أنفسهم ومن رفعوا منزلته من أوليائهم، وذلك مشهور يغنى عن تمثيله (٤). ومن اللقب ما جرى على سبيل الذم، كتلقيبهم بذنب العنز، ورأس الكلب، وأنف الناقة قبل أن يمدح بنوه بذلك.

فهذه أقسام العبارة التى يتساوى أهل اللغات فى العلم بها. فأما العرب فلهم

---

(١) الغريض الأول اسم الشخص، والثانى لقبه، والإغريض الطلع وهو ما يبدو من ثمرة النخل أول ظهورها.

(٢) المراد بالاتفاق المصادفة، وهذان اللقبان لا يوجدان فى كتب اللغة وأغلب الظن أنهما من ارتجال المصنف.

(٣) الإخشيد لقب ملك فرغانة قديماً. وبرجيس اسم كوكب المشترى فى الفارسية، أكبر كواكب المجموعة الشمسية حجما، وعرف منها قديما سبعة كواكب وهى الشمس، وعطارد، والزهرة، والأرض، والمريخ، والمشترى، وزحل. وكشفوا فى الحديث ثلاثة كواكب هى: أورانوس ونبتون وبلوتو، واعتبروا الشمس نجما وما عداها من المجموعة كواكب؟ والنجم فى اصطلاحهم الآن جرم سماوى ملتهب متوهج يشع الضوء والحرارة والكوكب جرم سماوى بارد غير متوهج ولا ينبعث منه أى ضوء، ولكنه يعكس الضوء الذى يسقط عليه من أقرب نجم. وبعض الكواكب تتبعه أقمار، كالأرض يتبعها القمر المعروف، وزحل يتبعه تسعة أقمار، وأورانوس يتبعه أربعة أقمار، ونبتون يتبعه قمر واحد.

(٤) فى العصر العباسى اختار كل خليفة لنفسه لقباً شهر به فأبو جعفر (المنصور)، ومحمد (المهدى) وموسى (الهادى)، وهارون (الرشيد)، وابناه محمد (الأمين)، وعبدالله (المأمون) ... وهكذا. وقلدهم فى هذا سائر الخلفاء والسلاطين والملوك حتى قال من قال فى ملوك الطوائف بالأندلس:

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

استعمالات أخر من الاشتقاق (١)، والتشبيه ، واللحن ، والرمز ، والوحى ، والاستعارة ، والأمثال ، واللغز ، والحذف ، والصرف ، والمبالغة ، والقطع ، والعطف ، والتقديم ، والتأخير ، والاختراع . ونحن نذكرها بوجيز من القول ليعرفها الناظر فى هـذا الكتاب ويحيط بأقسام معانى كل منها إن شاء الله .

تنبيه : فى الصفحة السابقة ذكر المصنف أن من اللقب ما جرى على سبيل الذم . الخ والعنز الأنثى من الماعز ، وذنبها ذيلها ، وفى التلقيب به تحقـير ؛ لأن فى الذنب إشارة إلى الحطة والاتباع ، ومنه قولهم : أذناب الناس وذنباتهم أى أتباعهم وسفلتهم .

ورأس الكلاب لقب لشاعر من بنى نمير عاش فى زمن المأمون وأنف الناقة لقب جعفر بن قريع ؛ وذلك أن أباه نحر ناقة وقسمها بين نسائه ، فجاء جعفر ولم يبق من الناقة إلا رأسها وعنقها ، فقال له أبوه : شأنك بهذا ، فأدخل جعفر يده فى أنفها وجرها إلى أمه ، فلقب لهذا أنف الناقة ، وعير أبناؤه بهذا اللقب إلى أن كان الحطيئة الشاعر فى جوار الزبرقان بن بدر — وهو من بنى عمومة أنف الناقة وبينه وبينهم مفاخرات ومنازعات — فاستدرجوا الحطيئة إلى جوارهم ، فجعل يهجو الزبرقان ويمدح بنى أنف الناقة ، ومما قال فيهم :

قوم يبيت قرير العين جارهم ... إذا لوى بقوى أطنابهم طنبا
قوم إذا عقدوا عقدا لجارهم ... شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا
قوم هم الأنف ، والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

فصاروا بعد هذا المديح يفخرون باللقب (لوى : شد وعقد . الأطناب جمع طنب وهو الحبل يشد به طرف المضرب . العناج : عروة فى أسفل الدلو يشد بها الحبل . الكرب : العيدان التى تربط فوق الدلو ويقصد بشد العناج والكرب توثيق عقد الحماية والجوار) .

(١) تناول المصنف فى كلامه عن الاشتقاق : معناه ، والاحتياج إليه فى =

التشبيه :

التشبيه من أشرف كلام العرب وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم . وكلما كان المشبه منهم فى تشبيه ألطف ، كان بالشعر أعرف ؛ وكلما كان بالمعنى أسبق . كان بالحذق أليق(١) .

والتشبيه ينقسم قسمين :

(أ) تشبيه للأشياء فى ظواهرها وألوانها وأقدارها كما شبهوا اللون بالخمر ، والقد بالغصن(٢) ، وكما شبه الله النساء فى رقة ألوانهن بالياقوت(٣)

= معرفة الأسماء والأفعال ، وبناء الاسم على حرفين وثلاثة وأربعة وخمسة ، والفعل على ثلاثة وأربعة أحرف ، وزوائد كل ، ومعانيها ، وصياغة الفعل الماضى والمضارع والأمر واسمى الفاعل والمفعول ثم تكلم عن اعتلال فاء الكلمة وعينها ولامها ، وما يفرضه موقع كل وهيئته من الاعلال والقلب والإبدال والادغام — كل أولئك بما لا يخرج عما فى كتب النحو والصرف للمبتدئين ، ولهذا صرفنا عنه نظرا .

(١) وفى هذا نظر دقيق ، فالحذق يبنى على المعرفة لأنها وسيلته لاكتشاف الغوامض وأداته للغوص على الدقائق والشعر يبنى على التخيل ، ومن وسائطه التشبيه ، والشاعر أكثر سبحا فى عوالم الحياة وما وراءها ، إذ يعقد المشابهات بين الأشياء التى لا تتصور عقولنا غير الشاعرة وجود صلة بينها ، ويقوم بتجسيد المعانى والخواطر والأفكار التى تتحرك داخل العقل البشرى ، ويخلع صفة الشخوص الانسانية على غير الناس من الحيوان والنبات — وخاصة الطبيعة — فنراها تتحرك فى شئون الدنيا شخوصا تعقل وتحس وتشعر وتألم وترضى وتغضب وتتفتح بالحب والأمل وتنطوى على البغض واليأس ... الخ ، فالكلمة التى يستدعيها الخيال ليؤدى بها رمزا ما — لا تمثل نفسها بأكثر مما تمثل الارتباطات الذهنية العجيبة التى استدعيت الكلمة لتمثيلها (راجع كتابنا : قضايا النقد الأدبى الحديث : ص ١٣٩ وما بعدها) .

(٢) كقول البحترى :

فى حمرة الورد شىء من تلهبها وفى القضيب نصيب من تثنيها

(٣) قال تعالى : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا =

وفى نقاء أبشارهن بالبيض . قال تعالى:﴿ كأنهن بيض مكنون(١) ﴾ .وكما
قال الشاعر :

كأن بيض نعام فى ملاحفها   إذا اجتلاهن قيظ ليله ومد(٢)

= جان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * كأنهن الياقوت والمرجان » (الرحمن – الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨) . وقاصرات الطرف : النساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لاينظرن إلى سواهم ، ولم يطمثهن : لم يقربهن . والياقوت أصفى الأحجار الثمينة لونا .

(١) قال تعالى : « وعندهم قاصرات الطرف عين * كأنهن بيض مكنون » (الصافات – الآيتان ٤٨ ، ٤٩) . والعين : جمع عيناء وهى النجلاء ، وكلتاهما الواسعة العين الحسنتها ، شبهن ببيض النعام المكنون فى الأداحى .

(٢) البيت للراعى النميرى . ورواية أبى العلاء فى رسالة الغفران :

كأن بيض نعام فى ملاحفها   جلاه طل وقيظ ليلة ومد

وقال المبرد : « والعرب تشبه النساء ببيض النعام تريد نقاءه ونعومة لونه » (الكامل ٢/٤٧) . والملاحف جمع ملحفة وهى الملاءة وما أشبهها تلتحف بها المرأة . وليله ومد أى شديد الحرارة ساكن الريح .

والراعى شاعر إسلامى اسمه عبيد بن حصين (وقيل الحصين بن معاوية) من بنى نمير ، وكان كسائر قومه سيدا شريفا ، وسمى بالراعى لكثرة شعره فى الابل وجودة معرفته بها ، وكان ممن انحازوا إلى الفرزدق ضد جرير فهجاه هذا هجاء مرا . اختار له أبو تمام فى ديوان الحماسة فى بابى الحماسة والهجاء . ويقول عنه الأصمعى : ليس بفحل . ويقول :أشبه شعرا بالقديم وبالأول . (أخباره وأشعاره فى ديوان الحماسة لأبى تمام،وفى الشعر والشعراء ١/٤١٥ والأغانى ٢٠/١٦٨ والموشح ٢٤٩) .

وقال آخر :

أيا شبه ليلى لا تراعى فإننى   لك اليوم من بين الوحوش صديق

فعيناك عيناها وجيدك جيدها   خلا أن عظم الساق منك دقيق(١)

وقال آخر :

وردت اعتسافا والثريا كأنها   على قمة الرأس ابن ماء محلق(٢)

---

(١) البيتان للمجنون . ورواية البرهان والكامل للمبرد (٢ / ٩٠) * ولكن عظم الساق منك دقيق * وفيهما يخاطب البقرة الوحشية أو الظبية يشبه عينيها وجيدها بعيني ليلاه وجيدها (على التشبيه المقلوب الذى يدعى فيه أن المشبه بعد جعله مشبها به أقوى فى وجه الشبه) .

وسبق التعريف بالمجنون ص (٩) .

(٢) البيت لذى الرمة ، وقاله فى ورود ماء قديم لا عهد له بالواردة . وقوله اعتسافا أى على غير هدى ، والثريا : مجموع نجوم متقاربة تبدو على هيئة العنقود ، وابن ماء : الطير يلازم الماء .

وذو الرمة هو غيلان بن عقبة ، شاعر إسلامى ، ولد سنة ٤٥ هـ ونشأ فى البادية وأجاد وصفها ونعت الأطلال والدمن والأعطان وأبوال الابل ، كما أجاد التشبيب بمية من بنى قيس بن عاصم وخرقاء من بنى البكاء بن عامر بن صعصعة ، ويقال إن صاحبته مية هى التى لقبته بذى الرمة ، وذلك أنه استقاها ، رأت على كتفه رمة — وهى القطعة من الحبل — فأسقته وهى تقول له : اشرب ياذا الرمة . قال أكثر من واحد : شعر ذى الرمة نقط عروس وأبعار ظباء ، وفسروا هذا بأن شعره حلو أول ماتسمعه فاذا كثر إنشاده ضعف وذهب حسنه كنقط العروس إذا غسلتها =

(ب) ومنه تشبيه فى المعانى ، كتشبيهم الشجاع بالأسد، والجواد بالبحر والحسن الوجه بالبدر(١) ، وكما شبه الله أعمال الكافرين فى تلاشيها مع ظنهم أنها حاصلة لهم بالسراب الذى إذا دخله الظمآن الذى قد وعد نفسه به لم يجده شيئاً(٢) . وكما شبه من لا ينتفع بالموعظة بالأصم الذى لا يسمع ما يخاطب به ، وشبه من ضل عن طريق الهدى بالأعمى الذى لا يبصر ما بين

= ذهبت ، وكأ بمار الظباء طيبة الرائحة أول ما نشمها لأن فيها رائحة الشيح والقيصوم والجثجاث ثم لا تلبث أن تذهب وتتغير . وذو الرمة حجة لأنه بدوى ولكن قعد به عن مرتبة الفحول أنه لم يطلب الشهرة بالإكثار من المدح والهجاء والفخر ، وأنه كان كثير الأخذ من شعر غيره . توفى سنة ١١٧ ﻫ (أخباره وأشعاره فى ديوانه ، والشعر والشعراء ١ / ٥٢٤ وما بعدها ، والأغانى ١٦ / ١١٠) .

(١) قال المتنبى فى مدح على بن منصور الحاجب :

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا

كالبحر يقذف للقريب جواهراً ... جودا ويبعث للبعيد سحائبا

كالشمس فى كبد السماء وضوءها ... يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

وقال بديع الزمان :

هو البدر إلا أنه البحر زاخرا ... سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

(٢) قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه » (سورة النور الآية ٣٩) .

والسراب : ما يرى فى الصحراء عند شدة الحر كأنه ماء وليس به . =

يديه (١).

وفى هذا النوع من التشبيه قال الشاعر :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع (٢)

= والقيعة : المنبسط المستوى من الأرض . وقد أوضح التشبيه معنى ضياع الآمال وخيبة المؤملين ، فأعمال الكافرين التى يحسبونها نافعة عند الله لا تنفع وإنما تلقى خلاف ما قدروا كالسراب يراه السائر وقد غلبه العطش فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما ترجاه .

(١) نجد فى هذا أكثر من آية منها قوله تعالى : « ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » (سورة يونس — الآيتان ٤٢ و ٤٣) ، وقوله تعالى : « الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون * أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون * أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون * لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة فيها خالدون * مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع . هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون » (سورة هود — الآيات ١٩ — ٢٤) . وقوله تعالى : « إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم . إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (سورة النمل — الآيتان ٨٠ و ٨١) . وقوله تعالى : « فانك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم . إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (سورة الروم — الآيتان ٥٢ و ٥٣) .

(٢) البيت للنابغة الذبيانى من قصيدته التى مطلعها : =

. . . .

= عفا ذو حسا من فرتنى فالفوارع ... فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

(عفا : تغير ودرس . ذو حسا والفوارع وأريك : أسماء مواضع . فرتنى : اسم امرأة . التلاع الدوافع : مسايل الماء التى تدفع به إلى الوادى) والقصيدة من اعتذاريات النابغة للنعمان بن المنذر ، وفيها يقول :

أتانى ـ أبيت اللعن ـ أنك لمتنى ... وتلك التى تستك منها المسامع

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة ... من الرقش فى أنيابها السم ناقع

يسهد من ليـل التمام سليمها ... لحلى النساء فى يديه قعاقع

فإن كنت لاذا الضغن عنى منكلا ... ولا حالفى عنـد البراءة نافع

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

(أبيت اللعن : كلمة يدعون بها لكبرائهم ومعناها حفظت مما تلعن به . تستك : تصم وتضيق . ساورتنى : نازلتنى ضئيلة من الرقش أى حية رقشاء وهى المنقوطة بنقط بيض وسود . يسهد : يؤرق فيمنع من النوم . ليل التمام : أطول ليالى الشتاء . سليمها : لديغها ، وسموا اللديغ سليما ـ كما سبق ـ من باب التفاؤل بسلامته . قعاقع : صوت ويكون من حركة الأشياء اليابسة الصلبة ، ويطلق على صوت الرعد وغيره ، وكانوا يعالجون اللديغ بوضع الحلى فى يديه رقية . المنتأى : مكان الانتياء أى النأى وهو البعد . وفى قوله (المنتأى عنك واسع) مجاز مرسل علاقته المجاورة ، لأن الموصوف بالسعة فى الحقيقة هو مسافة ما بين المخاطب والمكان البعيد الذى هرب الشاعر إليه) .

وهذه القصيدة هى التى فاخر بها النابغة حسان بن ثابت حينما اعترض هذا على نقد النابغة لشعره (تفصيل ذلك فى الأغانى : ٦/١١ وكتابنا « اتجاهات النقد الأدبى العربى » ص ٤١) . والبيت الذى أتى به المصنف =

. . . .

= شاهداً للتشبيه فى المعانى جعلها ابن قتيبة مما سبق به النابغة ولم ينازعه فيه أحد (الشعر والشعراء ١ / ١٧٠) ، وجعله الإمام عبد القاهر من التمثيل الذى يحتاج إلى الفكر الناشئ عن دقة المعنى ولطفه وترتيب أجزائه (أسرار البلاغة ١١٨) . وفى البيت - كما نرى - يشبه الشاعر النعمان بالليل الذى يعم الكون ولا يخلو منه مكان ولا يستطيع أحد الانفلات منه مهما اتسعت أمامه مذاهبه، ويقصد بهذا أن يصور سطوة النعمان وأنه لا يفوته هارب منه وإن صار إلى أقصى الأرض ، ولما كان المقام مقام خوف ورهبة اختار تشبيهه بالليل — دون النهار مع اشتراكهما فى الإفاضة العامة على الكون — لأن فى الليل وحشة يخشى من ورائها وقوع الشر . وهذا البيت جعله البلاغيون مثالا للمساواة — وعرفوها بأنها تأدية أصل المراد بلفظ مساو له لا ينقص ولا يزيد — ولا يقدح فى المساواة حذف جواب الشرط فى البيت ، لأن حذفه اقتضته الصنعة الإعرابية دون الافتقار إليه فى تأدية أصل المراد ، وإنه لو ذكر الجواب لكان فى البيت إطالة دون داع .

والنابغة الذبيانى هو أبو أمامة زياد بن معاوية من قبيلة ذبيان ، أحد الثلاثة الفحول فى الجاهلية (والآخران امـــرؤ القيس وزهير) ، والذين لا يقتصرون على عد المعلقات سبعاً * يعدونه من أصحاب المعلقات بقصيدته التى مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار   ماذا تحيون من نؤى وأحجار =

(*) اتفق أبو زيد القرشى صاحب جمهرة أشعار العرب والزوزنى والتبريزى وأبو جعفر النحاس من شراح المعلقات على ستة أسماء (امرىء القيس — زهير — لبيد — عمرو بن كلثوم — طرفة — عنترة) ، واتفق أبو زيد والتبريزى على اسمى (النابغة الذبيانى — الأعشى) ، واتفق الثلاثة الشراح على اسم (الحارث بن حلزة) ، وعد التبريزى وحده (عبيد بن الأبرص) .

. . . .

= ولقب بالنابغة لنبوغه في الشعر كبيراً ، واشتهر أمره حينما اكتسب بشعره لدى النعمان بن المنذر ملك الحيرة واتصلت بينهما الصداقة حتى أصبح النابغة نديماً وسميراً وصفياً للملك، وحسده الحاسدون من بطانة الملك، وانتهزوا وصف النابغة المتجردة — زوج النعمان — فادعوا صلته بها ، وأسر إليه عصام حاجب الملك بالأمر ، وخاف النابغة بطش النعمان ، فارتحل عنه النابغة هارباً ، ولاذ بالغساسنة ملوك الشام — وبينهم وبين المناذرة منافسة — ومدحهم ثم حن إلى سالف مجده وعهده لدى النعمان ، فجعل يعتذر إليه ، ويستل سخيمته ويتنصل لديه ، حتى عفا عنه .

ويمتاز شعره باللفظ المنتقى ، والمعنى الواضح ، والعبارة المستوية ، والنظام المرائق وكان من المحبرين أو من نسميهم عبيد الشعر الذين أخذوا أنفسهم بتهذيب الشعر وتنقيحه والمراجعة فيه والمعاودة حتى يستوى على فنه ، ومن أشهرهم أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى

وحظى النابغة بالتقديم في عصره وبعد عصره ، ففي الجاهلية قدموه وكانوا ينصبون له في سوق عكاظ قبة من أدم فيأتيه الشعراء فيعرضون عليه أشعارهم فيقدم — أي يحكم لهم أو عليهم — وفي صدر الإسلام فضله عمر ابن الخطاب — رضى الله عنه — في أكثر من مرة عندما استقبل وفد غطفان (الأغاني ٩/١٦١ والعقد الفريد ٦/١٢٠ وكتابنا « اتجاهات النقد الأدبي العربي » ص ٥٦) ، ويقول عنه « ابن سلام الجمحي » فيما نقله ابن قتيبة (الشعر والشعراء ١/١٥٧) النابغة أحسن شعراء الجاهلية ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً . وقد افتن في معاني المدح حتى مدح بالشيء وضده ، ومثاله الشاهد مع قوله :

وأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

والنابغة هو صاحب الإقواء المشهور في شعره ، وهابه أدباء المدينة أن =

وقال الآخر :

هو البحر من أى النواحى أتيته فلجته المعروف والجود ساحله (١)

وهـذا كثير فى القول وفى القرآن والشعر ، وما ذكرنا منه دليل على ما تركنا إن شاء الله .

= يحدثوه فيه فاحتالوا وأسمعوه فيه غناء ، فأدرك خطأه ، وقال فى ذلك : قدمت الحجاز وفى شعرى عاهة ورحلت عنها وأنا أشعر الناس (الأغانى وكتابنا السالف) . وعمر النابغة طويلا ، وتوفى قبل البعثة المحمدية بقليل .

(أشعاره وأخباره فى ديوانه ، والمعلقات ، والشعر والشعراء ١/١٥٧ والأغانى ١ /٣ والموشح للمرزبانى ٤٥) .

(١) البيت لأبى تمام ، وفيه الشاهد وبعده فى البرهان :

فلو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله

وهذا البيت روى لأبى تمام فى ديوانه بلفظ « ولو لم يكن فى كفه غير روحه » ، ورواه العكبرى فى التبيان (ص ٢٦ ط . الحلبى سنة ١٩٣٦) : « ولو أن ما فى كفه غير نفسه » منسوبا إلى بكر بن النطاح ، وتردد القاضى الجرجانى (الوساطة ٢١٦) فى نسبته إلى أيهما .

وأبو تمام حبيب بن أوس رأس الطبقة الثالثة من المحدثين (الأولى بشار وأبو نواس ، والثانية أبو مسلم بن الوليد وأبو العتاهية ، والثالثة أبو تمام والبحترى والمتنبى) . واختلفوا فى أرومته فقيل: إنه عربى من طى ، وقيل إنه ينتمى إلى نصارى الشام . وفى منشئه الأول : جاسم أو منبج أو إحدى قراها أو قرية أخرى من نواحى دمشق ، وفى مولده ما بين سنتى ١٨٠ هـ و١٩٢ هـ . وفى متوفاه ما بين سنتى ٢٢٨ و٢٣٢ هـ . وهو — على الرغم من هذا — شاعر عملاق فرض نفسه على التاريخ الأدبى . وحفظوا من تاريخه =

. . . .

= أن أهله جاءوا به إلى مصر صغيرا ، ودفعوا به إلى جامع عمرو بن العاص — أول مسجد أنشئ في مصر — فجالس الأدباء والعلماء ، والتقط منهم أدبا وعلما كثيرا ، وهو فى أثناء ذلك يسقى الماء بالجرة فى الجامع ؛ حتى تمكن من العربية ، وروى آلاف القصيد والرجز ، وحاول الشعر فأجاده ، وشاع ذكره فاستقدمه « المعتصم » خليفة بغداد فى هذا الوقت — إليه ، فمدحه وكبراء دولته ، وحظى لديه ولديهم بمكانة مرموقة ، وولاه « الحسن بن وهب » بريد الموصل ، وما زال بها حتى توفى . وبرقد جدثه فيها وسط حديقة كبيرة مخضوضرة .

تناول أبو تمام فى شعره الأغراض كلها ، أجاد فى المدح والرثاء والحكمة بخاصة ، وأودع شعره شخصيته ، بما تجمعه من حصافة ، وصدق حس ، وحضور بديهة ، وسعة خيال ، وقدرة على الاستدلال العقلى ، واستخراج المعانى الدقيقة ، واستنباط الحكمة العاقلة ، واجتمع له اللفظ الجزل ، والبيان القادر ، فسلم له بعض الفن القولى ، وأسلمه بعضه إلى التوعر والتعقيد والتكلف والسخف ، فحاول ستره بالتجنيس والطباق وسائر البديع ، وبالاستعارة البعيدة ، وبالكناية الخفية . وهذه هى صنعة (البديع) التى أكثر منها بشار ومسلم وأبو نواس ، وجاء أبو تمام فأفرط فيها إفراطا وأسرف فيها إسرافا وخرج بها إلى المحال ، وقامت بشأنها الخصومة بين النقاد من عهده إلى اليوم .

وجمع أبو تمام عدة كتب فى أشعار العرب ، أشهرها (ديوان الحماسة) وفيه منتخبات من أشعار أسلافه فى أبواب : الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، مذمة النساء . ونسب الكتاب إلى الباب الأول ، وقالوا : إن أبا تمام فى اختياره لأشعار الكتاب أشعر منه فى شعره (مقدمة شرح التبريزى) ، وشرح الكتاب شروحا عدة ، من أوفاها شرح المرزوقى (٤٢١ هـ) وشرح التبريزى (٥٠٢ هـ) .

=

اللحن :

وأما اللحن فهو التعريض بالشيء من غير تصريح ، أو الكناية عنه بغيره (١) كما قال الله عز وجل : ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم

= (أخباره وأشعاره ونقدها في ديوانه ، وأخبار أبي تمام للصولي ، والأغاني ١٥ / ٩٩ ، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ، والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي ، والموشح للمرزباني ٤٦٤) .

(١) التعريض في اللغة خلاف التصريح ، والتعريض في اصطلاح أهل البلاغة : استعمال الكلام في معناه ، ملوحا به إلى غير معناه ، فالمعنى التعريضي مقصود من الكلام سياقا ودلالة ، وعلى هذا يمكن أن يتأتى مع الحقيقة (استعمال اللفظ فيما وضع له) ، ومع المجاز (استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي) ، ومع الكناية (استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة لا تمنع إرادة المعنى الأصلي) . ومن أمثلة التعريض مع الحقيقة قولك تعرض بشخص ممقوت : لست أتكلم أنا بسوء فيمقتني الناس ، وقول صاحب الحاجة لمن تنشد منه العون : جئتك لأسلم عليك ، يعرض بهذا إلى أنه طالب عطاء . ومن أمثلة التعريض مع المجاز قولك تعرض بعدم وفاء المخاطب بالعهد : أنا معتصم بحبل الله ، ومنها ما ذكره السكاكي في (مفتاح العلوم) : آذيتني فستعرف ، وأنت لا تريد المخاطب بل تريد إنسانا معه ، والعلاقة اللزوم ، إذ أنه يلزم من تهديد المخاطب لإيذائه تهديد كل مؤذ مثله ومن أمثلة التعريض مع الكناية قولك تعرض بنفي صفة الإسلام عن المؤذي : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، فمعناه الصريح حصر الإسلام فيمن لا يؤذي ، ومعناه الكنائي نفي صفة الإسلام عن المؤذي وهو المعنى المعرض به ، ويسمى البلاغيون هذا اللون (الكناية العرضية) — بضم العين — والعرضية والتعريضية بمعنى ، وفي كلتاهما إمالة الكلام إلى عرضه أي إلى فحواه والمقصود منه .

وقول المصنف : (اللحن التعريض بالشيء من غير تصريح أو الكناية عنه بغيره) فيه إشارة إلى أن التعريض كنائي ، وقد عرفت أنه ليس كذلك دائما .

=

ولتعرفنهم فى لحن القول ﴾ (١) . والعرب تفعل ذلك لوجوه ، وهى تستعمله فى أوقات ومواطن . فمن ذلك ما استعملوه للتعظيم ، أو للتخفيف ، أو للاستحياء ، أو للبقيا ، أو للانصاف ، أو للاحتراس .

فأما مايستعمل من التعريض للاعظام فهو أن يريد مريد تعريف من

= وقد أورد « ابن حجة الحموى » (٨٣٧ هـ) فى بديعياته « التعريض » ضربا من الكناية وعرفه فى « خزانة الأدب وغاية الأرب » بقوله : (هو أن يكنى المتكلم بشىء عن آخر لايصرح به ليأخذه السامع لنفسه ويعلم المقصود منه) كقولك لبخيل ما أقبح البخل ! فيعلم أنك أردت أن تقــول له : أنت بخيل .

وأورد « ابن رشيق القيروانى » (٤٥٦ هـ) فى كتابه (العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده) من ألوان البديع « الإشارة » وهى عنده لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد عن ظاهر لفظه ، وهى ضروب ، منها « اللحن » ، وهو كلام يعرفه المخاطب بفحواه وإن كان غير وجهه ، ويسمى « المحاجاة » لدلالة الحجى عليه ، كقول الشاعر يحذر قومه :

خلوا على « الناقة الحمراء » أرحلكم و « البازل الأصهب » المعقول فاصطنعوا
إن « الذئاب » قد اخضرت براثنها والناس كلهم « بكر » إذا شبعوا

أراد بالناقة الحمراء الفلاة وبالبازل الأصهب الأرض الصلبة وبالذئاب العدو وباخضرار البراثن تمتعهم بالخصب والكلأ . وبكر هو بكر بن وائل عدو القوم والناس كلهم مثل بكر إذا شبعوا طلبوا الغزو (وجعل ابن حجة الحموى المحاجاة من الإلغاز وكذلك فعل المصنف على ما يأتى فى اللغز) .

(١) سورة محمد ـ الآية ٣٠ . وسبقت فى ص (١٣) مــع تعليق عليها فارجع إليه .

فوقه قبيحا إن فعله ، فيعرض له بذكر ذلك من فعل غيره ويقبح له ما ظهر منه ، فيكون قد قبح له ما أتاه من غير أن يواجهه به ؛ وفى ذلك يقول :

ألا رب من أطنبت فى ذم غيره — لديه على فعل أتاه على عمد
ليعلم عند الفكر فى ذاك أنما — نصيحته فيما خطبت به قصدى (١)

وأما التعريض للتخفيف فهو أن تكون لك إلى رجل حاجة فتجيئه مسلما ولا تذكر حاجتك ، فيكون ذلك اقتضاء له وتعريضا بمرادك منه ؛ (٢) وفى ذلك يقول :

أروح لتسليم عليك وأغتدى — وحسبك بالتسليم منى تقاضيا (٣)

وأما التعريض للاستحياء فكالكناية عن الحاجة بالنجو والعذرة. والنجو المكان المرتفع والعذرات الأفنية ؛ وبالغائط وهو الموضع الواسع ، فكنى

---

(١) فى تقديرى أن البيتين تقوية لما قاله عن التعريض للاعظام وليس فيهما شاهد ومثال . ولعل فى قصص القرآن مثالا لما يقوله الواعظ للبغاة ومن إليهم ، كقوله تعالى : « واضرب لهم مثلا رجلين ، جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ... » الآيات ٣٢ – ٤٤ من سورة الكهف : وقوله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ... » الآيات ٧٦ – ٨٣ من سورة القصص .

(٢) ومما يؤثر عن المهلب بن أبى صفرة قوله لبنيه : « يا بنى : إذا غدا عليكم الرجل وراح مسلما فكفى بذلك تقاضيا » (الكامل للمبرد: ١/١٠١) .

(٣) لا نعرف قائله . وروى فى شرح المضنون به على غير أهله (أروح بتسليم وأغدو بمثله) . وبعده فى الكامل للمبرد : ١ / ١٠١

كفى بطلاب المرء ما لا يناله ∴ عناء ، وباليأس المصرح ناهيا !

عن الحاجة بالمواضع التى تقصد لوضعها فيها، وكما كنى عن الجماع بالسر، وعن الذكر بالفرج وإنما الفرج ما بين الرجلين، وكما تقول لمن كذب: ليس هذا كما تقول (١).

وأما التعريض للبقيا فمثل تعريض الله ـ عز وجل ـ بأوصاف المنافقين وإمساكه عن تسميتهم إبقاء عليهم وتألفاً لهم؛ ومثل تعريض الشعراء بالديار والمياه والجبال والأشجار بقيا على ألافهم وصيانة لأسرارهم وكتماناً لذكرهم، ومنه قول الشاعر:

---

(١) وفى البرهان: (ليس هذا كما يقال).

ومن أمثلة التعريض للاستحياء قوله تعالى: «وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً» (النساء ـ الآية ٤٣، والمائدة ـ الآية ٦)، والشاهد فى الغائط كما أشار المصنف، وفى لامستم النساء كناية عن الجماع فى رأى الإمام أبى حنيفة: وقوله تعالى: «ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم، علم الله أنكم ستذكرونهن، ولكن لا تواعدوهن سراً» (البقرة ـ الآية ٢٣٥)، وفى الكشف: وقع السر كناية عن النكاح الذى هو الوطء لأنه مما يسر ثم عبر به عن النكاح الذى هو العقد لأنه سبب فيه. وقال الأعشى:

ولا تقربن من جارة، إن سرها عليك حرام، فانكحن أو تأبدا

أى فتزوج أو اعتزل النساء وفى هذا تشبيه للاعتزال بتأبد الوحش أى نفوره من الإنس.

ومن أمثلة التعريض للاستحياء قوله تعالى «والذين هم لفروجهم حافظون» (المؤمنون ـ الآية ٥) وقوله تعالى: «قل للمؤمنين يغضوا من من أبصارهم ويحفظوا فروجهم .. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن» (النور ـ الآيتان ٣٠ و ٣١).

أيا أثلات القاع من بطن توضح   حنيني إلى أفيائكن طويل (١)

ومنه قول الآخر :

ألا يا سيالات الرحائل باللوى   عليكن من بين السيال سلام(٢)

وهذا باب تكثر فيه الشواهد من الشعر وغيره . وقد صرح بعض الشعراء عن المراد به فقال :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر   بأبياتكم ما درت حيث أدور(٣)

---

(١) البيت ليحيى بن طالب الحنفى كما فى معجم البلدان . والقاع وتوضح : موضعان . والأثلات جمع أثلة وهى السمرة وهى شجرة جيدة الخشب صغيرة الورق قصيرة الشوك تنبت فى أرض الجزيرة العربية ، وقيل الأثلة شجرة من العضاه طويلة مستقيمة الخشبة تعمل منها القصاع والأقداح . والأفياء : جمع فىء وهو الظل أو ما كان شمسا فينسخه الظل .

(٢) السيالات جمع سيالة (وزان سحابة) ، وهى شجرة الخلاف بلغة اليمن ، أو هى ما طال من السمر ، أو هى شجرة ذات شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه ما يشبه اللبن ، والسيال اسم هذا النوع من الشجر والرحائل : أظنها جمع رحولة وهى الراحلة .

(٣) البيت للأحوص ، من جملة أبيات شبب فيها بأم جعفر ، وهى امرأة من بنى خطمة ، وفيها يقول (على رواية الأغانى : ٦/٢٥٤) :

لقد منعت معروفها أم جعفر   وإنى إلى معروفها لفقير

وقد أنكرت بعد اعتراف زيارتى   وقد وغرت فيها على صدور

أدور ولولا أن أرى أم جعفر   بأبياتكم ما درت حيث أدور

أزور البيوت اللاصقات بيتها   وقلبى إلى البيت الذى لا أزور =

وأما التعريض للإنصاف فكقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين(١) ﴾ .

= وما كنت زوارا، ولكن ذا الهوى إذا لم يُزَر لابد أن سيزور
أزور على أن لست أنفك كلما أتيت عدوا بالبنان يشير

ورواها المبرد (الكامل ١/٣٣٣) والمرزبانى (الموشح ٢٥٨) بنقص واختلاف فى بعض الكلم وترتيب الأبيات . ومن أجلها استعدى عليه « أيمن » أخو أم جعفر والى المدينة ـ أو الخليفة عمر بن عبد العزيز فى بعض الخبر ـ فربطهما فى حبل ودفع إليهما سوطين ليتجالدا وكانت الغلبة للأخ .

والأحوص من شعراء المدينة على عهد الدولة الأموية ، ولقب بالأحوص لحوص كان فى عينيه ـ والحوص ضيق فى مؤخر العين ـ واسمه عبدالله بن محمد ، أنصارى من الأوس . يقول عنه أبو الفرج الأصبهانى (الأغانى ٤/٢٣٣) : لشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ ، ولكنه كان قليل المروءة والدين ، هجاء للناس ، وجعله ابن سلام فى الطبقة السادسة مع عبيد الله بن قيس الرقيات وجميل ونصيب ، وهو أسمح منهم طبعا وأسهل كلاما وأصبح معنى لولا ما وضع به نفسه من دنىء الأخلاق والأفعال توفى سنة ١٠٥ هـ .

(أشعاره وأخباره فى الشعر والشعراء : ١/٥١٨ ، والعقد الفريد فى أكثر من موضع ، والأغانى ٤/٢٢٤ و ٦/٢٥٤ والموشح للمرزبانى : ٣٩٥ وفى غيره من المواضع) .

(١) سورة سبأ — الآية ٢٤ . ومدخلها قوله تعالى : « قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ، حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ . قالوا : الحق ، وهو =

ومنه قول حسان بن ثابت فى مناضلته بعض من هجا رسول الله ـ عليه السلام ـ :

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء(١)

ـه العلى الكبير * قل : من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل : الله . وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » . فقد ألزمهم حجة التوحيد ، وأبان عن عجز أربابهم ، وقطع عليهم الأمل فى شفاعة هذه الأرباب ، وقررهم بأن الله هو رازقهم من السموات والأرض ، وهم مقرون بهذا بقلوبهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به لأن الذى تمكن فى صدورهم من العناد وحب الشرك ألجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته ، يقول الزمخشرى فى الكشاف : بعد هذا الإلزام والإلجام إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه أمره ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله أن يقول لهم : «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ومعناه : أن أحد الفريقين من الذين يوحدون بالعبادة الرازق من السموات والأرض ، ومن الذين يشركون به الجماد الذى لا يوصف بالقدرة — لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال ، وهذا من الكلام المنصف الذى يقول كل من سمعه موافقا كان أو مخالفا المخاطب به : لقد أنصفك صاحبك . وبعد كل ما تقدم دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين ، ولكن التعريض أنضل بالمجادل إلى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينى . هذا ، وفى التعبير : (على) مع الهدى و (فى) مع الضلال ـ إشارة إلى استعلاء المهتدى صاحب الحق وإلى انغماس الضال فى ضلالته وارتباكه فى ظلمات هواه فلا يدرى أين ـ ولا كيف ـ يتوجه . والله أعلم .

(١) البيت من قصيدة طويلة لحسان بن ثابت مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء =

. . . .

= ومناسبتها أن قريشا بعد صلح الحديبية أدركت أنها لم تشتف من النبي — صلى الله عليه وسلم — وصحبه بانتصار حربي ، فدفعت شعراءها إلى هجاء النبي والتشهير بالدين الجديد، ومن هؤلاء الشعراء أبوسفيان بن الحارث عبدالمطلب ، وكان لابد من مواجهة السلاح القولي بسلاح مثله ، فندب النبي حسان بن ثابت ليدفع عنه وعن الدين ، فكانت هذه القصيدة ، وفيها يهجو أبا سفيان هذا قبل إسلامه بقوله :

ألا أبلغ أبا سفيان عني	فأنت مجوف نخب هـــواء
بـأن سيوفنا تركتك عبدا	وعبد الدار سادتهـــا الاماء
هجوت محمـــدا فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجـــزاء
أتهجوه ولست له بكفء	فشركما لخيركما الفداء
هجوت محمدا برا حنيفا	أمين الله شيمته الوفاء
أمن يهجو رسول الله منكم	ويمدحـــه وينصره سواء
فان أبي ووالدتي وعرضي	لعرض محمـــد منكم وقاء
لساني صارم لاعيب فيه	وبحري ماتكدره الدلاء

(قوله : فأنت مجوف نخب هواء ، أي فارغ القلب من العقل والشجاعة — وروى هذا الشطر « مغلغلة فقد برح الخفاء » والمغلغلة الشديدة الحرارة ، وبرح الخفاء بمعنى ذهب التستر أو بمعنى ظهر السر — وعبد الدار بطن من قريش كانت لهم السقاية واللواء والحجابة والرفادة، وقوله : سادتها الاماء ، فيه إشارة تاريخية لما حدث لهم يوم أحد ، ذاك أن اللواء أخذه منهم طلحة ابن أبي طلحة فقتله سيدنا علي ثم أخذه عثمان بن طلحة فقتله حمزة ، ثم سعيد بن أبي طلحة فقتله سعد بن أبي وقاص ، وما زال اللواء يتنقل حتى أخذه عبد لهم يسمى صوابا فقتل فأخذته امرأته . والعرض هنا بمعنى النفس . ووقاء : مايتوقى به المكروه . والدلاء : جمع دلو، يفتخر بقوة بيانه واتساع شعره). =

. . . .

= والبيت الشاهد يحذو حذو الآية الكريمة فى التعريض للانصاف، وهو - من ناحية أخرى - دليل تأثر الشعر بأسلوب القرآن الكريم ومنهجه الأدبى

وحسان بن ثابت هو شاعر الرسول ، أنصارى من بنى النجار دخل فى الاسلام بعد هجرة الرسول إلى المدينة ، وعمر عشرين ومائة سنة قضى نصفها فى الجاهلية ونصفها فى الاسلام ، وشارك فى حديث الافك الذى رميت به السيدة عائشة ، ولما حسن اسلامه وهبه الرسول أخت السيدة مارية فأولدها ابنه عبد الرحمن . وتوفى حسان سنة ٥٤ هـ .

ووصفوه بأنه أشعر أهل المدر ، اتصل أمره فى الجاهلية بالمناذرة ملوك الحيرة والغساسنة ملوك الشآم فمدحهم وأغدقوا عليه ، ولما أسلم تحول شعره إلى الدفاع عن الرسول والإسلام، وكان رسول الله يتعرض لهجاء ثلاثة من قريش هم عبدالله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص ، فندب الرسول ثلاثة من شعراء المسلمين للرد عليهم وهم حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبدالله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر ، فكان أشد القول عليهم — أول الأمر — قول حسان وكعب ، وأهون القول قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان هجاء ابن رواحة أشد عليهم مما سواه .

وشعر حسان فى الجاهلية مصبوغ بصبغة الشعر الجاهلى جزالة وقوة أسر ووعورة مسلك ، وشعره فى الإسلام مطبوع فى مجموعه بطابع الشعر الإسلامى سهولة ولينا ودماثة ، حتى قيل (خاص الخاص للثعالبى ص ٨٠) : إنه كان يجيد الشعر فى الجاهلية ويدعى أن شيطانه من بنى الشيصبان يقول الشعر على لسانه ، فلما أدرك الإسلام وتبدل شيطانه ملكا تراجع شعره ورك قوله ، وادعى بعض النقاد (الشعر والشعراء ١/٣٠٥ والموشح للمرزبانى ٨٥ نقلا =

وأما التعريض للاحتراس فهو ترك مواجهة السفهاء والأنذال بما يكرهون وإن كانوا لذلك مستحقين ؛ خوفاً من بوادرهم وتسرعهم، وإدخال ذلك عليهم بالتعريض والكلام اللين(١) . وفى ذلك يقول الله ـ عز وجل ـ

= عن الأصمعى) أن الشعر نكد بابه الشر فاذا دخل فى الخير ضعف ، بدليل أن حسان بن ثابت كان فحلا فى الجاهلية وكان شعره أجود الشعر ، فلما جاء الإسلام لان شعره لأنه دخل فى باب الخير من مراثى النبى وحمزة وجعفر وغيرهم ، وإنما طريق الشعر هو طريق شعر الفحول أمثال امرئ القيس وزهير والنابغة ؛ من صفات الديار والهجاء والمديح والفخر والحروب .

ونحن لا نطمئن إلى نظرية الإلهام فى الفن القولى ؛ لأنها تلغى الوعى والاختيار ، والظواهر دالة على أن للمنشئ إرادة فيما ينشئه (كتابنا : قضايا النقد الأدبى الحديث ـ ص٧٩) . أما القول بتحول حسان إلى الرقة واللين فهو ظاهرة ملموسة مردها إلى تأثره بفصاحة القرآن الكريم والحديث الشريف ، وإدراكه سماحة الدين ومدى تقديره للقيم الخلقية العالية ، مع الأخذ فى الاعتبار بتقدمه فى العمر وبفروض الارتجال لتحية الوفود الوافدة على المدينة ومخاطبتهم .

(أخباره وأشعاره فى ديوانه ، وديوان الحماسة لأبى تمام ، والشعر والشعراء ١/٣٠٥ ، والعقد الفريد فى مواضع عدة، والأغانى للأصبهانى ٤/١٣٤ وغير هذا الموضع ، والموشح للمرزبانى ٨٢) .

(١) ونمثل له بنحو (أنا أعتقد وجوب الصلاة) يخاطب به من يتركها ويعتقد عدم وجوبها تعريضا له بأنه كافر أو خارج على الجماعة. ونحو (خير الناس أنفعهم للناس) يخاطب به من يضر الناس ويؤذيهم تعريضا بسوء مسلكه .

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم(١) ﴾ . وقال لموسى وهارون فى فرعون : ﴿ فقولا له قـــولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى(٢) ﴾ .

الرمز :

وأما الرمز فهو ما أخفى من الكلام . وأصله الصوت الخفى الذى لا يكاد يفهم(٣)، وهو الذى عناه الله ـ عز وجل ـ بقوله : ﴿ قال : رب اجعل لى

---

(١) سورة الأنعام — الآية ١٠٨ . ولا تسبوا : نهى عن السب وهو الشتم بالقبيح ، والذين يدعون من دون الله : المراد بهم أرباب الكافرين وآلهتهم ، عدوا : عدوانا وظلما ، بغير علم : أى على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به . كان المسلمون يسبون آلهة الكافرين وأربابهم فنهى القرآن عن ذلك لئلا يدفع الكافرون إلى سب الله — سبحانه وتعالى ـ قال الزمخشرى فى الكشاف : فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة فكيف صح النهى عن المعاصى ؟ . وأجاب عن هذا بقوله: رب طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة ، كالنهى عن المنكر هو من أجل الطاعات فاذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب معصية ووجب النهى عن ذلك النهى كما يجب النهى عن المنكر . ا هـ

(٢) سورة طه — الآية ٤٤ . أى اعرضا على فرعون هذا الدين عرضا فيه رفق ولين ، وتلطفا فى دعوته إليه ، واستغلا منطق الإقناع الهادئ ، على رجاء نجح سعيكما فى أن يتذكر ويتأمل فيذعن للحق ، أو أن يخشى عاقبة الإعراض ومغبة الهلاك فيراجع نفسه .

(٣) فى كتب اللغة : الرمز الحركة الضعيفة ، وتكون بالشفتين ، وبالعينين ، وبالحاجبين ، وبالرأس ، وباليد ، وبغيرها ، ويطلق الرمز =

آية . قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا(١) ﴾ ،

وإنما يستعمل المتكلم الرمز فيما يريد طيه عن كافة الناس والإفضاء به إلى بعضهم ، فيجعل للكلمة أو للحرف اسماً من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس أو حرفا من حروف المعجم ، ويطلع على ذلك الموضع من يريد إفهامه ، فيكون ذلك قولا مفهوما بينهما مرموزا عن غيرهما(٢) .وقد أتى

= على الرزين ، ويقال للناقة إذا أصابها ثقل فلا تكاد تمشى لسمنها : قد أرمزت . ثم اتسعوا فيه فأطلقوه على كل حركة ، فالرميز الكثير الحركة ، والراموز البحر ، والرمازة الكتيبة الكبيرة التى ترتمز أى تضطرب وتتحرك من جوانبها ، وقالوا : ارتمز فلان من الضربة وترمز منها أى اضطرب،وترمز القوم وارتمزوا تحركوا فى مجالسهم لقيام أو خصومة .. ألخ .

وأورد « ابن حجة الحموى » الرمز ضربا من أضرب الإشارة ، ومثل له بقول أحد القدماء يصف امرأة سباها وقتل زوجها :

عقات لها من زوجها عدد الحصا   مع الصبح أو مع جنح كل أصيل

يرمز إلى أنه لم يعطها بزوجها عقلا — أى دية — إلا الهم الذى يدعوها إلى تعداد الحصا صبحاً وأصيلا .

(١) سورة آل عمران — الاية ٤١ . وجاءت فى قصة زكريا — عليه السلام — حينما بشرته الملائكة بابنه يحيى ، ودهش زكريا أن يكون له غلام وقد ناهز هو وامرأته مائة عام ، وطلب آية — أى علامة — يعرف بها حبل امرأته ، فقيل له : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ، أى لا يجد من نفسه القدرة على مخاطبة الناس إلا عن طريق الرمز .

(٢) وهذا الذى يشير إليه المصنف نجده اليوم فى اللغة السياسية التى

فى كتب المتقدمين من الحكماء والمتفلسفين من الرموز شىء كثير، وكان أشدهم استعمالا للرمز أفلاطون(١) .

وفى القرآن من الرموز أشياء عظيمة القدر جليلة الخطر ، وقد تضمنت علم ما يكون فى هذا الدين من الملوك والممالك والفتن والجماعات ، ومدد كل صنف منها وانقضائه ، ورمزت بحروف المعجم وبغيرها من الأقسام كالتين والزيتون والفجر والعاديات والعصر والشمس ، واطلع على علمها الأئمة المستودعون علم القرآن . ولذلك قال أمير المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ : « ما من مائة تخرج إلى يوم القيامة إلا وأنا أعلم قائدها وناعقها وأين مستقرها من جنة أو نار » . ورووى عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أنه سئل عن الم ، وحم ، وطسم وغير ذلك مما فى القرآن من هذه الحروف فقال : « ما أنزل الله كتاباً إلا وفيه سر ، وهذه أسرار القرآن » . وهى حروف الجمّل ، ومنها كان « على » يعلم حساب الفتن . فهذه الرموز هى أسرار آل محمد . ومن استنبطها من ذوى الأمر وقف عليها فعلم جليل ما أودعهم الله إياه من الحكمة . وقد ذكرنا ما تأدى إلينا من تفسير ذلك فى كتابنا الذى لقبناه (بأسرار القرآن) ما أغنى عن إعادته هاهنا . فإن رغبت فى النظر فيه فاطلبه تقف عليه إن شاء الله (٢) .

= تصطنعها كل دولة لنفسها صيانة لأسرارها وحياطة لأمنها ، تتخاطب بها مع بعثاتها السياسية لدى الدول الأخرى .

(١) كان « أفلاطون » يلجأ إلى الرمز فى عرض آرائه ، ودعته إلى استعماله نظريته فى المثالية التى كانت تنكر حقائق الأشياء المحسوسة ، ولا ترى فيها غير رموز للحقائق المثالية البعيدة عن عالمنا المحسوس .

(٢) والمصنف — كما ترى — محكوم بسلطان العقيدة الشيعية ، فهو يتبنى وجهة غلاة الشيعة ، الذين يرون فى القرآن الكريم وكلماته وحروفه =

. . . .

= رموزاً وأسراراً ، فيها تأويل أحداث الدنيا ، ويرون هذا التأويل وقفاً على أئمتهم .

وقد تناول البلاغيون الرمز كأسلوب كنائى ، فاعتبروا رمزاً الكناية التى قلت وسائطها وكان فيها نوع خفاء دون تعريض (مفتاح العلوم للسكاكى) ؛ ومثلوا لها بنحو قولهم : فلان عريض الوسادة ، كناية عن بلادته ، وفلان رسول الشر ، كناية عن مزاحه . وتناول البلاغيون الرمز كصنعة بديعية حين يريد المتكلم إفهام المخاطب شيئاً لا يصرح له به وإنما يخفى أمره فى كلامه فيرمز له فى ضمنه رمزاً يهتدى به المخاطب إلى استخراجه (بدائع القرآن لابن أبى الأصبع) .

وتناول البلاغيون الرمز كوسيلة للتعمية فى الصنعة البديعية ، ولا تكون مقبولة إلا بحيث يقبلها الذوق ويكون للقول المعمى معنى ويرى قائماً بحسن تركيبه (كنز الاسما فى كشف المعمى لبديع الزمان الهمذانى) . ومثلوا لهذا المعمى بقوله تعالى : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فاستخرجوا منه اسم « هود » عن طريق التصحيف ، وقوله تعالى : « فخلق فسوى » فاستخرجوا منه اسم « يوسف » عن طريق القلب — يوسف مقلوب فسوى — ولعل هذا أقرب لما ذكره المصنف .

هذا فى القديم . أما فى الحديث فالرمز فى الأدب يعنى استرسال الإيحاء بهواجس النفس فى ألفاظ غامضة مبهمة وتجسيم الأفكار المجردة وتحريكها فى أحداث ، ولما كانت وظيفة الأدب الأولى هى توليد المشاركة الوجدانية بين المنشئ والمتذوق فهذا الأدب عند الرمزيين يسعى إلى نشر العدوى النفسية ونقلها من المنشئ إلى المتذوق ، ولما كانت اللغة رموزاً للعالم الخارجى والعالم النفسى وكانت وظيفتها إثارة الصور (الرموز) المماثلة . قال الأدباء الرمزيون : إن معطيات الحواس تتداخل وتتبادل (كتابنا : قضايا النقد =

. . . .

= الأدبي الحديث — ص ٩٥) ، وهدفهم من هذا: الانعتاق من قيود المعقول والمحدود توصلا إلى أغوار الشعور الإنساني ، ووسيلتهم إلى هذا إلقاء الضباب الكثيف من اللفظ حول المعنى بما يجهد الفكر في تقصى ما وراءه ، عن طريق استعمال غير المألوف من الوصف والمجاز ، وغموض الإشارة ، والإبعاد في الدلالة ، واستغلال الإيقاع الصوتي . ولهذا ألفنا منهم أن يقولوا: الشهوة الحمراء — الطعم الرمادي — احتضر الليل — تلهث في رأسي الفكر — وأن يقول « نزار قباني » من قصيدة موضوعها « وشوشة » — (ديوان طفولة ص ٣٥) :

في ثغرها ابتهال   يهمس لي تعال
إلى انعتاق أزرق   حدوده المحال
وشوشة كريمة   سخية الظلال
ورغبة مبحوحة   أرى لها خيال
على فم يجوح في   عروقه الظلال
يهتف بي عقيقه   غدا لك النوال

وأن يقول « بشر فارس » في قصة عنوانها « رجل » : (جبل هب أملس ضامراً جرداً ، رمح رب أعياه خلف لا يزجرون) . وأن يقول « سعيد عقل » :

تتكى رحمة العلى بين جفنيه اتكاء السنا بحضن البرية

والكلام في الرمز والرمزية كثير ، وحسبنا منه هذه اللمحة — غير الخفية — ولعمرى لقد أحيا الأحداث مذهب « أبي تمام » إن لم يكن مسخوه عن طريق الترجمة والنقل من الآداب الأوربية .

الوحى :

وأما الوحى فإنه الإبانة عما فى النفس بغير المشافهة ، على أى معنى وقعت ؛ من إيماء ، ورسالة ، وإشارة ، وكتابة(١) ؛ ولذلك قال الله - عز وجل - : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ﴾ (٢) .

---

(١) فى معاجم اللغة : الوحى : الإشارة ، والإيماء ، والكتابة ، والمكتوب ، والكتاب ، والإلهام ، والرسالة ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه ، والصوت يكون فى الناس وغيرهم . وأوحى إليه بعثه وألهمه . واستوحاه استلهمه . وغلب استعمال الوحى فيما يلقى إلى الأنبياء من عند الله .

فاللغويون يتسعون فى معنى الوحى فيطلقونه على المشافهة (الكلام الخفى والصوت) وعلى غير المشافهة ، والمصنف يقصره على غير المشافهة ، فلعله فى هذا يجتهد أو يرمى اصطلاحا له .

(٢) سورة الشورى — الآية ٥١ ، وفيها كاملة قصر تكليم الله البشر على ثلاثة أوجه : الوحى ، وصورة التكليم من وراء حجاب ، وعن طريق إرسال الرسل . ووقع الوحى بأمرين : بالمنام وبالإلهام ، فالمنام كما أوحى إلى إبراهيم ذبح ولده — عليهما السلام — وإلى أم موسى أن ترضعه ، والإلهام والقذف فى القلب كما أوحى الزبور إلى داود فى صدره (عن مجاهد) . والتكليم — أو صورته — كما كلم الله موسى ويكلم الملائكة . وإرسال الرسل ، كما كلم الأنبياء عن طريق الملائكة ، وكلم أمم الأنبياء على ألسنتهم .

وكلمة « وحيا » فى الآية فى موضع المفعول المطلق المبين للنوع ، والتقدير : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا كلاما وحيا أى كلاما خفيا . =

وهو على وجوه كثيرة ؛ فمنه « الإشارة » كما قال الله - عز وجل - : ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ (١) . ومنه « الوحى المسموع من الملك » كقول الله - عز وجل - : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ﴾(٢). ومنه « الوحى فى المنام » وهو الرؤيا الصحيحة ، كما قال الله - تعالى - : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾(٣) . ولذلك قال رسول الله - صلى الله عليه

= ويجوز أن تكون فى موقع الحال بتأول المصدر، والتقدير : وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا موحيا ، وهذا الاعراب — الأخير — أليق بكلام المصنف .

(١) سورة مريم — الآية ١١ ، وهى فى قصة زكريا — عليه السلام — حين بشرته الملائكة بيحيى ، وجعل الله له آية ألا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا (ارجع إلى ص ٧١) ، فلمـــا وقعت الآية خرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ، عن مجاهد أشار إليهم ، وعن ابن عباس كتب لهم على الأرض . وأن مفسرة بمعنى أى ، لأن الإيحاء فيه معنى القول (وكذلك أن فيما يلى) .

(٢) سورة النجم — الآيتان ٤ و ٥ ، قصر ماينطق به الرسول — صلى الله عليه وسلم — على الوحى يوحى إليه به من عند ربه علمه إياه ملك شديد القوى وهو جبريل ، ووصفه بشدة القوى معنـــاه أن الله أودعه القدرة الفائقة على أداء مهامه ، والتعبير بالقصر يستند إليه من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ، وقد يجاب عنه بأن الله — سبحانه — إذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند إليه وحيا .

(٣) سورة القصص — الآية ٧ .

وسلم ـ : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »(١) . ومنه « الالهام » ، كما قال الله ـ عز وجهه ـ : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ﴾(٢) ، أى ألهمها ، ومنه « الكتاب » ؛ يقال منه وحيت الكتاب ؛ إذا كتبته ؛ قال الشاعر :

---

(١) روى الحديث بألفاظ متقاربة : « الرؤيا الصالحة — الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح — رؤيا المؤمن : جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » ؛ وأخرجه البخارى فى كتاب التعبير وفى كتاب الطب ، ومسلم فى كتاب الرؤيا ، وابن ماجه فى السنن ، ومالك فى الموطأ ؛ بأسانيد عدة عن أنس بن مالك ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى ، وعبادة بن الصامت ، وعطاء بن يسار . والرؤيا (بالقصر) مصدر كالبشرى مختصة غالبا بشىء محبوب يرى فى المنام ، وقيل : الرؤيا كالرؤية جعلت ألف التأنيث مكان التاء للفرق بين ما يراه النائم وما يراه اليقظان . والرؤيا الصالحة أو الحسنة هى الرؤيا الصادقة ؛ عن عائشة — رضى الله عنها — : « أول ما بدئ به رسول الله الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » وهى الرؤيا المبشرة أى التى تدخل البشر والسرور ؛ عن أبى هريرة أنه سمع الرسول — صلى الله عليه وسلم — يقول : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ؛ قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة » (أخرجه البخارى) . ومعنى كونها جزءا من ستة وأربعين جزءا من النبوة أنها جزء من أجزاء النبوة فى الجملة ؛ وقال ابن العربى : أجزاء النبوة لا يعلم حقيقتها إلا ملك أو نبى ، وإنما القدر الذى أراد الرسول بيانه أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة فى الجملة ؛ لأن فيها اطلاعا على الغيب من وجه ما ، وأما تفصيل النسبة فمن علوم النبوة .

(٢) سورة النحل ـ الآية ٦٨ وتكملتها «ومن الشجر ومما يعرشون» =

ماهيج الشوق من أطلال دارسة أضحت خلاء كوحى خطه الواحى(١)

ويقال منه : وحيت أحى ، كما يقال وفيت أفى ، ومن الوحى « الاشارة باليد » و « الغمز بالحاجب » و « والايماض بالعين » (٢) ؛ كما قال الشاعر :

وتوحى إليه باللحاظ سلامها ؛ مخافة واش حاضر ورقيب (٣)

وقال آخر :

أشارت بطرف العين، خيفة أهلها، إشارة محزون، ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً وأهلا وسهلا بالحبيب المسلم (٤)

= والإيحاء هنا إلهام — كما قال المصنف — وإلقاء فى القلب وتعليم على وجه لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه وإن أدرك آثاره . والتعبير بمن لإرادة معنى البعضية فهى لا تتخذ بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ، لأن مصلحتها تقع فى بعض المواطن دون بعض ، وسبحان الله العلى القدير !

(١) فى البرهان (أضحت قفاراً) . ومن استعمال الوحى فى الكتاب قول رؤبة : لقدر كان وحاه الواحى — أى كتبه الكاتب (عن أساس البلاغة) . والأطلال جمع طلل (وزان سبب) وهو الشاخص من الآثار ودارسة فاعلة من درس بمعنى عفا وخفيت آثاره .

(٢) ننبه إلى اشتراك الرمز والوحى فى هذه المعانى — راجع معانى الرمز (ص ٧٠) ومعانى الوحى (ص ٧٥) .

(٣) اللحاظ : مؤخر العين مما يلى الصدغ ، والمشهور فيه الكسر كما ضبطه الازهرى فى التهذيب ، وضبطه فى الصحاح والقاموس المحيط بالفتح .

(٤) البيتان لعمر بن أبى ربيعة . وعبارة (مرحباً وأهلا وسهلا) للتحية واستقبال القادم ، تتضمن البشاشة له والهشاشة لمقدمه ، وإشعاره بمحبة القارين وأنسهم به ، فهم يسعونه فى صدورهم ، ويفتحون له مغاليق قلوبهم، ويحملون=

. . . .

= من أقسمهم له أهلا — أو كالأهل — ويوطئون له فى دورهم وديارهم الموطن السهل — أو كالسهل — وليس بعد هذا إلا الإخلاد إلى السكينة والراحة ، والاطمئنان إلى الأنسة والسلام .

والشاعر هـــو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن ربيعة ، قرشى من بنى مخزوم ، ولد ليلة مات عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ . وكان أبوه عبد الله (واسمه فى الجاهلية بحيرى) تاجراً موسرا واسع الثراء وبلغ من يساره أن قريشاً كانت تكسو الكعبة من أموالها عاما ، ويكسوها هو من ماله عاماً . وتزوج أم عمر من اليمن حين ذهب إليه واليا على مخاليفه ، وكانت له من قبل باليمن صلة حين كان يتجر اليه فى الجاهلية والإسلام . ونشأ عمر يرفل فى ثراء أبيه، وانضاف إلى هذا ما كان هو عليه من وسامة وقسامة ، وما كان عليه المجتمع الحجازى فى الدولة الأموية من إغراق فى اللهو والمجون والترف والغناء ، سياسة من بنى أمية ، حتى يصرفوا ذلك المجتمع غن شئون الحكم والخلافة ، واجتمع على عمر الخلعاء من شباب الحجاز ، فغوى معهم أو غووا معه، ولم تكن به حاجة إلى التكسب بشعره ، فصرفه إلى تزجية وقته بحـــديث اللهو والهوى ، وإشباع لذائذه بالتعرض للنساء ، حتى تعرض لكل أنثى فى كل مكان ، وانتهز مواسم الحج والعمرة ، فجعل يطاردهن ، ويمتع نفسه بمرآهن سافرات حاسرات لابسات لبسة المتفضل ، ويعرض عليهن غزله وهواه . وأغضب مسلكه هذا علية القوم وأشرافهم ، فشكوا منه أكثر من مرة ، واستتابوه غير مرة ، واستصرخوا نخوته ، وقيل : إنهم استعدوا عليه عمر بن عبد العزيز ، فنفاه إلى « دهلك » — جزيرة أمام مصوع — وإنه أراد فى أخريات أيامه التكفير عن جرائره ، فركب — فيمن ركب — سفينة مجهزة للغزو فى البحر فاحترقت به وبمن فيها ، وكانت وفاته سنة ١٠٣ هـ (وقيل توفى سنة ٩٣ هـ وعلى هذا تكون =

. . . .

=واقعة نفي عمر بن عبد العزيز إياه غير مقبولة ـ وهذا ما نرجحه ـ ولأن عمر تولى الخلافة سنة ٩٩ هـ) .

والشاعر يحذو حذو امرئ القيس في غزله وعرض صبواته ، ولكن عمر يصبغ غزله بصبغ المدينة، ويسمر معانيه ويتأنق فيها ، ويتنوع في تصورها ، ويتأنق في لفظها ، ويكثر من الحديث عن الدبيب والتسلل والاحتيال إلى اللقاء ، ويدعي مع اللقاء التجميش وفسوق الأعين وتوسد الخدود ورشف الثغور وهصر القدود وحل المعاقد ونزع المجاسد ونجـــد في شعره هذه الصورة مكرورة :

ثم قالت وسامحت بعد منـــع وأرتني كفا تزين السوارا

فتناولتهـا فمالت كغصن حركته الريح عليـــه فمارا

وأذاقت بعد العلاج لذيذاً كجنى النحل شاب صرفا عقارا

واشتكت شدة الإزار من البهـ ر ، وألقت عنها لدى الخمارا

حبـــذا رجعها إليها يديهـا في يدي درعها تحل الإزارا

وهذا غزل إباحي ، عد صاحبه إماما فيه ، وقد صاغه أكثر ما صاغه في قالب قصصي ، مكنه من تفصيل القول وحكاية الأحداث ، تفصيلا وحكاية عن صريح المسعى والمطلب ، ووصف أحوال النساء في منازلهن وفي معتاد كلامهن ، ومداعباتهن ، ومعاتباتهن ، ومعابثاتهن ، مما يعف عن حكايته أولو الوقار والورع ، ولا سيما في عصر قريب عهـــد بالنبوة ، وفي موطنها . ومع ذلك لا نتجنى إذا سجلنا أن مسلك عمر أعجب النساء وأرضى هواهن وأشبع ميولهن ، حتى تمنت كل أنثى أن يذكرها في شعره ، وربما تعرضن له بأكثر مما تعرض هو لهن .

وشهد الفرزدق وجرير لغزله فقالا عنه : هذا هو الذي كانت الشعراء =

وقال آخر :

أشارت بأطراف كأن بنانها أنابيب در قمعت بعقيق
وقالت: كلاك الله في كل مشهد، مكانك من قلبي مكان شقيق (١)

= تطلبه فأخطأنه ، وتحدث عنه نصيب فيما تحدث عن شعراء الغزل فقال : جميل أصدقنا شعراً ، وكثير أبكانا على الظعن ، وابن أبي ربيعة أكذبنا ونصيب يقول ما يعرف. ومع ذلك وجد من يضع من غزله فالمفضل يقول : لم يرق عمر كما رق الشعراء ، لأنه ما شكا قط من حبيب هجراً، ولا تألم لصد ، وأكثر أوصافه لنفسه وتشبيبه بها ، وإن أحبابه يجدون به أكثر مما يجد هو بهم ، ويتحسرون عليه أكثر مما يتحسر هو عليهم (الموشح ٣٢١) . وقد فات المفضل أن عمر عاشق يفتنه الجمال ، وتحركه اللذة ، وتوقظه الشهوة ، ويستخفه الطرب، فإن أفلتت منه أنثى نشد أخرى،وليس كالعذريين، الذين يقنع الواحد منهم بأنثى بعينها ، فتملك عليه وجدانه ، وتحتل شغاف قلبه ، وتملأ عليه دنياه ، فلا يرى الدنيا إلا من خلالها ، ولا يدرك السعادة إلا من رضاها ، ولا يرخص المهجة إلا في سبيلها ، ولا تنظر عينه إلا إلى جمالها ، ولا يتنسم إلا عبيرها ، ولا يستروح إلا شذاها . ولهذا كثرت صواحب عمر ، وشهر في شعره بأكثر من واحدة ، من أشهرهن : هند ، وزينب ، والثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث ، وعائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، ونعم ، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، ورملة بنت عبد الله بن خلف وهي أخت طلحة الطلحات ، ولبابة بنت عبد الله بن عباس ، والرباب وأسماء ، وأم محمد بنت مروان بن الحكم .

(أشعاره وأخباره في ديوانه ، والشعر والشعراء ٢/٦٥٣، والعقد الفريد وخاصة الجزء السادس ، والأغاني ـ الجزء الأول، والموشح للمرزباني ٣١٥) .

(١) الأطراف هنا الأصابع، وبنانها هنا أي أناملها جمع بنانة وهي الأنملة =

الاستعارة :

وأما الاستعارة فانما احتيج إليها فى كلام العرب لأن ألفاظهم أكثر من معانيهم ، وليس هـذا فى لسان غير لسانهم ؛ فهم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ، ربما كانت مفردة له ، وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره وربما استعملوا بعض ذلك فى موضع بعض على التوسع والمجاز (١)، فيقولون

= وهى رأس الإصبع (وتطلق البنان على الأصابع كلها) . والأنابيب الكعوب، والعقيق خرز أحمر، ومعنى قمت بعقيق أن العقيق جعل لها كالقمع وهو ما التزق بأسفل التمرة والبسرة ونحوها . ومراد الشاعر أن هذه البنان بيض على هيئة الأنابيب من الدر وقد صبغت أطرافها بصبغ أحمر أشبه بالعقيق (المونيكير بلغة هذه الأيام) . وكلاك الله أى كلأك بتسهيل الهمز بمعنى حفظك وحرسك .

(١) تابع المصنف فى هذا الباحثين فى أصول اللغة ونشأتها ، ويستفاد مما حفظناه عنهم : أن الناس كلما مضوا فى الحياة نمت حاجاتهم للعبارة عما يجد فى أساليب حياتهم ومضامينها ، وعما تستوجبه صلاتهم وعلاقاتهم ، وعما تتسع له أفكارهم وتصوراتهم ، فجعلوا يضعون الكلمات والألفاظ التى يصورون بها هذا الجديد ، أو يتواضعون عليها. وقد نمت ألفاظ اللغة العربية بعوامل عدة ، أجملوها فى :الاشتقاق ، والإلحاق، والزيادة ، والنحت، والقلب، والإبدال . ونمت العبارة (وإن شئت فقل الألفاظ فى حال تركيبها) بالتجوز ، والتكنية ، والاشتراك . وجاء التعريب ورموز العلوم التى أسميناها مصطلحات وما إليها عوامل تنمية مضافة إلى العوامل السالفة .

وبهذا المفهوم يصير المجاز — ومنه الاستعارة — من وسائل نمو اللغة ؛ لأن المعنى يعبر عنه تارة باللفظ الذى وضع له ، وتارة بلفظ آخر ينقل عن موضع استعماله فى أصل اللغة إلى غيره (وهذا كله هو موضوع علم البيان) . =

إذا سأل الرجل الرجل شيئا فبخل به عليه ـ : « لقد بخّله فلان »(١) ، وهو لم يسأله ليبخل وإنما سأله ليعطيه ، لكن البخل لما ظهر منه عند مسئلته اياه جاز فى توسعهم ومجاز قولهم أن ينسب ذلك إليه ، ومنه قول الشاعر :

... فللموت ما تلد الوالده(٢) . .

والوالدة إنما تطلب الولد ليعيش لا ليموت ، لكن لما كان مصيره إلى

= ومقتضى هذا أن تتسع العبارة لأكثر من معنى ، أى أن تزيد المعانى على الألفاظ ، وليس كما قال المصنف (ألفاظهم أكثر من معانيهم) .

ومع ذلك لا نقول بزيادة المعانى على الألفاظ ، وإنما نقول بتساويهما ، فاللفظ والمعنى كلاهما يرتبط بالآخر ارتباط لزوم ويستدعيه ، فإذا حضر اللفظ استدعى المعنى ولزمه ، وإذا أحضر المعنى انبثق اللفظ الذى يؤديه ، وصانع المجاز إنما يصنع لفظا لمعنى استجد أو يضع معنى فى قالب من اللفظ ، فهو لا يصنع لفظا لفراغ ، ولا يخترع معنى غير واجد له جسدا من اللفظ .

(١) فلان هو السائل ، والضمير فى الفعل يعود على المسئول . ويجوز على غير تأويل المصنف ألا يكون فى الكلام تجوز فيكون معنى « بخله » رماه بالبخل .

(٢) من قول الشاعر :

هم يطعنون صـــدور الكما ة والخيـــل تطرد أو طارده
فإن يكن الموت أفناهم فللموت ما تـــلد الوالده

واستشهد به نحاة الكوفة ومن تابعهم على أن اللام (فى قوله « للموت ») للصيرورة والعاقبة والمآل ، ومثله عندهم قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » (سورة القصص — الآية ٨) ، وقول الشاعر :

فللموت تغذو الوالدات سخالها كما لخراب الدور تبنى المساكن =

الموت جاز أن يقال : للموت ولدته ، ومثله فى القرآن : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً ۞ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ﴾ (١) ؛ وذلك أنهم كانوا عند تلاوة القرآن قد حجبوا قلوبهم عن تفهمه وصدفوا بأسماعهم عن تدبره، فجاز أن يقال على المجاز والاستعارة : إن الذى تلا ذلك عليهم جعلهم كذلك ، والدليل على ما قلناه وأن حقيقة الأمر أنهم هم الفاعلون لذلك دون غيرهم ، قول الله - عز وجل - فى موضع آخر : ﴿ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم

= وقول القائل (وينسب للإمام على) :

لدوا للموت وابنــــوا للخراب   فكلـكم يصـير إلى ذهاب

وقال الزمخشرى فى تفسير الآية : اللام فى قوله « ليكون » لام كى التى معناها التعليل كقولك : جئتك لتكرمنى ، سواء بسواء ، ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة؛ لأنها لم تـكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا — ولكن المحبة والتبنى - غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شبه بالداعى الذى يفعل الفعل لأجله ، فاللام مستعارة لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد (عن الكشاف) . وعلى سبيل التنظير تأتى الاستعارة فى الأبيات .

(١) سورة الإسراء —الآيتان ٤٥ و ٤٦ . والحجاب المستور هو الحجاب دو الستر كقولهم سيل مفعم أى ذو إفعام ، وقيل : هو مستور لأنه غــــير مرئى . والأكنة جمع كن وكنة وكنان (بكسرها) وهو الستر . والوقـر ثقل فى السمع — وهو المراد هنا — أو ذهاب السمع كله . وأن يفقهوه على تقدير كراهة أن يفقهوه أو بمعنى منعناهم أن يفقهوه بتضمين جعلنا على قلوبهم أكنة معنى منعناهم . وفى الآيتين حكاية عما كان يقوله المعرضون عن الدعوة : « وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب » (فصلت ٥) . ولهذا صح للمصنف أن يتأول ويقول بالتجوز ، لاحظين أنه يأخذ نفسه بمبدأ اختيار العبد .

جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ﴾ (١) .

ومثل الأول قوله : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ (٢) ، لأنه لما غفل عن الذكر كان بمنزلة من بخل عند المسألة ، فجاز أن يقال للذى أذكره قد أغفله وقد أغفل قلبه ، كما جاز أن يقال للذى سأل ذلك فبخل عليه قد بخله .

ومن الاستعارة ما قدمناه من إنطاق الربع وكل ما لا ينطق إذا ظهر من حاله ما يشاكل النطق (٣) . ومما جاء من هذا النوع فى القرآن قوله : ﴿ يوم

---

(١) سورة نوح — الآية ٧ . من حكاية نوح — عليه السلام — عن قومه ومعنى استغشوا ثيابهم أنهم تغطوا بها كأنهم طلبوا أن تغشاهم لئلا يعرفهم أو لئلا يبصروه كراهة النظر إليه وأصروا: استعارة لإكبابهم على المعاصى من أصر الحمار على الأتان نصب أذنيه وأقبل عليها يكدمها ويطردها (قاله الزمخشرى) . واستكبروا : تكبروا وتجبروا أى أخذتهم العزة من اتباع الرسول وطاعته .

(٢) سورة الكهف — الآية ٢٨ . ومناسبتها أن رؤساء الكفر دعوا الرسول أن ينحى عن مجلسه الفقراء أمثال صهيب وعمار وخباب حتى يجالسوه فنزلت الآية : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » . وجعل المصنف (أغفلنا قلبه) من التجوز ، ويجوز على غيره أن تكون الهمزة فى الفعل لإيجاد المفعول على صفة مأخوذة من أصل الفعل أى وجدنا قلبه غافلا كقولك أحمدته وجدته حميداً وأبخلته وجدته بخيلا . وقرئ (أغفلنا قلبُه) باسناد الفعل إلى القلب ، فيكون معناه حسب قلبه أننا غافلون عنه .

(٣) ارجع إلى ص (٨) .

تقول لجهنم : هل امتلأت . وتقول : هل من مزيد (١) ﴾ ، لما جاز أن تحتمل مزيدا من الكافرين حسن أن يقال : وتقول هل من مزيد . وكذلك قوله : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين (٢) ﴾ ، وذلك لما كانتا عن إرادته من غير استصعاب عليه ولا عصيان له ، جاز أن يقال: إنهما قالتا : أتينا طائعين . وكذلك قوله:

---

(١) سورة ق – الآية ٣٠ . واعتبار جهنم ناطقة تسمع وتجيب مرده إلى تنزيلها منزلة الناطق ، فسؤالها لتصوير معنى امتلائها مع اتساعها وتباعد أطرافها ، وجوابها تصوير لمعنى استكثار الداخلين فيها واستبعاد الزيادة عليهم لفرط كثرتهم أو تصوير لمعنى طلب الزيادة منهم غيظا عليهم وعلى أمثالهم . وهناك من يرى أن الله يخلق يوم القيامة فى جهنم الإدراك وأن سؤالها وجوابها يقعان حقيقة لا تصويراً .

(٢) سورة فصلت – الآية ١١ . ومعنى استوى إلى السماء وهى دخان : توجهت قدرته تعالى بعد أن خلق الأرض إلى السماء فخلقها من الدخان الذى أخرجه من الماء . ائتيا طوعا أو كرها : أى كونا على ما تقضى به الحكمة والتدبير وعلى ما ينبغى من الشكل والوصف ، وطوعا أو كرها فى محل الحال أى طائعتين أو مكرهتين ، وهو – فى رأى الزمخشرى – تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما وأن امتناعه من تأثير قدرته محال كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت . وفى قوله : أتينا طائعين – إشعار بأنهما فى صفتهما هذه على مستوى العقلاء الذكور ، وفيه ما فيه من رفعة الشأن وعلو المكانة .

وفى الآية نزلت السماء والأرض منزلة الناطق فيما أمرتا به وفيما امتثلتا له ، وليس هذا التنزيل مقصوداً لذاته ، وإنما لتصوير أثر قدرة الله فى المقدورات .

﴿ فوجد فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه (١) ﴾ ، لما كانت الارادة من أسباب الفعل وكان وقوع الفعل يتلوها ، جاز - لما قد كاد أن يقع وقرب وقوعه - أن يقال : أراد أن يقع . ومثل ذلك قول الشاعر :

* امتلأ الحوض وقال قطني (٢) *

أي لما لم تكن فيه سعة لغير ما قد وقع فيه من الماء ، جاز على الاستعارة أن يقال : قد قال حسبي ، وهذا شائع في اللغة كثير (٣) .

---

(١) سورة الكهف - الآية ٧٧ وجاءت في قصة موسى والخضر ، إذ أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً كاد ينقض فأقامه الخضر بأمر الله . واستعيرت الإرادة للمقاربة والمداناة والمشارفة . وينقض أي يسقط وقيل يتصدع قبيل سقوطه .

(٢) هذا صدر بيت عجزه : مهلا رويداً قد ملأت بطني

وهو من شواهد النحاة على استعمال « قط » اسم فعل ، وتقول « قطني » مضافة إلى ياء المتكلم بنون الوقاية إذا كانت بمعنى يكفيني ، وتقولها بنون الوقاية وبدونها إذا كانت بمعنى حسبي ، قال ابن مالك :

وفي لدنى لدنى قل ، وفي قدني وقطني الحذف أيضاً قد يفي

(٣) ومن أمثلته :

* يريد الدهر صدر أبي براء ويعدل عن دماء بني عقيل (؟)
* فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم (لعنترة)
* إن دهرا يلف شملي بجمل لزمان يهم بالإحسان (لحسان)
* سمعت الناس ينتجعون غيثا فقلت لصيدح انتجعي بلالا (لذي الرمة)
* أرسل فيها بازلا يقدمه فهو بها ينحو طريقا يعلمه (لرؤبة)
* قالت له ريح الصبا : قرقار اختلط المعروف بالإنكار (لأبي النجم)
* فاستنطق العود قد طال السكوت به لا ينطق اللهو حتى ينطق العود (لأبي نواس)
* أبت الروادف والثدى لقمصها مس البطون وأن تمس ظهوراً (؟)
* « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » . (قرآن كريم)

الأمثال :

فأما الحكماء والأدباء والعلماء فلا يزالون يضربون الأمثال ، ويبينون للناس تصرف الأحوال ، بالنظائر والأشباه والأشكال ، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبا ، وأقرب مذهبا . ولذلك قال الله - عز وجل - : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل (١) ﴾ . وقال : ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال (٢) ﴾ .

وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر فى نفسه إذا كان ممكناً فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته ، والمثل مقرون بالحجة(٣) ، ألا ترى أن الله

---

(١) سورة الروم — الآية ٥٨ ، وسورة الزمر - الآية ٢٧ .

(٢) سورة إبراهيم — الآية ٤٥ . وجاءت فى معرض مراجعة الذين ظلموا الذين يقولون يوم يأتيهم العذاب :

« ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل » ، يذكرهم الله — سبحانه وتعالى — بأنهم ساروا سيرة من قبلهم فى الظلم والفساد وتبين لهم بالإخبار والمشاهدة عاقبة ظلمهم وفسادهم ، ولم يقع الاعتبار بالأمثال التى ضربت تصويراً لأحوالهم وأحوال من سبقوهم .

(٣) المثل فى صورته التعبيرية كلمة سائرة قيلت على سبيل الحكمة أو على سبيل تمثيل حال . ولكل أمة أمثالها ، وأمثال العرب سجل واف لأفكارهم وتطلعاتهم وتقاليدهم وعاداتهم ومضامين فطرتهم وحياتهم وسلوكهم . وقد أسهم حكماؤهم فى ضرب الأمثال كلقمان الحكيم وأكثم بن صيفى . وجاءت سائر الأمثال تمثيلا لأحوالهم فأوردوها تصويراً للوقائع والأحداث =

= والقصص، وجاء الخلف فالتقطوها واستشهدوا بها — ومازالوا إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض يستشهدون بها — فى أحوال تحاكى الأحوال التى قيلت فيها ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فالمورد فى المثل أو الحال التى قيل فيها أول مرة هو أصل المثل المستعار منه ، والمضرب فى المثل أو الحال التى يحكى فيها بعد ذلك هو شبيه المثل المستعار له . ويبقى المثل فى صورته التعبيرية كما هو لايقبل تعديلا أو تبديلا أو تغييراً .

وقول المصنف : (المثل مقرون بالحجة) يفسره قول الإمام عبد القاهر فى التمثيل — والمثل من التمثيل — : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى ، أو برزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً ، فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للالاف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، وأقضى له بغر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر . وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد . وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجـــد ، ولسانه ألد . وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفى عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث . وإن كان وعظا كان أشفى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر بأن يجلى الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفى الغليل » * (أسرار البلاغة ٩٢ وما بعدها) .

* شأوه : غايته وأمده . أجد : أعظم . ألد : أشد خصومة . السخائم : الضغائن . أسل : أكثر نزعا . غرب الغضب : حده . أفل : أثلم . أنفث : من النفث وهو النفخ مع التفل فى العقد لتسهيل حلها . الغياية : كل ما أظلك من فوق رأسك .

ـ عز وجل ـ لو قال لعباده : إنى لا أشرك أحداً من خلائقى فى ملكى لكان ذلك قولا محتاجا إلى أن يدل على العلة فيه ووجه الحكمة فى استعماله ؛ فلما قال : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم(١) ﴾ ، كانت الحجة من تعارفهم(٢) مقرونة بما أراد أن يخبرهم به من أنه لا شريك له فى ملكه من خلقه ؛ لأنهم عالمون بأنهم لا يقرون أحدا من عبيدهم على أن يكون فيما ملكوه مثلهم ، بل يأنفون من ذلك ويدفعونه ، فإن الله ـ عز وجل ـ أولى بأن يتعالى عن ذلك .

فلذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم ونطقت ببعضه على ألسن الوحش والطير(٣) .

---

(١) سورة الروم — الآية ٢٨ . وجاءت — كما أشار المصنف — لتقرير العباد بوحدانية الله ونفى الشريك عنه وإعطاء الحجة على ذلك ؟ فالله ـ سبحانه وتعالى — ضرب لكم أيها العباد هذا المثل الذى انتزعه من أقرب شىء إليكم وهو أنفسكم : هل ترضون لأنفسكم أن يشارككم عبيدكم — ما ملكت أيمانكم — فيما رزقناكم من الأموال وغيرها ، بحيث تكونون أنتم وهم على السواء فى التصرف فيها لا فرق بينكم وبينهم ، وبحيث تخافون أن تستبدوا بالتصرف دونهم ، كما يخاف بعضكم من الأحرار بعضاً ! فإذا أبيتم ذلك لأنفسكم ولم ترضوه فكيف ترضون مثله لله وكيف تقبلون أن يكون له شركاء من عبيده ! (واقرأ الآية ٧١ من سورة النحل) .

(٢) لعلها (متعارفهم) .

(٣) الأمثال نوعان : حقيقية وفرضية ، والحقيقية ما لها أصل معروف سيقت له والفرضية ما جاءت على ألسن الحيوان والطير والنبات والجماد . وتتخذ =

. . . .

= هذه متكأ للأمثال للاحتيال على بلوغ المعنى خوفاً من بطش أو فراراً من مؤاخذة ، وللاستطراف طلباً للتسلية والتزجية .

ونذكر لك طائفة من أمثال العرب ، ونبين لك مضاربها ، ونحيلك — إن أردت التعرف إلى مواردها — على « مجمع الأمثال » للميدانى (٥١٨ هـ) ، وهو أجمع كتاب فى هذا الباب ، حوى ما ضمه نحو خمسين كتابا ألف قبله ، ورتبه على حروف المعجم ، وأضاف إليه أمثال المولدين إلى وقته .

أخذ القوس باريها (لمن حصل ما هو له أهل) . إذا جاء موسى وألقى العصا : فقد بطل السحر والساحر (لصاحب الحق لا يمارى فيه) إذا عز أخوك فهن (لمياسرة الأهل والأصدقاء) . استنوق الجمل (للمخلط فى كلامه وتصرفه) الصيف ضيعت اللبن (لمن يطلب الفرصة بعد أن تسبب فى ضياعها) المورد العذب كثير الزحام (للشىء أو الرجل يكثر رواده) . إن البغاث بأرضنا يستنسر (للضعيف يقوى) . إن البلاء موكل بالمنطق (لمن يتورط بمقاله فيما يؤذيه) . إن العوان لا تعلم الخمرة (لذى التجربة العليم) . إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى (للمجهد نفسه دون تحصيل فائدة) . أنت ترقم على الماء — أنت تضرب فى حديد بارد — أنت تنفخ فى غير فحم (لمن يلح فى طلب المستحيل) . إنك لا تجنى من الشوك العنب (لمن يعالج أمراً غير مثمر ثمرته) تسمع بالمعيدى خير من أن تراه (لمن مخبره خير من مظهره) . تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها (لذى العفة يترفع عن ملابسة الخسيسة) خلا لك الجو فبيضى واصفرى (للحاجة يتمكن منها طالبها) . رجع بخفى حنين (لذى المسعى الخائب) . سبق السيف العذل (فى استحالة تدارك ما فات) . قضية ولا أبا حسن لها (فى المشكلة لا تجد حلا) . كل الصيد فى جوف الفرا (لمن حصل أعظم نصيب) .

لا تعدم الحسناء ذاما « والذام العيب » (لمن قصر عن بلوغ الكمال) . =

وإنما أرادوا بذلك: أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها، وتصريف القول فيها؛ حتى يتبين لسامعه ما آلت إليه أحوال أهلها عند لزومهم الآداب أو تضييعهم إياها. ولهذا بعينه قص الله علينا أقاصيص من تقدمنا ممن عصاه وآثر هواه فخسر دينه ودنياه، ومن اتبع رضاه فجعل الخير والحسنى عقباه وصير الجنة مثواه ومأواه؛ وقال في مثل ذلك: (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون(١)).

= لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين (للافادة من الخطأ الأول). لكل جواد كبوة ـ لكل صارم نبوة (للحصيف الحازم تند عنه هفوة). ما زال يفتل في الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد (لمن يأخذ الأمور برفق واستمرار حتى يحصلها). ولا بد دون الشهد من إبر النحل (لتحمل المشقة في سبيل النجاح). وعند جهينة الخبر اليقين (المحيط بالأمر إحاطة تامة). يبتغي الصيد في عريسة الأسد (لمن يخاطر بنفسه في أمر فيه هلاكه).

ومن أمثالهم الفرضية ما جاء على لسان الضب في هذه الأسطورة: زعموا أن أرنبا التقطت تمرة فاختلسها الثعلب، وانطلقا يختصمان إلى الضب. قالت الأرنب: يا أبا الحسل: قال «سميعاً دعوت» قالت: أتيناك لنحتكم إليك. قال: «عادلا حكمتما». قالت فاخرج إلينا. قال: «في بيته يؤتى الحكم». قالت: إني وجدت تمرة. قال: «حلوة فكليها» قالت: فاختلسها الثعلب. قال: «لنفسه بغى الخير». قالت: فلطمته. قال: «بحقك أخذت». قالت: فلطمني قال: «حر انتصر». قالت: فاقض بيننا. قال: «قد قضيت».

(١) سورة القصص ـ الآية ٥١. وفي الكشاف: المعنى أن القرآن أتاهم متتابعا متواصلا وعدا ووعيدا وقصصا وعبراً ومواعظ ونصائح؛ إرادة أن يتذكروا فيفلحوا.

ويطول بنا الحديث ـ ويحلو ـ لو أردنا أن نتتبع الأمثال المضروبة في القرآن الكريم. ففيه آيات تجري مجرى أمثال الناس كقوله تعالى: «إن =

. . . .

= الإنسان لكفور مبين » (الزخرف ١٥). « إن الله لا يحب المعتدين » (المائدة ٨٧) « إنه لا يفلح الظالمون » (القصص ٣٧) . « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » (الحشر ١٤) . « ضعف الطالب والمطلوب » (الحج ٧٣) . « ظهر الفساد فى البر والبحر » (الروم ٤١) . « قل: كل متربص فتربصوا » (طه ١٣٥) . « كل امرئ بما كسب رهين » (الطور ٢١) « كل حزب بما لديهم فرحون » (الروم ٣٢) . كل نفس بما كسبت رهينة» (المدثر ٣٨) . « لكل نبأ مستقر » (الأنعام ٦٧) . « لمثل هذا فليعمل العامـــلون » (الصافات ٦١) . « ما على الرسول إلا البلاغ » (المائدة ٩٩) . « والله ذو فضل على المؤمنين » (آل عمران ١٥٢) . « ورزق ربك خير وأبقى » (طه ١٣١) . « ولا تتبع سبيل المفسدين » (الأعراف ١٤٢) . « ولكل وجهة هو موليها » (البقرة ١٤٨) . « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الحديد ٢٠) . « ونيسرك لليسرى » (الأعلى ٨) .

وفى القرآن أقاصيص وأمثال مضروبة للناس لعلهم يتذكرون ، كقوله تعالى : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ... الآية» (البقرة ٢٦) . « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه . . . الآيات » (البقرة ٢٥٨ — ٢٦٠) « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . . . الآيات» (البقرة ٢٦١-٢٧١) « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام . . . الآية » (الأعراف ٥٤) : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم . . . الآيتين » (الأنفال ٢٢و٢٣) . « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال . . . الآية» (الرعد٣١) « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة. . . الآيات» (إبراهيم ٢٤ — ٢٧) . « وإن لكم فى الأنعام لعبرة . . . الآيات »(الأنعام ٦٦- ٦٩) « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا . . . الآيتين » (الأنعام ٧٥ و ٧٦)« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب . . . الآيات » (الكهف =

اللغز :

وأما اللغز فإنه من ألغز اليربوع(١) ولغّز إذا حفر لنفسه مستقيما ثم أخذ يمنة ويسرة ليعمى بذلك على طالبه(٢) . وهو قول استعمل فيه اللفظ المتشابه طلباً للمعاياة والمحاجاة(٣) .

= ٣٢ - ٤٥) « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له... الآية » (الحج ٧٣) « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ... الآيات » (يس ٣٣ - ٤٤). « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ... الآيات » (فصلت ١٥ - ١٨) . « مثل الجنة التى وعد المتقون ... الآية » (محمد ١٥) . « نحن خلقناكم فلولا تصدقون .. الآيات » (الواقعة ٥٧ - ٧٤) « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة .. الآية » (الحديد ٢٠) .

(١) اليربوع : دويبة نحو الفأرة مع طول فى الأذنين والذنب ، ورجلا اليربوع أطول من يديه عكس الزرافة ، وتسميه العامة (الجربوع) .

(٢) عبارة « ابن رشيق » فى (العمدة) — وهو ممن أحسن تلخيص آراء السلف وتنظيمها — : « ثم أخذ يمنة ويسرة يورى بذلك ويعمى على طالبه » . واللغز عنده من الإشارة ، وهى من أخفاها وأبعدها ، لأنه كلام له ظاهر عجب لا يمكن وباطن ممكن غير عجب. واستطرادا : تشمل الإشارة عنده ضروبا كثيرة : التفخيم - الإيماء - التعريض - التلويح - الكناية والتمثيل - الرمز - اللمحة - اللغز - اللحن أو المحاجاة (راجع ص ٦١ من هذا الكتاب) الحذف - التورية (العمدة : ١/٢٥٦ وما بعدها) .

(٣) فى البرهان : (والمحاجة) وهى المغالبة فى الحجة والبرهان والدليل. والمحاجاة المغالبة بالفطنة . والمعاياة أن تأتى بكلام لا يهتدى له . وجعل « ابن الأثير » فى (المثل السائر) اللغز والأحجية والمعمى بمعنى ، وهو عنده كل معنى يستخرج بالحدس والتخمين لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازا ، وهو يحتاج إلى توقد الذهن والسلوك فى معارج الفكر الخفية .

والفائدة فى ذلك فى العلوم الدنيوية رياضة الفكر فى تصحيح المعانى ، وإخراجها من المناقضة والفساد إلى معنى الصواب والحق ، وقدح الفطنة فى ذلك واستنجاد الرأى فى استخراجه ، وذلك مثل قول الشاعر :

رب ثور رأيت فى جحر نمل ونهار فى ليلة ظلماء(١)

والثور هاهنا : القطعة من الأقط ، والنهار : فرخ الحبارى(٢) ، فإذا

---

(١) وفى (العقد الفريد) - باب اللغز - آخر أبواب الكتاب : قال أبو المقدام الخزاعى :

رب ثور رأيت فى جحر نمل وقطاة تحمل الأثقالا
ونسور تمشى بغير رءوس لا ولا ريش تحمل الأبطالا
وعجوز رايت فى بطن كلب جعل الكلب للأمير جمالا
وغلام رأيته صار كلبا ثم من بعد ذاك صار غزالا
وأتان رأيت واردة الما ء زمانا وما تذوق بلالا
وعقاب تطير من غير ريش وعقاب مقيمة أحوالا

الثور : النمل الذى يخرج التراب من الجحر العظيم (وهذا معنى غير المعنى الذى أورده المصنف) . والقطاة : موضع الرديف من الفرس . والنسور : بطون الحوافر . والعجوز : السيف . وبطن الكلب : الجلد الذى يعمل منه غمد السيف وصار كلبا : ضم كلبا وأخذه من صار يصور من قول الله : « فصرهن إليك » (وكذلك صار غزالا - بمعنى عطف وضم لا بمعنى تحول) والأتان : الصخرة . والعقاب التى تطير من غير ريش : البكرة . والعقاب المقيمة أحوالا : اللواء (ج ٨ - ١٧٨) . وفيه أمثلة شتى .

(٢) الأقط (وزان كتف وله أوزان أخر) : نوع من الجبن يؤخذ من لبن الغنم عن طريق طبخه (وضعه على النار) حتى يخرج مصله أى عصارة الماء التى فيه . وفرخ الحبارى : ولده (ويسمى الحبرور وزان عصفور) ، والحبارى طائر يشبه الأوز طويل العنق برأسه وبطنه غبرة ويغلب أن يكون لون ظهره وجناحيه كلون السمانى .

استخرج هذا صح المعنى . وإذا حمل على ظاهره كان محالا ، وكذلك قال الشاعر :

فأصبحت والليـــل لى ملبس   وأصبحت الأرض بحرا طمى[١]

فأصبحت : أشعلت المصباح ، ولو حمل على الصبح لتنافى القول وفسد .

والفائدة فى استعمال ذلك فى الدين المعارضة التى ذكرناها وقلنا : إن للإنسان استعمالها عند التقية حتى يخرج بها الكلام عن الكذب باشتراك الاسم[٢] ومن هذه الأسماء المشتركة : المجنون الذى به الخبل ، والمجنون الذى قد جنه الليل . والنبيذ الذى يشرب ، والنبيذ الصبى المنبوذ . والعلى المرتفع ، والعلى الفرس الشديد . والجرح المصدر من الجراح ، والجرح الكسب . والطعن بالرمح ، والطعن فى العرض . والبطن ضد الظهر ، والبطن من العرب .

---

(١) فى البرهان :

فأصبحت والليـل مستغلس   وأصبحت والأرض بحر طمى

والليل مستغلس : أى داخل فى الغلس وهو ظلمة آخر الليل . وطمى البحر : امتلأ فهو طم .

(٢) فى ختام (باب الاعتقاد) قال المصنف ما فحواه : إذا أتت أخبار الثقات بالشىء وضده ولم يكن فى النقلة من يتهم تبين أن سبب الخلاف إنما هو خروج الجواب فى أحد الحالين على سبيل التقية ، وإنما تجوز التقية فيما خالف فتيا العامة . (والتقية من التقوى أى الخوف والخشية ، وقصدوا بها أن يقى عالم الدين نفسه من البطش أو العقاب أو المؤاخذة إذا صرح بالرأى فهو يميل فى فتواه أو إجابته إلى التورية أو الإلغاز أو التعمية أو أشباه ذلك باستعمال الكلمة المشتركة ، ليظهر خلاف ما يضمر ، ويبرأ من العهدة) ثم تناول ـ عند حديثه عن الصدق والكذب ـ المعارضة فى الكلام ، وضرب أمثلة لها (راجع ص ٤٢) .

والفخذ العضو ، والفخذ من القبيلة . والبعل الزوج ، والبعل النخل الذى يشرب ماء السماء . واليد الجارحة ، واليد النعمة ، واليد القدرة . وأشباه هذا كثير(١) ، وقد جمعه أهل اللغة . وممن جوده وجمع أكثره « ابن دريد » فى كتاب (الملاحن)(٢) . فإن أردته فاطلبه فيه إن شاء الله .

الحذف :

وأما الحذف(٣) فإن العرب تستعمله ؛ للإيجاز والاختصار والاكتفاء

---

(١) تحضرنى الآن أمثلة قرأتها فى العقد الفريد لابن عبد ربه : ١٧٨/٨ ، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : ٢٠٨/٢ ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى : ٢٦٥ ، ومقامات الحريرى ، وخاصة المقامة الملطية ، وهى المقامة السادسة والثلاثون من مقاماته الخمسين .

(٢) ابن دريد هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى ، ولد فى البصرة سنة ٢٢٣ هـ ونشأ فيها، وأخذ النحو عن علماء عصره أمثال السجستانى والرياشى ، وفى أثناء فتنة الزنج غادر البصرة إلى الشام وفارس ، وعمل لابنى ميكال فى فارس ، وألف لهما كتابه « الجمهرة » فى اللغة ، وبعد عزلهما ذهب إلى بغداد فى أثناء خلافة « المقتدر » وأقام فيها معززاً مكرماً حتى توفى سنة ٣٢١ هـ وأشهر كتبه « الجمهرة فى اللغة » وهو معجم رتبه على أبجدية الخليل وتناول فيه معانى المادة بحسب دوران حروفها ، فمثلا عندما يتناول مادة (ع ب ر) يفسر كلا من : عبر – عرب – برع – بعر – رعب – ربع وهكذا . ومن أشهر كتبه « الملاحن » الذى ذكره المصنف ، وكتاب « الاشتقاق » فى أنساب العرب وقبائلها مرتبة ترتيباً معجميا ، وكتاب « المقصور والممدود » وهو مقصورة تزيد على مائتى بيت ، مدح بها الشاه ابن ميكال وولديه ، وضمنها كثيراً من آداب العرب وأخبارهم .

(٣) يجعل علماء البلاغة الإيجاز ضربين : إيجاز القصر ، وإيجاز الحذف ؛ =

ببسير القول ، إذا كان المخاطب عالما بمرادها فيه(١)، وذلك كقوله عز وجل: ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون(٢)﴾ وسكت عن تمام الكلام لعلم المخاطب به فكأن تقدير ذلك : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم استكبروا وتمادوا وعتوا » . وكذلك قوله : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم(٣)﴾ حذف ما بعده لعلم المخاطب به ؛ فكأن تقديره « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لعذبكم بما فعلتم » ومن ذلك قول الشاعر :

= فالقصر : معنى كثير فى لفظ قليل لا حذف فيه كقوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » ، وقوله : « إنما بغيكم على أنفسكم » ، وقوله : « ألا له الخلق والأمر » ، وقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الضعيف أمير الركب » ، وقوله : « إن من البيان لسحرا » ، وكقول الرشيد توقيعا فى محنة البرامكة :(أنبتتهم الطاعة وحصدتهم المعصية)، وكتوقيع جعفر بن يحيى لعامل كثرت الشكوى منه : (كثر شاكوك ، وقل شاكروك فاما عدلت ، وإما اعتزلت) والحذف — أو إيجاز الحذف — معنى عبر عنه بعبارة حذف منها ما لا يخل بالفهم ، ويتأتى هذا بوجود قرينة لفظية أو حالية تشير إلى المحذوف ، والمحذوف جملة أو كلمة أو حرف على ما يأتى .

(١) أى بمراد العرب فى الحذف — هكذا فهمت .

(٢) سورة يس — الآية ٤٥ والمحذوف جملة الجواب كما أوضح المصنف ودل عليه قوله تعالى عقيب الآية : « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » ، فهذه الآية تقرر أن الإعراض دأبهم عند كل آية وموعظة وقوله (ما بين أيديكم وما خلفكم) يراد به ما تقدم من الذنوب وما تأخر ، أو ما بين أيديكم من وقائع الأمم المكذبة وما خلفكم من أمر الساعة والغيب والله أعلم

(٣) سورة النور — الآية ١٠ . وجاءت فى ختام الحديث عن قذف المحصنات وما يستدعيه من الملاعنة . وقرينة الحال تشير إلى جملة الجواب المحذوفة

أجدك لو شيء أتانا رسوله سواك، ولكن لم نجد لك مدفعا(١)

أراد لدفعناه ولكن لم نجد لك مدفعا . فحذف اكتفاء بعلم المخاطب بما أراد .

ومثله قوله :

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن حقف ذي قفاف عقنقل(٢)

---

(١) البيت لامرئ القيس، من قصيدة يقص فيها أمانيه في الحياة ودبيبه إلى المرأة ، يقول :

تقول — وقد جردتها من ثيابها كما رعت مكحول المدامع أتلعا :

وجدك لو شيء أتانا رسوله سواك ، ولكن لم نجد لك مدفعا

نصد عن المأثور بيني وبينها وتدني على السابرى المضلعا

قوله رعت أي خوفت . وأتلع طويل العنق . وجدك قسم بجده — وفي رواية أجدك ، وهو بالكسر استحلاف بالحقيقة وبالفتح استحلاف بالحظ والبخت ، في رواية الصناعتين : فأقسم — ص١٨٢ . والسابرى ثوب رقيق جيد . وقوله : (لم نجد لك مدفعا) دليل الجواب المحذوف وهو (لدفعناه) ، وفي نسخة البرهان (لدفعناك) وهي مرجوحة .

وسبق التعريف بامرئ القيس (ص ١٤) .

(٢) البيت لامرئ القيس أيضا من معلقته . يقول عن إحدى غواياته (في رواية الزوزني) :

خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

هصرت بفودي رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخل

(المرط الملاءة أو كساء من خز أو صوف . والمرحل المنقوش بنقوش تشبه رحال الإبل . وأجزنا ساحة الحي قطعناها والساحة الفناء وانتحى =

وهذا كثير فى كلام العرب(١) ، وإذا مر بك عرفته إن شاء الله .

= بنا بطن خبت اعترض أو مال ، والخبت الأرض المطمئنة — ويروى بطن حقف والحقف الرمل المشرف المعوج وجمعه حقاف — والقفاف جمع قف وهو ما غلظ وارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا . والعقنقل الرمل المنعقد المتلبد . وهصرت بفودى رأسها : أى جذبتها بهما والفودان جانبا الرأس . وهضيم الكشح ضامره والكشح منقطع الأضلاع وإنما كان هضيما أى مهضوماً بالنسبة إلى الأعضاء اللحيمة الممتلئة وريا المخلخل أى ممتلئة موضع الخلخال من الساق) .

وجواب لما فى البيت محذوف ، تقديره (أمنا) أو (تمتعت بها) ، وعند أبى عبيدة أن الجواب (انتحى) باعتبار الواو زائدة ، وقيل الجواب (هصرت) فى البيت التالى ، إلا إذا رويناه * إذا قلت هاتى نولينى تمايلت *

(١) والمحذوف : (جواب الشرط) كالشواهد الأربعة التى أتى بها المصنف و (فعل الشرط) كما فى قول النمر بن تولب :
(فان المنية من يخشها .·. فسوف يصادفه أينما) أى أينما ذهب . و (جواب القسم) كما فى قوله تعالى : « ق . والقرآن المجيد * بل عجبوا ... » كأنه قال : أقسم بالقرآن المجيد لتبعثن ، ودليل هذا الجواب هو قوله بعد : « أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » . و (عدة جمل) كما فى قوله تعالى : « فأرسلون * يوسف أيها الصديق » ، أى فأرسلوه ، فجاءه ، وقال له : يوسف ... و (المضاف) كما فى قوله تعالى : « واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها » والتقدير : اسأل أهل القرية وأصحاب العير . و (المضاف إليه) كما تدعو (يارب) والتقدير يا ربى . و (النعت) كما فى قوله تعالى : « يأخذ كل سفينة غصبا » والتقدير : كل سفينة صالحة ، بدليل قوله قبل « فأردت أن أعيبها » . و (المنعوت) كما فى قوله تعالى : « أن اعمل سابغات » أى دروعا سابغات . و (الحرف) كما فى قوله تعالى : =

الصرف :

وأما الصرف فإنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب ، ومن الواحد إلى الجماعة(١)، كقوله عز وجل : (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين

= « يبين الله لكم أن تضلوا » أي لئلا تضلوا . وهناك وجوه أخر غير هذه تجدها في كتاب الصناعتين (ص ١٨١ وما بعدها) .

(١) هنا عدة مسائل :

الأولى — من معاني الصرف في اللغة : الرد والقلب والإبعاد وتخلية السبيل . وعلى هذا يكون صرف القول من حال إلى حال — أي قلبه — من قبيل الرد وما إليه .

الثانية — ذكر المصنف أنهم يصرفون القول من المخاطب إلى الغائب ومن الواحد إلى الجماعة ، ولم يمثل لهذا الأخير ، ومثل للأول بالآية الكريمة إذ ظاهر سياقها : حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم ، فصرف القول من المخاطبين — إعراضا عنهم — إلى الغائبين ، وأما المثالان من الشعر ففيهما صرف القول من الغائب إلى المخاطب للاقبال عليه . ومن حقنا أن نزعم أن المصنف لم يقصد خصوص الصرف من المخاطب الى الغائب ، ولعل في عبارته (فانهم يصرفون) ما يعطينا هذا الحق .

الثالثة — هذا الصرف تناوله البلاغيون عند الحديث عن إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر تحت اسم (الالتفات) ، وفسره جمهورهم بأنه الانتقال عما يقتضيه ظاهر السياق من التعبير عن المعنى بأحد الطرق الثلاثة — التكلم ، والخطاب ، والغيبة — إلى طريق آخر منها . وفسره « السكاكي » بأنه العدول عما يقتضيه ظاهر المقام من التعبير بأحد الطرق الثلاثة إلى طريق آخر منها ، فالانتقال عند الجمهور انتقال تحقيقي من عبارة إلى أخرى وينتج ست صور ، والانتقال عند « السكاكي » قد يكون انتقالا تحقيقيا على =

. . . .

= ما عليه الجمهور وقد يكون انتقالا تقديريا تكفى فيه العبارة الواحدة ويتتج ست صور أخرى ، وهذه شواهد الصور كلها (ونذكر بين القوسين المصروف عنه) :

صورة الصرف	فى عبارتين على رأى الجمهور والسكاكى	فى عبارة واحدة على رأى السكاكى وحده
من التكلم إلى الخطاب	ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون (وإليه أرجع)	تطاول ليلك بالأثمد وبات الخلى ولم ترقد (تطاول ليلى .. ولم أرقد)
من التكلم إلى الغيبة	إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر (فصل لنا)	سبحان الذى أسرى بعبده (سبحانى) .
من الخطاب إلى التكلم	طحا بك قلب .. يكلفنى ليلى (يكلفك)	وما لى لا أعبد الذى فطرنى (وما لكم لا تعبدون)
من الخطاب إلى الغيبة	حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (بكم)	عبس وتولى أن جاءه الأعمى (عبست وتوليت) .
من الغيبة إلى التكلم	سبحان الذى أسرى بعبده ليلا لنريه (ليريه)	يا ربى وجهنى إلى الخير « على سبيل التعريض » (يا ربه وجهه) *
من الغيبة إلى الخطاب	عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى (وما يدريه) .	أنت كعصام تحب الخير للناس « على سبيل المقايسة » (عصام مثلك يحب الخير للناس) *

* لم نعثر على شاهد للالتفات من الغيبة إلى التكلم والخطاب فى عبارة واحدة ، ولهذا صنعنا المثالين .

=

. . . .

الرابعة — شغل قليل من البلاغيين بصرف القول من الواحد أو المثنى أو الجمع إلى آخر منها ، ويمكن أن نقول : إن هذا الضرب من التعبير يتأتى في عبارتين وفي عبارة واحدة ، أي أنه يسير متوازيا مع تفسيري الجمهور والسكاكي للالتفات . وهاك أمثلته على النمط الذي أسلفناه :

صورة الصرف	في عبارتين	في عبارة واحدة
من الواحد إلى المثنى	أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض (وتكون لك)	ألقيا في جهنم كل كفار عنيد (ألق)
من الواحد إلى الجمع	يأيها النبي إذا طلقتم النساء (إذا طلقت)	حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون (ارجعني)
من المثنى إلى الواحد	فمن ربكما يا موسى (ياموسى وهارون)	فرجي الخير وانتظري إيابي إذا ما القارظ العنزي آبا (القارظان *)
من المثنى إلى الجمع	وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة (واجعلا بيتيكما)	ائتيا طوعا أو كرها قالتا : أتينا طائعين (طائعتين)
من الجمع إلى الواحد	وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين (وبشروا)	وذبيان قد زلت بأقدامها النعل (النعال)
من الجمع إلى المثنى	يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ... فبأي آلاء ربكما تكذبان (فبأي آلاء ربكم تكذبون)	ثم ارجع البصر كرتين (كرات — لأن المقصود التكثير وليس خصوص العدد)

(*) البيت للأعشى ، وفي المثل : لا آتيك أو يؤوب القارظان . وأصله أن اثنين من بني عنزة — وهما عامر بن رهم ويذكر بن عنزة خرجا في طلب القرظ وهو ثمر السنط أو قشر البلوط أو ورق السلم يستعمل في الدباغ، فلم يرجعا فقيل المثل ، ويضرب في التيئيس

بهم بريح طيبة ﴾(١). وكقول الشاعر :

وتلك التى لا وصل إلا وصالها ولاصرم - إلاماصرمت - يضير(٢)

(١) سورة يونس - الآية ٢٢ ، وفيها بعض الحديث عن طباع البشر حين يصيبهم الضر يفيئون إلى الله ويدعونه مخلصين له الدين لئن أنجاهم ليكونن من الشاكرين قال تعالى: « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » . والشاهد فى قوله : « وجرين بهم ... » ، وظاهر السياق أن يقول : (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها جاءتها ريح عاصف، وجاءكم الموج من كل مكان ، وظننتم أنكم أحيط بكم دعوتم الله) ، وسر هذا « المبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعى منهم الإنكار والتقبيح » - قاله صاحب الكشاف - وشبيه بهذا ما قلناه منذ قريب : إنه صرف القول من المخاطبين - إعراضاً عنهم - إلى الغائبين .

(٢) البيت منسوب للحطيئة . والشاهد فى قوله (صرمتِ) بتاء المخاطبة ، وقياسه (صرمتْ) بتاء التأنيث استمراراً فى الحديث عن تلك التى لا وصل إلا وصالها . والصرم القطيعة ضد الوصل والوصال .

والحطيئة أحد مقدمى الشعراء المخضرمين ومشهوريهم ، واسمه جرول ، وكنيته أبو مليكة ، ولقب الحطيئة لقماءته وقبح منظره ، نشأ فى بنى عبس معلول النسب مغموز العرض ، مما أورثه الحقد على المجتمع ، واستقبال ما يستدبره الناس من الخلق ، فساء خلقه ، وقلت مروءته ، وغاض الوفاء من سلوكه، وألح على الجشع والحرص والبخل إلحاحا(*)، وجعل همه الحصول على المال ، فتكسب بشعره مادحا ، وهجا من حرمه هجاء مقذعا ، فرض على الكرام أن يتقوه بعطاياهم وأن يشتروا بأموالهم لسانه .

(*) عدوا بخلاء العرب أربعة وهم: حميد الأرقط ، والحطيئة ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان .

. . . .

= عاش الحطيئة دهراً فى الجاهلية ، وأدرك الإسـلام ، فأسلم – على ما نرجحه – فى أخريات أيام الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولكن لم تكن له بالرسول صحبة ، وقيل: إنه ارتد بعد وفاة الرسول ، وتهكم بأبى بكر وخلافته ، ثم عاد إلى حظيرة الإسلام ، إلا أنه لم يكن له من الإسلام إلا اسمه وانتماؤه الظاهرى ، مما يمكن أن يقال معه : إن حياته فى الإسـلام كانت امتداداً لحياته فى الجاهلية ، ومما يذكر أنه كان جاراً للصحابى الجليل « الزبرقان بن بدر » ، فتحول عن جواره – دون داع إلا داعية الطامع – إلى خصمه « بغيض بن عامر » من بنى أنف الناقة ، فمدحه وقومه ، وقلب عار لقبهم فخراً لهم حين قال فيهم :

قوم هم الأنف ، والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا !

ولكنه بإيحاء من « بغيض » هجا « الزبرقان » بأبياته التى يقول فيها :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
وابعث يساراً إلى وفر مذممة ... واحدج إليها بذى عركين قنعاس **

واستعدى « الزبرقان » عليه « عمر بن الخطاب » ، فحبسه ، حتى تاب ، فأطلقه ، وقيل : اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . وتوفى الحطيئة – على ما نرجحه – سنة ٥٩ هـ .

تصرف الحطيئة فى فنون الشعر ، فمدح ، وهجا ، وفخر ، ونسب ، ووصف ، وقال فى الحكمة وتجاريب الحياة ، وشهر بالهجاء ، حيث جعله =

(**) الطاعم الكاسى : أى المطعوم المكسو ، من باب المجاز الحكمى . ويسار : اسم عبد للزبرقان . والوفر : السقاء الكامل . والمذممة : الملومة والبئر المذممة القليلة الماء أو الغزيرته — ضد . احدج إليها : شد إليها الرحل . بذى عركين : أى ببعير ذى عركين وهما الضاغطان تحت إبطى البعير . والقنعاس . الضخم . والمعنى : لا تشغل نفسك بمكارم الحياة وحسبك أن تطعم وتلبس ، وأن تبعث عبدك يحلب لك وطاب اللبن التى تسقاها ولا تسقى منها ضيوفا ، وأن ترحل إليها على مثل هذا البعير — فهذا كله همك من الحياة .

وقال آخر :

يالهف نفسى كان جدة خاله   وبياض وجهك للتراب الأعفر(١)

= سببا للكسب ووسيلة للارتزاق، وحتى لم يسلم من لسانه غريب عنه أو ذو قرابة منه ولا أبوه ولا أمه ولا زوجه ، بل إنه هجا نفسه فقال :

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما   بسوء فما أدرى لمن أنا قائله !
أرى لى وجهاً شوه الله خلقه   فقبح من وجه وقبح حامله !

ويعتبر الحطيئة من فصحاء الشعراء ، وشعره فى مجموعه مستو جيد ، وقد اقتفى أثر « زهير بن أبى سلمى » ـ أستاذه ـ فى تثقيف الشعر وتحبيره ، فجاء شعره شديد الأسر دقيقاً فى الصنعة ، عليه أثر المراجعة والصقال .

وظهر فى شعره الاتجاه القصصى فى قصيدته التى مطلعها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل   ببيداء لم يعرف لها ساكن رسما

يصف فيها أعرابيا جواداً نزل به ضيف فلم يجد ما يقريهم به فهم بذبح ابنه ، وبينما هو يروى فيما هم به سنح له قطيع من حمر الوحش ، فاصطاد ، وأكرم ضيفه .

(أشعاره وأخباره فى ديوانه ، والشعر والشعراء ١/٣٢٢ ، والعقد الفريد فى أكثر من موضع ، والأغانى ج ٢ و١٦ ، والموشح : ١٤١) .

(١) البيت منسوب إلى أبى بكر الهذلى . ورواية البرهان : كان جدة خالد ، والجدة من الشىء القطعة منه ، يقصد أنه كان نظيره فى الجد ، ثم هان أمره وهذا هو معنى الشطر الثانى ، والتراب الأعفر : الأغبر ـ من العفر (بسكون الوسط أو فتحه) وهو الغبرة . وقياس قوله : وبياض وجهك ـ أن يقول : وبياض وجهه ، فصرف القول من الغائب إلى المخاطب مقبلا عليه ، ومحترساً أن يكون الحديث عن خالد أو خاله . =

المبالغة

وأما المبالغة، فمن شأن العرب أن تبالغ في الوصف والذم، كما من شأنها أن تختصر وتوجز، وذلك لتوسعها في الكلام واقتدارها عليه؛ ولكل من ذلك موضع يستعمل فيه. وسيمر بك في مواضعه إذا صرنا إلى ذكره إن شاء الله.

والمبالغة تنقسم قسمين، أحدهما في اللفظ، والآخر في المعنى. فأما المبالغة في اللفظ فتجرى مجرى التأكيد (كقولنا: «رأيت زيداً نفسه»، و«هذا هو الحق بعينه» فتوكد زيداً بالنفس، والحق بالعين، وإن كان قولك: «هذا زيد(١)»، و«هذا هو الحق»، قد أغناك عن ذكر النفس والعين، ولكن ذلك مبالغة في البيان)(٢). ومنه قول الشاعر:

= والشاعر أبو كبير الهذلي من شعراء الجاهلية، واسمه عامر (أو عويمر) ابن حليس من بني سعد بن هذيل. اختار له في الحماسة، وذكر ابن قتيبة له أربع قصائد تتفق في مطالعها وقال عنها: (ولا نعرف أحداً من الشعراء فعل ذلك) وهي:

— أزهير، هل عن شيبة من معدل   أم لا سبيل إلى الشباب الأول
— » » » » مقصر   » » » » » المدبر
— » » » » مصرف   أم لا خلود لباذل متكلف
— » » » » معكم   » » » » متكرم

(أشعاره في: ديوان الهذليين، والحماسة لأبي تمام - شرح التبريزي: ١/٨٢، والشعر والشعراء: ٢/٦٧٠).

(١) لم يطابق قوله: (هذا زيد) قوله قبل: (رأيت زيدا نفسه).

(٢) الفقرة التي وضعناها بين القوسين شرح للتأكيد الذي ناظر به المصنف المبالغة في اللفظ وجعلها تجرى مجراه. =

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد(١)

فذكر البعد بعد النأى — وهما شيء واحد — تأكيداً ومبالغة.

وأما المبالغة فى المعنى فإخراج القول على أبلغ غايات معانيه، كقوله — عز وجل — : ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾(٢)، وإنما قالوا: إنه

= واعلم أن كل قيد يوضع فى الجملة يزيد الحكم خصوصية، وكلما زادت خصوصيته زادت فائدته ويستوى فى هذا أن يقع القيد على المسند أو المسند إليه، وأن يقع أول الجملة أو وسطها أو آخرها، وأن يكون بأدوات الشرط أو النسخ أو بالفضلة أو التابع أو غيرها. والمهم أن يؤتى بالقيد لفائدة ومعنى، وألا يكون عبثاً على فصاحة الكلام وبلاغته.

(١) البيت للحطيئة (وسبق التعريف به ص١٠٤)

وقبل هذا البيت فى رواية الأغانى:

ألا طرقتنا بعد ما هجعوا هند وقد جزن غورا واستبان لنا نجد

وكتب النقد فى مجموعها تجعل قوله فى البيت (النأى والبعد) — وكلاهما بمعنى — رديئا؛ لأن فى هذا التكرار فضلا أى زيادة — ويسميها البلاغيون المتأخرون تطويلا ما لم يتعين الزائد — وهى من الإطناب المرفوض (راجع عيار الشعر: ١٠٣، والموشح للمرزبانى: ١٤١)، وزاد فى الصناعتين: ص ١٠٨ «وإن كان قد جاء من هذا الجنس فى كلامهم كثير، والبيت فى نفسه بارد»:

ومن ناحية أخرى؛ قيل: إن تكريره لاسم محبوبته ليس معيبا، لأنه يجد للتلفظ باسمها حلاوة (سر الفصاحة: ١١٥).

(٢) سورة المائدة — الآية ٦٤. روى أن اليهود عندما نزل قوله تعالى: «من ذا الذى يقرض حسنا فيضاعفه له» ادعوا أن الله ضيق عليهم فى الرزق =

قد قتر علينا ، فبالغ الله - عز وجل - فى تقبيح قولهم فأخرجه على غايات الذم لهم . ومن المبالغة فى المعنى قول الشاعر :

وفيهن ملهى للطيف ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم(١)

فلم يرض أن يكون فيهن ملهى وإن كان ذلك مدحاً لهن حتى قال : «للطيف» لأن اللطيف لا يلهو إلا بفائق ؛ وقال : «ومنظر أنيق» ، وهذا فى الوصف مجزئ . فلم يكتف به حتى قال : «لعين الناظر المتوسم» لأن الناظر إذا كرر نظره وتوسم تبينت له العيوب عند توسمه وتكراره نظره ؛ ولذلك قال الشاعر :

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً(٢)

= رأيهم ، كأنهم يعتذرون بهذا عن إقراض الله - أى الإنفاق فى سبيله - وصوروا هذا الذى نسبوه إلى الله فى صورة غل اليد ، وهو كناية عن البخل ، صورت الحقيقة المعنوية فى صورة حسية تلزمها غالباً ، لإمكان تقرير الحقيقة فى الذهن عن هذا الطريق الحسى .

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى (سبق التعريف به ص ١٢) وهو فى صفة الظعائن اللائى ذكرهن فى أول معلقته . والملهى : اللهو وموضعه ، واللطيف المتأنق الحسن المنظر ، والأنيق المعجب ، والمتوسم المتفرس من الوسم أى العلامة ، أو من الوسامة وهى الحسن ، والمعنى — كما أوضحه الزوزنى فى شرح المعلقات السبع — فى هؤلاء النسوة لهو أو موضع لهو للمتأنق الحسن المنظر ، وفيهن مناظر معجبة لعين الناظر المتتبع محاسنهن وسمات جمالهن .

(٢) البيت دليل للمصنف على ما قاله عن تكرار النظر ، وهو منسوب لعبد الصمد بن المعذل وقبله :

يرينا صفحتى قمر يفوق سناهما القمرا =

. . . .

= والأرجح أنه لأبى نواس من قصيدته التى مطلعها :

دع الرسم الذى دثرا   يقاسى الريح والمطرا

وفيها يهجو الأعراب ، وينعى على حبهم النساء ، ويغرى بعشق الغلمان ، وهذا من مفاسد المدنية العربية فى العصر العباسى . وعبارة البرهان (يزيدك وجهها حسنا .·. إذا ما زدتها نظراً) . ولا وجه للتأنيث .

ومن ناحية أخرى ، هذا البيت شاهد لعلماء البلاغة فى مبحث المجاز الحكمى ومن رأى الإمام عبد القاهر (دلائل الإعجاز : ٢٢٩) أن ليس واجبا أن يكون للفعل — يزيد — فاعل فى التقدير ، كما قالوا : إن تقديره يزيدك الله حسنا وجمالا فى وجهه بسبب ما أودعه من دقائق الحسن والجمال . ورأى الإمام حصيف فان معنى اللفظ موجود على الحقيقة فليس المجاز فيه ، وإذا لم يكن المجاز فى نفس اللفظ كان المجاز فى الحكم لا محالة .

والشاعر أبو نواس هو الحسن بن هانئ أحد مقدمى الشعراء فى العصر العباسى ، ولد فى « الأهواز » سنة ١٤٥ هـ ، ونشأ فى « البصرة » ، ونال كثيرا من علمها ، بعد أن مالت نفسه عن مهنة « العطارة » التى اختارها له أهله ، وتخرج فى الشعر على يد « والبة بن الحباب » أحد مجان عصره واستقل أبو نواس بمذهبه حين صار إلى بغداد ، وأصبح من الشعراء المطبوعين الذين أكثروا من البديع ، وقال فيه « ابن المعتز » : إنه لا يستقصى فى شعره ولا يحلله ولا يقومه ، وكان يقوله على السكر كثيرا ، حتى أتى بالمتفاوت ، فجاء بالحسن العالى وبالركيك الهابط ، ومن هذا النوع الثانى ما أورده قدامة ابن جعفر (نقد الشعر ٢٤٢) والمرزبانى (الموشح ٤١٠) من مثل قوله :

يا أمين الله ، عش أبداً   دم على الأيام والزمن

فهذا من الممتنع ، لأنه دعا بما لا يجوز (وأقول إن الشاعر ما قصد =

. . . .

= الأدبية ، وإنما قصد طول العمر ولم يشأ أن يحده بحد يقيسه الإنسان)

ومثل قوله يصف الخمر :

كأن بقايا ما عفا من حبابها　　تفاريق شيب فى سواد عذار

تردت به ثم انفرى عن أديمها　　تفرى ليل عن بياض نهار(*)

فهذا من المتناقض ، فالحباب فى البيت الأول أبيض كالشيب ، وهكذا يرى أبيض ، ولكنه جعله فى البيت الثانى أسود كالليل . والخمر فى البيت الأول سوداء كسواد العذار ، وجعلها فى البيت الثانى بيضاء كبياض النهار ، وكلا السواد والبياض متضاد فلا يوصف الشيء بهما معا إلا إذا كان أدكن اللون أى وسطا بين البياض والسواد ، وليس فيما قاله أبو نواس ما يشعر بهذا اللون الوسط .

ونستطيع أن نقول : إن أبا نواس لبس زى عصره فأفرط فى أشياء كثيرة ، وكانت صلته بالخلفاء ومن إليهم واستنشادهم أشعـــاره دون تأثم ولا تحرج فرصة لإمامته فيما أفرط فيه . .

أفرط فى استنباط المعانى فقال فى الخمر :

وندمان سقيت الراح صرفاً　　وستر الليل منسدل السجوف

صفت ، وصفت زجاجتها　　كمعنى دق فى ذهن لطيف

وقال فيها :

فتمشت فى مفاصلهـــم　　كتمشى البرء فى السقم

فعلت فى البيت إذ مزجت　　مثل فعل الصبح فى الظلم =

(*) عفا : محا . حبابها : فقاقيعها . عذار : جانب اللحية . تردت به : اتخذته رداء . انفرى : انشق . تفرى : تشقق .

. . . .

فاهتدى سارى الظلام بها كاهتداء الصقر بالعلم

وقال مادحاً :

فقلت لها واستعجلتها بوادر جرت فجرى فى جريهن عبير

ذرينى أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير

وأفرط فى وصف الخمر والكأس والندامى .

وأفرط فى تصوير المجانة والمجان .

وأفرط فى الغزل بالمذكر .

وأفرط فى الخيال والتشبيه حتى أحال وأسرف وغالى ومس العقيدة ، ومما قال مادحا :

— وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق

— حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان

— يا أحمد المرتجى فى كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

وأفرط فى حديث الزهد (لأنه غريب من مثله) قال :

— أخى ، ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لا تظن الموت حقا

— أدعوك — رب — كما أردت تضرعا فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم

— إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

— والمنايا آكلات شاربات للأنام

(أشعاره وأخباره فى ديوانه (١٣ ألف بيت) ، والشعر والشعراء : ٧٩٦/٢ ، والعقد الفريد ، والأغانى : ج ٢و٦و١٦ ، والموشح ٤٠٧ وغيرها)

ومن هذا المعنى قول الشاعر أيضاً :

فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان(١)

فلم يرض بتصريح الشر حتى عراه من كل ما يستره ؛ ولم يرض بمشية الليث حتى جعله غضبان . وأشباه هذا كثير في القرآن والشعر .

---

(١) البيتان للفند الزماني من قصيدة له في حرب البسوس ، وفي ديوان الحماسة لأبي تمام (شرح التبريزي : ١ / ١٩) يتوسط البيتين بيت ثالث هو :

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

وصرح الشر (لازما) تصرح بمعنى تبين وظهر وبالغ في الظهور حتى كأنه رجل عريان عن ثيابه فشبه الشر بانسان — عن طريق الاستعارة المكنية — وأثبت له العرى تخييلا ، أو صرح بمعنى خلص وشبهه باللبن الصريح وهو الذي ذهبت رغوته وإذا ذهبت الرغوة فاللبن عريان . وفي البيت الأخير تشبيه مشيتهم إلى الشر بمشية الليث الجائع ، وكنى عن الجوع بالغضب لأنه يصحبه .

والفند الزماني هو شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمان (بوزن عمران على الأظهر) من بكر بن وائل . لقب بالفند لعظم شخصه — والفند (بالكسر) الجبل العظيم أو القطعة العظيمة منه — وقيل أتى الحرب كبيراً فقيل : ما نصنع بهذا الشيخ ، فأجابهم : أما ترضون أن أكون لكم فندا تأوون إليه وحارب ومن حوله ابنتاه تحضان الناس ؛ تقول الأولى :

وغى وغى وغى وغى حر الحرار والتظى
وملئت منه الربا ياحبذا المحلقون بالضحا

وتقول الأخرى : نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق

القطع والعطف(١):

وهو واضح لمن أراد أن يعرفه ، وهو فى القرآن كثير ؛ فما قطع الكلام فيه وأخذ فى فن آخر من القول ثم عطف عليه بتمام القول الأول قوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم .. إلى آخر الآية ﴾(٢) . ومثله : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين

---

(١) ربما يتبادر إلى الذهن أن القطع هو الفصل والعطف هو الوصل على نحو ما فى كتب البلاغيين المتأخرين* وليس الأمر كذلك عند التدقيق ، فإن المصنف جعل — فيما نستنتجه — الموضوع وما يقتضيه من سياق العبارة أصلا فى اعتبار القطع والعطف ، وقد ارتضى البلاغيون المتأخرون أن الوصل عطف بالواو ونحوها مما يفيد الشرك فى الحكم ، وأن الفصل ترك العطف. أما المصنف فقد أعتبر القطع مع وجود العطف بالواو ولم يعتبره مع ترك العطف، واعتبر العطف مع عدم الأداة ، ونلاحظ هذا واضحاً فى الآيات التى استشهد بها ، ومثلا : الآية الثالثة — وصية لقمان — بدأت بدعوة لقمان ابنه ألا يشرك بالله « إن الشرك لظلم عظيم » (نلاحظ أن المصنف لم يدخل فى اعتباره(*) القطع فى هذه الجملة وفيها عند البلاغيين فصل) ، وبعد هذا قول مقطوع فيه توصية لإنسان بوالديه (لاحظ أن جملة هذا القول مبدوءة بالواو وفيها عند البلاغيين وصل) وبعد هذا عودة إلى القول الأول « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة . » (لاحظ أن الجملة التى اعتبرها عطفا لم تبدأ بأداة الوصل)

(٢) سورة النساء الآية ٢٣ ولعلك قارئها وما بعدها لتستوضح القطع والعطف فيها على وجهة المصنف .

---

* انظر البيان العربى للدكتور بدوى طبانة — ص ٨٤ — ط ٣ — الأنجلو المصرية — ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾ ، ثم قطع وأخذ فى كلام آخر فقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ ، ثم رجع إلى الكلام الأول فقال : ﴿ فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾(١) .

(١) سورة المائدة — الآية ٣ . والميتة الحيوان فارقته الروح من غير تذكية أى مات حتف أنفه ، والدم هو الدم المسفوح وكانوا فى الجاهلية يضعونه فى الأمعاء ويشوونها ، وما أهل لغير الله به ماذبح باسم غير الله كصنم أو إنسان ، والمنخنقة التى ماتت خنقا ، والموقوذة التى ماتت بالضرب بالحديد أو الحجر أو العصا أو نحوها ، والمتردية التى ماتت بسبب سقوطها من أعلى إلى أسفل ، والنطيحة التى نطحتها بهيمة أخرى فماتت ، وما أكل السبع إلا ماذكيتم أى ما أكل منها السبع وهو كل حيوان وحشى إلا إذا أدركت بالتذكية — وهى الذبح الشرعى — وفيها حياة ، وما ذبح على النصب أى ما ذبح على الحجارة التى كانوا ينصبونها حول البيت ويذبحون البهائم عليها قاصدين التقرب بها للأصنام ، وأن تستقسموا بالأزلام قيل : معناه تقسيم البهيمة على النصب وقيل : المقصود بهذا الميسر والقمار ، وقيل : كانوا إذا قصدوا أمراً أعدوا ثلاثة أقداح كتبوا على أحدها (أمرنى ربى) وعلى الثانى (نهانى ربى) وتركوا الثالث غفلا ، فان خرج الأول مضوا للأمر ، وإن خرج الثانى أمسكوا وصرفوا أنفسهم عن الأمر ، وان خرج الثالث الغفل أجالوا القداح ثانية وهكذا . ذلكم فسق : أى تعاطى ما حرمه الله مما سبق كله فسق ، والفسق العصيان والترك لأمر الله والخروج . وقوله تعالى : «اليوم» لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يدانيه من الأزمنة الماضية والآتية ، وقيل اليوم يوم نزول الآية وهو يوم عرفة فى حجة الوداع . يئس الذين كفروا من دينكم : أى يئسوا منه أن يغلبوه أو أن يبطلوه . أكملت لكم دينكم : بمعنى أكملت لكم ما تحتاجون إليه فى تكليفكم من الوقوف على الشريعة . وأتممت عليكم نعمتى : بفتح مكة أو بإكمال الدين . ورضيت لكم الإسلام : اخترته لكم دينا مرضياً . فمن اضطر =

ومثل ذلك ما حكاه عن لقمان فى وصيته لابنه إذ قال له : ﴿ يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ثم قطع وأخذ فى فن آخر فقال : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ﴾ ، إلى قوله : ﴿ فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ، ثم رجع إلى تمام القول الأول فى وصية لقمان فقال : ﴿ يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾(١) ، إلى آخر الآيات .

التقديم والتأخير :

وأما التقديم والتأخير فكقوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى(٢) ﴾، أراد: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان

= فى مخمصة : أى من وقع بسببها فى ضرورة تناول المحرمات ، والمخمصة المجاعة . غير متجانف لإثم : أى غير منحرف إلى إثم بأن يأكلها متلذذاً أو متجاوزاً حد الرخصة .

(١) سورة لقمان : الآيات ١٣ - ١٦ وما بعدها إلى ١٩ . ولقمان صاحب الوصية هو لقمان الحكيم ، اختلفوا فى أصله وصفته فقيل : هو راع أسود رزقه الله العتق / أو نجار / أو خياط من سودان مصر / أو قاض فى بنى إسرائيل / وقيل هو ابن أخت أيوب / أو ابن خالته / أو هو من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود وأخذ منه العلم / او أنه كان يفتى قبل مبعث داود فلما بعث قطع الفتوى .

(٢) سورة طه - الآية ١٢٩ . وجاءت عقيب التنبيه على إهلاك الأمم السابقة كعاد وثمود بحيث يعاين العرب مساكنهم ويشهدون آثار الخسف الذى لحقهم . والكلمة التى سبقت هى الوعد بتأخير العذاب عمن يستحقه من أمة محمد إلى الآخرة . لكان لزاما : أى لكان العذاب لزاما أى لازما من باب الوصف بالمصدر وأجل مسمى : هو القيامة وهو معطوف فى الأظهر على =

لزاما . وكقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾(١) أراد: مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض ولا يستطيعون شيئاً . وفيما ذكرنا دليل على ما لم نذكره إن شاء الله .

الاختراع :

وأما الاختراع فهو ما اخترعت له العرب أسماء مما لم نكن نعرفه . فما

= « كلمة » ، والتقدير : لولا هذان لكان العذاب واقعاً معجلا والشاهد فى تأخير المعطوف للإشعار بأن كلا من الكلمة والأجل المسمى كاف وحده فى تأخير العذاب .

(١) سورة النحل . الآية ٧٣ ووجهة المصنف أن لفظ « شيئا » مقدم من تأخير وأن أصل الجملة (ولا يستطيعون شيئا) ، على معنى أن الكفار يعبدون من دون الله من الأصنام ما لا يملك رزقا ومالا يستطيع شيئا (ولما كانت الأصنام فى معنى الآلهة عوملت كالعقلاء) ، أو على معنى أن الكفار يعبدون . . . والكفار لا يستطيعون شيئا مع أنهم أحياء ذوو تصرف وتمييز فكيف بالجماد الذى عدم البصيرة واللب وفى تفسير الآية وجهة أخرى بتقدير « شيئا » مفعولا به لـ « رزقا » إذا اعتبرته مصدراً باقيا على مصدريته ، أو بدلا منه إذا اعتبرت « رزقا » مصدراً بمعنى المفعول ـ أى مرزوقا ـ وعلى الاعتبار الأول تقع « من السموات والأرض » صلة المصدر ، وعلى الاعتبار الثانى تكون صفة ، ورزق السموات المطر ونحوه ، ورزق الأرض النبات وما إليه . ويجوز أن تجعل « شيئا » تأكيداً للإملاك والتقدير : ويعبدون من دون الله مالا يملك شيئا من الملك . والله أعلم .

سموه باسم من عندهم كتسميتهم الباب في المساحة بابا، والجريب جريباً، والعشير عشيراً(١).

ومنه ما أعربته وكان أصل اسمه أعجمياً كالقسطاس المأخوذ من لسان الروم، والشطرنج المأخوذة من لسان الفرس، والسجل المأخوذ من لسان الفرس أيضاً(٢).

وكل من استخرج علماً أو استنبط شيئاً وأراد أن يضع له اسماً من عنده ويواطئه عليه من يخرجه إليه(٣). فله أن يفعل ذلك. ومن هذا الجنس اخترع النحويون: اسم الحال، والزمان، والمصدر، والتمييز، والتبرئة(٤). واخترع الخليل العروض فسمى بعض ذلك الطويل، وبعضه

---

(١) تسمى الغاية – في الحساب وفي الحدود – الباب والبابة. والجريب مكيال قدر أربعة أقفزة – قاله الأزهري – والجريب أيضاً مساحة من الأرض مقدارها ٣٦٠٠ ذراع مربعة كما نقل عن قدامة بن جعفر، أو ١٠٠٠٠ ذراع مربعة كما جاء في كتاب «المساحة» للسموءل (ويبدو أن الخلاف في التقدير بحسب الأقاليم). والعشير [illegible] الجزء من العشرة (أي ١ من ١٠) وقيل: هو عشر العشر (أي ١ من ١٠٠).

(٢) القسطاس (بضم القاف وبكسرها وبهما قرئ قوله تعالى: «وزنوا بالقسطاس المستقيم») هو الميزان، قيل – كما أشار المصنف – مأخوذ من لغة الروم، وقيل: عربي مأخوذ من القسط بمعنى العدل. والشطرنج: اللعبة المعروفة أخذت هي واسمها عن فارس. والسجل: الكتاب، وفي القرآن «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب»، وفي البرهان (وهو به): السجيل وهي حجارة كالمدر – والمدر الطين لا يخالطه رمل – معرب (سنك كل).

(٣) أي يوافق عليه، والمواطأة على الشيء الموافقة عليه وكذلك التواطؤ.

(٤) هذه أمثلة مما اصطلح عليها النحاة، وفي النحو غيرها كثير. والتبرئة اصطلاح للا النافية للجنس، وسميت تبرئة لدلالتها على البراءة من ذلك الجنس.

المديد ، وبعضه الهزج . وبعضه الرجز(١) .

---

(١) سمى الخليل خمسة عشر وزنا ، جمعها ناظمهم فى هذين البيتين :

طويل ، مديد ، فالبسيط ، فوافر فكامل ، أهزاج ، لأراجيز ، أرملا
سريع ، سراح ، فالخفيف ، مضارع فمقتضب ، مجتث ، قرب ، لتفضلا

واستدرك عليه الأخفش وزنا سماه « الخبب » أو « المتدارك » .

وهذه الأوزان مضبوطة ضبطا إيقاعيا على الحركات والسكنات ، وعلى تكوين المقاطع من تعاقب الحركة والسكون ، أو اتصال الحركة بحركة ثانية أو ثالثة ... الخ ماهو مقرر فى علم «العروض» .

والخليل هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصرى الفرهودى الأزدى ، أستاذ النحويين واللغويين ، ورأس الطبقة الثالثة من نحاة البصرة . أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وأخذ عنه سيبويه ، والنضر بن شميل ، ومؤرج بن السدوسى ، وعلى بن نصر ، وغيرهم من أعلام النحو واللغة . وتوفى الخليل سنة ١٨٠ هـ .

والخليل هو مخترع علم العروض ، وهو أول من وسع دائرة القياس والاستنباط والتعليل فى النحو ، وأثره فى كتاب سيبويه واضح ؛ فعندما يقول هذا : سألته أو قال دائما يعنى أستاذه .

والخليل أول من ضبط اللغة بتأليف معجم «العين» أو ضبط طريقته وتأليف قطاع منه — وسمى العين لترتيبه الحروف على حسب مخارجها من الحلق — وأولها العين — فاللسان فالأسنان فالشفتين ، وهو ترتيب مستعمل فى بعض لغات الهند .

والأخفش هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، رفيق سيبويه وتلميذه ، =

وقد ذكر « أرسطاطاليس » ذلك وذكر أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به — أن يسميه بما شاء من الأسماء .

وهذا الباب مما يشترك العرب وغيرهم فيه وليس مما ينفردون به .

= وإمام الطبقة الخامسة من نحاة البصرة ، توفى سنة ٢١١هـ *



(*) هذا هو الأخفش الاوسط ، وإذا أطلق « الأخفش » انصرف اليه . وهناك الاخفش الاكبر (١٧٧ هـ) من رجال الطبقة الثانية من نحاة البصرة وأستاذ سيبويه . والاخفش الاصغر هو أبو الحسن على بن سليمان تلميذ المبرد وثعلب وتوفى فى بغداد سنة ٣١٥ هـ .

باب تأليف العبارة

واعلم أن سائر العبارة[1] في كلام العرب إما أن يكون منظوماً وإما أن يكون منثوراً . والمنظوم هو الشعر ، والمنثور هو الكلام[2].

[الشعر وما جاء فيه][3] :

والشعر ينقسم أقساماً منها : « القصيد » وهو أحسنها وأشبهها بمذاهب الشعراء . ومنها « الرجز » وهو أخفها ؛ والراجز : الساقي الذي يسقي الماء ؛ وكان الأصل في الأراجيز أن يرتجزبها الساقي على دلوه إذا مدها ، ثم أخذت الشعراء فيه ، فلحق بالقصيد . ومنها « المسمط » وهو أن يأتي الشاعر بخمسة أبيات على قافية ثم يأتي ببيت على غير تلك القافية ، ثم يأتي بخمسة أبيات على قافية أخرى ، ثم يعود فيأتي ببيت على قافية البيت الأول ، وكذلك إلى آخر الشعر[4]. ومنها « المزدوج » وهو ما أتى على قافيتين قافيتين إلى آخر

---

(1) سائر العبارة : كلها ، واستعمال سائر في معنى جميع خطأ أو مرجوح كما أسلفنا

(2) تسمية المنثور بالكلام اصطلاح المصنف ، وإلا فالشعر كلام ولا يماري هو في هذا وسيأتي أنه يسمى المنثور بالقول .

(3) وضعنا هذا العنوان ، لمقابلة ما يأتي من (المنثور وما جاء فيه) . وربما وضعنا عناوين فرعية تحت (الشعر وما جاء فيه) .

(4) أخذ « المسمط » من السمط (بالكسر) وهو الخيط ينظم فيه الخرز وقد اتفقوا على أن المسمط يتشكل من مجموعة متماثلة القوافي يعقبها بيت من قافية مخالفة ، ثم تنظم مجموعة أخرى على قافية مغايرة لقافية المجموعة السابقة ويتلوها بيت تتفق قافيته مع قافية البيت السابق .. وهكذا . واختلفوا =

القصيدة . وأكثر ما يأتى وزنه على وزن الرجز(١).

[الشعر بين البلاغة والضرورات] :

وفى الشعر والنثر جميعاً تقع البلاغة والعى والإيجاز والإسهاب ، إلا أن البلاغة والإيجاز إذا وقعا فى الشعر والقول قضى للشاعر بالفلج(٢). والعى

= فى عدة المجموعة من الأبيات والأشطار ، فقيل خمسة أبيات — كما ذهب إليه المصنف — وقيل أربعة أبيات / خمسة أشطار / أربعة أشطار / ثلاثة أشطار ، ومثال هذا الأخير قول الشاعر :

غزال هاج لى شجنا فبت مكابدا حزنا عميد القلب مرتهنا

بذكر اللهو والطـــرب

سبتنى ظبية عطل كأن رضابها عسل ينوء بخصرها كفل

ثقيـــل روادف الحقب

(١) رأ كثر ما نظموا من المزدوج فى الحكايات والأمثال ومرد العلوم ومن أشهر المزدوجات منظومة لأبى العتاهية سماها (ذات الأمثال) وجمع فيها نحوا من أربعة آلاف مثل ، ومنها قوله :

حسبك مما تبتغيه القـوت ما أكثر القـوت لمن يموت !

الفقـــر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا

هى المقادير فلمنى أو فـذر إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

لكل ما يؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم !

ما انتفع المـــرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله

(٢) الفلج (بالفتح) : الفوز والظفر . والعى العجز والحصر . والإسهاب الإطناب والإكثار من الكلام .

والإسهاب إذا وقعا فى الشعر والقول كان الشاعر أعذر ، وكان العذر عن المتكلم أضيق ؛ وذلك لأن الشعر محصور بالوزن ، محصور بالقافية ، فالكلام يضيق على صاحبه ، والنثر مطلق غير محصور فهو يتسع لقائله . فما تساوى القول والشعر فيه من هذا الفن فحكم للشاعر فيه بالفضل قول بعضهم فى بعض كتب الفتوح : « فكانت معاقله تعقله ، وما يحرزه يبرزه » ، وقال الشاعر :

وإن يبن حيطاناً عليه فإنما أولئك عقالاته لا معاقله(١)

وقيل لبعضهم وقد أطال الوقوف فى الشمس على باب بعض الولاة : لقد أطلت الوقوف فى الشمس ، فقال : الظل أريد ، وقال الشاعر :

تقول سليمى : لو أقمت سررتنا ولم تدر أنى للمقام أطوف(٢)

وأشباه هذا كثير .

---

(١) البيت لأبى تمام (سبق التعريف به فى ص٥٨) راجع ديوانه ص ٢٣١ والصناعتين ص٢٠٤ . والعقالات جمع عقال (وزان قفاز) وهو داء يصيب رجل الدابة ، والمعاقل : الحصون الواحد منها معقل . ومعنى الجملة المنثورة : كانت حصونه تمنعه من السير وكان ما يخفيه ويحفظه يظهره .

(٢) هذان الجوابان (الظل أريد) و (المقام أطوف) تعليل لما قبلهما ، وكلا القائلين ينشد من وراء مسعاه اليسر بعد العسر والراحة بعد طول الرحلة . وفى الكامل للمبرد (١/١١٨) والصناعتين ١ ص ٢٢٠) أن روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب وقف بباب الخليفة المنصور ، وطال وقوفه فى الشمس ، فسئل فى ذلك ، فقال : الظل أريد — وفى رواية : ليطول وقوفى فى الظل — ومثله من الشعر قول عروة بن الورد :

تقول سليمى : لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

لعل الذى خوفتنا من ورائنا سيدركه من بعدنا المتخاف =

فأما عذرهم للشاعر فى التقصير واغتفارهم له العيوب، فقد جوزوا له من قصر الممدود، وحذف الحركة، وتخفيف الهمز، وصرف مالا ينصرف؛ مالم يجيزوه للمتكلم(١).

= وفى ديوان الحماسة لأبى تمام (شرح التبريزى: ٤/٢٤٦)، وفى الأغانى (٣/٨٢): يروى: لو أقمت لسرنا، كما يروى البيت الثانى:

لعل الذى خوفتنا من أمامنا　　يصادفه فى أهـــله المتخلف

وهذا الشعر من قصيدة طويلة يرد فيها على زوجه التى خافت هلاكه فى غزوة كان عزم عليها.

وعروة بن الورد شاعر جاهلى من عبس عاش صعلوكا وزعيما لفريق من الصعاليك (وهو لقب أطلقوه على الفقراء المتلصصين الذين عاشوا على الإغارة والنهب والطرد)، ولكنه كان جوادا، وكان يبتغى من صعلكته رزق الضعفاء والمرضى والزمنى، وينهض لإنقاذ المعدمين وذوى الحاجة.

(أشعاره وأخباره فى ديوانه، وديوان الحماسة لأبى تمـــام، والشعر والشعراء: ٢/٦٧٥، والأغانى: ٣/٧٣).

(١) قصر الممدود كقول الشاعر * لابد من صنعا وإن طال السفر * ـ والأصل صنعاء ـ وحذف الحركة كقول عروة بن حزام العذرى فأسكن عين (زفرات) وحقها التحريك:

تحملت زفرات الضحا فأطقتها　　وما لى بزفرات العشى يدان

وتخفيف الهمز كقول العباس بن الأحنف فسهل همز (اليأس):

يقلقنى شوقى فآتيـــكم　　والقلب مملوء من الياس

وصرف ما لا ينصرف كقول البحترى فصرف (كواكب):　=

وأجازوا له أيضـــا في الوزن استعمال الزحاف (١)

= فاذا الأسنة خالطتهـا خلتها فيها خيال كواكب في ماء

ولم يستقص المصنف الضرورات الشعرية ، فهي أكثر مما ذكره منها عددا ، وإن لم تكن كلها على درجة من القول بإجازتها . قال أبو هلال العسكري (الصناعتين : ١٥٠) :

« وينبغى أن تجتنب ارتكاب الضرورات — وإن جاءت فيها رخصة من أهل العربية — فانها قبيحة تشين الكلام وتذهب بمائه ، وإنما استعملها القدماء في أشعارهم لعدم علمهم بقباحتها ، ولأن بعضهم كان صاحب بداية والبداية مزلة ، وما كان أيضا تنقد عليهم أشعارهم ، ولو قد نقدت وبهرج منها المعيب كما تنقد على شعراء هذه الأزمنة ويبهرج من كلامهم ما فيه أدنى عيب — لتجنبوها » وإنما يعيب أبو هلال الضرورات المستقبحة بدليل الأمثلة التى أوردها كقول الشاعر * ألم يأتيك والأنباء تنمى * فلم يجزم الفعل. وقول ابن قيس الرقيات * لا بارك الله في الغواني هل * فحرك حرف العلة وقول قعنب * إني أجود لأقوام وإن ضننوا * فأظهر التضعيف . وقول جميل : * إذ جاوز الإثنين سر فانه * فقطع همز الوصل .

(١) الزحاف - في اصطلاح أهل العروض - تغيير يلحق حشو البيت وله أسماء شتى بحسب موقع التغيير وشكله ، فحذف الثاني الساكن (خبن) ، وحذف الثاني المتحرك (وقص) ، وحذف الرابع الساكن (طي) ، وحذف الخامس الساكن (قبض) ، وحذف الخامس المتحرك (عقل) ، وحذف السابع الساكن (كف) ، وإسكان الثاني (إضمار) ، وإسكان الخامس (عصب) ، واجتماع الخبن والطي (خبل) ، واجتماع الإضمار والطي (خزل) واجتماع الخبن والكف (شكل) ، واجتماع العصب والكف (نقص) .

والخزم(١)، وفى القافيـــة الإكفاء، والإقواء، والسناد، والإيطاء، والتضمين(٢)، وكل ذلك عيوب، وهى على من استعمل البديهة وقال الشعر

---

(١) الخزم — فى اصطلاح العروضيين — إسقاط أول الوتد المجموع (والوتد المجموع حركتان يليهما ساكن) فى صدر أول البيت، ويدخل بحوراً خمسة، وهى الطويل، والوافر، والهزج، والمضارع، والمتقارب، وهناك شبه إجماع على اعتبار الخزم علة قبيحة.

(٢) فى تحديد هذه المصطلحات خلاف، ونذكر أشهر ما قالوا فيها (راجع العقد الفريد: ٦/٣٢٩):

فالإكفاء: اختلاف الروى (والروى الحرف الذى تبنى عليه القصيدة) بحروف متقاربة المخارج كالسين مع الصاد، والعين مع الغين، والدال مع الطاء فى مثل قوله:

جارية من ضبـــة بن أد كأنها فى درعها المنعط

والإقواء: اختلاف المجرى (والمجرى حركة الروى) بالكسر والضم كقول النابغة (قبل أن يصلحه):

أمن آل مية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزودِ

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ

لا مرحبا بغد ولا أهلا به إن كان تفريق الأحبة فى غدِ

والسناد: له عدة أوجه، منها إدخال الردف فى بيت وتركه فى بيت آخر (والردف الحرف اللين قبل الروى)، كقوله:

وبالطوف بالأخيار ما اصطحبابه وما المرء إلا بالتقلب والطوف

فراق حبيب وانتهاء عن الهوى فلا تعذلينى قد بدا لك ما أخفى

ومنها اختلاف حركة الحرف الذى قبل الردف بالفتح والكسر، كقوله: =

على الهاجس والسجية أقل عيباً منها على من استعمل الروية والتفكر وكرر النظر والتدبر . وقد ذكر الخليل وغيره من أوزان الشعر وقوافيه ما يغني من نظر فيه ويغنينا عن تكلف شرح ذلك له ؛ إذ كنا نرى أن تكلف ما قد فرغ منه عناء لا فائدة فيه ، إلا أنا نذكر جملة من ذلك في باب استخراج المعمى تدعو الضرورة إلى ذكرها فيه إن شاء الله .

[حد البلاغة] :

وقد ذكر الناس البلاغة ووصفوها بأوصاف لم تشتمل على حدها . وذكر الجاحظ كثيراً مما وصفت به ، وكل وصف منها يقصر عن الاحاطة بحدها . وحدها عندنا أنه القول المحيط بالمعنى المقصود ، مع اختيار الكلام ، وحسن النظام ، وفصاحة اللسان . وإنما أضفنا إلى الاحاطة بالمعنى اختيار الكلام ، لأن العامي قد يحيط قوله بمعناه الذي يريده إلا أنه بكلام مرذول من كلام أمثاله ، فلا يكون موصوفاً بالبلاغة . وزدنا فصاحة اللسان ، لأن الأعجمي واللحان قد يبلغان مرادهما بقولهما ، فلا يكونان موصوفين

= ألم تر أن تغلب أهل عز　　جبال معاقل ما يرتقينا
شربنا من دماء بني تميم　　بأطراف القنا حتى روينا

والإيطاء : تكرير كلمة القافية لفظاً ومعنى لغير نكتة ولغير انتقال من غرض إلى آخر ، وأجازوا تكريرها مع وجود فاصل اختلفوا في تقديره بين ثلاثة أبيات وعشرين بيتاً .

والتضمين : تعليق قافية بيت بما بعده إعرابيا كقول الشاعر :

وهم وردوا الجفار على تميم　　وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواطن صالحات　　أتيتهم بود الصدر مني

بالبلاغة(١). وزدنا حسن النظام لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتى على المعنى ولا يحسن ترتيب ألفاظه وتصيير كل واحدة منها مع ما يشاكلها فلا يقع ذلك موقعه. فما أتى فى نهاية النظم قول أمير المؤمنين — رضى الله عنه — فى بعض خطبه: «أين من سعى واجتهد، وجمع وعدد، وزخرف ونجد، وبنى وشيد!»، فاتبع كل حرف بما هو من جنسه وما يحسن معه نظامه. ولم يقل: أين من سعى ونجد، وزخرف وشيد، وبنى وعدد. ولو قال ذلك لكان كلاماً مفهوماً، ومن قائله مستقيماً، وكان مع ذلك فاسد النظم قبيح التأليف.

[صفة الشاعر]:

والشاعر من شعر يشعر شعراً وهو شاعر؛ والشعر المصدر (ونظيره(٢) الكافل، يقال: كفل يكفل كفلا وهو كافل: ومنه سمى ذو الكفل ذا الكفل)، وإنما سمى شاعراً لأنه يشعر من معانى القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره. وإذا كان إنما يستحق اسم الشاعر بما ذكرنا، فكل من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى.

[موقف الدين من الشعر]:

وقد كره قوم قول الشعر واصطناعه، وإنما الشعر كلام موزون، فما جاز فى الكلام جاز فيه، وما لم يجز فى ذلك لم يجز فيه(٣).

---

(١) فى تقديرنا أن الوصف بالبلاغة من الأمور النسبية، فلكل لغة بلاغتها ولكل جماعة بلاغتها.

(٢) أى نظيره فى القياس الصرفى.

(٣) يريد بالكلام النثر كما أسلف، ويريد بالتسوية بين الشعر والكلام =

وقد سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الشعر واستنشده، وأثاب عليه، وأنشد فى مسجده وعلى منبره. وقال لحسان: اهج قريشاً ومعك روح القدس». وقال: «إن من الشعر لحكما»(١).

ومما احتج به من كرهه ما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قوله: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً(٢)»، وما روى عنه فى شأن امرئ القيس وقوله: «ذلك رجل مذكور فى الدنيا منسى فى الآخرة يأتى يوم القيامة ومعه لواء الشعراء حتى يوردهم النار»، وهذا القول منه - عليه السلام - خاص فى كفار الشعراء. والدليل على ذلك إجماع الأمة على أن حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما من شعراء المؤمنين الذين كانوا يناضلون عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأشعارهم ويجاهدون معه بألسنتهم وأيديهم، خارجون عن جملة من يرد النار مع امرئ القيس. وقد وصف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حسان ابن ثابت بذلك فقال: «جاهد معى بيده ولسانه»، وأقعد كعب بن زهير على منبره وأنشد:

= أنهما فن قولى واحد، ولا داعى للتفرقة بينهما فى الإباحة والحظر لذاتيهما.

(١) روح القدس: جبريل، ومعيته معية نصرة وتأييد أدبى. وإن من الشعر لحكما أى حكمة أو علما، وفى بعض الروايات: «إن من الشعر لحكمة» — رواه أصحاب الصحاح وغيرهم.

(٢) القيح: المدة لا يخالطها دم، ويريه: يفسده من ورى (وزان وعى) بمعنى فسد.
=

* بانت سعاد فقلبي اليوم متبول *(١)

حتى إذا بلغ إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء بـه   وصارم من سيوف الله مسلول

أومأ إلى الناس باستماع قوله .

= والحديث رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة وغيره ، وفي بعض الروايات حذفت جملة (حتى يريه) وفي بعضها زيادة في الآخر هكذا : « ... خير له من أن يمتلىء شعرا مما هجيت به » ، وهذا القيد الأخير يبين لون الشعر المذموم .

(١) هذه هي المدحة النبوية المشهورة باسم « بانت سعاد » مطلعها الغزلي الذي اصطنعه كعب مجاراة لشعراء الجاهلية ، وقد كان كعب وأخوه بجير خرجا من ديارهما يريدان المدينة ، فلما وصلا قريبا منها تردد كعب فلم يواصل السير مع أخيه ، وقدم بجير على الرسول ﷺ المزيارة * ، وغلبت كعبا طبيعة الشرك فهجا أخاه وهجا الرسول وصحابته ، فتوعده الرسول وأهدر دمه ، وحذره أخوه سوء العاقبة إلا أن يأتي الرسول معتذرا تائبا مسلما ، فالإسلام يجب ما قبله ، وحاول كعب أن يحتمي بالقبائل من الرسول ، فلم يحمه منها أحد ، وأدرك أنه لا محالة هالك ، فاحتال حتى أتى أبا بكر الصديق ، واتخذه شفيعا لدى الرسول ، الذي قبل شفاعته ، وعفا عن كعب ، واستمع إلى مدحته ، وخلع عليه بردته الشريفة ، ولذا سميت القصيدة أيضا « البردة » . وحاول كثير من الشعراء نهجها في مدحاتهم النبوية .

وكعب هو ابن زهير بن أبي سلمى ، تخرج في الشعر على أبيه ، وسلك مسلكه في تثقيف الشعر وتحبيره . وتذكر كتب الأدب أن زهيرا لم يأذن لابنه وهو صغير في قول الشعر إلا بعد أن امتحنه فيه امتحانا عسيرا .

(*) كان بجير قد أسلم والرسول في مكة (راجع الاغاني : ١٤٣/١٥ ـ طبعة ساسي).

وقد قلنا : إن كل مهمل من الأخبار إذا كان فى الأمر الممكن فهو خاص . وهذا فى الممكن فهو خاص(١) . ويزيد ما قلناه وضوحا قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون ﴾(٢) ثم بين مراده وأنه خاص فى الكفار منهم ومن تعدى الحق وفسق فقال: ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾(٣). وأما قوله : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له

---

(١) راجع ص ٣٤ وما تليها .

(٢) سورة الشعراء — الآيات ٢٢٤ — ٢٢٦ . والغاوون قيل الشياطين وقيل السفهاء والشطار . ووصفهم بأنهم فى كل واد يهيمون تمثيل لذهابهم فى فنون الشعر مذهب الغواية والسفه ، ووصفهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون تمثيل لكذبهم وادعائهم ومجاوزتهم حد القصد وغلوهم فى المعانى المقيتة وتلبسهم بالنقائص وانحرافهم عن الجادة .

(٣) سورة الشعراء — الآية ٢٢٧. وجاءت عقب الآيات السابقة لاستثناء الشعراء المؤمنين الصالحين الذاكرين الله كثيرا، وكانت هذه صفاتهم، وكانت أغلب عليهم من الشعر ، فاذا أنشدوا شعرا ضمنوه معانى الإيمان والصلاح والتقوى وتوحيد الله والثناء عليه ، وأودعوه الحكم والمواعظ والآداب القويمة ، ومدحوا به الرسول ﷺ وصلحاء الأمة ، وقد يتناولون الهجاء انتصاراً للحق وخضدا لشوكة الكفرة ، لا عن رغبة فيه لذاته ، و « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » ، وقد أوقع الكفار بالمسلمين ظلما كبيرا وأعنتوهم واضطروهم إلى الفرار بدينهم ، ثم حاربوهم ، ودفعوا —

من أن يمتلئ شعراً ، فإن المعقول من معنى الامتلاء أن يشغل المالئ للشيء جميع أجزائه حتى لا يكون فيها فضل لغيره . وإن كان هذا هكذا فإنما أراد النبي – صلى الله عليه وسلم – بهذا القول من امتلأ جوفه من الشعر حتى لا يكون فيه موضع للذكر ولا لحفظ القرآن ولا لعلم الشرائع والأحكام والسنة في الحلال والحرام . وهذا ظاهر لمن تدبره ، ويزيده وضوحاً ما روى عنه – عليه السلام – من أنه سمع قوماً يقولون : فلان علامة ، فقال : « وما هو علامة » ؟ فقيل : يعلم أيام العرب وأشعارها وأنسابها ووقائعها ؛ فقال : « ذلك علم لا ينفع من علمه ولا يضر من جهله ، وإنما العلم آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاهن فهو فضل »(١) .

[الشعر ديوان العرب] :

ولم يزل الشعر ديوان العرب في الجاهلية . لأنهم كانوا أميين (ولم تكن الكتابة فيهم إلا لأهل الحيرة ومن تعلم منهم) فإنما حفظت مآثرها وأخبار أوائلها ومذكور أحسابها ووقائعها ومستحسن أفعالها ومكارمها بالشعر الذى

= شعراءهم إلى هجاء الرسول ، فكان لا بد من دفع الشر بما يدفعه ، فانتدب الرسول بعض الشعراء المسلمين الذود عنه وعن الإسلام . ثم ختمت الآية بهذا الوعيد البالغ « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ؛ لإشعار كل ظالم – أياً كان نوع ظلمه ومداه – بسوء المنقلب والعاقبة والمصير .

(١) الذى أفهمه من هذا الحديث أن العلم يجب أن يتجه أساساً إلى علم الدين ، ثم يتزود المسلم بعد هذا العلم بعلم الدنيا . ولعمرى لئن كان شيء من علم الدنيا يخدم علم الدين لقد ارتفع إلى مستواه وصار نظيره فى الفضل .

قيل فيها ونقلته الرواة عن شعرائها، ولولا الشعر ماعرف جود حاتم طيء، وكعب بن مامة، وهرم بن سنان، وأولاد جفنة(١). لكن الذى قيل فيهم من الشعر أشاد بذكرهم وبين عن فخرهم؛ فقال الفرزدق فى حاتم طيىء:

على ساعة لو أن فى القوم حاتما　　على جوده ضنت بها نفس حاتم(٢)

---

(١) حاتم وكعب وهرم هم الثلاثة الذين انتهى اليهم الجود فى الجاهلية وأولاد جفنة ملوك غسان فى أواخر القرن الخامس الميلادى. وقد عقد ابن عبد ربه فى كتابه (العقد الفريد — ١/١٢٠) بابا تحدث فيه عنهم وعن أخبارهم، كما تحدث عن أجواد أهل الإسلام وعدهم أحد عشر رجلا فى عصر واحد وهم: عبيد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص (فى الحجاز)، وعبد الله بن عامر بن كريز وعبيد الله بن أبى بكرة ومسلم ابن زياد وعبيدالله بن معمر وطلحة الطلحات (فى البصرة)، وعتاب بن ورقاء الرياحى وأسماء بن خارجة الفزارى وعكرمة بن ربعى الفياض (فى الكوفة).

(٢) يروى المبرد (الكامل ١/١٣٧) أن الفرزدق صافن رجلا من بنى العنبر إداوة (أى قاسمه مطهرة) فى وقت، فرامه العنبرى وسامه أن يؤثره، وكان الفرزدق جوادا، فلم تطب نفسه عن نفسه، فقال:

فلما تصافنا الإداوة أجهشت　　إلىّ غضون العنبرى الجراضم

فجاء بجلمود له مثل رأسه　　ليشرب ماء القوم بين الصرائم

على ساعة لو أن فى القوم حاتما　　على جوده ضنت به نفس حاتم

(تصافنا الإداوة: تقاسمناها. أجهشت: بمعنى تسرعت. والغضون: التكسر فى الجلد. والجراضم: الأحمر الممتلىء. والصرائم: جمع صريمة =

وقال زهير فى هرم :

من يلق يوماً على علاته هرماً يلق السماحة منه والندى خلقا

=وهى الرملة التى تنقطع من معظم الرمل*).

والفرزدق هو ابو فراس همام بن غالب بن صعصعة من دارم ، ينتهى نسبه إلى تميم ، ولآبائه مجد وحسب ومروءة وسيادة فى الجاهلية والإسلام ولد فى البصرة سنة ١٩ هـ ونشأ فيها وفى بواديها ، ونبغ فى الشعر صغيراً ، واتصل أمره ببنى أمية فمدح خلفاءهم وولاتهم ، وانساق — تحت ظروف عصره — إلى مهاجاة جرير ، وجمع الفرزدق من أجل ذلك حوله أكثر من ثمانين شاعراً ، فأخملهم جرير إلا الفرزدق والأخطل . وعاش الفرزدق رقيق الدين حتى رزق التوبة فى أخريات عمره على يد الحسن البصرى ، ثم توفى سنة ١١٠هـ .

ويعتبر الفرزدق من الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين ، فى لفظه جزالة ، وفى عبارته فخامة ، وأسلوبه من النمط الجاهلى ، ولذلك اعتمد علماء اللغة عليه كثيرا فى شواهدهم ، واعترفوا بأن شعره يجمع ثلث اللغة ، وإن عابه بعضهم فى بعض شعره .

وفى شعر الفرزدق ظاهرة واضحة ، ذلك أنه يفخر بقومه وآبائه ، ويذكر مناقبهم ووقائعهم فى مدائحه وأهاجيه وغيرها .

(أشعاره وأخباره فى ديوانه ، ونقائض جرير والفرزدق لأبى عبيدة ، وطبقات الشعراء ، والشعر والشعراء ، والعقد الفريد ، والأغانى ، والموشح ، وغيرها) .

(*) فى المرجع نفسه : التصافن يكون بطرح حجر فى الاناء يقسم به الماء (ويسمى هذا الحجر المقلة بفتح الميم) ، ثم يصب فيه من الماء ما يغمره لئلا يتغابنوا . وكذلك كل شىء وقفوا على كيله أو وزنه .

لو نال حى من الدنيا بمكرمة　　　أفق السماء لنالت كفه الأفقا(١)

وقال آخر :

فما كعب بن مامة وابن سعدى　　　بأجود منك يا عمر الجوادا(٢)

---

(٢) البيتان من مدحة زهير التى مطلعها :

إن الخليط أجد البين فانفرقا　　　وعلق القلب من أسماء ما علقا

وسبق فى ص (١٢) التعريف بزهير وبظروف مدائحه فى هرم بن سنان.

(٣) البيت من قصيدة لجرير يمدح فيها عمر بن عبد العزيز، ويقول فيها:

يعود الفضل منك على قريش　　　وتفرج عنهم الكرب الشدادا

وقد أمنت وحشهم برفق　　　ويعيى الناس وحشك أن تصادا

وتبنى المجد يا عمر بن ليلى　　　وتكفى الممحل السنة الجمادا

وتدعو الله مجتهداً ليرضى　　　وتذكر فى رعيتك المعادا

وما كعب بن مامة وابن سعدى　　　بأجود منك يا عمر الجوادا

تعود صالح الأخلاق ، إنى　　　رأيت المرء يلزم ما استعادا

وهذان الجوادان اللذان جعلهما الشاعر فى منزلة فى الجود أقل من الممدوح هما كعب بن مامة الإيادى، وأوس بن حارثة بن لأم الطائى ، وينسب أوس أيضاً إلى أمه سعدى وكانت سخية مثله، وكان معاصراً لحاتم الطائى، وكان كلاهما يتطامن من هباته إذا ذكر الآخر ، وفى الكامل (١/١٣٦) بعض أخبارهما .

وصاحب الشعر هو جرير بن عطية بن الخطفى أحد الثلاثة الشعراء المقدمين فى الإسلام ، ولد فى اليمامة (فى الجنوب الشرقى من نجد) ، ونشأ فيها ، وجعل يتردد على البصرة ثم دمشق متكسبا بشعره ، حتى صار من شعراء الأمويين، وساقته المنافسة فى مدحهم إلى مهاجاة الفرزدق والأخطل=

إلى غير هذا مما قيد على الأبطال ذكر شجاعتهم ، وشهر فى الناس ذكرهم ، وعرفنا به غناءهم فى مواقعهم ، وآثارهم فى وقائعهم ، فقال عنترة :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قول الفوارس ويك عنتر أقدم(١)

= وغيرهما من الشعراء ، نذكر منهم الراعى النميرى ، وعمر بن لجأ ، والمرار ابن منقذ ، والأشهب بن رميلة ، وسراقة بن مرداس. وثبت جرير لهم جميعاً وأخملهم إلا قرينيه ، استمر الهجاء سجالا بينه وبينهما نحواً من عشر سنوات وهى المساجلات التى عرفت بالنقائض . وفيها تنابزوا بالألقاب وتراشقوا بعار الأمهات وألحوا فى كشف العورات وساءوا وانحطوا خلقيا .

نشأ جرير فى بيت شعر ، فجده وأبوه وأخوه كل منهم كان يقرض الشعر ، وكذلك بعض أبنائه وحفدته . وقال ابن سلام : لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول مثلما اتصل فى ولد زهير فى الجاهليـــة وجرير فى الإسلام .

وامتاز بأناقة اللفظ ، ورقة العبارة ، وسعة التخيل ، وطول النفس ، والتصرف فى الأغراض المختلفة دون تقصير ، ولم يمنع هذا من مؤاخذته على بعض الألفاظ والمعانى (راجع الموشح ص ١٨٧ وما بعدها) . وهناك اتفاق على أنه من أحسن الشعراء تشبيبا ، وقال الفرزدق فى ذلك : (ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى وما أحوجنى إلى رقة شعره لما ترون) ، وكان الفرزدق رقيق الدين كما ذكرنا قبل .

وتوفى جرير باليمامة سنة ١١٠ هـ عن سبعين — أو ثمانين — سنة .

(أشعاره وأخباره فى ديوانه ، والنقائض لأبى عبيدة ، والشعر والشعراء ١/٤٦٤ ، والأغانى ج ٨ و ١١ ، والموشح ١٨٧ ، ونقائض جرير والأخطل للأب صالحانى ، وغيرها) .

(١) البيت من معلقته التى مطلعها أحد البيتين (على خلاف بين الرواة) =

وقال الآخر :

وفككنا غل امرئ القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء(١)

= يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى
هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

وهى قصيدة فى زهاء مائة بيت موضوعها فخر عنترة بشجاعته وبطولته ، ويتخللها حديث عن محبوبته وابنة عمه عبلة .

والشاعر هو أبو المغلس عنترة بن شداد بن معاوية بن قراد العبسى ، استولد أبوه أمه بعد ما أسرها فى بعض مغازيه ، وكانت جارية سوداء ، فلما ولدت عنترة أسود أنكره وأنف أن ينسب إليه ، فأقام عنترة يرعى الإبل كالعبيد ، حتى وقعت غارة على منازل عبس (وكانت منازلهم بأرض الشربة والعلم السعدى — وتقع فى أطراف نجد على حدود الحجاز) ، فدعى إلى منازلة المغيرين ، وأبلى بلاء حسنا ، وأظهر شجاعة وبطولة ومروءة شجعت أباه على استلحاقه ، وأرغمت قومه على الاعتراف بفروسيته ، وخاض معهم حروبهم ، وصال وإياهم فى حرب داحس والغبراء فارسا مغوارا .

ومعظم شعره فى الحديث عن نفسه وقومه ، حماسة وفخرا ، ووصفا للحروب والغارات ، وهجاء لأعدائه ، وفيما بين ذلك وإضافة إليه نسيب فى ابنة عمه عبلة .

(١) البيت للحارث بن حلزة اليشكرى من معلقته التى مطلعها :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

وهى قصيدة تربو على الثمانين بيتاً ، يزعم بعض الإخباريين أنه قالها ارتجالا بين يدى ملك الحيرة عمرو بن هند ، والذى تميل النفس إليه أنه أعدها لينشدها ، وفيها يفخر بقومه بكر بن وائل ويذكر أيامهم ويدفع بنى عمومته =

وهم وردوا الكلاب على تميم   بجيش يبلع الناس ابتلاعا(١)

وقال آخر :

أليسوا بالألى قسطوا قديما   على النعمان وابتدروا السطاعا

= تغلب بن وائل عن المراء والولوغ فى الباطل . والبيت الشاهد (وفككنا غل امرئ القيس   ) يشير فيه إلى وقوع امرئ القيس بن المنذر بن ماء السماء فى أسر غسان يوم قتلت أباه المنذر ، فأغارت بكر بن وائل على بعض بوادى الشام ، واستنقذت امرأ القيس هذا .

والحارث شاعر فحل مقل ، وله — غير المعلقة — عدة أبيات فى الفخر والحماسة .

(١) البيتان للقطامى من شعر يفخر فيه بجاهلية قبيله ، ويذكر أنهم قسطوا — أى ظلموا وجاروا — قديما على مليكهم ، وفى قوله « ابتدروا السطاعا » — والسطاع ككتاب أطول عمد الخباء — إشارة إلى انقاضهم على الملك وافتلاعهم الشر من أصله ، و « الكلاب » — بضم الكاف — هو الكلاب الثانى ، يوم من أيامهم ، تقرأ حكايته فى العقد الفريد (٦/٨٩) .

والشاعر اسمه عمرو — أو عمير — بن شييم التغلبي ، ولقب بالقطامى — أى الصقر — لقوله :

يحطهن جانبا فجانبا   حك القطامى قطا قواربا

وهو شاعر رقيق الحواشى ، حسن التشبيب ، مر الهجاء . وجعله ابن سلام فى الطبقة الثانية من فحول الإسلام ، وهو صاحب البيت المشهور :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

(أشعاره وأخباره فى ديوانه ، والشعر والشعراء ، والأغانى ، وغيرها) .

وقد ذكر « أرسطاطاليس » الشعر فى ﴿ كتاب الجدل ﴾ فجعله حجة مقنعة إذا كان قديما ، واحتج فى كثير من كتب السياسة بقول « أوميرس » شاعر اليونانيين . وقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحق بالتقدمة وأولى بالاتباع ، وقد قال : « إن من الشعر لحكماء » ، وروى عن بعض السلف : « أعربوا القرآن ، والتمسوا غريبه فى الشعر » . وقيل : « حسبك من الأدب أن تروى الشاهد والمثل » . وقال معاوية لابنه : يا بنى ارو الشعر وتخلق به ؛ فلقد هممت يوم صفين(١) بالفرار مرات ؛ فما ردنى عن ذلك إلا قول ابن الإطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
لأدفع عن مكارم صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح(٢)

---

(١) يوم صفين : هو اليوم الذى اجتمع فيه معاوية بن أبى سفيان ومن شايعه من قبيله وأهل الشام لحرب على بن أبى طالب .

(٢) ابن الإطنابة هو عمرو بن يزيد بن مناة بن ثعلبة من بنى الخزرج ، والإطنابة أمه ، وهو شاعر وفارس جاهلى .

وروى البيت الأول (أبت لى عفتى وأبى تلادى) ، والبلاء البأس فى الحرب والتلاد المال القديم الموروث ، والثمن الربيح استعارة للمكارم المبذولة . وروى البيت الثانى (وإقحامى) و (إجشامى) وكلاهما تكليف النفس الدخول فى المكروه ، وروى (وأضرب هامة البطل المشيح) ، وفى الفعل تجديد والواو معه للعطف أو للحال ، وهامة البطل أعلى رأسه ، والمشيح الجاد فى القتال والحذر والمانع لما وراءه . وبعد هذا البيت فى البرهان – وهو الرواية – :=

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده فى وصيته إياه : « وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا »(١).

[فنون الشعر] :

وللشعراء فنون من الشعر كثيرة تجمعها فى الأصل أصناف أربعة ،وهى: المديح ، والهجاء ، والحكمة ، واللهو . ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون ؛ فيكون من المديح : المراثى ، والافتخار ، والشكر ، واللطف فى المسئلة ، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ، ويكون من الهجاء : الذم ، والعتب ، والاستبطاء ، والتأنيب ، وما أشبه ذلك وجانسه ، ويكون من الحكمة : الأمثال ، والتزهيد ، والمواعظ ، وما شاكل ذلك وكان من نوعه . ويكون من اللهو : الغزل ، والطرد ، وصفة الخمر ، والمجون ، وما أشبه ذلك وقاربه فمما أجمعوا على استحسانه من المديح قوله :

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل(٢)

= وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

جشأت تحركت واضطربت ، وجاشت ارتفعت وغلت ، ومكانك اسم فعل بمعنى الزمى ، وتنال النفس الحمد إذا ظفرت والراحة إذا مات صاحبها .

(١) يمجدوا : ينالوا الشرف والكرم ، وينجدوا : ينالوا الرفعة والمضاء .

(٢) البيت لزهير بن أبى سلمى من مدحة له فى هرم بن سنان والحارث ابن عوف (راجع ص ١٢) ، ومطلعها :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل =

وقال آخر :

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود(١)

ــ وفيها يقول مادحا :

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل

على مكثريهم رزق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم ... مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

فما يك من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه ... وتغرس إلا في منابتها النخل

(١) البيت لصريع الغوانى من مدحة تزيد على مائة بيت ، يمدح فيها داود ابن حاتم بن خالد بن المهلب ، ومطلعها :

لا تدع بى الشوق إنى غير معمود ... نهى النهى عن هوى الهيف الرعاديد

وفيها يصف شجاعة داود فى قتال الأزارقة .

ناهضتهم زائد الإسلام تقرعهم ... عنه ثلاث ومثنى بالمواحيد

تجود بالنفس إن ضن البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

تلك الأزارق إذ ضل الدليل بها ... لم يخطها القصد من أسياف داود

وصريع الغوانى هو مسلم بن الوليد ، وهو شاعر عباسى من موالى الأنصار ، لقب بصريع الغوانى لقوله فى إحدى قصائده :

هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

وهذا من شعر العربدة ، الذى أكثر منه ، حتى قرن بأبى نواس فيه ، وإن لم يتهتك مثل تهتكه ، ولا تزهد تزهده .

ولد ونشأ فى الكوفة ، ثم اتصل بالرشيد والبرامكة وبنى مطر وبنى ــ

ومن المراثى قول الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

وما يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى(١)

= المهلب وغيرهم . ومدحهم ، وولاه الفضل بن سهل ذو الرياستين بريد « جرجان » أيام المأمون . وبقى فيها إلى أن توفى سنة ٢٠٨ هـ . وينقل صاحب الأغانى : أنه أول من قال الشعر المعروف بالبديع وتبعه فيه جماعة أشهرهم أبو تمام الطائى . وأنه كان حسن النظم فى الخمر . وأنه ذهب بعدة معان،منها فى المديح بيت الشاهد . وفى الرثاء قوله :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر نم على القبر

وفى الهجاء قوله :

قبحت مناظره فحين خبرته حسنت مناظره لقبح المخبر

وفى الغزل قوله :

هوى يجد وحبيب يلعب أنت لقى بينهما معذب

(أشعاره وأخباره فى : ديوانه . والشعر والشعراء . والأغانى . والموشح) .

(١) من شعر ترثى فيه أخاها صخرا . وفيه تقول :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس

فلولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

ولكن لا أزال أرى عجولا ونائحة تنوح ليوم نحس

هما كلتاهما تبكى أخاها عشية رزئه أو غب أمس

وما يبكين مثل أخى ولكن أسلى النفس عنه بالتأسى =

وفى الشكر قوله :

لأشكرنك معروفاً هممت به إن اهتمامك بالمعروف معروف(١)

وفى الافتخار قوله :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع(٢)

= فقد ودعت يوم فراق صخر أبى حسان لذاتى وأنسى

فيالهفى عليه ولهف أمى أيصبح فى الضريح وفيه يمسى

والخنساء هى تماضر بنت عمرو بن الشريد من بنى سليم من قيس مضر وكانت من سراة قومها ومن أجل نسائهم . وكانت تقول المقطعات من الشعر ، فلما مات أخواها معاوية وصخر بكتهما وأطالت قصائد الرثاء فيهما . وكان حزنها على صخر أشد لأنه كان عليها أعطف أسلمت وأنشدت بين يدى الرسول — ﷺ — شعرها . واستجاده الرسول . وحضرت حرب القادسية (سنة ١٥ هـ) . وفقدت فيها أبناءها الأربعة . فلم تبكهم كثيرا لأنها رضيت باستشهادهم وتوفيت بالبادية فى خلافة معاوية .

وشعرها يجمع السهولة من أطرافها : سهولة المعنى ، وسهولة اللفظ ، وسهولة العبارة ، وسهولة الإيقاع . ولهذا يهز شعرها ذوى القلوب المكلومة ، ويعطف عليه ذوى الوجدان المرهف .

(أشعارها وأخبارها فى ديوانها . والشعر والشعراء . والأغانى . وغيرها) .

(١) وينسب للباهلى الأزرى . وبعده فى البرهان :

فلا ألومك إن لم يمضه قدر فالشىء بالقدر المحتوم مصروف

(٢) البيت للفرزدق (عرفنا به ص ١٣٤) ، وكثيرا ما كان يفخر فى أثناء هجائه ، ومن قوله فاخراً فى هجاء جرير : =

وفى الهجاء قوله :

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا(١)

وفى الاستبطاء قوله :

كلانا غنى عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشد تغانيا(٢)

= فيا عجبا حتى كليب تسبنى ... كأن أباها نهشل ومجاشع

وكنا إذا الجبار صعر خده ... ضربناه حتى تستقيم الأخادع

(نهشل ومجاشع : من أجداد الفرزدق صعر خده : أماله عن الناس إعراضا وكبرا . الأخادع : جمع أخدع وهو شعبة من الوريد) .

(١) البيت لجرير (عرفنا به ص١٣٥)، من قصيدة يهجو فيها الراعى النميرى (عرفنا به ص ٥١) . ونمير وكعب وكلاب ثلاثة أبطن من عامر بن صعصعة من قيس ، وشناعة الهجاء ناشئة من الإزراء بأحدهم وتفضيل الاثنين الآخرين مع أنهم — عند التحقيق — فى الشرف سواء . ومما قال جرير فى هذا الهجاء الذى أخزى الراعى وكل نميرى :

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهم غضابا

فلا وأبيك ما لاقيت حيا ... كيربوع إذا رفعوا النقابا

فغض الطرف ، إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فلو وضعت فقاح بنى نمير ... على خبث الحديد إذن لذابا

ولو ولدت فقيرة جرو كلب ... لسب بذلك الجرو الكلابا

(٢) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، فى ختام شعر يعاتب فيه الحسين بن عبيد الله بن العباس وفيه يقول :

رأيت حسينا كان شيئا ملففا ... فكشفه التمحيص حتى بدا ليا =

وفى الحكمة قوله :

سيبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود(١)

= أأنت أخى ما لم تكن لى حاجة ... فإن عرضت أيقنت أن لا أخا ليا

فلا زاد ما بينى و بينك بعد ما ... بلوتك فى الحاجات إلا تماديا

فلست براء عيب ذى الود كله ... ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا

كلانا غنى عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشد تغانيا

وفى الأغانى (١٢ / ٢١٥) : كان عبد الله هذا من فتيان بنى هاشم وأجوادهم وشعرائهم، ولم يكن محمود المذهب فى دينه، وكان يرمى بالزندقة، وخرج بالكوفة على بنى أمية، ثم انتقل عنها إلى نواحى الجبل وخراسان، والتجأ إلى أبى مسلم الخراسانى مستنصرا ، ولكن أبا مسلم دس إليه سما ، فمات منه .

(١) البيت لطرفة بن العبد من معلقته التى مطلعها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ... تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وفى ختامها يقول :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى ... بعيدا غداً ما أقرب اليوم من غد

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له ... بتاتا ، ولم تضرب له قط موعد

والشاعر هو طرفة بن العبد بن سفيان من بكر وائل ، نشأ فى بادية نجد وما كاد يشب عن الطوق حتى أدرك أن أهله ظلموه وظلموا أمه حين حرموها ميراث أبيه ، فهجاهم ، وطاولوه ، ولم يجد لنفسه مقاما فيهم ، فرحل عنهم ، =

. . . .

= واغترب مطرداً بين اليمن والحبشة والجزيرة والحيرة ، وانساق مع الصبوة والتبطال ، وعكف على الخمر واللهو ، وغلا في الإعجاب بنفسه حتى أظهر ذلك بين يدى الملك عمرو بن هند في الحيرة ، ويقال إن طرفة هجاه قبلا فأسرها في نفسه واستقبله بالبشاشة وأعلن أنه أمر له بجائزة ، ووجهه الملك إلى عامله «المكعبر» على البحرين وعمان بصك الصلة ، وكتب الملك بمثل ذلك للمتلمس خال طرفة ، فلما كانا بإزاء الحيرة ارتاب المتلمس ، وأطلع بعض أهل الحيرة على صحيفته فقرأ له بها (اقطع يديه ورجليه ، وادفنه حيا) فرمى الصحيفة في النهر ، ونصح ابن أخته أن يطلع على كتابه فأبى وأكبر أن يجترئ الملك عليه ، وذهب طرفة بكتابة ساعيا إلى حتفه بظلفه ، بعد أن جاوز العشرين بقليل .

يعده كثير من النقاد القدامى أجود أصحاب المعلقات معلقة . ويطمئن اللغويون إلى الاستشهاد بها وبسائر شعره لما فيه من الغريب عليهم . وأسلوبه فيه فخامة يشوبها التعقيد أحيانا . ومعانيه في الفتوة والصبوة ، والحديث عن النفس ، وتقدير أمانيه ولذات نفسه وعيشه ، ولهذا أكثر من الفخر ، واضطرب بين اليأس والأمل ، وأسرف في هجاء من ينكرونه وينكرون عليه . وغلبت عليه طبيعة الصراحة البدوية التي لم تهذبها رحلاته إلى الحواضر إلا قليلا نشهد أثره في سعة التصوير كقوله في وصف السفينة :

يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

وفي معلقته وصف دقيق ومبسوط للناقة في أكثر من ثلاثين بيتا ؛ ولا يناظره في الدقة إلا وصفه للبادية وجوها وأرضها والحياة فيها . وفي شعره أكثر من بيت سائر ، ومنه البيت الذي أتى به المصنف شاهدا .

(أشعاره وأخباره في ديوانه ، والعقد الثمين ، والمعلقات ، والحماسة ، والشعر والشعراء ، والموشح ، وغيرها) .

وفى الزهد قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق(١)

وفى الوعظ قوله :

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب فى الهالكين عريقِ(٢)

وفى اللهو والمبادرة(٣) قوله :

كم من مؤخر لذة قد أمكنت ... لغد وليس غد له بمواتِ(٤)

---

(١) البيت لأبى نواس (سبق التعريف به ص ١١٠) من مقطوعة له فى الزهد والعظة من رواياتها :

أيا رب وجه فى التراب عتيق ... ويارب حسن فى التراب رقيق

ويا رب حزم فى التراب ونجدة ... ويارب رأى فى التراب وثيق

أرى كل حى هالكا وابن هالك ... وذا حسب فى الهالكين عريق

فقل لقريب الدار : إنك ظاعن ... إلى منزل نائى المحل سحيق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عـدو فى ثياب صديق

(١) لأبى نواس من المقطوعة السابقة . والمصنف جاء باحدى روايتى البيت الأوسط فى المقطوعة .

(٢) أى المبادرة إلى اقتناص اللذة ، والمبادرة فى الأصل المسارعة .

(٣) البيت لأبى العتاهية . واسمه إسماعيـــل بن القاسم بن سويد ، ولد فى « عين تمر » قرب « الأنبار » حوالى سنة ١٣٠ هـ . واشتغل مع أهله فى صناعة الجرار بالكوفة ، وشب متخنثا يعاشر الخلعاء ويلهو بالشعر حتى نبغ فيه ، فاتصل بالخليفة المهدى العباسى ، فمدحه ، وانقطع إليه وإلى بنيه؛=

وفى الغزل قوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك في أعشار قلب مقتل(١)

= يمدحهم ، وينال جوائزهم ، ويشيح بها ، وفيما بين ذلك يتصل بالمتكلمين والشيعة والزهاد ، ويأخذ نفسه بمذهب كل أياما ثم يتركه إلى غيره ، حتى اختلط الأمر عليه ، وانتهى إلى الانسحاب من حياة المجتمع ، وأفاض فى شعر الزهد والعظة ، وشغله الفكر فى الموت وما بعده ، حتى مات فى عهد المأمون سنة ٢١٠ هـ أو بعدها بقليل .

وشعر أبى العتاهية يمثل النثرية الشعرية ، أو الاسترسال فى النظم دون تكلف بعامة . وقد افتن فى المديح والتهنئة والتشكى والعتاب والهجاء والرثاء والوصف ، وأكثر افتنانه فى الزهد والأمثال ، وله أرجوزة تعرف بذات الأمثال جمع فيها أربعة آلاف مثل على ما ذكره صاحب الأغانى (٤/٣١)

(أشعاره وأخباره فى : ديوانه ، والعقد الفريد ، والأغانى ، والموشح ، وغيرها) .

(١) البيت لامرئ القيس (وعرفنا به ص ١٤) من أبيات له فى معلقته يتغزل ويقول :

أفاطم ، مهلا بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل !
وإن تك قد ساءتك منى خليقة   فسلى ثيابى من ثيابك تنسل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتل

وأعشار القلب : أجزاؤه وأقسامه . والمقتل : الذى قتله العشق .

وفى الطرد قوله :

فعادى عداء بين ثور ونعجة　　دراكا ولم ينضح بماء فيغسل(١)

وفى الخمر قوله :

لا يسكن الليل حيث حلت　　فدهر شرابهـا نهار(٢)

[أدوات الشاعر] :

ويحتاج الشاعر إلى تعلم العروض ليكون معياراً له على قوله وميزاناً على ظنه ، والنحو ليصلح به من لسانه ويقيم به إعرابه ، والنسب وأيام العرب والناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب ، فيذكرهما فيمن قصده بمدح أو ذم(٣) ؛ وأن يروى الشعر ليعرف مسالك الشعراء ومذاهبهم وتصرفهم فيحتذى منها جهم ويسلك سبيلهم . فإذا لم يجتمع له هـذا فليس ينبغى أن يتعرض لقول الشعر ؛ فإنه - ما أقام على الإمساك - معذور ؛ فمتى تعرض لما يظهر فيه عيبه وخطؤه كان مذموما ؛ وقد قال الشاعر :

---

(١) البيت لامرئ القيس أيضاً من أبيات له فى معلقته يصف حركة الفرس فى الصيد : وحل البيت : والى الفرس بين ثور ونعجة من بقر الوحش موالاة متتابعة ، وأدركهما دون معاناة ومشقة قبل أن يعرق فيكون أشبه بمن يغسل بالماء . ومن الواضح أن كفاءة الفرس من كفاءة الفارس .

(٢) البيت لأبى نواس (وعرفنا به ص ١١٠) من خمرية يقول فيها :

كأن فى كأسها سرابا　　تحيله المهمه القفار
كأنها ذاك حين تزهى　　لو لم يشب لونها اصفرار
لا ينزل الليل حيث حلت　　فدهر شرابها نهار
حتى لو استودعت سرارا　　لم يخف فى ضوئها السرار

(٣) هذه العبارة الأخيرة غير محررة . وتحريرها : فيذكر المناقب فيمن قصده بمدح ، ويذكر المثالب فيمن قصده بذم .

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه(١)

فإذا كملت فيه هذه الأدوات ورأى من طبعه انقياداً لقول الشعر وسماحة به قاله وتكلفه(٢) وإلا لم يكره عليه نفسه ؛ فالقليل مما تسمح به النفس ويأتى به الطبع خير من الكثير الذى يحمل فيه عليها . وإن أعين مع هذا بأن يكون فى شرف من قومه ومحل من أهل دهره، كان قليل ما يأتى به من الصواب كثيرا ، وكثيره جليلا خطيرا ؛ ولذلك قال الشاعر :

وخير الشعر أكرمه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد(٣)

---

(١) الشعر للحطيئة) سبق التعريف به ص ١٠٤) ، وهو — على مايروون — من آخر قوله ، حين دنت منيته جعل فى موضع وصيته : أبلغوا غطفان أن الشماخ أشعر العرب بقوله :

إذا نبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

وأبلغوا أهل ضابئ البرجمى أنه كان شاعرا بقوله :

لكل جديد لذة غير أننى رأيت جديد الموت غير لذيذ

وأبلغوا امرأ القيس أنه أشعر العرب بقوله :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وأبلغوا الأنصار أن صاحبهم حسان بن ثابت أشعر العرب بقوله :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

ثم أنشد : الشعر صعب وطويل سلمه . . . الخ

(٢) تكلفه : بمعنى تجشمه وتحمله وعالجه . والمادة تتضمن المشقة والجهد .

(٣) البيت للفرزدق ، وقد تمثل به (على مارواه المبرد فى الكامل :=

وقال على بن الجهم فى قريب من هذا المعنى :

وما أنا ممن سار بالشعر ذكره   ولـكن أشعارى يسير بها ذكرى
ولا كل من قاد الجياد يسوسها   ولا كل من أجرى يقال له مجرى (١)

= ١ / ١٠٧) عندما فضل سليمان بن عبد الملك عليه نصيبا . وهذا البيت وما يقوله المصنف عن ارتفاع قيمة الشعر إذا كان الشاعر فى شرف من قومه ومحل من أهـــل دهره يحملان نظرة اجتماعية قال بها ابن قتيبة (الشعر والشعراء : ١ / ٨٤) حينما قرر أن ليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ولـكنه قد يختار ويحفظ لأسباب ، منها أن قائله لم يقل غيره فهو عزيز نادر ، ومنها نبل قائله كشعر هارون الرشيد وهى نظرة لا نرضاها الآن ، ثم إن الفرزدق حينما تمثل بهذا البيت كان مغضبا ؛ لأن الخليفة حرمه الجائزة وأخزاه ، فإنما يدافع الفرزدق عن نفسه لا عن قضية عامة . (سبق التعريف بالفرزدق ص ١٣٤) .

(١) الشاعر على بن الجهم من بنى ناجية . من شعراء العباسى (ت ٢٤٩ هـ) . جعله المتوكل من خلصائه ، ثم أبغضه لما رأى فيه من السعاية بندمائه ، فحبسه مدة ، ثم نفاه إلى خراسان وكان حبسه ونفيه فرصة له ليقول فى الفخر والفراق والشوق إلى الوطن والاستعطاف .

ويقول صاحب الأغانى : إنه شاعر فصيح مطبوع ، وكان ينحو نحو مروان بن أبى حفصة فى هجاء آل طالب وذمهم والإغراء بهم وفى هجاء شيعتهم . ولعل هذا مرده إلى أن بنى ناجية كانوا ارتدوا عن الإسلام فلما ولى على بن أبى طالب — رضى الله عنه — دعاهم إلى الإسلام فأسلم بعض ورفض بعض ، فسبى هؤلاء واسترقهم ، فاشتراهم منه مصقلة بن هبيرة وأدى ثلث ثمنهم وأشهد بالباقى على نفسه ، ثم أعتقهم فصاروا أحرارا ، ولزمه الثمن ، ولـكنه هرب من وجه « على » إلى معاوية ، فنقض « على » داره .

(أشعار ابن الجهم وأخباره فى : ديوانه ، وطبقات ابن المعتز ، والأغانى ج ١٠ ، والموشح) .

[صناعة الشعر] :

والذى يسمى به الشعر فائقا ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنا رائقا : صحة المقابلة ، وحسن النظم ، وجزالة اللفظ ، واعتدال الوزن ، وإصابة التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلف ، والمشاكلة فى المطابقة ، وأضداد هذا كله معيبة تمجها الآذان ، وتخرج عن وصف البيان .

وأما صحة المقابلة فمثل قول الشاعر :

أميل مع الذمام على ابن عمى وأحمل للصديق على الشقيق

وأفرق بين معروفى ومنى وأجمع بين مالى والحقوق(١)

فأحسن القسمة فى المقابلة ، ومال مع من ينبغى أن يمال معه، وحمل على من يحسن الحمل عليه ، وفرق بين ما ينبغى أن يفرقه ، وجمع بين ما ينبغى أن يجمعه . وأساء الآخر المقابلة حين يقول :

أموت إذا ما صد عنى بوجهه ويفرح قلبى حين يرجع للوصل

فجعل حذاء الموت فرح القلب وحذاء الصد بوجه الوصل ؛ وهذه مقابلة قبيحة.ولو قال :

أموت إذا ما صد عنى بوجهه وأحيا إذا مل الصدود وأقبلا

---

(١) البيتان لعبد الله بن طاهر ، وهو من وزراء بنى العباس ، ووجهاء الدولة وأجوادها . تولى مصر أيام المأمون . وله شعر جيد ، وله صنعة فى الشعر (أى تلحين) ذكر صاحب الأغانى (١٢ / ١٠١) طرفا منها . والذمام : ما فى الذمة وهو كل حرمة تلزمك صيانتها فإن ضيعتها لزمتك اللائمة ، والمن : الاعتداد بالنعمة والفخر بها والتذكير بها على سبيل الإيذاء .

فجعل حـــذاء الموت الحياة ، وحذاء الصد بالوجه الإقبال ، لكان مصيبا(١) :

وأما حسن النظم فكقوله :

متاركة اللئيم بلا جواب   أشد على اللئيم من الجواب

وكقوله :

يأيها المتحلى غير شيمته   إن التخلق يأتى دونه الخلق(٢)

---

(١) وقد تكون للشاعر الأول مندوحة تصح بها المقابلة ؛ فان فرح القلب دليل الحياة فصح أن يوضع موضعها، وإن الوصل غاية الإقبال ونتيجته وقد نقول : إن الشاعر جعل نكده لصدود محبوبة موتا ، ووصال المحبوب إقبالا منه .

(٢) البيت لسالم بن وابصة ، وهو من شعراء الأمويين . ورواية البيت فى حماسة أبى تمام (شرح التبريزى : ٢ / ٢٣٦) :

عليك بالقصد فيما أنت فاعله   إن التخلق يأتى دونه الخلق

وروى البيت :

دع التخلق يبعد عنك أوله   إن التخلق يأتى دونه الخلق

والمعنى أن من تكلف ما ليس من شيمته وطبعه صعب عليه وعاد إلى خلقه الأول ، وهو مأخوذ من قول حاتم الطائى :

ومن يبتدع ماليس من خيم نفسه   يدعه ويغلبه على النفس خيمها

ومن قول ذى الإصبع العدوانى :

كل امرئ صائر يوما لشيمته   وإن تخلق أخلاقا إلى حين

فهذا نظم حسن جميل له رونق غير مخيل(١)، فأما قول الشاعر :

أم سلام أثيبي عاشقاً   يعـــلم الله يقينا ربُّه
أنــكم فى عينه من عيشة   فاعلميه ياسليمى حسبه(٢)

فقبيح النظم ، بادى العوار ، ظاهر الاضطراب ، مختلف غير مؤتلف .

وأما جزالة اللفظ فكقوله :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد   رصدان ضوء الصبح والإظلامُ

---

(١) عبارة نقد النثر (غير مخيل) بالخاء المعجمة أى أنه صادق لايشكل ولا يوقع فى لبس وعبارة البرهان (غير محيل) بالحاء المهملة أى أنه حق غير مستحيل فلا يوقع فى الباطل .

(٢) البيتان للوليد بن يزيد بن عبد الملك ،وبعدهما على رواية الأصفهانى :

فارحميه ; إنه يهذى بـكم   هائم صب قد اودى قلبه
أنت لو كنت له راحمـة   لم يكدر ياسليمى شربه

وسليمى هذه معشوقته ، وهى أخت زوجته سعدة ، طلقها وخطب سليمى فردته ورفضه أبوها سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فهام بها ، واحتال ليراها أكثر من حيلة ، وأطال فيها الشعر والغناء ، ودس إليها من يسترضيها وهى لا ترضى ، ويقال : إنه تزوجها بعد توليه الخلافة فمكثت لديه أربعين يوما ثم ماتت ، فحزن كثيرا عليها

وللوليد شعر مصنوع جيد ، أكثره فى الخلاعة والخمر ، وقد أخذ عنه وصافو الخمر كثيراً من معانيه ولا سيما أبى نواس . (أشعاره وأخباره فى الأغانى : ج ٧) .

فإذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام(١)

وأما سخافة اللفظ وركاكته، فمثل قول الشاعر :

يا عتب ،سيدتى ، أما لك دين حتى متى قلبى لديك رهين

فأنا الصبور لـكل ما حملتنى وأنا الشقى البائس المسكين(٢)

---

(١) البيتان لأشجع السلمى من قصيدته فى مدح هارون الرشيد ومطلعها :

قصر عليه تحية وسلام ألقت عليه جمالها الأيام

وهو من أحسن المطالع للشعراء المحدثين (الصناعتين ٤٣٣) . والرصدان: الرقيبان .

وأشجع من ولد الشريد بن مطرود السلمى ، ولد باليمامة ونشأ بها ، وقدمت به أمه إلى البصرة بعد وفاة أبيه تطلب من أهله ميراث ابنها. وعاش أشجع فترة فى البصرة ، ثم انتقل إلى الرقة ، فاتصل بالبرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، وقدمه جعفر إلى الرشيد ، فمدح الرشيد كثيراً ونال جوائزه .

أشعاره وأخباره فى طبقات الشعراء ، والشعر والشعراء ، والأوراق (أخبار الشعراء) للصولى ، والأغانى .

(٢) البيتان لأبى العتاهية (سبق التعريف به ص١٤٧) فى عتبة جارية الخليفة المهدى ، وبعدهما :

وأنا الغداة لـكل باك مسعد ولكل صب صاحب وخدين

لا بأس . إن لذاك عندى راحة للصب أن يلقى الحزين حزين

يا عتب، أين أفر منك ، أميرتى وعلىّ حصن من هواك حصين

وأما اعتدال الوزن فكقوله :

إنما الذلفاء همى فليدعنى من يلوم
أحسن الناس جميعاً حين تمشى أو تقوم
أصل الحبل لترضى وهى للحبل صروم(١)

فهذا شعر ليس فيه معنى فائق ولا مثل سابق ولا تشبيه مستحسن ولا غزل مستطرف ؛ إلا أن اعتدال وزنه قد كساه جمالا ، وصير له فى القلوب جلالا . فاذا جئت إلى قول امرئ القيس :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا، وبر ذا ، ووفاء ذا، ونائل ذا، إذا صحا وإذا سكر(٢)

= وهذا النظم ليس جديداً على النثرية التى تميز بها شعر أبى العتاهية ، وهى فى هذه الأبيات نثرية فى اللفظ وفى المعنى معاً .

(١) الأبيات للاحوص (سبق التعريف به ص ٦٤) والذلفاء اسم امرأة من الذلف وهو صغر الأنف واستواء الأرنبة ، والصروم القاطعة الجافية .

(٢) البيتان من قصيدة يمدح فيها أخاه سعد بن الضباب ، ومطلعها :

لعمرك ما قلبى إلى أهله بحر ولا مقصر يوماً فيأتينى بقر

وفى شرح الديوان للوزير أبى بكر عاصم بن أيوب أن أم سعد كانت زوجاً لحجر أبى امرئ القيس فطلقها وهى حامل فتزوجها الضباب فولدت له سعداً على فراشه فاستلحقه ، وهذا يدل على أن عرب الجاهلية يجعلون الولد للفراش . والإشارات فى البيت الثانى للمذكورين فى البيت الأول على طريق اللف والنشر المرتب .

وجدته قد أتى من الوصف ما لم يأت به أحد، ومدح أربعة فى بيت، وجمع لواحد فضائل الأربعة فى بيت آخر، وجعل ما مدحه به سجية له فى صحوه وفى سكره، ففاق فى هذه الأحوال كل شاعر؛ إلا أن اضطراب وزنه، وكثرة الزحاف فيه قد هجناه، وعن حد القبول قد أخرجاه(١).

وأما الإصابة فى التشبيه فكقول الشاعر:

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع(٢)

وكقول الشاعر:

كأن مثار النقع فوق رءوسهم   وأسيافنا ليل تهاوت كواكبه(٣)

---

(١) كثر القبض (وهو حذف الخامس الساكن) فى البيتين حتى تخلع الوزن، ووقع فى الضرورة فى البيت الأول بتنوين (شمـــائل) وحقها المنع منه.

(٢) البيت للنابغة الذبيانى، وسبق التعريف به والتعليق على بيته هذا ص ٥٤.

(٣) البيت لبشار من إحدى مدائحه فى يزيد بن عمر بن هبيرة. وفيها يقول فاخراً:

وكنا إذا دب العدو لسخطنا   وراقبنا فى ظاهر لا نراقبه
غدونا له والشمس فى خدر أمها   تطالعنا، والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه   ويدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وهذا البيت اعتبره عبدالقاهر من النمط العالى فى النظم، ومما لطف مأخذه ودق نظر واضعه، وبلغ به الغاية التى لا تلحق (أسرار البلاغة: ٧٥). =

. . . .

= وإنك لتجد له من الفضل وكرم الموقع ولطف التأثير فى النفس مالا يقل مقداره ولا يمكن إنكاره، وذلك أنه شبه لمعان السيوف فى الغبار بالكواكب فى الليل ، وقد كان هذا يكفى فى التشبيه ، ولكنه زاد فجعل الكواكب تتهاوى فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد وهى تعلو وترسب وتجىء وتذهب ، ولهذه الزيادة التى زادها حظ من الدقة يجعلها فى حكم تفصيل بعد تفصيل وإن هيئة السيوف هذه لاتقوم فى النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ، وذلك أن تعلم أن لها فى حال احتدام الحرب واختلاف الأيدى بها فى الضرب اضطرابا شديداً وحركات بسرعة ، ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض ، وباختلاف هذه الأمور تتلاقى السيوف وتداخل وتتصادم ويقع بعضها فى بعض ، ثم إن أشكال السيوف مستطيلة . وقد نظم الشاعر هذه الدقائق كلها فى نفسه ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة ونبه عليها أحسن تنبيه وأكمله بكلمة «تهاوى» ، والكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها فى تهاويها تواقع وتداخل، ثم إنها بالتهاوى تستطيل أشكالها (أسرار البلاغة : ١٥١) .

وصاحب هذه الصورة هو الشاعر الأعمى بشار بن برد ، إمام الشعراء المحدثين، وأصله من فرس طخارستان، وقع أبوه فى سبى المهلب بن أبى صفرة وانتقل ولاؤه إلى بنى عقيل .

ولد بشار أعمى جاحظ العينين قبيح المنظر ، ونبغ فى الشعر صغيراً ، وأدرك جريراً وهجاه ، فأعرض جرير عنه، قال بشار : «ولو هاجانى لكنت أشعر الناس» . ويعده الجاحظ من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ومن المتفننين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه . وعاش بشار مخالطا متهما فى عقيدته وأخلاقه ، ومات مقتولا أو شبه مقتول سنة ١٦٧ هـ =

ومما سلك شاعره سبيل التشبيه فأساء ولم يحسن ـ قوله :

خطاطيف حجن فى حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع(١)

وقول الآخر :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة إذا لمسوها بالأكف تلين(٢)

= (أشعاره وأخباره فى ديوانه ، وطبقات الشعراء ، والشعر والشعراء ، والأغانى ج ٣ و ج ٦ ، والموشح وغيرها . وفيه كتبت أول بحث حوله كنت طالبا فى كلية اللغة العربية ، وقدمته إلى أستاذى الشيخ أحمد شاويع ـ عليه رحمة الله ورضوانه ـ وكان يدرس لنا تاريخ الأدب العربى فى الفرقة الثالثة عام ١٩٤٦/١٩٤٧ م) .

(١) البيت للنابغة الذبيانى ، ويأتى فى القصيدة عقيب البيت السابق (فإنك كالليل ..) فى الاعتذار ، وهو البيت الذى اعتبره المصنف مثالا على الإصابة فى التشبيه . وخطاطيف جمع خطاف وهو الحديدة المعوجة يخطف بها ، وحجن جمع حجناء وهى المعوجة ، ونوازع أى جواذب . يقول الشاعر للملك : لك خطاطيف هذه صفتها وأنا أجر بها إليك ، والدنيا قد ضاقت به حتى كأنها من ضيقها فى يده . وفى هذا تمثيل لسطوة الملك وأن الشاعر فى قبضة يده فلا مفر له ولا مهرب .

وقد جعل المبرد (الكامل : ٢/٣١) التشبيه فى هذا البيت من أعجب التشبيهات ، وقال فيه ابن قتيبة (الشعر والشعراء : ١/١٧١) ، رأيت قوما يستجيدونه وهو غير جيد لا فى المعنى ولا فى التشبيه . وأقول : لكل وجهة .

(٢) البيت لكثير عزة . وقد عابه بشار فقال : جعلها عصا ثم يعتذر لها ولو جعلها عصا من مخ أو زبد كان قد هجنها ، وهلا قال كما قلت : =

وأما سهولة القول وقلة التكلف فكقول الآخر :

إذا قامت لمشيتها تثنت كأن عظامها من خيزران

والخيزرانة كل غصن لين يتثنى (الكامل للمبرد : ٢/ ٨٠ والأغانى : ٣/ ١٥٤ وزهر الآداب : ١/ ٥٢) .

والشاعر هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن من خزاعة ، وهو من مقدمى الشعراء الإسلاميين ، وجعله ابن سلام فى الطبقة الأولى منهم وقرن به جريراً والفرزدق والأخطل والراعى ، وكان يذهب مذهب الكيسانية فى التشيع ، ويقول بالرجعة والتناسخ ، عشق عزة بنت جميل بن وقاص الضمرية ، فشبب بها ، ففضحها ، وكثيراً ما اعترضت على معانى شعره وتصويره (كتابنا : اتجاهات النقد الأدبى العربى : ٨٩) ، ولما أيس منها تحول عنها إلى أم الحويرث الخزاعية فأسرع أهلها إلى تزويجها قبل أن تفتضح فأصابه الهلاس (وهو الهزال أو السل) حتى مات سنة ١٠٥ هـ .

= ويعده الدارسون من شعراء الغزل العذرى ، ويذكرونه بتائيته المشهورة التى يقول فيها :

خليلى هذا رسم عزة فاعقلا قلوصيكما ، ثم ابكيا حيث حلت
وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

والذى يبدو لى أن هؤلاء الدارسين أسرفوا فى الحكم . نعم لكثير غزل ولكنه لا يرقى إلى درجة الغزل العذرى، فإن المحب حبا عذريا يشتعل وجدانه بالحب وتلتهب مشاعره بالغرام وتملك عليه المحبوبة كل حواسه ، وبينما يصور لهفته إلى لقائها دون أن يفحش فى القول أو يتحيل للوصال إذ يرضى منها الصد والهجران ويقنع منها بالصمت واليأس «وبالأمل المرجو قد خاب آمله» وغزل كثير يطل على هذا كله من بعيد .

خير المذاهب فى الحاجات أنجحها وأضيق الأمر أدناه من الفرج(١)

فهذا لفظ سهل قريب قد جرى فيه صاحبه على سجيته وعادته ؛ فإذا جئت إلى قول الآخر :

وما مثله فى الناس إلا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه(٢)

وجدته قد تكلف تكلفا غير خفى على سامعه، فالقلوب له آبية. والآذان عنه نابية .

وأما جودة التفصيل(٣) فكقوله :

---

(١) البيت لأبى العتاهية (وسبق التعريف به ص١٤٧) ومعنى الشطر الثانى: أشد الأمر أقربه من الفرج ، كما قيل :

اشتدى أزمة تنفرجى قد آذن صبحك بالبلج

(٢) البيت للفرزدق (سبق التعريف به ص١٣٦) من قصيدة يمدح بها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومى ، وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك والفرزدق يعنى بالمملك هذا الخليفة ، فهو يقول : وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملك أبو أم هذا المملك هو أبو هذا الممدوح ، فدل على أنه خاله بهذا التأليف الملتوى . قال المبرد (الكامل ١/١٨): ولو جاء بهذا الكلام على وجهه لكان قبيحا ، ولكنه هجنه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير . ويسمى البلاغيون مثل هذا (التعقيد اللفظى) ، وقد أسلمه التقديم والتأخير إلى الفصل بين المبتدأ وخبره (أبو أمه — أبوه) ، والفصل بين الموصوف وصفته (حى — يقاربه) ، وتقديم المستثنى (مملكا) على المستثنى منه (حى) .

(٣) التفصيل هو ترصيع أجزاء البيت بما يشبه السجع ، فيكون فى داخل البيت ما يناظر القافية ، ويحدث إيقاعا داخليا ، يزيد الإيقاع العام رونقا وتأثيرا .

بيض مفارقنا تغـــلي مراجلنا   نأسو بأموالنا آثار أيدينا(١)

وكقول الآخر :

بيضاء في دعج صفراء في نعج   كأنها فضة قد مسها ذهب(٢)

---

(١) البيت من قصيدة مشهورة في الفخر ، جاء فيها :

إنا – بني نهشل – لا ندعي لأب   عنه ، ولا هو بالأبناء يشرينا

إن تبتدر غاية يوما لمكرمة   تلق السوابق منا والمصلينا

وليس يهلك منا سيد أبدا   إلا افتلينا غلاما سيدا فينا

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا   ولو نسام بها في الأمن أغلينا

بيض مفارقنا . . . .

وفي هذا البيت الشاهد يفخر الشاعر بالسيادة والكرم والشجاعة وكريم المواساة . والتفصيل في شطره الأول .

ونسب المبرد (الكامل : ١ / ٦٦) القصيدة إلى أبي مخزوم من بني نهشل ابن دارم وذكر الأخفش أن اسمه بشامة بن حزن النهشلي . ونسبها ابن قتيبة (الشعر والشعراء : ٢ / ٦٣٧) إلى نهشل بن حري المازني وهو شاعر مخضرم عاش إلى أيام معاوية ، وقال عنه : شاعر حسن الشعر . وتابعه في هذا ابن طباطبا (عيار الشعر : ٦٤) .

(٢) البيت لذي الرمة (سبق التعريف به ص ٥٢) من قصيدته البائية التي مطلعها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب   كأن من كلى مفرية سرب

ورواية الديوان (كحلاء في دعج . .) ورواية المثل السائر : ١/٢٦٦ والصناعتين : ٣٧٧ (كحلاء في برج . .) . والكحلاء ذات الكحل خلقة وطبيعة ، والدعج شدة سواد العين مع شدة بياضها ، والبرج سعة العين ؛ والنعج حسن اللون وخلوصه .

وأما المطابقة والمشاكلة فيها(١) فكقول الشاعر :

---

(١) البلاغيون المتأخرون على أن المطابقة تعنى الجمع بين معنيين متقابلين كما فى قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء » ففيه مطابقة بين الإيتاء والنزع ومطابقة بين الإعزاز والإذلال . والبلاغيون المتأخرون على أن المشاكلة هى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الغير تحقيقا أو تقديراً ، فالأول كقول الشاعر :

قالوا: اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت : اطبخوا لى جبة وقميصا

فذكر خياطة الجبة والقميص بلفظ الطبخ لوقوعه فى صحبة طبخ الطعام. ومثال المشاكلة التقديرية قوله تعالى : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » ، فيه ذكر تطهير الله المؤمنين بالإيمان بلفظ الصبغة لوقوعه — التماسا بأسباب النزول أى رعاية لدلالة الحال — فى صحبة صبغة النصارى أبناءهم بالماء الأصفر ، وهو ما يسمونه « التعميد » .

والمصنف جعل من صناعة الشعر (المطابقة والمشاكلة فيها) وسماها قبل (ص١٥٢) (المشاكلة فى المطابقة) ، فالمطابقة هى الأصل فى الصنعة ،والمشاكلة قيد فيها للوصول بها إلى غاية الرونق ، ومن هنا نستبعد « المشاكلة » بمفهوم المتأخرين . فماذا يقصد بالمطابقة ؟

عرف ابن المعتز المطابقة — فى كتاب البديع — بأنها الجمع بين الشيئين على حذو واحد ، وقال : تقول لصاحبك : أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا فى ضيق الضمان ، فقد طابق بين السعة والضيق . وجاء قدامة — فى نقد الشعر — فجعل المطابقة والمجانسة شيئا واحدا ، وجعلهما من باب ائتلاف اللفظ والمعنى ومعناها أن تكون فى الشعر معان متغايرة قد اشتركت فى لفظة واحدة (فهو المطابق) أو فى ألفاظ متجانسة مشتقة (فهو المجانس) ، فمثال الأول قول الأفوه الأودى : =

نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب(١)

وقول الآخر :

سموه أحمد فالإسلام يحمده والدهر كاسم أبيه مرع خصب(٢)

= وأقطع الهوجل مستأنساً بهوجل عيدانة عنتريس

فلفظة الهوجل تعني الأرض وتعني الناقة — والعيدانة الطويلة من النخل، والعنتريس الناقة الوثيقة — ومثال الثاني قول حبان بن ربيعة الطائي :

لقد علم القبائل أن قومي لهم حد إذا لبس الحديد

والمطابقة على رأيه بين حد والحديد، وهذا عند المحققين من الجناس .

قال أبو هلال العسكري (الصناعتين ٣٠٧): أجمع الناس على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده وخالفهم قدامة إذ قال : المطابقة إيراد لفظتين متشابهتين في البناء والصياغة مختلفتين في المعنى . والطباق في اللغة الجمع بين الشيئين ، يقولون : طابق فلان بين ثوبين ، ثم استعمل في غير ذلك ، فقيل : طابق البعير في سيره إذا وضع رجله موضع يده ، وهو راجع إلى الجمع بين الشيئين .

وفي تقديري أن المصنف أراد من المطابقة معناها المشهور وما أراده قدامة من المجانس ، بدليل المثالين اللذين استشهد بهما والمشاكلة فيهما أي الموافقة ، وقد تكون الموافقة في الألفاظ ، وفي المعاني .

(١) البيت للقتال الكلابي (عن الكامل المبرد : ١/٦٨) يفخر بالشجاعة والجرأة والإقدام ، وبالطهر والشرف والسؤود . والمطابقة في البيت جارية على المشهور من أنها الجمع بين الشيء وضده .

(٢) البيت لشاعر اسمه محمد بن غياث الكاتب يمدح أحمد بن الخصيب . والمطابقة في البيت جارية على مذهب قدامة في المجانس ، فهي أولا بين أحمد ويحمد ، وثانيا بين الخصيب — المعبر عنه باسم أبيه — وخصب .

ومما ينبغي للشاعر أن يلزمه - فيما يقوله من الشعر - ألا يخرج في وصف أحد ممن يرغب إليه أو يرهب منه أو يهجوه أو يمدحه أو يغازله أو يهازله عن المعنى الذى يليق به ويشاكله ؛ فلا يمدح الكاتب بالشجاعة ، ولا الفقيه بالكتابة ، ولا الأمير بغير حسن السياسة . ولا يخاطب النساء بغير مخاطبتهن ؛ ولكن يمدح كل أحد بصناعته وبما فيه من فضيلته ، ويهجوه برذيلته ومذموم خليقته . ويغازل النساء بما يحسن من وصفهن ومداعبتهن والشكوى إليهن ؛ فإن في مفارقته هذه السبيل التي قد نهجناها وسلوكه غير هذه الطريق وضعاً للأشياء في غير مواضعها ؛ وإذا وضعت الأشياء في غير مواضعها قصرت عن بلوغ أقصى مواقعها ، ولذلك قال الأمين لأبي نواس : إذا قلت في الخصيب :

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا … فأى فتى بعد الخصيب تزور

فماذا أبقيت لى ؟ قال : قولى يا أمير المؤمنين :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح … فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

وإن جرت الألفاظ يوماً بمدحة … لغيرك إنساناً فأنت الذى نعنى (١)

---

(١) سبق التعريف بأبي نواس (ص ١١٠) . والبيت الأول من قصيدته في مدح الخصيب بن عبد الحميد والى مصر من قبل الرشيد ، ومطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيور … وميسور ما يرجى لديك عسير

وفيها يقول وأحسن التخلص :

تقول التي عن بيتها خف مركبي … عزيز علينا أن نراك تسير !

أما دون مصر للغنى متطلب … بلى إن أسباب الغنى لكثير !

فقلت لها - واستعجلتها بوادر … جرت ، فجرى في جريهن عبير -

دعيني أكثر حاسديك برحلة … إلى بلد فيه الخصيب أمير

إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا … فأى فتى بعد الخصيب تزور ..

أما البيتان فأنشدهما أبو نواس إثر عتاب الأمين إياه بعد أن أنشده إحدى مدحاته .

وقد - لعمرى - أحسن الأمين التبكيت لأبى نواس ووضعه موضعه ، وأحسن أبو نواس الاعتذار وتلافى ما فرط منه .

ومما وضع فى غير موضعه فعيب وإن كان فى معناه جيدا قوله :

فقلت لها : يا عز كل مصيبة   إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت(١)

فقالوا : لو قال هذا فى الزهد كان من أشعر الناس . وكذلك قول الآخر :

يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلة   ولا الصدور على الأعجاز تتكل(٢)

فقالوا : لو وصف بهذا النساء لكان من أشعر الوصف وأغزل الشعر .

ومما ينبغى له أيضا أن يجتهد فيه أن يكون معنى كل بيت ولفظه متساويين حتى يتم المعنى بتمام اللفظ ، كما قال الشاعر :

ولا يواتيك فيما ناب من خلق   إلا أخو ثقة فانظر بمن تثق(٣)

فهذا بيت قد تم معناه بتمام لفظه من غير حشو ولا تضمين(٤) . وكذلك قوله :

---

(١) البيت لكثير عزة من التائية التى أشرنا إليها قريبا (ص ١٦٠) ، وهى فى الغزل ومعدودة فى قمة نسيبه . ونقل المبرد (الكامل : ١/١٩٠) والمرزبانى (الموشح : ٢٣٢) أن عبد الملك بن مروان قال فى هذا البيت : لو جعله فى صفة الحرب لكان أشعر الناس وارتفع قدره ، وجعله ابن طباطبا (عيار الشعر ٨٠) من المعرض الحسن الذى ابتذل على ما لا يشا كله من المعانى .

(٢) البيت للقطامى (وسبق التعريف به ص١٣٨) فى وصف الإبل . ورهواً بمعنى مشياً سهلا وهو فى موضع المفعول المطلق .

(٣) البيت لسالم بن وابصة . والمعنى : لا يسعفك فيما ينزل وينوب إلا ذو ثقة ، فعليك بانتخاب صحبك ممن ينالون ثقتك .

(٤) الحشو : زيادة فى الكلام متعينة ، والتضمين هنا هو التضمين العروضى ، وهو احتياج البيت ليكتمل المعنى إلى بيت آخر ، فالمعنى يطول =

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى ... متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة فى هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمنى اللوم(١)

فأما إذا تم المعنى قبل تمام البيت فالشاعر حينئذ محتاج إلى حشو البيت بما لا فائدة فيه من اللفظ ، وذلك مثل قول الشاعر :

وقد أروح إلى الحانوت يتبعنى ... شاو مشل شلول شلشل شول(٢)

= عن أن تحتمل العروض تمامه فى بيت واحد فيقطعه الشاعر بالقافية ويتمه فى بيت يليه ، والمشهور تسمية هذا اللون (التضمين) وسماه قدامة (نقد الشعر : ١٤٠) : « البتر » : وهناك لون بديعى يسمى (التضمين) وهو أن يودع المنشئ فى كلامه شيئاً من كلام غيره ، وعليه أن ينبه عليه إلا إذا كان مشهوراً ، وإلا عد سرقة . ومثاله قول الحريرى فى المقامة الزبيدية :

على أنى سأنشد عند بيعى : « أضاعونى وأى فتى أضاعوا »

فالشطر الأخير صدر بيت مشهور عجزه (ليوم كريهة وسداد ثغر) .

(١) وبعدهما فى العقد الفريد (٦/٢١٤) :

أشبهت أعدائى فصرت أحبهم ... إذ كان حظى منك حظى منهم

وأهنتنى ، فأهنت نفسى صاغراً ... ما من يهون عليك ممن أكرم

والشعر لأبى الشيص فى التشبيب ، واستجاده أبو نواس معجباً ، وسرق معناه منه .

والشاعر اسمه محمد بن رزين من شعراء العصر العباسى . ذكر فى الأغانى أنه لم ينبه ذكره لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبى نواس ، وانقطع إلى عقبة بن جعفر الخزاعى أمير الرقة فمدحه بأكثر شعره : وله أبيات فى الغزل وفى الشراب .

(أخباره وأشعاره فى العقد الفريد والأغانى والصناعتين وغيرها) .

(٢) البيت للأعشى من لاميته المشهورة التى مطلعها :

ودع هريرة ، إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعا أيها الرجل =

. . . .

= وهى فى هجاء يزيد بن مسهر الشيبانى . والبيت فى صبوة الشارب يخدمه شاو أى غلام يشوى اللحم مثل أى نادل مربع فى الخدمة ، والمشل والشلول والشلشل والشول بمعنى ، وقيل : المشل المسرع ، والشلول الخفيف فى العمل والشاشل الماضى فى الخدمة وقضاء الحوائج ، والشول المخرج اللحم من القدر ، وعلى هذا تختلف معانيها الجزئية ، ويبقى القول فى هذا الإلحاح على التجنيس

والأعشى هو ميمون بن قيس بن جندل من بنى بكر بن وائل ، ويسمى أعشى قيس ، ويكنى أبا بصير ، نشأ فى اليمامة ، وأعجب فى أول أمره بشعر خاله المسيب بن علس فاشتغل راوية له .

والأعشى من أعلام الشعراء فى الجاهلية، وقدمه بعض النقاد بشعر الصبوة والخمر فقال : أشعر الناس : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب ، وجعله بعض من أصحاب المعلقات بقصيدته فى مدح الأسود الكندى ومطلعها :

ما بكاء الكبير فى الأطلال   وسؤالى وما ترد سؤالى

وسموه (صناجة العرب) لأنه كان يغنى بشعره ، وقالوا : إنه أول من تكسب بشعره وانتجع به أقاصى البلاد فى الجزيرة العربية وخارجها مصرحا بالسؤال والحاجة ، وقالوا أنه كان قدريا وإن هذه العقيدة جاءته من اختلاطه بالنصارى .

ويعتبر الأعشى من القلائل الذين تصرفوا فى المديح والهجاء والفخر والغزل ووصف الخمر والشاربين ، وأنشأ فيها مطولات جيدة . والسيرورة شعره كان مدحه يرفع الوضيع الخامل وهجوه يضع الشريف النابه ، ومن ذلك أنه صادف رجلا خاملا اسمه المحلق الكلابى أكرمه على ما هو فيه من فقر وحاجة وكان أبا لثمان بنات عانسات ، فمدحه الأعشى بقصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق   وما بى من سقم وما بى معشق

وذكر فيها جود المحلق وبره بأضيافه وقراه إياهم، وأنشدها فى عكاظ =

وإن تم لفظ البيت قبل أن يتم معناه احتاج إلى أن يضمن البيت الثانى تمام المعنى ، كقول الشاعر (١) :

وجناح مقصوص تحيف ريشَه ريبُ الزمان تحيف المقراض

فهذا لا يقوم بنفسه ولا يبين عن معنى ما أريد به حتى يأتى معناه فى البيت الثانى ، وهو :

فنعشتَه ووصلتَ ريش جناحه وجبرتَه يا جابر المنهاض

وجميعاً معيبان ، فينبغى أن تتجنبهما ما وجدت السبيل إلى ذلك (٢) .

= فسار ذكر المحلق ، ولم يمض عام حتى خطبت بناته جميعا إلى ذوى اليسار والسؤدد .

وأدرك الأعشى الإسلام ، وأعد لمدح النبى — صلى الله عليه وسلم — قصيدته التى مطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا

وبينما الأعشى فى طريقه إلى النبى إذ لقيه كفار قريش وخافوا أثر شعره فصرفوه عن النبى وأعطوه مائة ناقة حمراء ، فأخذها وغلبته الرغبة فى تحصيل المال .

(١) هو أبو الشيص فى مدح عقبة بن جعفر — على ما ذكرنا — قريبا من القصيدة التى مطلعها :

لا تنكرى صدى ولا إعراضى ليس المقل عن الزمان براض

ومن ناحية أخرى أنكر اللغويون استعماله (المقراض) مفرداً ولم يسمع فى كلامهم إلا مثنى (سر الفصاحة : ٨٢) .

(٢) هذان المعيبان اللذان يدعوك إلى تجنبهما هما : الحشو ، والتضمين.

واعلم أن الشاعر إذا أتى بالمعنى الذى يريد أو المعنيين فى بيت واحد كان فى ذلك أشعر منه إذا أتى بذلك فى بيتين . وكذلك إذا أتى شاعران بذلك ، فالذى يجمع المعنيين فى بيت أشعر من الذى يجمعهما فى بيتين. ولذلك فضل قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى (١)

على قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب (٢)

لأنه جمع فى البيت الأول وصف شيئين لشيئين ، وإنما وصف فى هذا شيئا بشىء .

وللشاعر أن يقتصد فى الوصف أو التشبيه أو المدح أو الذم ، وله أن يبالغ ، وله أن يسرف حتى يناسب قوله المحال ويضاهيه . ولا يستحسن السرف والكذب والإحالة فى شىء من فنون القول إلا فى الشعر . وقد ذكر

---

(١) فى هذا البيت يصف العقاب تأكل صغار الطير إلا قلوبها ، ولهذا كثرت لدى وكرها ، فالذى جف منها ويبس يشبه الحشف البالى ـ والحشف أردأ التمر أو أضعفه الخالى من النوى أو الفاسد منه — والذى ما زال رطبا يشبه العناب وهو ثمر أحمر رطب . وكلا هذين النوعين لا يتميز أحدهما من الآخر عند وكر العقاب ، ولذا كان التشبيه فى الصورة والهيئة (راجع عيار الشعر : ١٨ والصناعتين : ٢٤٥) وهذا التشبيه من نادر الكلام ونمطه العالى (دلائل الإعجاز : ٧٥) :

(٢) البيت لامرىء القيس أيضا ، يصف فيه عيون الظباء والبقر الوحشى حول الخباء — وكانوا يصيدونها ويأكلون لحمها ويتركون رءوسها حول الأخبية — ويشبهها بالجزع الذى لم يثقب ، والجزع خرز يمانى فيه سواد وبياض ، وعن الأصمعى أن الظباء والبقر تبدو عيونها سودا وهى حية فاذا ماتت بدا البياض فيها فأشبهت الجزع والتشبيه فى الصورة (عيار الشعر: ١٨)=

« أرسطاطاليس » الشعر فوصفه بأن الكذب فيه أكثر من الصدق . وذكر أن ذلك جائز فى الصناعة الشعرية . فما اقتصد الشاعر فيه قوله :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم(١)

ومما بالغ فيه قوله :

= وفيه تمثيل عجيب (الكامل للمبرد : ٢/٣٦)، وفيه إيغال(*) بقوله (لم يثقب) ليزيد التشبيه توكيداً ، لأن الجزع إذا كان غير مثقب أشبه العيون (سر الفصاحة : ١٨٠) .

واعلم أن المصنف يسير فى الاتجاه التقليدى بوحدة البيت ، فهو يعتبر التضمين عيبا ، ويدعو إلى استقلال البيت بمعناه ، ويطرى احتواء البيت على أكثر من معنى .

(١) البيت لعنترة من معلقته (وسبق التعريف به ص ١٣٧) ، ووقع جوابا لقوله قبل :

هلا سألت القوم يا بنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
إذ لا أزال على رحالة سابح نهد تعاوره الكماة مكلم
طورا يعرض للطعان ، وتارة يأوى إلى حصد القسى عرمرم
يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

(ابنة مالك : عبلة محبوبته رحالة سابح . سرجه والسابح الفرس يبسط يديه معا عند العدو نهد: غليظ الصدر . تعاوره الكماة : تتعاوره أى تتناوبه بالطعان والكماة جمع كمى وهو الفارس التام السلاح مكلم : مجرح . حصد القسى : محكمها والقسى الأقواس . عرمرم : كثير . الوقيعة : الحرب . الوغى أصوات أهل الحرب واستعير للحرب نفسها . المغنم : الغنيمة) . وفى البيت يفخر بأنه جرىء شجاع ، وبأنه كريم ذو مروءة وعفة .

(*) الايغال من ألوان الاطناب ومعناه أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر لفائدة الايضاح أو الشرح أوالتوكيد (من الصناعتين ٣٨١)

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا(١)

فجعل له عليهم فى كل حال من أحوال البسالة والشجاعة فضلا ومبالغة .
ومما أسرف فيه الشاعر حتى أخرجه إلى الكذب والمحال وهو مع ذلك مستحسن قوله :

تغطيت من دهرى بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام عنى ما درت وأين مكانى ما عرفن مكانى(٢)

ومما يزيد فى حسن الشعر ويمكن له حلاوة فى الصدر حسن الإنشاد وحلاوة النغمة ، وأن يكون قد عمد إلى معانى شعره فجعلها فيما يشاكلها من اللفظ ، فلا يكسو المعانى الجدية ألفاظا هزلية فيسخفها . ولا يكسو المعانى الهزلية ألفاظاً جديه فيستوخمها سامعها ، ولكن يعطى كل شىء من ذلك حقه

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى (وسبق التعريف به ص ١٢) من قصيدته :
إن الخليط أجد البين فانفرقا وعلق القلب من أسماء ما علقا
فى مدح هرم بن سنان ، يصفه بأنه يجيد القتال فى جميع الأحوال ، فهو يطعن أعداءه برمحه حتى إذا تطاعنوا بالرماح ضاربهم بسيفه حتى إذا ضاربوه طالهم بيده فاعتنقهم فأوقعهم أرضا ، فهو فى كل حال من أحوال الحرب يمتاز عليهم ويزيد .

(٢) البيتان لأبى نواس (وسبق التعريف به ص ١١٠) من قصيدة مطلعها :
لمن طلل لم أشجه وشجانى وهاج الهوى أو هاجه لأوان
وهى فى مدح محمد بن الفضل بن الربيع ، يقول أبو نواس :
فلما قضت نفسى من السير ما قضت على ما بها من شدة وليان
أخذت بحبل من حبال محمد أمنت به من نائب الحدثان
تغطيت ... ألخ . ورواية الديوان (فلو تسأل الأيام ما اسمى ما درت) .
والجناح هو جناح الممدوح ، والمراد بظل جناحه ما أسبغه على الشاعر براً وصيانة وحياطة وحماية .

ويضعه موضعه ، ويمثل فى ذلك ما وصف به الشاعر بعض الحذاق بترتيب الكلام فقال :

أخو الجد إن جاددت أرضاك جده وذو باطل إن شئت ألهاك باطله (١)

وألا يجعل شعره كله جدا فيستثقل ، إذ كانت النفوس ربما ملت الحق واستثقلته ، واحتاجت إلى أن تمترى نشاطها وتبقى جمامها بشىء ؛ وألا يجعل شعره كله هزلا فيكسد عند ذوى العقول ، ولكن يخالط جدا بهزل ، ويستعمل كلا فى موضعه وعند أهله ومن ينفق عنده ، ومن عرف هذا المعنى فى الشعر وأخذ فيه ، وأبر فيما أتى منه على من تقدمه (٢) أبو نواس ، فإنه يقول :

أنت امرؤ أوليتنى نعماً أوهت قوى شكرى فقد ضعفا

لا تحدثن إلى عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا (٣)

---

(١) البيت للعجير السلولى ، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية ، والبيت فى رثاء رجل يسمى « أبا الحجناء » وبعده على ما رواه فى ديوان الحماسة :

يسرك مظلوما ويرضيك ظالما وكل الذى حملته فهو حامله

أى . يسرك بأن ينتقم من ظالمك ، ويرضيك بالانتصار لك والوقوف إلى جانبك إن هضمت غيرك ، وهذا على طريقة أهل الجاهلية .

(٢) معانى بعض الكلمات السابقة : يستوخمها سامعها أى يعدها وخيمة غير سائغة وغير موافقة . تمترى نشاطها أى تستخرجه . تبقى جمامها أى تبقى راحتها والجمام (وزان سحاب) الراحة . يكسد أى يفسد أو لا يروج . ينفق عنده : يروج من النفاق (بوزن سحاب) . أبر على من تقدمه أى غلبه .

(٣) فى ختام مدحة يمدح بها العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ورواية الديوان :

ويقول أيضا :

تنازع الأحمدان الشبه بينهما ... خلقاً وخلقاً كما قد الشراكان
شبهان لافرق فى المعقول بينهما ... معناهما واحد والعدة اثنان(١)

حتى يقول :

عتقت فى الدن حــتى ... هى فى رقــة دينى(٢)

ويقول : اطلبى لى مواجرا ... واذهبى أنت ؛ قحّبى
لست ماعشت مدخلا ... إصبعى جحر عقرب(٣)

= قـــد قلت للعباس معتذراً ... من ضعف شـكريه ومعترفا :
أنت امرؤ جللتنى نعما ، ... أوهت قوى شكرى، فقد ضعفا
فاليك قبل اليوم تقدمـــة ... لاقتك بالتصريح منكشفا
لا تسدين إلى عارفة ، ... حتى أقوم بشكر ما سلفـا

(وشكريه مصدر موصول بفاعله ومفعوله ، وهى صيغة مرجوحة . وجللتنى تحمل معنى أعطيتنى وأوليتنى ، وتكون استعارة للالباس من جلال الدابة ألبسها ما تصان به . والعارفة المعروف والعرف « بالضم » وهو الجود والعطية) .

(١) لأبى نواس يمدح محمد الأمين والأحمدان الممدوح والرسول . خلقا (بالفتح) : خليقة وشكلا . وخلقا (بالضم ـ ويأتى بضمتين) : سجية وطبعا ومروءة ودينا . قد الشراكان : قطعا والشراكان مثنى شراك (وزان كتاب) وهو سير النعل الذى يكون على ظهر القدم وهو يقطع جزءين متساويين . العدة : العدد . ومن الواضح أن الشاعر نبا ذوقه به فى هذه التسوية بين الرسول والأمين ، وفى تقرير التنازع بينهما ، وفى انتخاب المشبه به . وفى منطقه الرياضى .

(٢) من خمريات أبى نواس وعتقت صارت عتيقة أى قديمة ، والدن وعاء الخمر ، ورقة دينه أى دينه الرقيق الضعيف .

(٣) من مجون أبى نواس يخاطب امرأة تزوجها فبقى معها سحابة يوم ثم طلقها فى آخره وهو يبتغى غلاما لوطيا ، ويدعوها أن تشتغل قحبة =

فاجتباه العلماء لما جد فيه . وقال أبو عمرو(١) أو غيره : لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الإرفاث لاحتججنا بشعره . واجتباه الخلعاء وأهل الهزل لمجونه ولما هزل فيه .

فأما وضع المعانى فى مواضعها التى تليق بها ، فكقول امرئ القيس فى عنفوان أمره وجدة ملكه :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفانى ـ ولم أطلب ـ قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى(٢)

فوضع طلب الرفعة وسمو المنزلة موضعها إذ كان ملكا ، لأن ذلك يليق بالملوك . ثم وضع القناعة موضعها لما زال عنه ملكه وصار كواحد من رعيته ، لأن ذلك أولى بمن هذه منزلته ، فقال :

إذا ما لم تكن إبل فمعزى ... كأن قرون جلتها العصى
إذا ما قام حالبها أرنت ... كأن الحى بينهم نعى

= وهذا وأمثاله ما دعا بعض الرواة إلى رفض الاحتجاج بشعره لما فيه من إرفاث أى فحش على ما يأتى ، لأن المفحش لا يستقيم لسانه .

(١) فى نقد النثر « أبو عمرو » وهو إسحاق بن مرار الشيبانى (٢٠٦ هـ) من أئمة اللغة والنحو والحديث والرواية . وفى البرهان « أبو عبيدة » وهو معمر بن المثنى (٢٠٩ هـ) من أئمة اللغة والرواية والأخبار وصاحب كتاب (نقائض جرير والفرزدق) .

(٢) من قصيدته (ألا عم صباحا أيها الطلل البالى) ويجىء هذان البيتان بعد بيته (كأن قلوب الطير رطبا ويابسا . . .) - راجع ص (١٧١) . والمجد المؤثل هو المجد الأصيل . وقليل فى البيت الأول رفع فاعلا لكفى ولا يصح أن ينصب مفعولا لأطلب . والتقدير : لو أسعى لأدنى معيشة كفانى قليل من المال ولم أطلب الملك . ويمنع أن يكون البيت شاهداً للتنازع لأن إجازة التنازع يعطى الحق فى إجازة النصب فيفسد المعنى ، لأن قوله لو أنما أسعى لأدنى معيشة يستلزم نفى مثل هذا السعى الدون ، وتقدير لم أطلب قليلا من المال يستلزم قيام هذا السعى الدون . فيجتمع المتضادان . وهو محال . والبيت الثانى تفسير لمسعاه العظيم .

فتملأ بيتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع ورى(١)

وينبغى لمن كان قوله للشعر تكسبا لا تأدباً أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ، ويخاطب كل مقصود بالشعر على مقدار فهمه ؛ فإنه ربما قيل الشعر الجيد فيمن لا يفهمه فلا يحسن موقعه منه ؛ وربما قيل الشعر الداعر لهذه الطبقة فكثرت فائدة قائله لفهمهم إياه . ولهذا المعنى قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى حديث ترويه عنه الشيعة : « إنا أمرنا - معاشر الأنبياء - أن نكلم الناس على مقادير عقولهم » . وقال الشاعر :

وأنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت الذى لا أشاكله

فجاملته حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله(٢)

فهذا ما حضرنا فى أقسام الشعر المنظوم ، وهو مقنع إن شاء الله .

---

(١) تنسب الأبيات لامرئ القيس ونقل الوزير أبو بكر بن أيوب شارح ديوانه عن الأصمعى أنه ينكرها ويقول بانتحالها لأن همة امرئ القيس لا تنحط إلى مثل هذا الدرك . وقصة الأبيات — على فرض صحتها أن امرأ القيس استعان فى محاربة قتلة أبيه بنى نبهان وأعطاهم رواحله فأخذت منهم فوهبوه ماعزا . ورواية الديوان :

ألا إلا تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصى

وجاد لها الربيع بواقصات فآرام وجاد لها الولى

إذا مست حوالبها أرنت كأن الحى صبحهم نعى

فتوسع أهلها أقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع ورى

والمعزى : الماعز والجلة : المسنة . جاد الربيع : أتى بمطر جود وهو الغزير . واقصات وآرام : موضعان . الولى : المطر بعد المطر . مست حوالبها : مسحت بالكف لإنزال اللبن والحوالب جمع حالب وهو العرق الذى يدر اللبن فى الضرع : أرنت : صوتت والصوت للشخب الذى يقع فى الإناء من اللبن . الاقط : نوع من الجبن .

(٢) ينسب البيتان لضبيعة بن الحارث ، وهو ممن طاعن عامر بن الطفيل فى يوم التناءة بين بنى عبس وبنى عامر — راجع العقد الفريد : ٦/٢٦

المنثور وما جاء فيه :

وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة ، أو ترسلا ، أو احتجاجا ، أو حديثاً . ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه.

[الخطابة والترسل](١) :

فالخطب تستعمل فى إصلاح ذات البين ، وإطفاء نائرة الحرب ، وحمالة الدماء ، والتسديد للملك ، والتأكيد للعهد فى عقد الإملاك ، وفى الدعاء إلى الله -عز وجل- ، وفى الإشادة بالمناقب ، ولكل ما أريد ذكره ونشره وشهرته فى الناس(٢) .

والترسل فى أنواع من هذا ، وفى الاحتجاج على المخالفين من أهل الأطراف وذكر الفتوح ، وفى المعاتبات والاعتذارات ، وغير ذلك مما يجرى فى الرسائل والمكاتبات .

والبلاغة فى الجميع واحدة ، والعى فيه قريب من قريب . إلا أن الخطابة لما كانت مسموعة من قائلها ومأخوذة من لفظ مؤلفها وكان الناس جميعاً يرمقونه ويتصفحون وجهه ، كان الخطأ فيها غير مأمون ، والحصر عند القيام بها مخوفاً محذورا(٣) . فأما الرسائل فالإنسان فى فسحة من تحكيكها وتكرير

---

(١) تناول المصنف الخطابة والترسل معا يراوح بينهما .

(٢) إصلاح ذات البين أى إصلاح الفساد والبين هنا الفرقة والخلاف . وإطفاء نائرة الحرب أى إسكان شرها وحمالة الدماء أى دياتها . وعقد الإملاك هو عقد الزواج . والمناقب المفاخر الواحدة منقبة .

(٣) الحصر (بفتحتين) : العى فى المنطق .

النظر فيها(١)، واصلاح خلل إن وقع فى شىء منها، ثم هى نافذة على يد الرسول أو طى الكتاب، فقد كفى صاحبها المقام الذى ذكرناه: والحصر الذى وصفناه، فلهذا صار الخطيب إذا ساوى المترسل فى البلاغة كان له الفضل عليه كما كان الفضل للشاعر إذا ساوى المتكلم فى تجويد المعانى وبلاغة اللسان(٢).

وقد قال عبد الله بن الأهتم: «إنى لست أعجب من رجل تكلم بين قوم فأخطأ فى كلامه أو قصر عن حجته، لأن ذا الحجى قد تناله الخجلة ويدركه الحصر ويعزب عنه القول، ولكن العجب ممن أخذ دواة وقرطاسا وخلا بفكره وعقله؛ كيف يعزب عنه باب من أبواب الكلام يريده. أو وجه من وجوه المطالب يؤمه(٣)».

وقد ذكرنا المعانى التى يصير بها الشعر حسنا وبالجودة موصوفا. والمعانى التى يصير بها قبيحاً مرذولا. وقلنا: إن الشعر كلام مؤلف، فما حسن فيه فهو فى الكلام حسن، وما قبح فيه فهو فى الكلام قبيح. فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف جيد الشعر، فاستعمله فى الخطابة والترسل؛ وكل ما قلناه من معايبه فتجنبه ها هنا(٤).

ثم إنه يخص الخطابة والترسل أشياء نحن نذكرها. ونبتدىء باشتقاق

---

(١) تحكيك الرسائل تنقيحها وتحبيرها.

(٢) أى عند التساوى فى البلاغة يكون للخطيب الفضل على المترسل كفضل الشاعر على الناثر إذا تساويا فى البلاغة — راجع ص (١٢٢).

(٣) عبد الله بن الأهتم من رجالات العراق أيام بنى أمية. وذو الحجى صاحب العقل والخجلة الحياء، والحصر عى اللسان، ويعزب عنه القول يبعد فلا يتأتى بسهولة

(٤) يحيلك على ما قاله فى ص «١٢٢» وما بعدها.

الخطابة والترسل من اللغة فنقول : إن الخطابة مأخوذة من خطبت أخطب خطابة ، (كما يقال : كتبت أكتب كتابة) واشتق ذلك من « الخطب » وهو الأمر الجليل ؛ لأنه إنما يقام بالخُطَب فى الأمور التى تجل وتعظم ، والاسم منها خاطب مثل راحم ، وإذا جعل وصفاً لازما قيل خطيب (كما قيل فى راحم رحيم ، وجعل رحيم أبلغ فى الوصف وأبين فى الرحمة) وكذلك لا يسمى خطيبا إلا من غلب ذلك عليه وعلى وصفه وصار صناعة له . والخَطبة الواحدة من المصدر (كالقومة من القيام والضربة من الضرب). وإذا جمعتها قلت خطب مثل جمعة وجمع . والخِطبة اسم المخطوب به وجمعها خطب (مثل كسرة وكسر) . فأما المخاطبة فيقال منها : خاطبت أخاطب مخاطبة ، والاسم الخطاب ، (مثل قاتلته أقاتله مقاتلة ، والاسم القتال) .

والترسل من ترسلت أترسل ترسلا وأنا مترسل (كما يقال : توقفت أتوقف توقفاً وأنا متوقف) . ولا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله فى الرسائل قد تكرر (كما لا يقال تكسر إلا لمن تردد عليه الفعل فى الكسر) ، ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة : أرسل يرسل إرسالا وهو مرسل ، والاسم الرسالة ، أو راسل يراسل مراسلة فهو مراسل وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا فى المراسلة . وأصل الاشتقاق فى ذلك أنه كلام يراسَل به من بعد أو غاب ، فاشتق له اسم الترسل ، والرسالة من ذلك .

والخطبة والخطاب اشتقا من الخطب والمخاطبة ، لأنهما مسموعان .

فمن أوصاف الخطابة : أن تفتتح الخطبة بالتحميد والتمجيد ، وتوشح بالقرآن وبالسائر من الأمثال ؛ فان ذلك مما يزين الخطب عند مستمعيها وتعظم به الفائدة فيها ؛ ولذلك كانوا يسمون كل خطبة لا يذكر الله فى أولها (البتراء) وكل خطبة لا توشح بالقرآن والأمثال (الشوهاء). ولا يتمثل فى الخطب الطوال التى يقام بها فى المحافل بشىء من الشعر . فان أحب أن يستعمل ذلك

فى الخطب القصار والمواعظ والرسائل فليفعل ، إلا أن تكون الرسالة إلى خليفة فان محله يرتفع عن التمثيل بالشعر فى كتاب إليه ، ولا بأس بذلك فى غيرها من الرسائل وأن يكون الخطيب أو المترسل عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له، فلا يستعمل الإيجاز فى موضع الإطالة فيقصر عن بلوغ الإرادة ، ولا الإطالة فى موضع الإيجاز فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة، ولا يستعمل ألفاظ الخاصة فى مخاطبة العامة ولا كلام الملوك مع السوقة ، بل يعطى كل قوم من القول بمقدارهم ويزنهم بوزنهم ، فقد قيل : «لكل مقام مقال». وإذا رأى من القوم إقبالا عليه وانصاتا لقوله فأحبوا أن يزيدهم(١) ، زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم . وإذا تبين منهم إعراضاً عنه وتثاقلا عن استماع قوله خفف عنهم ، فقد قيل : «من لم ينشط لكلامك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك». وليس يكون الخطيب موصوفاً بالبلاغة ولا منعوتاً بالخطابة إلا بوضع هذه الأشياء مواضعها ، وأن يكون على الإيجاز ـ إذا شرع فيه ـ قادرا ، وبالإطالة ـ إذا احتاج إليها ـ ماهرا . وقد وصف بعضهم البلاغة بما قلناه فقال وقد سئل عنها — : «هى الاكتفاء ـ فى مقامات الايجاز ـ بالإشارة ، والاقتدار ـ فى مواطن الإطالة ـ على الغزارة» ، وقال الشاعر فى هذا المعنى :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء(٢)

---

(١) فى البرهان (فأحب أن يزيدهم) .

(٢) وحى : مصدر وحى أو اسم مصدر أوحى . والملاحظ : جمع ملحظ وهو مكان اللحظ أى طرف العين . والمعنى : يتكلمون بالخطب الطوال تارة إذا أمنوا ، ويوحون وحيا بملاحظهم تارة إذا خافوا الرقباء . وفى قوله (يرمون بالخطب) استعارة تصريحية استعار الرمى لإخراج الكلام من الفم . جاء فى كتاب الصناعتين (ص ٥٨) : قال أبو داود : «رأس=

وقال جعفر بن يحيى : « إذا كان الإكثار أبلغ كان الايجاز تقصيرا ، وإذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار هذرا » ، فبين ما يحمد من الايجاز ، وما يحتاج إليه من الاكثار .

فأما المواضع التى ينبغى أن يستعمل كل واحد منها فيه ؛ فإن الايجاز ينبغى أن يستعمل فى مخاطبة الخاصة وذوى الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره وبمجمله عن تفسيره، وفى المواعظ والسنن والوصايا التى يراد حفظها ونقلها ، ولذلك لا ترى فى الحديث عن الرسول - عليه السلام - والأئمة شيئا يطول ، وانما يأتى على غاية الاقتصار والاختصار ، وفى الجوامع التى تعرض على الرؤساء فيقفون على معانيها ولا يشغلون بالاكثار فيها . وأما الاطالة : ففى مخاطبة العوام ومن ليس من ذوى الأفهام ومن لا يكتفى من القول بيسيره . ولا ينفتق ذهنه الا بتكريره وايضاح تفسيره . ولهذا استعمل الله -عز وجل- فى مواضع من كتابه تكرير القصص وتصريف القول ، ليفهم من بعد فهمه ويعلم من قصر علمه ، واستعمل فى موضع آخر الايجاز والاختصار . لذوى العقول والأبصار .

فمما روى من الخطب القصيرة والرسائل الموجزة والألفاظ المختصرة ما نحن ذاكرون بعضه ليدل على سائره . فمن ذلك خطبة للنبي -ﷺ- وهى أن قال بعد حمد الله والثناء عليه : « أيها الناس ، كأن الموت فى الدنيا على غيرنا كتب ،وكأن الحق فيها على غيرنا وجب،وكأن الذى نشيع من الأموات

= الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير الألفاظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه . وأنشد :
يرمون بالخطب الطوال ، وتارة ... وحى الملاحظ خشية الرقباء » .
وفى أدب الدنيا والدين (فصل الكلام والصمت) : أنشده بعضهم فى خطباء إياد .

سَفْرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ، ونأكل تراثهم ، كأننا مخلدون بعدهم . قد نسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة . طوبى لمن أذل نفسه ، وحسنت خليقته ، وصحت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ، ولم يعدها إلى البدعة »(١) .

خطبة أخرى له ـ عليه السلام ـ :

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فقفوا عند نهايتكم . إن المؤمن بين غايتين ؛ بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ امرؤ من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار(٢) » .

---

(١) الحق : من معانيه التى تصلح هنا الموت والعدل والأمر المقضى . سفر : مسافرون . نبوئهم أجداثهم : نسكنهم إياها والأجداث القبور واحدها جدث (وزان سبب) . تراثهم : ميراثهم وأكله استعارة للحصول عليه . كل جائحة : كل آفة والشافعى يرى أنها الآفة السماوية . طوبى : أى الخير والبركة والجنة . أذل نفسه : قهرها والمقصود كبح جماحها وألا يمد لها فى الغواية خليقته : طبيعته . سريرته : سره وهو ما يكتم . الفضل : الزائد السنة : فى الأصل الطريقة ويراد بها الأمر المقبول أى ما يقابل البدعة والبدعة : فى الأصل الجديد والحادث ويراد بها ما خالف الدين .

(٢) معالم جمع معلم وهو العلامة ومنه معالم الطريق العلامات التى توضع =

خطبة قس بن ساعدة التى رواها عنه - عليه السلام - :

ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه رآه بعكاظ على جمل أحمر وهو يقول : « أيها الناس ، اجتمعوا ثم اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . يا معشر إياد ! أين ثمود وعاد ! وأين الآباء والأجداد ! وأين المعروف الذى لم يشكر ! وأين الظلم الذى لم ينكر ! أقسم قس قسما حقا إن لله لديناً هو أرضى عنده من دينكم » . ثم أنشد شعرا ، فهل من يحفظه ؟ فقال بعضهم : أنا أحفظه ؛ فقال : هاته ، فأنشد :

في الذاهبين الأوليـ ... ـن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... يمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا ... يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا ... لة حيث صار القوم صائر(١)

ومن كلام أمير المؤمنين - رضى الله عنه - فى الحكمة وألفاظه القصار المنتخبة : « المرء مخبوء تحت لسانه . قيمة كل امرئ ما يحسن . اعرف الحق

= فيها للإرشاد والاستدلال . الشبيبة : الشباب . مستعتب : مصدر ميمى من استعتبه أعطاه العتبى والعتبى الرضا .

(١) عوا : أمر من وعى بمعنى حفظ . دينا أرضى من دينكم : أى منهجا أقوم مما أنتم فيه من عبادة الأوثان . من القرون : أى من أهلها والقرون جمع قرن والمختار أنه مائة عام . بصائر : جمع بصيرة وهى الفطنة . الموارد والمصادر : أماكن الورود والصدور . غابر : هنا بمعنى باق لا محالة : بمعنى لا بد .

تعرف أهله . العلم ضالة المؤمن . أغنى الغنى العقل ، وأفقر الفقر الحمق . الدنيا دار ممر إلى دار مقر ؛ والناس فيها رجلان : رجل ابتاع نفسه فأعتقها ، ورجل باع نفسه فأوبقها . إذا قدرت على عدوك فاجعل الصفح عنه شكراً للقدرة عليه . الصبر مطية لا تكبو وسيف لا ينبو . عمرت البلدان بحب الأوطان . كفران النعمة لؤم ، وصحبة الأحمق شؤم . اتباع الهوى يصد عن الهدى . الحجر الغصب فى الدار رهن بخرابها . ما ظفر من ظفر الإثم به . الغالب بالشر مغلوب » .

ومن كلام غيره : « من الظفر تعجيل اليأس من الممتنع . من لم يعرف شر ما يولى لم يعرف خير ما يبلى . الكريم للكريم محل . الموت فى قوة وعز خير من الحياة فى ذل وعجز . لا زوال للنعمة مع الشكر ، ولا بقاء لها مع الكفر . شفيع المذنب إقراره . وتوبته اعتذاره . عُجب المرء بنفسه أحد حساد عقله ، امنع الناس من عرضك بما لا ينكرونه من فعلك . من أمل أحداً هابه . ومن قصر عن شيء عابه . جهل المرء بقدره إهلاك منه لنفسه . الصبر حيلة من لا حيلة له . حسبك من شر سماعه . استر عورة أخيك لما يعرفه فيك . من خف على عدوه ثقل على صديقه . من أسرع إلى الناس بما يكرهون رموه بما يعلمون وما لا يعلمون » . وهذا كثير يطول به الكتاب ، وإنما ذكرنا بعضه ليدل على سائره إن شاء الله .

ومن الرسائل القصيرة الآتية على المعانى الكثيرة . رسالة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مسيلمة لما كتب اليه :

«من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . أما بعد ، فإن الله ـ عز وجل ـ قسم الأرض بيننا ولكن قريش قوم غدر » . فكتب إليه : « من محمد رسول الله ، إلى مسيلمة الكذاب . أما بعد ؛ فإن الأرض لله يورثها من يشاء

من عباده والعاقبة للمتقين »(١) .

ورسالة يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد، وقد بلغه عنه بعض التحبس عن بيعته. فكتب إليه : «من عبدالله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد، إلى مروان ابن محمد . أما بعد ، فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيتهما شئت . والسلام »(٢) .

فصل : للحسن بن وهب : « فأسأل الله أن يبلغنى أملى فيك ،فإنها دعوة على قصرها طويلة »(٣) : ولسليمان بن وهب : « وإن الدول إذا أقبلت كثرت العدة وإن أقلت العدد ، وإذا أدبرت كثرت العدد وأقلت العدة »(٤) ولأحمد بن سليمان : « والنعم ثلاث : مقيمة ، ومتوقعة ، وغير محتسبة ؛ فحرس الله لك مقيمها ، وبلغك متوقعها ،وآتاك مالم تحتسب منها » .وله أيضا :

---

(١) مسيلمة : هو متنبئ بنى حنيفة . قتله خالد بن الوليد فى وقعة اليمامة سنة ١١ هـ .

(٢) يزيد بن الوليد : الخليفة الثالث عشر فى الدولة الأموية تولى الخلافة سنة ١٢٦ هـ وتوفى فى السنة نفسها ، ومروان هو آخر الخلفاء الأمويين تولى الخلافة سنة ١٢٧ هـ وتوفى مقتولا سنة ١٣٢ هـ . والتحبس عن بيعته : التردد فيها والامتناع منها . وقوله : (تقدم رجلا وتؤخر أخرى) أى تقدم رجلا مرة وتؤخرها مرة أخرى كناية عن التردد .

(٣) الحسن بن وهب : شاعر مجيد وكاتب مجيد عمل لمحمد بن عبدالملك الزيات أيام المعتصم العباسى .

(٤) سليمان بن وهب : أخو الحسن بن وهب كاتب خطاط ، عمل وزيراً المهتدى بالله والمعتمد على الله فى الدولة العباسية . والعدة (بالضم) : العتاد وهو ما يعد لمواجهة النوائب : والعدد : الاسم من العد وهو الإحصاء .

« واعلم أن الحق لمن أصابه ، لا لمن أخطأه وقد أراده »(١) ولمحمد بن عبد الملك : « ولو لم يكن من فضل الشكر إلا أنه لا يرى إلا بين نعمة مقصورة عليه أو زيادة منتظرة به .. »(٢) ولأبى الربيع إلى يحيى بن خالد فى اختيار العمال : « وليس لك أن تقول لربك : لم نجد ، وأنت لم تجتهد »(٣) . ولابن مكرم : « وأسألك عفو إمكانك فى حاجتى ، وأضمن لك جهدى فى شكرك(٤) » وفصل فى تعزية : « وخير حواشى نعمك ما نفد ووقاك ، أو بقى فسلاك »(٥) وفصل آخر : « والناس متقاربون حتى يحدث لأحدهم غنى موسع ، أو فقر مدقع ، أو سكر سلطان ، أو نبوة زمان ، أو خوف يتصل به خور ، أو أمن يدعو إلى بطر »(٦). آخر فى فصل من كتاب : « ومن نكد الزمان أنى

---

(١) أحمد بن سليمان بن وهب . والنعمة القيمة أى الحاضرة ، والمتوقعة المرتقبة ، وغير المحتسبة التى لا فكر فيها فليست داخلة فى حساب المرء وظنه .

(٢) محمد بن عبد الملك الزيات : أحد كتاب الدولة العباسية ووزرائها المشهورين ، وزر للمعتصم وللواثق ، وقتله المتوكل سنة ٢٣٣ هـ .

(٣) فى نقد النثر ، هامش ص ١٠١ — ط ١٩٣٩ : فى أغلب الرأى أن أبا الربيع هو محمد بن يعقوب صاحب ديوان المظالم للمتوكل ، وأن يحيى هو يحيى بن خاقان - وليس ابن خالد - صاحب ديوان الخراج للمتوكل .

(٤) فى نقد النثر ، هامش ص ١٠٢ - ط ١٩٣٩ : لعله ابن مكرم القاضى الذى روى الطبرى أنه ولى فداء الأسرى بين المسلمين والروم عام ٢٨٢ هـ . وقوله (عفو إمكانك) بمعنى قدر استطاعتك .

(٥) المعنى : خير جوانب النعم فى أن يذهب وتسلم أنت ، أو فى يبقى فيكون لك فيه سلوة .

(٦) الغنى الموسع : الذى يجعل صاحبه فى سعة ووسع أى يسار وكثرة .

ما عاشرت أحداً إلا أنزلتني عشرته بين صبر على أذى أو فراق على قلى »(١)

آخر : « والاعتذار منك تفضل ، ومنا تنصل »(٢) .

ومن موجز التوقيعات(٣) :وقع أبو صالح بن يزداد إلى رجل أذنب : « قد تجاوزت عنك . فإن عدتَ أعدتُ إليك ماصرفته عنك » : وإلى آخر خافه : « ليس عليك بأس ، مالم يكن منك بأس » . وإلى آخر أدل بكفاية:

= مال. الفقر المدقع : الذى يلصق صاحبه بالدقعاء وهى الأرض نبوة الزمان أى جفوته وقسوته ، الخور : الضعف البطر (هنا) : طغيان النعمة .

(١) القلى : البغض والكراهية الشديدة الداعية للهجر، وفعله قلى (وزان رمى ورضى) وقيل الوزن الأول فى الهجر والثانى فى البغض .

(٢) التفضل : الزيادة فى الفضل والتنصل : التبرؤ والخروج .

(٣) المراد من التوقيعات تعليقات أولى الأمر والرأى من الخلفاء والوزراء والولاة على ما يرفع إليهم . والكلمة مستعارة من عدة معان أصلية، فمن معانى التوقيع شحذ السيف والسكين وجلاؤهما بالميقعة أى المطرقة . وتوقيع الرئيس جلاء الأمر الذى رفع إليه وتهيئته للنفاذ حسبما وقع . ومن معانى التوقيع التأثير القليل فيقال مثلا : جنب هذه الدابة موقع أى أن فيه تأثيرا خفيا من الحبال التى تشد عليها ، وتوقيع الرئيس تأثير خفيف إلى جنب ما كتب من عبارات . ومن معانيه : إيقاع شىء صغير على آخر مع تخالف فى لونيهما كما يظهر فى الدابة بياض إثر ندبة ، ولعل التوقيع كان يكتب عادة بمداد أحمر يخالف سواد الصحيفة ومن معانيه الرمى القريب لا تباعده كأنك تريده أن يصيب الهدف والموقع فى الصحيفة يحاول بتوقيعه أن يصل إلى كبد الرأى (راجع كتاب الأدب العربى وتاريخه للأستاذ محمود مصطفى ج ٢ – ط ٢ – ص ٩٣ – مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر – ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م) .

أدللت فأمللت ، فاستصغر ما فعلت تنل ما أملت »(١) . ووقع المأمون إلى عامل له شكى : «قد كثر شاكوك،وقل شاكروك،فإما عدلت،وإلا اعتزلت». ووقع فى أمر الجند : لا يعطوا على الشغب ، ولا يحوجوا إلى الطلب »(٢). ووقع طاهر بن الحسين : « والله لئن هممت لأفعلن ، ولئن فعلت لأبرمن ، ولئن أبرمت لأحكمن »(٣) : ووقع يحيى بن خالد فى نكبته إلى رجل سأله عن حاله: « أحسن الناس حالا فى النعمة من ارتبط مقيمها بالشكر. واسترجع ماضيها بالصبر »(٤) . ووقع محمد بن خالد إلى عامل له : « أجر أمورك على ما يكسبك الثناء ، ويكسبنا الدعاء ؛ واعلم أنها أيام تنقضى،وأعمار تنتهى فإما ذكر جميل ، أوخزى طويل»(٥) .

---

(١) أبو صالح بن يزداد من وزراء العباسيين أيام المستعين بالله والبأس الأول الخوف ، والثانى الشدة والقوة وقد يكون الخوف أيضا

(٢) المأمون هو الخليفة العباسى السابع تولى الخلافة سنة ١٩٨ هـ ومكث فيها عشرين سنة والفعلان فى التوقيع الثانى مبنيان للمفعول وواقعان فى النهى. والشغب تهييج الشر والخروج على الطاعة .

(٣) طاهر بن الحسين هو قائد جيوش المأمون فى حربه مع أخيه الأمين. وهممت من الهم وهو العزم القوى أو أول العزم ، وأبرمن الابرام وهو هنا التدبير ، وأحكمن من الإحكام وهو الإتقان .

(٤) يحيى بن خالد البرمكى ،مؤدب الرشيد قبل خلافته، ووزيره بعدها. وارتبط مقيمها بالشكر بمعنى ربط حاضر النعمة بالشكر ،فالنعمة قد صارت مذللة له كالدابة الذلول فهو يشدها إليه ولا يفلتها .

(٥) محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى – على مارجحه محققا نقد النثر – هامش ص ١٠٣ – ط ١٩٠٩ – قلده المستعين بالله الثغور البحرية وكان له بلاء فى الفتن التى وقعت فى العراق سنة ٢٥١ هـ .

وإن رمنا أن نأتى بكل ما سمعنا فى هذا الباب من مختصر الدعاء والوصايا وقصير التوقيعات والخطب ؛ طال علينا وشغلنا عما اليه أجرينا . وانما ذكرنا مثالا يحتذى عليه اللبيب ، ويستن به الأديب ؛ فأما الخطب الطوال والرسائل الكبار فهى مدونة موجودة فى كتب الناس .

وممن برع فى المعنيين من الإيجاز والإطالة،فسلم فى الإيجاز من التقصير، وفى الإطالة من الإسهاب والتكثير ؛ وتقدم الناس جميعا فى ذلك كتقدمه فى سائر فضائله : أمير المؤمنين – عليه السلام – وله من الخطب الطوال المشهورة : الزهراء ، والغراء . والبيضاء ، وغيرهن مما قد حمل عنه ونقل الينا من قوله(١) .

وإنما تحسن الإطالة وبسط الكلام كما قلنا فى تفسير الجمل ، وتكرير الوعظ ، وإفهام العامة . ويليق ذلك بالأئمة والرؤساء ومن يقتدى به ويؤخذ عنه ؛ فأما العامة والجمهور فلا يليق ذلك بهم ، ولا ينبغى أن يتركوا يستعملونه، فإنها لقاح التباين، وسبيل الاختلاف، وسبب التشتت . وقد روى أن عماراً – رحمه الله – تكلم يوما فأوجز ؛ فقيل له . « لو زدتنا » : فقال : « أمرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باختصار الخطب » . ولهذا المعنى قال شاعر الخوارج :

كنا أناساً على دين ففرقنا   قذع الكلام وخلط الجد باللعب
ما كان أغنى رجالا ضل سعيهم   عن الجدال وأغناهم عن الخطب(٢)

---

(١) تفرؤه فى نهج البلاغة ، وفى الكامل المبرد، وفى العقد الفريد ج ٤
(٢) قذع الكلام : فاحشه وسوءه . وفى الكامل للمبرد (٢ / ٢٣٨) فى حديثه عن الخوارج والحرب بين قطرى بن الفجاءة والمهلب بن أبى صفرة أن قطريا خندق بمدينة « جيرفت » ، فدس إليه المهلب من يزيحه منها ، فقال=

وممن استعمل فى قوله وكتبه الإيجاز والاختصار من القدماء ؛ ليهون بذلك حفظ كتبه على من يريد حفظها ويقرب على ناقل كتبه وأقواله نقلها : أرسطاطاليس واقليدس(١) فإنهما لم يأتيا فى شىء من كلامهما بما يتهيأ لأحد أن يختصره أو أن يأتى بمعناهما بأقل من لفظهما . وممن استعمل الشرح والإطالة منهم ليفهم المتعلم ، وينفصل المعانى للمتفهم : جالينوس ويوحنا النحوى(٢) . وكل قد قصد مقصداً لم يرد به إلا النفع والخير .

= له الصلت بن مرة : « إن كنت تريد الله فأقدم على القوم، وإن كنت تريد الدنيا فأعلم أصحابك حتى يستأمنوا وأنشأ الصلت يقول :

قل المحلين : قد قرت عيونكم ... بفُرقة القوم والبغضاء والهرب

كنا أناساً على دين ، ففرقنا ... طول الجدال وخلط الجد باللعب

ما كان أغنى رجالا ضل سعيهم ... عن الجدال وأغناهم عن الخطب!

إنى لأهونكم فى الأرض مضطرباً ... مالى سوى فرسى والرمح من نشب

(١) أرسطاطاليس : هو أرسطو أشهر تلامذة أفلاطون وزعيم فرقة المشائين ، امتازت فلسفته بالنظر المجرد من الخيالات ، وبحث فى المنطق والسياسة والنفس ، ويسميه العرب (المعلم الأول) وعنه نقلوا أكثر علم اليونان ، ولد سنة ٣٨٤ ق . م وتوفى سنة ٣٢٢ ق . م .

وإقليدس : عالم فى الرياضة من علماء اليونان ، عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد فى الاسكندرية ، وأشهر كتبه (أصول الهندسة) الذى نقل فى عهد الرشيد والمأمون إلى العربية .

(٢) جالينوس : طبيب يونانى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد ، درس التشريح ووظائف الأعضاء ، واشتغل بالفلسفة وكان ممن يؤمنون بالله واحد وبالقضاء والقدر وترجمت كتبه إلى العربية . =

ومن الأوصاف التى اذا كانت فى الخطيب سمى سديداً وكان من العيب معها بعيدا: أن يكون فى جميع ألفاظه ومعانيه جاريا على سجيته غير مستكره لطبيعته ولا متكلف ما ليس فى وسعه ؛ فإن التكلف اذا ظهر فى الكلام هجنه وقبح موقعه. وحسبك من ذم التكلف أن الله - عز وجل - أمر رسوله - ﷺ - بالتبرؤ منه، فقال: ﴿ قل: ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين(١) ﴾. وألا يظن أن البلاغة إنما هى الإغراب فى اللفظ والتعمق فى المعنى ؛ فإن أصل الفصيح من الكلام ما أفصح عن المعنى، والبليغ ما بلغ المراد ؛ ومن ذلك اشتقا ؛ فأفصح الكلام ما أفصح عن معانيه ولم يحوج السامع إلى تفسير له، بعد ألا يكون كلاماً ساقطاً أو لألفاظ العامة مشبها. ولذلك قال بعضهم فى وصف البلاغة: « هى أن يتساوى فيها اللفظ والمعنى، فلا يكون اللفظ أسبق الى القلب من المعنى ولا المعنى أسبق إلى القلب من اللفظ ». وليس ينكر مع ذلك أن يكلم أهل البادية بما فى سجيتها علمه، ولا ذوو الأدب بما فى مقدار أدبهم فهمه ؛ وإنما ينكر أن تكلم الحاضرة والمولدون من الغريب بما لا يعرفون وبما هم الى تفسيره محتاجون وأن تكلم العامة السخفاء بما تكلم به الخاصة الأدباء. وانما مثل من كلم انسانا بما لا يفهمه وبما يحتاج الى تفسير له كمثل من كلم عربيا بالفارسية ؛ لأن الكلام إنما وضع ليعرف به السامع مراد القائل، فاذا كلمه بما لا يعرفه فسواء عليه أكان ذلك بالعربية أم بغيرها. فما جرى فى هذا الباب مجراه

= ويوحنا النحوى: فيلسوف يونانى عاش فى الإسكندرية بين القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد، ولقب النحوى لتوفره على دراسة النحو. وله غيرها دراسات فى الفلسفة والإلهيات.

(١) سورة ص - الآية ٨٦ والمعنى - والله أعلم - قل يا محمد لقومك: ما أسألكم أجرا على القرآن وما كذبتكم فى الدعوة إلى الدين فما تكلفت هذا القرآن أو هذا الأمر ولا تصنعته ولا ادعيته، وقد عرفتمونى أمينا صادقا فالتكلف أبعد الأشياء عن طبيعتى.

المعهود . وسُلك به سبيله المقصود ، وأتى به طريقه المحمود ؛ قول طهفة بن زهير النهدى لرسول ﷺ فى كلام له طويل أغرب فيه : «ولنا نعم همل أغفال ، ما تبض ببلال ، ووقير قليل الرسل كثير الرسل ، أصابتها سنة حمراء مؤزلة ، ليس لها علل ولا نهل » ، فقال النبى ﷺ : « اللهم بارك له فى محضها ونحضها ومذقها ، واحبس راعيها فى الدثر ، بيانع الثمر ، وافجر له الثمد ، وبارك له فى المال والولد » فى كلام له طويل(١) . وكقول الآخر له فى بعض سؤاله إياه : « أيدالك الرجل امرأته يارسول الله؟ » قال « نعم . إذا كان مفرحاً »(٢). فهذا كلام من السائل والمسئول والقائل والمجيب حسن مأثور ؛ لأنه مفهوم بين من يخاطب به . وإنما يستنكر من ذلك الموضوعُ غير موضعه والمخاطب به غير أهله ، كقول أبى علقمة النحوى وقد عثر فسقط فاجتمعت عليه العامة فقال : «ما بالكم تتكأكئون علىّ كأنما تتكأكئون على ذى جِنة ، افرنقعوا

---

(١) الحديث رواه فى المثل السائر (١ / ١٥٨) . ونكتفى بمعانى ما انتخبه المصنف منه : نعم همل ـ كلاهما بفتحتين : إبل متروكة للرعى بلا راع . أغفال : لا علامة لها . ما تبض ببلال : ما تسيل به والبلال (بالكسر) ما يبل الحلق ؛ يريد ما يقطر منها لبن . والوقير : الغنم أو أصحابها أو قطيع الضأن أو الغنم والكلاب والرعاء جميعا . الرسل الأول (بكسر فسكون) اللبن ، والرسل الثانى (بفتحتين) الإرسال فى المرعى ، وقليل الرسل كثير الرسل أى لا لبن فيه ومع ذلك يكثر إرساله فى المرعى والسنة الحمراء الشديدة ، والمؤزلة (بصيغة الفاعل) من آزلت جاءت بالأزل وهو الجدب والضيق والشدة . والعلل : الشرب بعد الشرب والنهل : أول الشرب ومحضها : لبنها الخالص ونحضها (بالنون والحاء المهملة) لحمها ، وروى مخضها (بالميم والخاء المعجمة) وهو مخيض لبنها . ومذقها : لبنها المخلوط بالماء . والدثر : المال الكثير . والثمد : القليل ، وفجره : تصييره كثيرا .

(٢) المدالكة : المماطلة والمفرح (بصيغة المفعول) : الذى أثقله الدين .

عنى(١) » ، وكقول آخر من أهل زماننا : « كنت فى عقابيل من علتى فتلفعت بالعفشليل(٢) » . فهذا وشبهه منكر قبيح لا ينبغى أن يستعمله ذو عقل صحيح . وقد قال رسول الله ﷺ : « إياكم والتشادق » . وقال : « أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون » . وقال : « من بدا جفا »(٣) .

ومن أوصاف البلاغة أيضاً السجع فى موضعه، وعند سماحة القريحة به ، وأن يكون فى بعض الكلام لا فى جميعه . فإن السجع فى الكلام كمثل القافية فى الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه، فأما أن يلزمه الإنسان فى جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله ، وعى من قائله . وقد رويت الكراهية فيه عن رسول الله - ﷺ - فروى أن رجلا سأله فقال : « يا رسول الله ، أرأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس مثل ذلك يطل(٤) » ، قال [الراوى] فقال [الرسول] : « أسجع كسجع الجاهلية ! ؟ » ، وإنما أنكر - ﷺ - ذلك ، لأنه أتى بكلامه مسجوعا كله ، وتكلف فيه السجع تكلف الكهان(٥) .

---

(١) تتكأكئون : تجتمعون . ذى جنة : مجنون . افرنقعوا عنى : تفرقوا عنى .

(٢) عقابيل : جمع عقبول وهو بقية المرض . العفشليل : كساء غليظ من الوبر .

(٣) التشادق : لى الشدق للتفاصح . المتفيهقون : المتوسعون فى الكلام من غير تحرز واحتياط . من بدا جفا : أى من سكن البادية صار جافيا .

(٤) يسأل الرجل عن دية الجنين . واستهل : رفع صوته عند الولادة . ويطل : أى لا تدفع فيه دية .

(٥) كان للكهان فى الجاهلية شأن خطير ، فقد كانوا محور حياة الناس الاجتماعية ، يستفتونهم فى الملمات ، ويستقضونهم فى الخصومات ، ويستطبونهم فى العلل والأمراض، ويستنبئونهم فى غيب المستقبل . وكان =

وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافى مختلفة متكلفة ولا متمحلة مستكرهة ، وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه ، بل قد أتى فى الحديث : « ويقول العبد : مالى مالى ، وما له من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى » . ومما تكلم به بعض أهل هذا العصر فأتى بالسجع فيه محمودا ، ومن الاستكراه بعيدا ، قوله : « والحمد لله الذى ذخر المنة لك ، وأخرها حتى كانت منك ، فلم يسبقك أحد إلى الإحسان إلى ، ولم يحاضك أحد فى الانعام على ، ولم تتقسم الأيادى شكرى فهو لك عتيد ، ولم تخلق المنن وجهى فهو لك مصون جديد ، ولم يزل ذمامى مضاعاً حتى رعيته ، وحقى مبخوساً حتى قضيته ، ورفعت من ناظرى بعد انخفاضه ، وبسطت من أملى بعد انقباضه ، فليس أعتد يداً إلا لك ،

= أولئك الكهان ذوى فراسة ، استغلوها فى التسلط على الناس ، واستغلوا معها منطق السجع للتأثير عليهم والطارق على آذانهم . ومن أشهر الكهان : سطيح الذئبى وشق أنمار ، ومن الكواهن طريفة الخير وفاطمة الخثعمية * . ومن أسجاعهم ما ينسبونه إلى سطيح ، أرسل إليه كسرى لما ظهرت العلامات الدالة على مولد الرسول — صلى الله عليه وسلم — رسولا اسمه عبد المسيح ابن بقيلة الغسانى ، فجاءه وقد أشرف على الموت ، فلما كلمه رفع إليه رأسه ثم قال له : « عبد المسيح ، على جمل مشيح ، إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد اقتحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد . عبد المسيح ، إذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهراوة ، فليست الشام ، لسطيح بشام . يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سقوط الشرفات ، وكل ما هو آت آت » .

---

* وفى بعض الأخبار أنها عرفت علامة النبوة فى عبد الله بن عبد المطلب قبل زواجه من السيدة آمنة بنت وهب ، فأرادت فاطمة أن تحتازه وراودته عن نفسها ، فامتنع منها .

ولا منة إلا منك ، ولا أوجه رغبتى إلا إليك ، ولا أتكل فى أمرى بعد الله إلا عليك. فصانك الله عن شكر من سواه، كما صنتنى عن شكر من سواك»(١).
ومما يباين هذا مما وضع غير موضعه قول صديق لنا فى فصل من رقعة له : «ورزقنى عدلك ، وصرف عنى خذلك» (٢). وقوله أيضا : «ولقد جلت عندى بابن فلان المصيبة، وعظمت الشصيبة»(٣) وقول آخر فى صدر رقعة : «أطال الله بقاءك لى خصيصا ، ولأودائك فصوصا»(٤). ولقد شهدت مرة ابن التسترى(٥) وكان يتقعر فى منطقه ، ويطلب السجع فى كتبه ،

---

(١) ذخر المنة: اختارها أو ادخرها. المنة (بالكسر) النعمة. لم يحاضك: لم يحرضك ولم يحثك. الأيادى : أى النعم ، على سبيل المجاز المرسل علاقته السببية . عتيد : حاضر . لم تخلق المنن وجهى : أى لم تدفعنى إلى الذل ، على طريق الكناية . ذمامى : أى حرمتى . مبخوسا : منقوصا مهضوما .

(٢) الخذل : الخذلان ، وقد أتبعه له بعد أن أقر له بالعدل ، وبينهما تباين خاقى .

(٣) الشصيبة : الشدة والجدب .

(٤) خصيصا : مصدر خصه بالشيء أفرده به دون غيره ، وهو مقصور من مد ، ويأتى مقصوراً فيكتب (خصيصى) ، ومثله فى المعنى والمصدرية خصوصا وخصوصية . والأوداء : جمع ودود ، ووديد ، وكلاهما المحب والكثير الحب ولم أعثر فى كتب اللغة على (الفصوص) ، والمحققون على أنه لفظ غريب قصد به التمليح ، ولعلك تعرف أن فص الأمر أصله وحقيقته وكنهه وجوهره ومفصله وفص العين حدقتها .

(٥) ابن التسترى : هو سعيد بن إبراهيم ، نصرانى من « تستر » بتاء مضمومة فسين ساكنة فتاء مفتوحة وهى قرية بالعراق ، عمل فى الكتابة لبنى الفرات ، وكان يلتزم السجع فى مكاتباته . راجع الفهرست لابن النديم .

ويستعمل الغريب فى ألفاظه ، وقد لقى امرأة عجوزا فقال لها : « خلى عن سنن الطريق يا قحمة »(١) ؛ فظنت أنه قال لها : « يا قحبة » فتعلقت به وصاحت : « يا معشر المسلمين ، نصرانى يقول لمسلمة يا قحبة ! » ، فأخذته الأيدى والنعال حتى كاد أن يتلف ولو كان لزوم السجع فى القول والإغراب فيه وفى اللفظ هما البلاغة لكان الله ـ عز وجل ـ أولى باستعمالهما فى كلامه الذى هو أفضل الكلام ، ولكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأئمة المهديون قد استعملوهما ولزموا سبيلهما وسلكوا طريقهما ؛ فأما ـ ولسنا واجدين فيما فى أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا فى المواضع اليسيرة ـ فهم أولى بأن يقتدى بهم ويحتذى بمناهجهم ممن قد نبت فى هذا الوقت(٢) من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعاؤها ، ولا من الخطابة إلا التحلى باسمها .

ومما يزيد فى حسن الخطابة وجلالة موقعها جهارة الصوت ، فانه من أجل أوصاف الخطباء . ولذلك قال الشاعر :

جهير الكلام جهير العطاس شديد النياط جهير النغم(٣)

---

(١) سنن الطريق : وجهها . وفيه لغات أجودها بفتحتين ثم بضمتين ثم بوزان رطب . والقحمة العجوز الكبيرة السن جداً .

(٢) من الجارة فى قوله (ممن) جارة للمفضل عليه ، ومن الآتية فى قوله (من هؤلاء) بيانية للذين نبتوا ـ أى ظهروا ـ فى هذا الوقت .

(٣) قال المبرد (الكامل : ١ / ٣٢٧) : أنشدت لرجل قال يمدح الرشيد :

جهير الكلام ، جهير العطاس جهير الرواء جهير النغم
ويخطو على الأين خطو الظليم ويعلو الرجال بخلق عمم*

والذى يحمد الجهارة والفخامة ولا يحمد ضؤولة الأصوات وسرعة =

---

* الرواء : المنظر . والنياط (وزان كتاب) الفؤاد وعرق متصل بالقلب من الوتين يموت صاحبه إذا قطع . والأين : الإعياء . والظليم : ذكر النعام . وعمم : بمعنى جسيم .

وقال آخر :

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً والريح عاصفة والموج يلتطم(١)

وذم آخر بعض الخطباء برقة الصوت وضآلته فقال :

ومن عجب الأيام أن قمت خاطبا وأنت ضئيل الصوت منتفخ السَّحر(٢)

وليس يلتفت فى الخطابة إلى حلاوة النغمة إذا كان الصوت جهيرا، لأن حلاوة النغمة إنما تراد فى التلحين والإنشاد دون غيرهما . وليس ينبغى

= الكلام . أقول: وإنما حمدوا الجهارة والفخامة لدلالتهما على الحياة وكرهوا الضآلة والخفاء فى الكلام لدلالتهما على الموات .

والمادح هو العُمانى الشاعر الراجز ، واسمه محمد بن ذؤيب بن محجن ابن قدامة الحنظلى الدارمى العمانى، ونسبته الأخيرة إلى عمان وهم جماعة من الناس صفر الوجوه ، سماه بها « دكين الراجز » حين رآه مصفرا ضئيلا مطحولا . عاش العمانى فى عهد الرشيد ومدحه ، وأسهم فى حمله على البيعة بولاية العهد لمحمد الأمين بعده ، وللقاسم بعد أخيه المأمون .

استجاد ابن قتيبة وصفه للفرس، وعده الأصفهانى شاعراً راجزا متوسطا. وتكسب بالشعر كثيرا حتى أثرى وأفاد أموالا طائلة، ولكنه نال شهرته بالرجز الذى طاول به رؤبة والعجاج .

(أشعاره وأخباره فى الشعر والشعراء ، وطبقات الشعراء ، والأغانى ، والموشح) .

(١) البيت لرجل من الخوارج يصف أحد زعمائهم .

(٢) البيت لبشار بن برد (سبق التعريف به ص ١٥٨) والسحر (بالفتح): الرئة ، وانتفاخها، كناية عن مجاوزة الرئة قدرها . وإذا انتفخت الرئة ملأت الصدر فزحمت الحنجرة فضؤلت قدرتها على تفخيم الكلام .

للخطيب أن يحصر عند رمى الناس بأبصارهم إليه، ولا [أن يعيا](١) بالكلام عند إقبالهم عليه . فقد روى أن عثمان - رضى الله عنه - لما بويع له، صعد المنبر فحصر وأرتج عليه، فقال: «أيها الناس إنكم الى إمام عادل أحوج منكم الى إمام قائل . وإن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وستأتيكم الخطبة على وجهها إن شاء الله»(٢) . وأرتج على آخر وقد رقى المنبر فنزل وأنشأ يقول :

فإلا أكن فيكم خطيبا فإننى   بسيفى إذا جد الوغى لخطيب(٣)

فكان يقال : لو قاله وهو على المنبر كان من أخطب الناس .

---

(١) فى نقد النثر والبرهان «ولا يعيا» ولم نسترح إليها ولعل الفعل «يعيا» بدليل شاهده الآتى ، وزدنا «أن» ليتسق العطف فلا يتوقف القارئ . والعى والحصر كلاهما بمعنى العجز وعدم القدرة على الكلام .

(٢) أرتج على عثمان - رضى الله عنه - بمعنى امتنع عليه الانطلاق فى الكلام، وإلا فقد نطق عثمان بهذا القدر الذى يعتبر فى ذاته تخلصا طيبا من مأزق الحصر، وكان ينتظر منه أن يطيل القول ويشرح سياسته فى أول لقاء بينه وبين الرعية. وفى العقد الفريد (٤/٢٣١) أن أول خطبة خطبها عثمان وأرتج عليه فيها قال فيها : «أيها الناس، إن أول كل مركب صعب، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسرا إن شاء الله» .

(٣) القائل هو ثابت بن كعب المعروف بثابت قطنة وفى العقد الفريد (٤/٢٣١) أنه صعد منبر سجستان فلم يزد على أن يقول «الحمد لله» ثم أرتج عليه فنزل وهو يقول البيت. وثابت شاعر فارس عاش فى العصر الأموى، وصحب يزيد بن المهلب، وعمل له فى الثغور . مال إلى قول المرجئة ونظم فى مذهبهم. (أخباره وأشعاره فى: الشعر والشعراء، والأغانى، وخزانة الأدب).

وقد استعاذ الشاعر من الحصر والعي فقال :

أعذني ـ رب ـ من حصر وعي ومن نفس أعالجها علاجا(١)

وينبغي له أن يتقي خيانة البديهة في أوقات الارتجال ، ولا يغره انقياد القول له في بعض الأحوال ، فيركب ذلك في سائر الأوقات وعلى جميع الحالات ، فإن وثق بانقياد القول له ومسامحته إياه(٢) ، فأتى بالبديهة بما يأتي به غيره بعد الروية ، فذلك الخطيب الذي لا يعادله خطيب، والأديب الذي لا يوازيه أديب ؛ وبذلك وصف الشاعر بعضهم فقال :

قهر الأمور بديهةً كروية من غيره وقريحة كتجارب(٣)

و [ينبغي له] أن يقل التنحنح ، والسعال ، والعبث باللحية ؛ فإن ذلك

---

(١) البيت للنمر بن تولب . وهو شاعر مخضرم أدرك الإسلام ووفد على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومدحه. جاء في خزانة الأدب للبغدادي (الشاهد ٤٦) : النمر شاعر جواد واسع العطاء كثير القرى وهاب لماله ، وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه «الكيس» لجودة شعره وكثرة أمثاله ، وقيل: عاش مائتي سنة فأصابته لوثة في أخريات عمره . ويذكر له ابن قتيبة (الشعر والشعراء : ١ / ٣٠٩) أبياتا جيدة منها قوله في إعراض المرأة :

فصدت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضنت بحاجب

(٢) المسامحة : المساهلة والمواتاة .

(٣) البديهة في الرأي: أوله يأتي فجأة .وبديهة كل شيء أوله وما يفجأ منه . والروية : الفكر والتدبر مأخوذة من قولهم : روأت في الأمر إذا نظرت فيه . والقريحة : من الإنسان طبعه ومن أي شيء أوله، ومنها اقتراح الكلام ارتجالا . والتجارب: جمع تجربة وتطلق على معرفة الأمور واختبارها مرة بعد أخرى

عندهم من دلائل العى . وفيه يقول الشاعر :

ومن الكبائر مقول متتعتع جم التنحنح متعب مبهور(١)

ومما يدل أيضا عندهم على الحصر وتصعب القول وشدته على القائم به : العرق ؛ قال الشاعر ؛

لله در عامر إذا نطق فى حفل أملاك وفى تلك الحلق
ليس كقوم يعرفون بالسرق من كل نضاح الذفارى بالعرق(٢)

---

(١) المقول . اللسان ، والمقول (بالكسر أيضا) : الشخص المنطيق واللسن . والمتتعتع : المتردد فى كلامه ، من التع وهو الاسترخاء والفأفأة . جم التنحنح : كثيره ، والتنحنح تردد الصوت فى الجوف وصوت أسهل من السعال كالنحنحة ، ومبهور : أى منقطع النفس إعياء ، والمبهور المغلوب أيضا .

وقائل البيت بشر بن المعتمر ، أحد أقطاب المعتزلة ، وصاحب الصحيفة المشهورة التى ألقاها إلى فتيان إبراهيم بن جبلة وهو يعلمهم الخطابة (وتجدها فى العقد الفريد : ١ / ١٣٩) .

(٢) هذا الرجز منسوب إلى أبى مسمار العكلى ولله دره : عبارة تعجبية منشؤها الإعجاب ، والإملاك (بالكسر) : الزواج والحلق : جمع حلقة ويراد بها مكان التجمع والسرق : السرقة أو الضعف ، وكلاهما منظور ، ونضاح : مبالغة فى النضح وهو الرشح ، والذفارى : جمع ذفرى وهو العظم الشاخص خلف الأذن . ومن بيانية فى قوله : (من كل نضاح . .) . والمصنف اجتزأ فى الرجز وتكملته (عن البيان والتبيين : ١/١٣٣) .

ليس كقوم يعرفون بالسرق من خطب الناس ومما فى الورق
يلفقون القول تلفيق الخرق من كل نضاح الذفارى بالعرق
إذا رمته الخطباء بالحدق

ويروى أن يزيد بن عمر بن هبيرة تكلم بحضرة هشام فأحسن ؛ فقال هشام : « ما مات من خلف هذا » ؛ فقال الأبرش الكلبي : « ليس هناك ، أما ترى جبينه يرشح لضيق صدره ! » ؛ فقال له يزيد : « ما لذلك رشح ! ولكن لقعودك فى هذا الموضع(١) » . وكانوا يتعاطون سعة الأشداق وتبيين مخارج الحروف ، ويمتدحون بذلك وبطول اللسان ويعدونهما من آلات الخطابة ؛ قال الشاعر :

تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب ـ لا أبالك ـ أشدق(٢)

---

(١) يزيد بن عمر بن هبيرة : من أكابر الدولة الأموية ، تولى العراق فى أخريات الدولة وأخلص لها وقتله العباسيون حين قامت دولتهم سنة ١٣٢ هـ وهشام هو هشام بن عبد الملك تولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ ومكث فيها عشرين عاما . والأبرش الكلبي هو حاجب هشام ومستشاره . ومعنى قوله : « ليس هناك » أنه لا يستحق أن يمدح .

(٢) تشادق : بمعنى تفاصح . والشدق (بالكسر) : جانب الفم من باطن الخدين ، وللفم شدقان واشدق : فى الأصل واسع الشدق ويطلق على المفوه البليغ وكل خطيب أشدق أى مفوه بليغ ، وفى أساس البلاغة : ومنه قيل لعمرو بن سعيد : الأشدق . وهو عمرو بن سعيد بن العاص أحد الخطباء الإسلاميين المعدودين ، وأحد كتاب الدواوين والولاة فى عهد الأمويين ، تولى أمر مكة نائبا عن أبيه سعيد بن العاص الذى كان واليا على المدينة ، وعمل فترة كاتبا على ديوان المدينة ، وكان صاحب بيت المال فى دمشق حين هاجت فتنة آل الزبير على الأمويين ، وانتهزها عمرو فرصة فأغلق دمشق عليه وامتنع من عبد الملك بن مروان الذى صالحه على أن تكون له الخلافة من بعده ، ولما أمكن عبد الملك منه صوب إليه حربة قائلة وهو يقول له : لو علمت أنك تبقى ويصلح لى ملكى لفديتك بدم الناظر ، ولكن قلما اجتمع فحلان فى ذود إلا عدا أحدهما على الآخر .

ومن خطبه القصار كلمته عندما عقد معاوية البيعة لابنه يزيد ، قال :

وروى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال لحسان : «ما بقى من لسانك» ؟ فأخرجه حتى ضرب بطرفه أرنبته ، ثم قال: «والله مايسرنى به مقول من معـــد . والله لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه (١) » .

وينبغى للخطيب ألا يستعمل فى الأمر الكبير الكلامَ الفطير الذى لم يخمره التدبر والتفكير(٢) ؛ فيكون كما قال الشاعر :

وذى خطل فى القول يحسب أنه مصيب ، وما يعرضْ له فهو قائله(٣)

= عمرو : « . أما بعد ، فان يزيد بن معاوية أمل تأملونه ، وأجـــل تأمنونه ، إن استضفتم إلى حلمه وسعكم ، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم . جذع قارح ، سوبق فسبق ، وموجد فجد ، وقورع فقرع . فهو خلف أمير المؤمنين ، ولا خلف منه » . (راجع أخباره وخطبه فى العقد الفريد : ج ٤ و ج ٥) .

(١) طرفه : أى طرف لسانه . والأرنبة : طرف الأنف . والمقول (هنا) : اللسان .

(٢) الكلام الفطير : الكلام الذى أعجل عن التروى والتفكر فيه ؛ تشبيها له بالعجين الفطير وهو ما خبز من ساعته قبل أن يختمر ، وبالطين الفطير وهو ماطين به من ساعته . وتخمير الكلام بما أوضحه من التدبر والتفكير .

(٣) البيت لزهير بن أبى سلمى (وعرفنا به ص ١٢) من قصيدته التى مبدؤها :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

بدأها بوصف النبات والمطر والفرس والصيد والمخاتلة ، وانتقل من هذا إلى مدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى بعدة صفات ، ترتد كلها =

بل يكون كما قال الآخر :

وَقوف لدى الأمر الذى لم يبن له ويمضى إذا ماشك من كان ماضيا(١)

وأن يكون لسانه سالما من العيوب التى تشين الألفاظ ، فلا يكون ألثغ ، ولا فأفاء ، ولا ذا رتة ، ولا تمتاما ، ولا ذا حُبسة ، ولا ذا لَفَف ٢) ؛

= إلى المناقب العربية ، ومنها هذه الأبيات التى أوردها الشاعر على طريقة الالتفات :

وذى نسب ناء بعيد وصلتَه	بمال وما يدرى بأنك واصله
وذى نعمة تممتها وشكرتها	وخصم يكاد يغلب الحق باطله
دفعتَ بمعروف من القول صائب	إذا ما أضل الناطقين مفاصله
وذى خطل فى القول يحسب أنه	مصيب فما يلمم به فهو قائله
عبأتَ له حلما وأكرمت غيره	وأعرضت عنه وهو باد مقاتله

(١) البيت من مدحة للشاعر سلمة بن عياش من مخضرمى الدولتين ، يمدح فيها سوار بن عبد الله العنبرى (الأغانى — الجزء الأخير) .

(٢) الألثغ : الذى يعدل بحرف إلى حرف آخر ، كمن ينطق السين ثاء والراء غينا أو لاما أو ياء . والفأفاء : الذى يتردد فى حرف الفاء . وذو الرتة : قيل هو ذو الثغة ، وقيل هو من يعجل بكلامه ، وقيل هو من يدغم فى غير موضع الإدغام ، وقيل هو من يسبقه نفسه فتتردد كلمته فى هـذا النفس ، وعن المبرد : الرتة كالريح تمنع الكلام فاذا جاء شىء منه اتصل . والتمتام : الذى يتردد فى حرف التاء : وذو الحبسة : الذى يتعذر عليه الكلام عند ارادته . وذو اللفف : قيل هو الذى يدخل حرفا فى حرف ، وقيل هو الذى يبطؤ بكلامه .

والمصنف لم يستقص عيوب المنطق ومنها : العقلة .وصاحبها يلتوى =

فإن ذلك أجمع مما يذهب ببهاء الكلام ، ويهجن البلاغة ، وينقص حلاوة النطق . وقد ذكر أن واصل بن عطاء كان قبيح اللثغة على الراء ، وكان إلى المناقلات وارتجال الخطب لأهل نحلته ومستحسنى دعوته محتاجا ، فراض لسانه حتى أخرج الراء من منطقه ؛ وخطب خطبة طويلة تدخل فى عدة أوراق لم يلفظ فيها بالراء ؛ فكان مما يعد من فضائله وعجيب ما اجتمع فيه(١) . ويروى أن زيد بن على — رحمه الله — خطب بعد خطبة خطبها الجمحى فأحسنها وأجادها ، إلا أن الجمحى كان بأسنانه فلج شديد ، فكان يصفر فى كلامه ؛ فلما تساوى كلامهما فى الوزن وحسن النظم وإصابة المعنى وسلم زيد بن على — رحمه الله — من الصفير الذى كان فى كلام الجمحى ، فضل عليه ؛ فقال عبدالله بن معاوية بن جعفر يصف خطبة زيد :

قلت قوادحها وتم عديدها فله بذاك مزية لا تنكر(٢)

فهذه جمل ما يحتاج إليه فى الخطابة إذا كانت مسموعة .

= لسانه عند إرادة الكلام . والطمطمة وهى تقليد اللغات الأعجمية فى أثناء التكلم بالعربية . واللكنة وهى اعتراض الكلام العربى بكلمات أعجمية . والغمغمة (وتكون فى الكلام وغيره) وهى أصوات لا تتبين منها تقاطيع الأحرف . والترخيم وهو حذف بعض الكلمة . والغنة وهى إشراب الحرف صوتا من الخيشوم ، وبعض العرب يستحسنها من الجارية الحديثة السن . والخنة كالغنة أو هى أقبح منها .

(١) واصل بن عطاء هو مؤسس مذهب الاعتزال ، ويعد من أبلغ المتكلمين فى علم « الكلام » ، توفى سنة ١٨١ هـ عن مائة عام . والمناقلات هى المحادثات ؛ يقال : ناقلت فلانا الحديث إذا حدثته وحدثنى .

(٢) زيد : هو زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وإليه تنتسب الشيعة الزيدية ، قتله الأمويون سنة ١٢١ هـ بعد أن خرج عليهم بالكوفة . والجمحى واحد من خطباء العصر على ما نستنتجه . والفلج بأسنانه : تباعد ما بينها . وعبدالله بن معاوية بن جعفر : سبق ذكره فى ص (١٤٤) . =

فأما الرسائل فهى مستغنية عن جهارة الصوت وسلامة اللسان من العيوب ؛ لأنها بالخط . فتحتاج إلى أن تشاهَد . ويساعد حسنَها حسنُ الخط ، فإن ذلك يزيد فى بهائها ويقربها من قلب قارئها .

والأصل فى الخط أن تكون حروفه بينة قائمة ، ومن الإشكال بعيدة سالمة ؛ ثم إن كان مع صحته وبيانه حلواً حسناً كان ذلك أزيد فى وصفه . وألا يستعمل به التحنيف الذى يعميه إلا مع من جرت عادته بقراءة مثل ذلك واستعماله ؛ كنحو ما جرت عادة الكتاب فى تعليق الميم ، وإقامة الكاف وتصيير شكلة عليها تفرق بينها وبين اللام، ومد السين وتصيير شكلة عليها، أو تنقيط ثلاث نقط من تحتها ، فان استعمال ذلك مع من جرت عادته باستعماله كاستعمال الغريب مع من يفهمه ؛ واستعمال إقامة الحروف على حقائقها وأصول أشكالها كاستعمال المعهود من الكلام المصطلح عليه مع سائر الناس. وألا يمد الحروف التى لم تجر العادة بمدها، فان أبا أيوب -رحمه الله- كان يقول : «المدة فى الخط فى غير موضعها لحن فى الخط .وأن يتفقد قلمه بقطه وتسويته؛ فان أبا أيوب -رحمه الله- كان يقول: «القلم الردىء كالولد العاق» . ومما يزيد الخط حسناً ، ويمكن له فى القلوب موضعاً، شدة سواد المداد وجودة إلاقة الدواة ؛ فانه يجرى من الخط مجرى القطن من الثوب ؛ فمتى كان القطن ردىء الجوهر ، لم ينفع النساج حذقه ؛ ووضع من الثوب سوء جوهره ، وإن أحكم الصانع صنعته(١) .

= وقوادحها : عيوبها جمع قادحة مستعار من القادحة وهى الدودة تقع فى العود وأكال يقع فى الشجر والأسنان . والعديد : العدد ، وتمامه كناية عن بلوغه الغاية . والمزية : الفضيلة — وزنا ومعنى .

(١) فى العقد الفريد لابن عبد ربه (كتاب المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة) ج ٤ ، وفى أدب الكتاب للصولى =

اختيار الرسول :

والذى يحتاج إليه المرسِل فى الرسول - حتى يكون عند ذوى العقول لبيبا ، ومن الصواب قريبا - أن يختاره حتى يكون أفضل من بحضرته فى عقله وأدبه ، وضبطه ، وعارضته ، ودينه ، ومروءته(١) . فقد كان يقال: «ثلاثة تدل على أهلها : الهدية على المهدى ، والرسول على المرسل ، والكتاب على الكاتب » . وكان يقال : « رسول المرء مكان رأيه ، وكتابه مكان عقله » . ولذلك جعل الله - عز وجل - رسله أفضل خلقه ، وأخبر أنهم اصطفاهم على العالمين وقال : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾(٢)

وإنما وجب أن يختار العاقل رسوله لأنه قد أقامه فيما يؤديه عنه مقامه، فعليه

= وصبح الأعشى ج٢ - تفصيل ما أجمله المصنف عن خط الكتابة وزيادة عليه . والتحنيف : من الحنف وأصله الميل والعوج . وأبو أيوب هو سليمان بن وهب (ذكرناه فى ص١٨٥) وقط القلم : قطعه عرضا والمداد : الحبر وإلاقة الدواة : أن يجعل للدواة ليقة (بالكسر) ، وكان ذلك بأن يدير المداد فيها قبل الكتابة به حتى يتماسك ويعلق بالقلم .

(١) العقل : اللب والحجى وهو مناط التدبر والتفكر والفهم والأدب يطلق بعدة معان ، منها رياضة النفس ، ومنها الظرف وحسن التناول ، ومنها تحلية الطبائع بفضائل الأخلاق ، ومنها الأخذ من كل فن بطرف ، ومنها الفن القولى . والضبط : الحفظ البالغ والقيام بالأمر قياما ليس فيه نقص . والعارضة : الصراحة والجلد والقدرة على الكلام . والدين (بالكسر) : العقيدة . والمروءة : جملة آداب نفسانية تحمل الإنسان على محاسن الأخلاق وجميل العادات .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤ . وجاءت للرد على كبار المشركين =

أن يجعله أفضل من بحضرته، وعلى الرسول أن يؤدى ما حمل، كما قال الله -عز وجل- : ﴿فإنما عليه ما حمل﴾(١)، وكما قال : ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾(١)، وإنما وجب عليه البلاغ لأن الرسالة أمانة، فعليه أن يؤديها، لأن الله - عز وجل - يقول ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات

= الذين نفسوا على الرسول أن يوحى إليه من دونهم وقالوا : « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » ويتضمن الرد الإنكار عليهم وتقرير أن الله — سبحانه وتعالى — يصطفى للرسالة من علم أنه يصلح لها ولا يصطفى لها إلا من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه منهم .

(١) سورة النور — الآية ٥٤ : قال تعالى: «قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم، وإن تطيعوه تهتدوا. وما على الرسول إلا البلاغ المبين» . طلب من رسوله أن يأمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول، ثم صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب ليواجههم بالتبكيت فقال : فان تتولوا وتعرضوا عن الإجابة والطاعة فما ضررتم الرسول وإنما ضررتم أنفسكم، فان الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله وكلفه من أداء الرسالة فاذا أداها فقد خرج من عهدة تكليفه، وأما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقى بالقبول والإذعان، فان لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه، وإن أطعتم فقد أحرزتم نصيبكم من الخروج من الضلالة إلى الهدى، فالنفع والضرر عائدان إليكم، وما الرسول إلا ناصح وهاد، وما عليه إلا أن يبلغ ماله نفع فى قلوبكم، ولا ضرر عليه من توليكم — عن الكشاف.

وقد رأيت هذه الآية قد ختمت بقوله تعالى: «وما على الرسول إلا البلاغ المبين» . وهناك آية أخرى « فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » -النحل ٣٥- نقلت خطأ فى نقد النثر طبعة ١٩٣٣ وصححت فى طبعة ١٩٣٩ ولم يتداركها فى البرهان . وقد آثرنا ختام آية النحل لأن الحديث يطرد بها عن الرسول .

إلى أهلها ﴾(١) وليس للرسول أن يزيد فى الرسالة ولا أن ينتقص منها ؛ لأن ذلك خيانة للأمانة ، إلا أن يكون المرسل قد فوض إليه أن يتكلم عنه بما رأى . وقد قال الشاعر :

فان كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصه(٢)

وإنما أمر بذلك لأن الحكيم إذا وصيته لم يتجاوز وصيتك وإن كان الرأى عنده خلافها ، فربما ضرك بترك الأصوب عنده واتباع أمرك ، ولا لوم عليه فى ذلك ، وإذا فوضت إليه عمل بحكمته ورأيه . وقد روى فى هذا المعنى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجه عليا ـ عليه السلام ـ فى بعض أموره ، فقال له : « أكون ـ يا رسول الله ـ فى الأمر إذا وجهتنى كالسكة المحماة إذا وضعت للميسم ، أو يرى الشاهد ما لا يرى الغائب »(٣) ففوض إليه لما رأى منه خيرا ووثق برأيه ، وقال لغيره من سائر الناس :

---

(١) سورة النساء — الآية ٥٨ . وأميل إلى أن الخطاب فيها عام لكل مخاطب فى كل أمانة ، وليس خاصا فى رد مفتاح الكعبة إلى سادنها عثمان بن طلحة بن عبد الدار بعد فتح مكة ، وكان المفتاح قد أخذه منه على بن أبى طالب عنوة .

(٢) البيت مشهور ، وبعده بيت آخر وهو :

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه

وينسب البيتان لحسان بن ثابت ، وليسا فى ديوانه .

(٣) السكة المحماة : هى الحديدة المتقدة ، وتستخدم للميسم أى علامة للسك والنقش و « أو » فى قوله : « أو يرى .. » بمعنى إلا ، و « يرى » منصوب بعدها . ومعنى الحديث : أكون — يا رسول الله — على النحو الذى أرسلتنى عليه لا أجاوزه ، إلا أن أرى شيئا يستوجب الرأى والنظر .

« نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها » (١) ، ولم يفوض إليهم لقلة ثقته بهم(٢) ، فعلى العاقل أن يستشعر هذا المعنى في رسله ؛ فاذا أرسل من يثق بأمانته وعقله ، فوض اليه أن يقول عنه ما يراه أولى بالصواب عنده ؛ واذا لم يكن بهذه المنزلة الا أنه أفضل من يقدر عليه للوقت وصاه ألا يتجاوز قوله .

وعليه أن يتخير من الرسل من لا تكون فيه العيوب التي نذكرها أو بعضها وهي : الحدة ؛ فان صاحبها ربما فقد عقله، وليس من الحزم أن يقيم الإنسان مقامه من يفقد عقله . والحسد ؛ فان صاحبه عدو نعم الله - عز وجل - ولا يحب أن يرى لك ولا لغيرك حالا مستقيمة ؛ ومتى رأى شيئا من ذلك حمله حسده على أن يفسده . والغفلة ؛ فان صاحبها لا يضبط ما يحمله عنك ولا ما يعود به إليك . والعجلة ؛ فان صاحبها لا يضع الأشياء على مواضعها ويسبق بها أوقات فرصتها . وقد قيل: « رب عجلة تهب ريثا(٣) »، وقال الشاعر :

---

(١) هذه رواية في الحديث من عدة روايات ، كلها صريح وواضح في الدعوة إلى رواية حديث الرسول - ﷺ ووعيه وحفظه والحرص على نقله وأخذه من فم الرسول وممن أخذه عنه من الصحابة - رضوان الله عليهم - راجع فصل (رواية الحديث) في كتابنا (التعريف بالحديث الشريف) ص ٢٥ .

(٢) قسا المصنف في حجب الثقة عن الناس، ولعله كان من الخير أن يقول (ولم يفوض الرسول إليهم ؛ لأنه حريص على أن يعوا مقالته ويؤدوها كما وعوها ، ولأنه يريد أن يجنبهم الخطأ إن أحسنوا الظن بأنفسهم فنقلوا مقالته دون ما تثبت من لفظها وفحواها) .

(٣) من أمثالهم ، والعجلة الإسراع ، والريث الإبطاء وقائل المثل مالك ابن عوف بن محلم الشيباني .

قد يدرك المتأنى بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل(١)

والنميمة ؛ فإنها تفسد الإخاء ، وتكدر الصفاء ، ولا يتم معها أمر . ولا تنجح لمستعملها طلبة ؛ لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « استعينوا على نجح حوائجكم بالكتمان » ؛ فمن خالف ذلك كان بعدم التوفيق جديراً ، وبالحرمان حقيقاً والكذب ؛ فإنه مجانب للايمان ، وليس لمكذوب رأى ، وإذا اعتمد الإنسان فى أمره على من يكذبه ، كان فى ذلك شينه وعطبه . والضجر ؛ فليس للضجور صبر على حفظ الأسرار فى رسالة ولا تأدية أمانة . والعُجب ؛ فإن صاحبه منه فى غرور ، وربما حمله على أن يخالفك فيما يضر بك فيه . والهذر ؛ فإن من كثر كلامه كثر سقطه . ومن أسقط لم يحفظ سر صاحبه وأبداه ، وإن لم يكن ذلك مغزاه(٢).

---

(١) البيت من جملة أبيات منسوبة إلى القطامى (وعرفنا به ص ١٣٨) تقرؤها فى صدر ديوانه من قصيدة يمدح بها عبد الواحد بن الحارث بن الحكم ابن أبى العاص بن أمية ، ومنها :

والعيش لا عيش إلا ما تقر به   عينا ، ولا حال إلا سوف تنتقل
والناس من يلق خيرا قائلون له   ما يشتهى ، ولأم المخطئ الهبل
قد يدرك المتأنى بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل
وربما فات قوما جل أمرهم   من التأنى ، وكان الرأى لو عجلوا

وتلحظ أنه مدح التأنى فى البيت الثالث وصوب العجلة بعد ذلك ، والمعنى أن بعض الحاجات يناسبه التمهل وبعضها يناسبه التعجل ويسمى هذا اللون من الكلام (العكس والتبديل) وهو الإتيان بنقيض المعنى المشهور ، فالمشهور مدح التأنى وبناقضه مدح العجلة — عن السيوطى فى شرح عقود الجمان .

(٢) سقط الكلام : خطؤه ، وسقط وأسقط : أخطأ .

فاذا سلم الرسول من هذه العيوب ، وكان مع ذلك أديباً أومقارباً لوصف الأديب ، بلغ للمرسل باذن الله مراده ، وأمن ضره وفساده(١). فهذه عمدة ما يحتاج إليه فى اختيار الرسول . وإن اتفق للمرسل مع ذلك أن يكون الرسول مقبول الصورة ، حسن الاسم ؛ كان ذلك زائداً فى توفيق الله ـ عز وجل . وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأل الوافد عن اسمه ، فان كان حسناً تفاءل به وأعجبه ، وإذا كان مكروهاً غيره(٢).

وعلى الذى تؤدى إليه الرسالة أن يسمعها ، ولا يلوم الرسول إن أغلظ له فيها ، فليس على رسول لوم . فان أحب أن يقابله بمثل رسالته فعل ؛ فقد أباحه الله ذلك بقوله : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم(٣) ﴾ ؛ فان أمسك وعفا فالعفو أقرب للتقوى ، وأولى بالرأى عند ذوى الحجى .

---

(١) أى : أمن مرسله الذى أرسله ضره وفساده .

(٢) التفاؤل بالاسم ، وكذلك الاعجاب به ، وتغييره . وكان الرسول الكريم حريصا على إرساء المعانى الإسلامية حتى فى التسمية والتكنية ، ومن هذا أنه سمى الصحابى الجليل أبا هريرة : عبد الرحمن ، وكناه بهذه الكنية ، وكان اسمه قبل إسلامه عبد شمس وكنيته أبا الأسود .

(٣) سورة البقرة — الآية ١٩٤ . وهى فى أدب من آداب القتال ، وكان المسلمون خرجوا فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة عام الحديبية للعمرة فقاتلهم المشركون ، فلما كان العام القابل خرج المسلمون فى ذى القعدة أيضا وهو من الأشهر الحرم لعمرة القضاء وكانوا يخافون أن يصدهم المشركون عن البيت ويعتدوا عليهم ، فجاءت الآية تأذن للمسلمين إذا اعتدى عليهم أن يردوا العدوان بمثله . وسمى رد العدوان اعتداء من باب المشاكلة .

الجدل والمجادلة :

وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين . ويستعمل فى المذاهب ، والديانات ، وفى الحقوق ، والخصومات ، والتنصل فى الاعتذارات(١) ، ويدخل فى الشعر وفى النثر .

وهو ينقسم قسمين : أحدهما محمود ، والآخر مذموم . فأما المحمود فهو الذى يقصد به الحق ويستعمل به الصدق . وأما المذموم فما أريد به المماراة والغلبة ، وطلب به الرياء والسمعة(٢) . وقد جاء فى القرآن مدح ما ذكرنا أنه محمود ، وذم ما ذكرنا أنه مذموم ، وتواتر فيه قول الحكماء وألفاظ الشعراء ؛ فقال الله - عز وجل : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن(٣) ﴾ وقال : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها(٤) ﴾ . وقال فى إبراهيم :

---

(١) التنصل فى الاعتذارات : أى التبرؤ من الذنب أو الجناية عند الاعتذار . وفى البرهان : (التسؤل والاعتذارات) والتسؤل هو الاستجداء والإلحاف فى السؤال .

(٢) الرياء : المراءاة وإظهار غير الواقع ، والسمعة : بمعنى الشهرة .

(٣) سورة العنكبوت - الآية ٤٦ . طلب إلى المسلمين أن يجادلوهم بالخصلة التى هى أحسن ، وهى اللين فى مقابلة خشونتهم ، والكظم فى مقابلة غضبهم ، والأناة فى مقابلة السورة . وقد ضرب الله - سبحانه - المثل بعد هذا فى الآية يعلمهم طريق الجدال بالتى هى أحسن ، وهذا قوله تعالى : « وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » .

(٤) سورة النحل - الآية ١١١ - والمعنى : يوم يأتى كل إنسان يجادل —

﴿ وحاجه قومه . قال: أتحاجونى فى الله وقد هدان﴾(١) . وقال : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾(١). وبذلك تعبـــد أنبياءه وصالحى عباده(٢) ، فقال ـ عز وجل : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(٣).

= عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول : نفسى نفسى ، ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها والنفس الأولى الجلة والنفس الثانية المضافة إلى ضمير النفس الأولى هى عينها وذاتها — عن الكشاف .

(١) سورة الأنعام — الآية ٨٠ والآية ٨٣ . وجاءتا فى ختام المجادلة التى وقعت بين إبراهيم — عليه السلام — وقومه،حين شرح الله صدره لطريق الاستدلال والنظر ، فنبه قومه إلى أن ما يعبدون من كواكب وقمر وشمس تطلع وتأفل وتنتقل وتسير مسيرة لا مشيئة لها فى أى من حركتها وسائر أحوالها ، فلا تصلح أن تكون معبودة وكان قومه حاجوه فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه منكرين له ، وأنكر إبراهيم أن يحاجوه هكذا وقد هداه الله إلى التوحيد واستقامت عقيدته . وقال تعالى : « وتلك حجتنا . » الآية ، أى جميع ما احتج به إبراهيم على قومه آتيناها وأرشدناه إليها ووفقناه لها. ويكفيه أنه عرفهم أن النظر الصحيح إلى آلهتهم يؤدى إلى قيام الدليل على حدوثها وأن وراءها محدثا أحدثها وصانعا صنعها وخالقا خلقها ، فهى محدثة مصنوعة مخلوقة ، ولا كذلك يكون الإله .

(٢) تعبدهم : أى اتخذهم عبيداً . والعبودية لله شرف للعبد ، والعبد هو الإنسان حراً كان أو رقيقا ، ومصدره العبودية والعبادة وكلتاهما تعنى الطاعة والإقرار بالسيادة .

(٣) سورة النحل — الآية ١٢٥ . وفيها تبصير بطريق الدعوة إلى سبيل الله أى الإسلام ، وهى طريق الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالخصلة التى هى أحسن ،والحكمة هى المقالة الصحيحة المحكمة التى تعتمد على الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، والموعظة الحسنة هى الموعظة التى يظهر للمدعوين فيها =

وقد أجمعت العلماء وذوو العقول من القـــدماء على تعظيم من أفصح عن حجته وبين عن حقـــه ، واستنقاص من عجز عن إيضاح حقه وقصر عن القيام بحجته . ووصف الله -- عز وجل -- قريشاً بالبلاغة فى الحجة واللدد فى الخصومة ، فقال : ﴿ لتنذر به قوماً لداً ﴾(١) . وقال : ﴿ فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير ﴾(٢).

= قصد النفع لهم والخير بهم ، والجدال بالتى هى أحسن — كما أوضحنا منذ قريب — الرفق واللين والأناة والصبر فى مواجهة العنف والخشونة والسورة والغضب .

(١) سورة مريم — الآية ٩٧ . وهى بتمامها قوله تعالى : « فإنما يسرناه بلسانك ، لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوما لدا » . والمعنى .. فانما أنزلنا القرآن بلغتك أى باللسان العربى المبين وسهلناه وفصلناه لتبشر به ولتنذر به، تبشر به المتقين المؤمنين،وتنذر به قوما لداً ، وهم أهل مكة، واللد جمع الألد وهو الخصم الشحيح الذى يكثر الأخذ بالباطل واللجاج .

(٢) سورة الأحزاب . قال تعالى : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا * أشحة عليكم ، فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ،فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، أشحة على الخير . أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيراً » — الآيتان ١٨ و ١٩ كان المنافقون فى المدينة يثبطون الأنصار عن رسول الله ويطلبون إليهم أن يقربوا إليهم ويبتعدوا عنه . وكان المنافقون يوهمون المسلمين أنهم معهم فاذا خرجوا للقتال كان خروج المنافقين له قليلا — أو صوريا — وكانوا وقت الخوف ينظرون إلى الرسول كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت لياذا وخوراً ، فاذا ذهب الخوف وجاء وقت توزيع الغنائم اجترءوا عليكم وآذوكم بألسنتهم وطالبوكم بأنصبتهم وزعموا أنكم لم تنصروا إلا بهم .

وقال : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام ﴾(١) . وقال : ﴿ وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة — الآية ٢٠٤ . وهى فى المنافقين ، أو فى واحد منهم بعينه وهو الأخنس بن شريق ، كان رجلا حلو المنطق ، كلما لقى الرسول ألان له القول وادعى محبته وأكد أنه مسلم وكان يحلف على ذلك ويشهد الله على أن صادق فيه ، مع أنه فى الحقيقة كان شديد العـــداوة للمسلمين . وكان إذا تولى عنهم عاد إلى طبيعته فسعى فى الأرض بالفساد وبما يتسبب فى إهلاك الحرث والنسل ، وقيل : كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلا وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم .

وقوله : « فى الحياة الدنيا » يتعلق بـ « قوله » ، والتقدير : يعجبك ما يقوله فى معنى الدنيا لا فى الآخرة ، لأنه كان يدعى المحبة بالباطل يطلب بهذا حظا من حظوظ الدنيا لا يريد به الآخرة كما تراد بالإيمان الحقيقى والمحبة الصادقة للرسول .

قال الزمخشرى : ويجوز أن يتعلق بالفعل « يعجبك » والتقدير : قوله حلو فصيح فى الدنيا فهو يعجبك ولا يعجبك فى الآخرة لما يرهقه فى الموقف من الحبسة واللكنة أو لأنه لا يؤذن له فى الكلام فلا يتكلم حتى يعجبك كلامه . والخصام جمع خصم فألد الخصام — من باب التفضيل — أشد الخصوم خصومة . أو الخصام مصدر بمعنى المخاصمة فألد الخصام بمعنى الألد فى المخاصمة . أو خصامه ألد على سبيل المبالغة .

(٢) سورة المنافقين — الآية ٤ . قال تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة » . كان جماعة من المنافقين فيهم جسامة وصباحة وفصاحة وذلاقة لسان ، وكانوا يحضرون =

وذم من لا يقيم حجته ، ولا يبين عن حقه فى خصومته ، وشبههم بالولدان والنسوان ، فقال : ﴿ او من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ﴾(١). وقال الشاعر :

وإن امرأ يعيا بتبيين حقه ... إذا اعتركت عند الخصام القرائح

لآبائه إن كان فى بيت قومه ... وللحسب المأثور عنهم لفاضح(٢)

= مجلس الرسول - ﷺ - فيستندون فيه والرسول ومن حضره يعجبون بهيا كلهم ويسمعون إلى كلامهم. وقد شبههم الله «بالخشب المسندة أى الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان فى حسن صورهم وقلة جدواهم وخلوهم من مظان الانتفاع.

(١) سورة الزخرف — الآية ١٨ . وفيها رد — بطريق الإنكار والتعجب — على ما ادعاه الكفار من أن الملائكة بنات الله ، خصوا الله بالإناث دون الذكور ، وعاشوا هم أمقت الناس للاناث بدليل ما كان يصيب الرجل منهم من الغم والكرب والغيظ إذا بشر بولادة أنثى له ، وقد علموا أن الأنثى بطبيعتها النوعية إنما تنشأ فى الحلية وتربى فى الزينة ولا قدرة لها على مزاحمة الرجال فى الخصومة والمحاجة ، وهى أقل جلداً ، وأهون أن تبين .

(٢) ربما كان البيتان لعنترة بن شداد من قصيدته التى مطلعها :

طربت وهاجتك الظباء السوارح ... غداة غدا منها سنيح وبارح

ولم أجدهما فى نسختى الديوان عندى . والقصيدة نفسها من الشعر المشكوك فى نسبته إلى عنترة . وخبر « إن » فى أول البيتين هو « فاضح » فى نهايتهما والتقدير : وإن امرأ هذه صفته لفاضح لآبائه وللحسب المأثور عنهم

وأما ما جاء فى ذم التعنت والمراء وطلب السمعة والرياء وقصد الباطل وركوب الهوى، فقول الله - عز وجل : ﴿ هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا ﴾(١) وقوله : ﴿ والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾(٢).

---

(١) سورة النساء — الآية ١٠٩. روى أن رجلا من بنى ظفر اسمه طعمة بن أبيرق سرق درعاً من جار له يسمى قتادة بن النعمان فى جراب دقيق، وخرج به فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب وهو يسير به حتى وصل إلى دار رجل من اليهود يسمى زيد بن السمين فأودعه الدرع وعندما كشفت السرقة التمس قتادة الدرع عند طعمة فلم يجدها وحلف أنه ما أخذها وليس له بها علم، فتركه قتادة وتبع أثر الدقيق حتى منزل اليهودى فوجدها لديه فأخذها، وشهد لزيد ناس من قومه اليهود، وأراد بنو ظفر أن يبرئوا صاحبهم فانطلقوا إلى الرسول — ﷺ - وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة وقالوا : إن لم تفعل افتضح وبرئ اليهودى، فهم الرسول أن يستجيب لهم ويعاقب زيد ابن السمين اليهودى، فنزلت الآيات (١٠٥ — ١١٢) من سورة النساء.

والآية التى جاء بها المصنف تعنى أنه على افتراض أنكم جادلتم عن السارق وقومه فى الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم فى الحياة الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه، بل من يكون وكيلا ومحاميا لهم من بأس الله!

وإذا كانت هذه الآيات نزلت فى هذه الحالة فليس ما يمنع من اعتبارها قانونا عاما يؤخذ به فى كل الحالات المماثلة، لإقرار العدالة ورعاية الأمانة وشجب الخيانة والخائنين.

(٢) سورة الشورى — الآية ١٦. ومعناها أن الذين يخاصمون فى دين الله بعد استجابة الناس له ليردوهم إلى دين الجاهلية حجتهم داحضة باطلة عند الله وعليهم غضب من الله ولهم عذاب شديد يوم الحساب ويجوز أن تكون الاستجابة استجابة الله لرسوله بنصره يوم بدر وإظهار دين الإسلام.

ووصف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صديقاً كان له فى الجاهلية فقال: «كان لا يشارى ولا يمارى»(١). وقال: «من تسمع سمّع الله به(٢)». وقال بعضهم: «المراء يفسد الإخاء». وأنشد:

فدع المراء إذا نطقت، فإنه ... يغرى بك الأعداء والحسادا

وقال: «دع المراء لقلة خيره». وقال أمير المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ لابن الكواء: «سل تفقها، ولا تسأل تعنتا»(٣).

[الجدل والبحث]:

وحق الجدل أن تبنى مقدماته بما يوافق الخصم عليه، وإن لم يكن فى نهاية الظهور للعقل. وليس هذا سبيل البحث، لأن حق الباحث أن يبنى مقدماته بما هو أظهر الأشياء فى نفسه وأبينها لعقله؛ لأنه يطلب البرهان، ويقصد لغاية التبيين والبيان، وألا يلتفت إلى إقرار مخالفيه فيه. فأما المجادل، فلما

---

(١) هذا الصديق هو السائب بن أبى وداعة السهمى. وكان لا يشارى ولا يمارى أى كان لا يجادل ولا يتمادى فى الخصومة واللجج.

(٢) فى هذا الحديث دعاء على من يتسمع — أى يتتبع عورات الناس سماعا — بأن يشهره الله ويفضحه والمشهور روايته (من سمع سمع الله به) أى من شهر بالناس وفضحهم شهر الله به وفضحه، والجزاء من شاكلة العمل.

(٣) أى اسأل راغبا فى التفقه والتعلم والاستبصار بأمور الدين ولا تسأل قاصداً التعنت والتشدد والوقوع على الزلة والخطأ. وابن الكواء هو عبدالله ابن الكواء اليشكرى أحد زعماء الخوارج الذين خرجوا على سيدنا على بسبب قبوله التحكيم، اجتمع له آلاف من أهل النهروان والقرى والبرانس ونافش عليا فى «حروراء» وفى غيرها وفى العقد الفريد (٢/١٠٩) مثال طريف من مناقشاته ومحاوراته.

كان قصده إنما هو إلزام خصمه الحجة كان أوكد الأشياء فى ذلك أن يلزمه اياها من قوله ، وذلك مثل قول الله -عز وجل- لليهود لما أراد الزامهم الحجة فيما حرموه على أنفسهم بغير أمر ربهم : ﴿كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة .قل :فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ ، فجادلهم بكتابهم الذى يقرون به وبفرض مافيه ووجوبه عليهم ، وأعلمهم أنهم اذا حرموا على أنفسهم مالم يحرمـــه الله فى كتابهم الذى هذه سبيله فى وجوب التسليم له فقد ظلموا واعتدوا . وهذا لازم لهم(١) .

---

(١) سورة آل عمران — الآيتان ٩٣و٩٤ . وكان القرآن الكريم نقل عن التوراة أن بنى إسرائيل عوقبوا بتحريم أنواع من الطيبات عليهم بسبب بغيهم وظلمهم وصدهم عن سبيل الله وأكلهم الربا وأخذهم أموال الناس بالباطل وغيرها من الكبائر ، كانوا كلما ارتكبوا كبيرة عاقبهم الله بتحريم نوع من الطيبات عليهم . وكان اليهود فى عهد الرسول يجادلون فى هذا ويحاولون تبرئة أنفسهم وأجدادهم من شهادة الله عليهم هذه فى القرآن فزعمون أن ما حرم عليهم من الطيبات ليس جديداً عليهم بسبب البغى والظلم .. على نحو ما يقوله القرآن أو محمد ، وإنما هذا التحريم قديم ، فقد حرمت هذه الطيبات على نوح وعلى إبراهيم وعلى من بعده من بنى إسرائيل ، إلى أن انتهى التحريم إليهم وتتضمن الآيتان من سورة آل عمران أن كل الطعام — أى أنواعه أو المطعومات - كان حلالا لبنى إسرائيل غير ماحرمه أبوهم إسرائيل (يعقوب) على نفسه * من قبل أن تنزل التوراة ، وأمر الله —

---

* قيل: حرم يعقوب على نفسه لحوم الإبل وألبانها . وقيل: حرم على نفسه عروقها وكانت أحب الطعام إليه ، فعل ذلك وفاء لنذر نذره إن شفى أن يمتنع من تناول أحب الطعام إلى نفسه ، أو فعل ذلك علاجا ودواء بأمر الطبيب . وتبعه بنوه تقليدا لا تعبداً فحرموا على أنفسهم ما حرمه هو على نفسه ،

[فيم يقع الجدل ؟] :

وقد قلنا : أن الجدل انما يقع فى العلة من بين سائر الأشياء المسئول عنها (١) وليس يجب على المسئول الجواب الا بعد أن يأذن [للسائل] فى السؤال ، فإن لم يأذن فاله ذلك وليس ينسب إلى انقطاع ولا محاجزة . فان أذن فقد لزمه الجواب ، وإن قصر عنه نسب إلى العجز (٢) .

= رسوله محمدا — ﷺ — أن يحاج اليهود بكتابهم فيأتوا بالتوراة فيتلوها ، فانها ناطقة بتكذيبهم وبصدق رسوله فيما سجله عليهم من البغى والظلم .. ومن عقابهم بتحريم أنواع من الطيبات بسبب بغيهم وظلمهم . . . ، وروى أنهم لم يجسروا على إخراج التوراة ، لأنهم بهتوا . وجاء قوله تعالى : « فمن افترى على الله الكذب . . » الآية ، كالتعقيب الذى يقرر ظلم الذين يفترون على الله الكذب ، وأنهم مكابرون معاندون غير منصفين .

(١) عندما تحدث المصنف عن بيان الأشياء بذواتها وهو الذى سماه (البيان بالاعتبار) تناول أنواع البحث والسؤال ، وذكر أنها تسعة، فأولها البحث عن الوجود وأداته « هل » ، وثانيها البحث عن أنواع الموجودات وأداته « ما » ، وثالثها البحث عن الفصل بين الموجودات وأداته « أى » ورابعها البحث عن أحوال الموجودات وأداته « كيف » ، وخامسها البحث عن عدد الموجودات وأداته « كم » ، وسادسها البحث عن زمن الموجودات وأداته « متى » ، وسابعها البحث عن مكان الموجودات وأداته « أين » ، وثامنها البحث عن أشخاص الموجودات وأداته « من » ولا تستعمل إلا فى السؤال عمن يميز ويعقل ، وتاسعها البحث عن علل الموجودات وأداته « لم » . وقال عقيب هذا : « وليس يقع الجدال والحجة إلا فى العلة ولا يجب الحق والباطل إلا فيها ونحن نذكر اعتبار العلل والواجب منها والفاسد إذا صرنا إلى ذكر الجدل فى كتابنا ، إن شاء الله » .

(٢) زدنا كلمة « للسائل » ، لتكون العبارة أكثر تحريراً ، ولا يتوقف القارئ فيها وسيأتى فى (أدب الجدل) تفسير المصنف للانقطاع والمحاجزة =

وطلب العلة يكون على وجهين : إما أن تطلبها وأنت لا تعلمها لتعلمها ؛ وإما أن تطلبها وأنت تعلمها ليقر لك بها . وليس لك أن تجادل أحدا فى حق يدعيه إلا بعد مسألته عن العلة فيما ادعاه فيه ؛ فإن كان علمك بعلته قد تقدم فى شهرة مذهبه ، فالأحوط أن تقرره بما بَنى عليه أمره ، لئلا يجحد بعض ما ينتحله أهل مذهبه اذا وقف عليه الكلام ويدعى أنه يخالفهم فيه ، فان أمنت ذلك منه فلا عليك أن تجادله وان لم تقرره بعلته . واثنان لا يلزمك منهما سؤال ، ولا يجب لهما عليك جواب : أحدهما من سألك عن العلة فى شىء ادعيتَه فاخبرتَه بها ، وهى مما يجوز أن يعلل ذلك الشىء بمثله فطالبك بعلة للعلة ، فمطالبته فى ذلك غير لازمة ومسألته ساقطة . لأن ذلك يوجب أن يطالب بعلة للعلة ثم كذلك إلى مالا نهاية له . والآخر من أراد مناقضتك فى مذهبك ولم ينصب لنفسه مذهبا يجب له عليك فيه بمخالفتك اياه المخاصمة، فليس تلزمك له حجة فى ذلك ولا يجب له عليك فيه سؤال ، مثال ذلك أن رجلا لو سار الى بعض الأئمة والحكام برجل قد قتل رجلا أو أخذ ماله وأقام البينة على ذلك ، ثم لم يكن ولىّ الدم ولا صاحب المال ولا وكيلا لأولياء الدم ولا لصاحب المال ، لم يكن للأئمة ولا للحكام أن يقيموا حدا عليه أو يطالبوه برد ما أخذ ؛ اذ كان الرافع له والمطالب بذلك فيه غير مستحق للمطالبة بما يجب عليه من الحكم .

والعلل علتان : قريبة ، وبعيدة فالقريبة ما كان المعلول تاليها . والبعيدة ما كان بينه وبينها غيره ، وذلك كالولد الذى علته القريبة النكاح ، وعلته البعيدة والداه . وللعلل وجوه : (منها) اعتبارها ، فإن اطردت فى معلولاتها

= والعجز ، عندما يبدأ قوله : «وليستشعر مع هذا أن الأنفة من الانقياد للحق عجز وأن الاعتراف به والخضوع له عز ... الخ » .

صحت ، وإن قصرت عن شيء من ذلك علم أنها غير صحيحة ، ومثال ذلك أن الحركة لما كانت علة المتحرك ،كان قولنا إذا سئلنا عن الجسم المتحرك : ما علة حركته ؟ فقلنا : حلول الحركة فيه ، قولا صحيحاً ، لأنه يطرد فى فى معلوماته ويوجد فى كل جسم متحرك . فأما إذا سئلنا عن العلة فى حركة الجسم ، فقلنا : لأنه جسم ، كان ذلك باطلا ، لأنه قد تكون أجسام لا حركة فيها . و (منها) أن تكون العلة فى صحة الشيء هى العلة فى بطلان ضده ، إذا كان ضداً لا واسطة له ، وقد مضى تمثيل ذلك(١). و (منها) أن العلة فى الشيء إذا كانت من اجتماع شيئين أو أكثر من ذلك . لم تكن واجبة إذا انفرد بعض تلك الأشياء ، مثل رجـــل أراد قلب حجر ثقيل فلم يطقه . فلما عاونه عليه غيره وتأيدت قواهما قلباه ، فليس العلةَ فى الاستقلال به أحدُهما ، لأن كل واحد منهما عاجز عنه إذا انفرد به ، وإنما العلة اجتماعهما . ومن هذا المعنى يحتج للتواتر بأنه حجة وإن كان كل

---

(١) عند حديث المصنف عن البيان بالاعتبار أوضح أن دلالة الشيء تكون بأحد أربعة أوجه ، هى المشاكلة والمضادة والعرض والفعل وقال عن المضادة : إن الضد يكسب معرفة الضد ، فإنا إذا عرفنا الحياة وعلمنا أنها بالحس والحركة عرفنا ضدها الذى هو الموت وأنه بعدم الحس والحركة ، وإذا انتفى أحد الضدين وجب الآخر ضرورة إذا كان الضدان لا واسطة لهما كالموت والحياة والحركة والسكون والضياء والظلام ، فأما إذا كانت بينهما واسطة فليس الأمر كذلك ، وذلك كالسواد والبياض اللذين بينهما الحمرة والصفرة والخضرة ، وكالقيام والقعود اللذين بينهما الاضطجاع والركوع والسجود فنحن نعرف بالسواد ضده الذى هو البياض ، وبالقيام ضده الذى هو القعود وإن نفينا السواد عن شيء لم يجب له البياض ضرورة ، كما أنا إذا نفينا عن الشيء الحياة وجب له الموت ضرورة ، لأن الحياة والموت لا واسطة لهما . وهذه أضداد لها وسائط .

واحد من المخبرين يجوز عليه الكذب(١) . و (منها) أن العلة إذا كانت مأخوذة مما يوافق الخصم فيه ، فلا مطعن له فيها ، وذلك مثل قول موحّد سأله مشبّه(٢) عن العلة فى قوله : إن الله ليس بجسم ، فقال : لاجتماعنا على أنه ليس يشبهه شىء ، فلو كان جسما لكان مثل الأجسام فى معنى الجسمية . فإذا كانت العلة مأخوذة مما يخالفك فيه الخصم ، فليس يجوز أن تحتج عليه بها إلا بعد أن تعلمه أن علتك مأخوذة مما يخالفك فيه ، وأنه لا سبيل لك إلى تعريفه صحتها إلا بعد أن تصحح عنده المقدمات التى أوجبتها ، وذلك كجواب موحد سأله ملحد(٣) عن العلة فى إثبات الرسل ، فليس يمكنه أن يبين ذلك إلا بعد أن يدل على البارئ ، فإذا صح فى نفس خصمه أنه موجود وأقر له بذلك ، ذكر العلة فى الرسل ، فأما قبل ذلك فلا سبيل له إلى

---

(١) الحديث المتواتر هو الخبر ترويه جماعة بلغوا من الكثرة مبلغا يستحيل معه عادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب ، شريطة أن يستوى التواتر فى جميع الطبقات ، ويكون الخبر من شأنه وطبعه مفيداً للعلم . بحيث لو اطلع عليه ذو الفطرة السليمة لعلم بوجود السنة (عن كتابنا — التعريف بالحديث الشريف — ص ٤٧) .

(٢) المراد بالموحد (وهو اسم فاعل من وحد) من ينفى التشبيه عن الله — سبحانه وتعالى — من كل وجه : جهة ومكانا وصورة وجسما وتحيزاً وانتقالا وزوالا وتغيراً وتأثراً ، وينفى رؤيته بالأبصار فى دار القرار ، ويوجب تأويل الآيات المتشابه فيها . والمراد بالمشبه (وهو اسم فاعل من شبه) من يثبت لله صورة ذات أعضاء وأبعاض روحانية أو جسمانية ويجوز عليه الانتقال والتمكن والاستقرار والنزول والصعود — عن الشهرستانى فى الملل والنحل .

(٣) الملحد فى الدين المائل عن قصده والطاعن فيه ، ويطلق الملحد على المشرك وعلى الظالم وعلى المجادل الممارى وعلى محتكر الطعام .

إيجاده العلة فى ذلك . و (منها) أن الجدل فى العلة والسؤال عنها ماض فى سائر ما يخالفك فيه خصمك ، فإذا صرت إلى ما يوافقك فيه فليس لك أن تسأله عن العلة ولا أن تجادله فيها ، لأنك حينئذ تكون مجادلا لنفسك ، اللهم الا أن يكون سؤالك عن العلة فى ذلك لتقرره بها ثم تأخذه بطردها فى شىء قد أباه وحكمه حكم ما وافقك فيه ، وذلك كقولك لمن وافقك على اثبات البارئ — عز وجل — وهو مجسم : ما دليلك وعلتك اللذان أوجبت بهما وجود البارئ — عز وجل — ؟ فيدل على ذلك بما يشاهده من تأليف الأجسام ووجودها بعد أن لم تكن ، وتناهيها وتركيبها وآثار الصنعة فيها ، فتكون علته فى ذلك هى العلة فى أن صانعها لا يشبهها ولا يكون مثلها ، وأنه متى كان جسما لزمه حكم الأجسام فى الحاجة إلى صانع غيره . و (منها) أن المعارضة فى الجدل صحيحة ، وان كان قوم قد أبوها وقالوا : انها لا مسألة ولا جواب ، وليس الأمر كما ظنوا . والمعارضة ههنا المقابلة ، كما يقال : عارضت السلعة اذا بعتها بمثلها . فاذا قابلت بين الأمرين والعلتين وطالبت خصمك بأن يحكم للشىء بما توجبه العلة فى نظيره ، كان ذلك واجبا . وقد عارض الله - عز وجل - من أبى البحث واستنكره مع اقراره بابتداء الخلق واختراعه ، فقال : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ؛ قال : من يحيى العظام وهى رميم ۞ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾(١) ، فألزمهم الله ألا ينكروا إعادتهم بعد أن فقدوا مع إقرارهم

---

(١) سورة يس - الآيتان ٧٨ و٧٩ وفى الكشاف : عجب الله من حال الإنسان أن يتصدى مثله - على مهانة أصله ودناءة أوله وخسة عنصره - لمخاصمة الله ومجادلته وركوب متن الباطل والمحك واللجاج ، ويقول : من يقدر على إحياء الموتى بعد مارمت عظامهم وبليت ، ثم يكون خصامه هذا فى ألزم وصف له وألصقه به وهو كونه منشأ من موات ، وهو ينكر إنشاءه من موات ، وهذه هى المكابرة التى لا مطمح وراءها . ويأتى =

بابتداء الله إياهم وما كانوا . وكل زيادة تقع فى المسألة أو العلة من جنس المسألة فليس ذلك بخروج عنها ، وأما ما خالف معنى المسألة والعلة فهو خروج وتخليط .

[الخلاف والمناقضة] :

وقد ذكر المتكلمون(١) « الخلاف والمناقضة » وكثيراً ما يستعملون بعض ذلك فى موضع بعض . ونحن نبين كل واحد منهما ، ونرسم فيه ما يعرف به الفرق بينه وبين الآخر ، فيستعمل كل واحد منهما فى موضعه.

« فالمناقضة » فى اللغة المفاعلة ، من نقضت البناء والغزل وغيرهما ؛ فاذا بنى الإنسان قوله على إثبات شىء لشىء بعينه ثم نفاه عنه ، أو بنى قوله على نفى شىء عن شىء بعينه ثم أثبته له ، فكأنه قد نقض ما بنى واستحق اسم المناقضة وإنما جعل ذلك على المفاعلة ؛ لأن المجادلة لا تقع إلا بين اثنين . وإنما تقع المناقضة فى الكلام إذا كان المخبر عنه واحداً والخبر واحداً ولم تتشابه الأسماء ولا الأخبار فى لفظها مع اختلاف معانيها ، وكان الزمان فى القول واحدا ، والمكان واحداً ، والنسبة فى الاستطاعة واحدة ، ثم اختلفا فى تلك بالإيجاب والنفى ، فتلك المناقضة . فأما إذا لم يكن المخبَر عنه واحداً فى الاسم ، كقولنا : زيد قائم وعمرو غير قائم ، فليس ذلك مناقضة . وإذا

= الجواب القاطع: يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم، أى يعلم كيف يخلق لا يتعاظمه شىء من خلق النشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها .

(١) المتكلمون : هم المشتغلون بعلم الكلام ، وهو اصطلاح على العلم الذى يبحث فى ذات الله — تعالى — وصفاته وأفعاله ، ويورد الحجج على إثبات العقائد الإلهية ، ويدفع عنها الشبه .

لم يكن الخبر واحداً فى اللفظ، كقولنا : زيد قائم وزيد غير قائم، فليس ذلك مناقضة . وإذا اتفقت الأخبار واختلفت معانيها ، كقولنا : إسحاق مغن وإسحاق غير مغن،ونحن نريد بإسحاق الأول الموصلى وبالآخر الظاهرى(١) فليس ذلك مناقضة . وإذا اشتبهت الأخبار واختلفت معانيها ،كقولنا : زيد أسود من عمرو وليس زيد أسود من عمرو ، ونحن نريد بأحدهما السؤدد ، وبالآخر السواد الذى هو ضد البياض(٢) ، فليس ذلك مناقضة ،

---

(١) إسحاق الموصلى : هو إسحاق بن إبراهيم الموصلى ،صاحب صنعة الغناء فى العصر العباسى ، ورثه أبوه هذه الصناعة فبلغ فيها الغاية وأوفى على النهاية ،وزاد عليها أن كان ذا علم وأدب ورواية،وكان شاعراومحدثا ونديما. ذكر صاحب الأغانى (الجزء الخامس) أن الغناء كان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه ، فإنه كان له فى سائر أدواته نظراء وأكفاء ، ولم يكن له فى هذا نظير ، فإنه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقى ، ولحب للناس جميعا طريقه فأوضحها ، وسهل عليهم سبيله وأنارها ، فهو إمام أهل صناعته جميعا ورأسهم ومعلمهم . وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه ، وميزه تمييزا لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده ، إذ أتى على كل ما رسمته الأوائل مثل « إقليدس » ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى ، ووافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور من غير أن يقرأ لهم كتابا أو يعرفه عاصر خمسة من خلفاء العباسيين ونادمهم وصنع الغناء لجواريهم ، وتوفى سنة ٢٣٥ هـ عن خمسة وثمانين عاما .

وإسحاق الظاهرى : هو إسحاق بن راهويه ، فقيه محدث ، وعنه أخذ داود الظاهرى . وتوفى إسحاق سنة٢٣٨ هـ .

(٢) تجاوز المصنف فى استعمال « أسود » اسم تفضيل من السواد، وحق التفضيل إذا كان الوصف الأصلى بزنة « أفعل » أن يعــــدل إلى التفضيل بالوسيلة ، فيقال : فلان أكثر سوادا من فلان . إلا أن المصنف حرص على اشتباه الأخبار مع اختلاف معانيها ولا يتحقق له هذا إلا بذاك التجاوز .

وإذا اختلف الزمان فى القول فقلنا : زيد قائم وزيد غير قائم ، وأردنا أن زيداً قائم الساعة وغير قائم فى غد ، فليس ذلك بالمناقضة ، وإذا اختلف المكان فى ذلك فقلنا : زيد خارج وزيد غير خارج . وأردنا أنه خارج من داره وغير خارج من المدينة ، فليس ذلك مناقضة . وإذا اختلفت النسبة فى الاستطاعة والفعل ، فقلنا : زيد كاتب وزيد غير كاتب ، ونحن نريد أنه يحسن الكتابة ويستطيعها متى أرادها وهو غير كاتب بيده فى حال الإخبار عنه ، لم تكن مناقضة . فهذا معنى المناقضة .

وأما « الخلاف » فهو ما خالف الشىء الشىء فيه فى بعض ما ذكرناه ، ولم تجتمع له شروط المناقضة التى وصفناها ، وأكثر ما وقع من الخلاف فى الشرائع خاصة من جهة النسخ ، أو التشابه فى الأسماء والأخبار ، أو من جهة الخصوص والعموم ، أو من جهة الإجمال والتفسير ، أو من جهة الرأى ، والتخيير ، وقد ذكرنا ذلك بشرحه فى « كتاب التعبد » بما أغنى عن إعادته ، إلا أنا نذكر من ذلك جملا تدل عليه

أما « الاختلاف من جهة النسخ » فهو أن يكون الشىء محرماً ثم يحلل ، أو محللا ثم يحرم ، أو مفروضاً ثم يترك ، أو متروكا ثم يفرض . فيعلم الأولَ قومٌ ولا يعلمون النسخ فيعملون بما علموا ، ويعرف النسخ آخرون فيأخذون بما عرفوا ، فيقع الخلاف بينهم من هذا الوجه . وذلك مثل المسح على الخفين ، فان الشيعة تزعم أنه منسوخ ، والعامة ماضية على الأول ، وكالمتعة التى تزعم العامة أنها منسوخة ، والشيعة ماضية على الأمر الأول(١)

---

(١) المراد بالشيعة المتشيعون لآل على بن أبى طالب — رضى الله عنه — وبالعامة جمهور المسلمين غير الشيعة . والمسح على الخفين بدل لغسل الرجلين إلى الكعبين فى الوضوء بشروط تذكرها كتب الفقه ، وزواج المتعة هو الزواج المؤقت يتفق الرجل والمرأة على المعاشرة الجنسية أياما فهو يتمتع بها هذه الأيام ثم يخلى سبيلها وكأن شيئا لم يكن وعندهم أن هذا الزواج لا يحتاج إلى شهود ، وأن الرجل يدفع للمرأة أجرها بالاتفاق ، ولا يتوارثان ، ولكن يثبت نسب الولد منه بإقراره ويرثه الولد ، وعدتها وضع حملها أو طهران اثنان أو شهران اثنان .

وإنما خالف النسخ المناقضة، لاختلاف الأوقات، وأن الوقت الذى حُرِّم فيه الحلال غير الوقت الذى حُلِّل فيه الحرام.

وأما الاختلاف من جهة التشابه فى الأسماء والأخبار، فمثل تحريم المسكر، فإن قوماً حملوه على أنه الشراب الذى هذا نعته فحرموا قليل النبيذ وكثيره، وقوم حملوه على أنه الجزء الذى يسكر دون غيره فأحلوا منهما كان دون ذلك من السكر، فوقع الاختلاف بينهم لاختلاف التأويل.

وأما التخصوص والعموم، فهو أن يُعَمّ بالنهى شىء ثم يُخَصّ نوع منه بالتحليل، أو يعم بالتحليل جنس ثم يخص نوع منه بالتحريم، وذلك كتحليل الله البيع جملة واختصاص رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تحريم الدرهم بالدرهمين، والدينار بالدينارين، والرطب بالتمر، وأشباه ذلك. وقد ذهب هذا التخصيص على عبد الله بن عباس(١)، فكان يجيز بيع الدرهمين بالدرهم إذا كان نقداً، فوقع الخلاف بينه وبين غيره من هذا الوجه.

وأما الإجمال والتفسير، فكقوله ـ عز وجل: ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم. فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾(٢). ثم إنه فسر

---

(١) هو ابن عم رسول الله ﷺ ـ ولد قبل الهجرة بسنوات. كان فقيها وعالما بالشعر وبالعربية وبتاريخ العرب وأيامهم: متضلعا فى الفرائض وهى المواريث وفى تفسير القرآن الكريم. تولى البصرة أيام على بن أبى طالب فلم تشغله الولاية عن الجلوس إلى الناس لتفسير القرآن روى له أكثر من ستمائة حديث وتوفى بالطائف حوالى سنة ٦٠ هـ.

(٢) سورة النساء ـ الآية ١٥. وهى فى الفاحشة التى تأتيها النساء وتسمى المساحقة، إذا شهد أربعة بها أمسكهن الرجال فى البيوت لا يبرحنها ومنعوهن ـ

السبيل فقال : « خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » . وقد حمل الشراة(١) أمر السبيل على ظاهر القرآن ، وأبطلوا الرجم ؛ وكذلك فعلوا فى الحمر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ومخلب ؛ لأنهم أخذوا فى ذلك بالجملة من قوله : ﴿ قل : لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ؛ فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾ ٢)، وذهب عليهم التفسير فوقع الخلاف بينهم وبين الجماعة من هذا الوجه .

وأما « الرأى » فهو أن ترد الحادثة على بعض العلماء ، ولا يكون عنده فيها حكم لله ولا سنة لرسوله ، فيجتهد رأيه فيأخذ الناس ذلك عنه ، ثم يبلغه الحكم فى ذلك فيدع رأيه ويرجع إلى ما بلغه من حكم الله ورسوله ، ويتمسك أتباعه بما حملوه عنه ، لأنهم لا يعلمون برجوعه ، ولذلك قال ابن مسعود(٣) : « ويل للناس من زلة العالم » ؛ لأنه يجتهد رأيه ثم يؤخذ عنه

= من مخالطة الناس حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، وقيل : إن الآية فى عقوبة الزانيات أول الأمر والآن الحد كما أثبت المصنف فى الحديث المفسر الذى رواه عن الرسول – ﷺ – الإمام مسلم فى صحيحه ، وقيل : السبيل الزواج . وفى رأيى أن الزواج سبيل لمن وقعت فى المساحقة ، أما من تقترف الزنا فسبيلها الحد .

(١) الشراة هم الخوارج ، تسموا بالشراة استناداً إلى قوله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » (البقرة – ٢٠٧) وقوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » (التوبة – ١١١) ولهذا طلبوا الموت فى سبيل الله وفى سبيل العقيدة .

(٢) سورة الأنعام – الآية ١٤٥ . وأثبتناها كاملة .

(٣) هو عبد الله بن مسعود ، أحد السابقين الأولين إلى الإسلام . لازم =

ثم يبين له الصواب فى غير ما رأى فيرجع إليه ، ويذهب الأتباع بما سمعوا فيقع الخلاف من هذا الوجه .

وأما التخيير ف[illegible] الإقامة مثنى مثنى أو فرادى فرادى(١) ، وكتخيير الله عز وجل - فى [illegible] اليمين فى الطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة(٢).

فهذه جمل ما [illegible] لاف والمناقضة ، وهى تكفى وتغنى إن شاء الله .

أدب الج[illegible]

وهو : أن [illegible] المجادل قصده الحق ، وبغيته الصواب ، وألا تحمله قوة إن وجدها فى [illegible] سه وصحة فى تمييزه وجودة خاطره وحسن بديهته وبيان عارضته وثبات حجته ، على أن يسرع فى إثبات الشىء ونقضه ، ويشرع فى الاحتجاج له ولضده ، فإن ذلك مما يذهب ببهاء علمه ، ويطفىء نور فهمه ، وينسبه به [illegible] هل الورع والديانة إلى الإلحاد وقلة الأمانة ، ولذلك

= الرسول - ﷺ - منذ إسلامه ، وكان يخدمه ، وهاجر الهجرتين ، وشهد الغزوات كلها ، وهو ممن شهد الرسول لهم بالجنة وأثنى على تلاوته للقرآن . روى عن الرسول ثمانمائة حديث ، وبعث به عمر بن الخطاب إلى الكوفة يعلم أهلها القرآن والدين . وتوفى ابن مسعود سنة ٣٢ هـ

(١) الإقامة للصلاة بألفاظها مثنى مثنى كالأذان ، أو فرادى فرادى باختصار الألفاظ إلى النصف .

(٢) قال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ؛ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم . واحفظوا أيمانكم ؛ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » المائدة - ٨٩) .

اطرح الناس « الراوَندى »(١) ومن أشبهه على قوتهم فى الجدل وتمكنهم من النظر . وليعلم أن عواقب طلاقة اللسان وجنايات البيان على كثير من الناس كثيرة غير محمودة(٢) ، ولذلك قال رسول الله — ﷺ — : « ما أوتى امرؤ شراً من طلاقة اللسان » ، وأخذ « أبو بكر » — رضى الله عنه — بطرف لسانه وقال : « هذا الذى أوردنى الموارد »(٣) .

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ، ينسب إلى « راوند » وهى قرية من قرى قاسان بنواحى أصبهان عاش فى بغداد وناظر المتكلمين بطلاقة ونقلوا عنه ، وله عدة مؤلفات . توفى سنة ٢٥٠ هـ عن أربعين سنة .

(٢) فى البرهان (كبيرة غير محمودة) ، وكلاهما يؤدى الغرض .

(٣) يروى أن أبا بكر — رضى الله عنه — خرج ومعه على — كرم الله وجهه — بصحبة الرسول الكريم — ﷺ — وهو يعرض الإسلام على الناس ، فمروا بمجلس ، وأتى أبو بكر السلام ، فردوه ، ثم سألهم : ممن القوم ؟ فقالوا : من ربيعة . فسألهم : أمن هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا . من هامتها العظمى . قال : فأى هامتها العظمى ؟ قالوا : ذهل الأكبر . قال : أمنكم عوف الذى يقال فيه (لاحر بوادى عوف) ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم جساس بن مرة حامى الذمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالب أنفسها ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا . لا قال : أأنتم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا . قال : لستم ذهلا الأكبر ، أنتم ذهل الأصغر . فقام إليه غلام اسمه دغفل فقال :

إن على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

يا هذا ، لقد سألتنا فلم نكتمك شيئاً ، فمن أنت ؟ قال أبو بكر : من قريش —

وألا تسحره الكثرة والقلة فيما يطلبه من الحق ، فيقلد الأكثرين ، أو يريد التكبر عليهم ، أو التكثر بهم ، أو الترؤس عليهم بمتابعتهم ، فقد ذم الله الكثرة ومدح القلة فقال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات

= قال الغلام: بخ بخ ، أهل الشرف والرياسة ، فمن أى قريش ؟ قال أبو بكر: من تيم بن مرة قال الغلام : أمكنت — والله — الرامى من صفاء الثغرة. ثم سأله : أفمنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر وسمى مجمعا؟ قال أبو بكر : لا فسأله الغلام : أفمنكم هاشم الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف ؟ قال أبو بكر : لا فسأله : أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذى كأن فى وجهه قمرا مضيئا؟ قال أبو بكر: لا . فسأله: أفمن المفيضين بالناس أنت؟ قال أبو بكر: لا فسأله: أفمن أهل الندوة أنت؟ قال أبو بكر: لا فسأله: أفمن أهل الرفادة أنت؟ قال أبو بكر: لا. فسأله : أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال أبو بكر: لا . فسأله : أفمن أهل السقاية أنت؟ قال أبو بكر: لا. ثم جذب أبو بكر زمام ناقته ورجع إلى رسول الله ، فقال دغفل : صادف درء السيل درءا يصدعه . أما — والله — لو ثبت لأخبرتك أنك من زمعات قريش أو ما أنا بدغفل . فتبسم الرسول، وقال على لأبى بكر : لقد وقعت من الأعرابى على باقعة ! قال : أجل ، إن لكل طامة طامة ، وإن البلاء موكل بالمنطق * .

* قوله (من هامتها أم من لهازمها) أى من رءوسها أم من أوساطها . عوف : هو ابن محلم الشيبانى . بسطام : هو ابن قيس بن مسعود . جساس : هو قاتل كليب بن ربيعة. الحوفزان : هو الحارث بن شريك . المزدلف : هو ابن عمرو الطائى. دغفل : هو دغفل الشيبانى النسابة المشهور. بخ بخ: اسم فعل يقال فى الاستحسان . الثغرة : النقرة تكون فى النحر ومنها يكون الذبح : مسنتون عجاف : مجدبون مهزولون من أثر الجوع والقحط . شيبة الحمد : هو عبد المطلب جد الرسول . المفيضون بالناس : الأدلاء المشرفون على مسيرة الحاج . أهل الندوة : كبار قريش أصحاب الرأى والحل والعقد . أهل الرفادة : الذين يتولون إطعام الحاج . أهل الحجابة : الذين بيدهم مفاتيح البيت وحراسته . أهل السقاية : المشرفون على سقيا الحاج . درء السيل : دفعه وانصبابه . يصدعه : يشقه ويكسره . زمعات قريش : أى أحطهم شأنا . باقعة : داهية . طامة : داهية تغلب ما سواها .

وقليل ما هم﴾(١) ، وقال : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾(٢)

وألا يقلد الحكمَ الفاضل فى كل ما يأتى به إذ كان غير مأمون منه الخطأ ، فقد يخطئ العاقل ويصيب الجاهل ، ولذلك قال أمير المؤمنين للحارث بن حوط(٣) : « يا حارث إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يعرف بالرجال ، ولكن اعرف الحق تعرف أهله » .

وأن يُخرج عن قلبه التعصب للآباء فإن الله يقول : ﴿ وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله . قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾(٤) .

وأن يعتزل الهوى فيما يريد إصابة الحق فيه ، فإن الله يقول : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾(٥) .

وألا ينقاد لزخرفة القول وظاهر رياء الخصم ، فقد حذر الله من هذه الطبقة على أيدى أنبيائه فقال : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾(٦) وقال : ﴿ وإذا رأيتهم

---

(١) سورة (ص) — الآية ٢٤ .

(٢) سورة يوسف — الآية ١٠٣ .

(٣) هو الحارث بن حسان بن حوط الذهلى ، كان من أصحاب على ، وقتل فى موقعة الجمل سنة ٣٦ هـ .

(٤) سورة لقمان — الآية ٢١ .

(٥) سورة (ص) — الآية ٢٦ . والهوى المنهى عنه هو انحراف النفس نحو الشىء الذى تميل إليه دون ما نظر إلا لتحقيق هذا الميل المنحرف .

(٦) سورة البقرة — الآيتان ٢٠٤ و ٢٠٥ . وسبق فى ص (٢١٥) تفسيرهما .

تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾(١)، وقال المسيح فى الإنجيل: «احذروا الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان وقلوب الذئاب(٢)».

وألا يقبل من ذى قول مصيب كلَّ ما يأتى به لموضع ذلك الخطأ الواحد، بل لا يقبل قولا إلا بحجة ولا يرده إلا لعلة، ويكون فى ذلك كالوزان الحاذق المتفقد لميزانه وصنجاته، فان الخطأ فى الرأى أعظم ضرراً من الخطأ فى الوزن.

وألا يجادل ويبحث فى الأوقات التى يتغير فيها مزاجه ويخرج عن حد الاعتدال، لأن المزاج إذا زاد على حد الاعتدال فى الحرارة كان معه العجلةُ وقلةُ التوقف وعدمُ الصبر وسرعةُ الضجر، وإذا زاد فى البرودة على حد الاعتدال أورث السهو والبلادة وقلة الفطنة وإبطاءَ الفهم. وقد قال جالينوس(٣): «إن مزاج النفس تابع لمزاج البدن».

وأن يتجنب العجلة ويأخذ بالتثبت، فإن مع العجل الزلل.

وألا يستعمل اللجاج والمحك(٤)، فان العصبية تغلب على مستعملها فتبعده عن الحق وتصده عنه.

---

(١) سورة المنافقين — الآية ٤. وسبقت فى ص (٢١٥).

(٢) فى نقد النثر: «احذروا الأنبياء الكذبة ..» والحملان: جمع حمل (بالتحريك) وهو الجذع من أولاد الضأن فما دونه. والجذع من الشياه فى السنة الثانية ومن البقر وذوات الحافر فى السنة الثالثة ومن الإبل فى السنة الخامسة.

(٣) جالينوس: أحد أطباء الإسكندرية فى أواخر القرن الثانى للميلاد، انتهى أمر الطب اليونانى إليه، وصارت كتبه معتمد الأطباء لفترة طويلة.

(٤) المحك: اللجاج والمنازعة فى الكلام، ومثله المماحكة والتمحك.

وألا يعجب برأيه وما تسوله له نفسه ، حتى يفضى بذلك إلى نصحائه، ويلقيه إلى أعدائه، فيصدُقونه عن عيوبه ، ويجادلونه ويقيمون الحجة عليه فيعرف مقدار مافى يديه إذا خولف فيه، فإن كل مُجْرٍ بخلاء يُسَرُّ (١)، ومن لم يشعر برأيه ولم يدر أنه فى غرر من لفظه(٢) كان بعيدا من نيل شفائه .

وأن يتجنب الكذب فى قوله وخبره ، لأنه خلاف الحق ، وإنما يريد بالجدال إبانة الحق واتّباعه .

وأن يتجنب الضجر وقلة الصبر، لأن عمدة الأمر فى استخراج الغوامض وإثارة المعانى الصبر على التأمل والتفكر ، ولذلك قال أمير المؤمنين - عليه السلام : « منزلة الصبر من الإيمان منزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له » .

وأن يكون منصفا غير مكابر(٣) ،لأنه إنما يطلب الإنصاف من خصمه ويقصده بقوله وحجته .فإذا طلب الانصاف بغير الانصاف فقد طلب الشيء بضده وسلك فيه غير مسلكه .

---

(١) كل مجر بخلاء يسر : هذا مثل،أصله أن رجلا كان له فرس،وكان يجريه فردا ليس معه أحد ، وجعل كلما مر به طائر أجراه تحته ، أو رأى إعصارا أجراه تحته ، حتى أعجبه ما رأى من سرعته، وتمنى أن يراهن عليه ، وطلب الرهان فى الحلبة ، فسبق فرسه ، فقال المثل .

(٢) الغرر (بالتحريك) : الخداع والإطماع بالباطل .

(٣) المنصف العادل. ويسمى العدل النصف والنصفة (كلاهما بالتحريك). والمكابر : المنازع لإظهار الفضل والغلبة على خصمه لا لإظهار وجه الصواب. والمكابرة: لون من العناد أو هى العناد نفسه،ومثلوا لها بطلب الدليل على الدليل، وبنقض الدليل دون شاهد ، وبمنازعة صاحب الحق ويعلم المكابر منه هذا ويعلم من نفسه البعد عن الصواب .

وأن يجتهد فى تعلم اللغة ويتمهر فى العلم بأقسام العبارة فيها ، فانه إنما يتهيأ له بلوغ ما يقتضى الجدلُ بلوغَه من قسمة الأشياء إلى ما تنقسم إليه ، وإعطاء كل قسم منها ما يجب له ، والاحتراس من اشتراك الأسماء واختلاط المعانى ، باللغة والمعرفة بها .

وأن يتحرز من مغالطات المخالفين ومشبهات المموهين ، وأن يحلم عما يسمع من الأذى والنبز ، ولا يشغب إن شاغبه خصمه(١) ، ولا يرد عليه إن أربى فى كلامه ، بل يستعمل الهدوّ والوقار ، ويقصد مع ذلك لوضع الحجة فى موضعها ، فان ذلك أغلظ على خصمه من السب. وربما أراد الخصم باستعمال الشغب قطع خصمه وأن يشغل خاطره عن إقامة حجته ، فاذا أعرض المجادل عن ذلك ولم يتحرك له طبعه ولم يشغل ذهنه ، جمع مع قهر خصمه والاستظهار عليه ظهورَ حلمه للناس ومعرفة الحضور بوقاره ونقص خصمه وخفته .

وأن يتجنب الجدال فى المواضع التى يكثر فيها التعصب لخصمه ، فإنه لا يعدم فيها أحد شيئين : إما الغيظ فتقصر قريحته ، وإما الحصر فيعيا بحجته .

وألا يستصغر خصمه ولا يتهاون به وإن كان الخصم صغير المحل فى الجدل، فقد يجوز أن يقع - لمن لا يؤبه له الخاطرُ - الذى لا يقع لمن هو فوقه فى الصناعة . وقد أوصى القدماء بالاحتراس من العدو وألا يستصغر صغير منه . والخصم عدو ؛ لأنه يجاهدك بلسانه ، وهو أقطع سيفيه ، كما قال أردشير ، وقد قال حسان بن ثابت :

---

(١) النبز : هو اللمز وتسمية الناس وتلقيبهم بما يكرهونه . والشغب (بسكون الوسط أو فتحه والسكون أفصح) : تهييج الشر .

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ويبلغ مالا يبلغ السيفُ مذودى(١)

وأن يصرف همته إلى حفظ النكت(٢) التى تمر فى كلام خصمه ، مما يبنى منها مقدماته وينتج منها نتائجه ، ويصحح ذلك فى نفسه ، ولا يشغل قلبه بتحفظ جميع كلام خصمه ، فانه متى اشتغل بذلك أضاع ما هو أحوج إليه منه .

وألا يكلم خَصْمه وهو مُقبل على غيره أو مستشهد بمن حضر على قوله ؛ فإن ذلك سوء عشرة وقلة علم بأدب الجدل وظهور حاجة إلى معونة من حضر إليه .

وألا يجيب قبل فراغ السائل من سؤاله ، ولا يبادر بالجواب قبل تدبره واستعمال الروية فيه .

وأن يعلم بعد هذا أنه لا يعد فى المجادلين الحذاق حتى يكون بحسن بديهته وجودة عارضته وحلاوة منطقه قادراً على تصوير الحق فى صورة الباطل ، والباطل فى صورة الحق متى شرع فى ذلك ، وأقام كل واحد منهما فى النفوس مقام صاحبه ، فقد وصف الشاعر بعض الجدليين بذلك فقال :

يسرك مظلوماً ويرضيك ظالماً ويحمل إن حملته كل مغرم(٣)

---

(١) صارمان : قاطعان والمذود : اللسان ويبلغ المذود ما لا يبلغه السيف بمعنى أن قطع اللسان أشق وسبق فى ص(٦٨) التعريف بحسان .

(٢) النكت : جمع نكتة . وهى فى الأصل النقطة والأثر ، فكل نقطة من لون واضحة فى وسط لون آخر تسمى نكتة كالنكتة البيضاء فى جلد الثور الأسود وكالخال فى الخد ، وكل أثر بين فى وسط غيره نكتة كالنكتة فى البلحة مكان الإرطاب منها ، والنكتة أيضا مخ العظم ويقال: نكت العظم أى أخرج مخه . ونقلت النكتة إلى الكلام بهذه المعانى ، فالنكتة فى الكلام النقطة الواضحة البينة فيه التى تستقطب الذهن إليها ، وهى المحور الذى تتفرع عنده بلاغة الكلام ، وهى سر الكلام وخلاصة الفن القولى .

(٣) المغرم (بالفتح أو بالضم) ومثله الغرم والغرامة : ما يلزم أداؤه .

وقال آخر :

ألا رب خصم ذى بيان علوته   وإن كان ألوى يغلب الحقَّ باطلُه(١)

وليستشعر مع هذا أن الأنفة من الانقياد للحق عجز ، وأن الاعتراف به والبخوع له عز(٢) فلايمتنع من قبول الحق إذا وضح له،ولايكون قصده فى الجدل ألا يُقطَعَ ، فان من كان ذلك غرضه لم يزل فى تنقل من مذاهبه وتلون فى دينه ، وإنما ينبغى له أن يعتقد من المذاهب ما قام البرهان عليه إن كان مما يقوم عليه برهان ، أو وضحت الحجة المقنعة فيه إن كان مما لا يوجد عليه برهان ، ويناضل عن ذلك من ناضله ، ويجادل من جادله ؛ فان وقع عليه من هو أحسن عارضة منه وألحن بحجته وقصر هو فى عبارته عن إيضاح حقه ؛ لم يتصور له الحق الذى قام فى نفسه بصورة الباطل إذا هو قصر عن حجته .

وألا يسحره بيان خصمه ، فيظن أن حقه قد بطل لما انقطع هو عن الزيادة عليه ، بل يدع الكلام فى الوقت إذا وقف عليه ، ويعاود النظر بعد الفكر والتأمل ، فانه لا يعدم من نفسه إذا استنجدها ولاذ بها مخرجاً مما قد نزل به إن شاء الله .

وليعلم مع هذا أن الانقطاع ليس بالسكوت فقط والتقصير عن الجواب ؛ لكن المكابرة ، وجحد الصورة ، والخروج عن حد الانصاف إلى اللجاجة ،

---

(١) علوته : غلبته ، مأخوذ من علوت الدابة ركبت ظهرها وتمكنت منها ألوى : مجادل شديد الخصومة ، ويقال : لوى الرجل بالحق وألوى به جحده .

(٢) البخوع له : الخضوع له والإقرار به . وفى البرهان (التجرع له) بمعنى احتمال المشقة فى سبيله .

والتنقل من مذهب إلى مذهب وعلة إلى علة ؛ كله انقطاع ، وهو أقبح عند ذوى العقول من السكوت ، وقد قال الشاعر :

وإذا تنقل فى الجواب مجادل دل العقولَ على انقطاع حاضر

واعلم أن السائل أشد استهتارا واستظهارا من المجيب(١) ، لأن له أن يروى فى المسألة قبل إطلاقها ، والمجيب فى غفلة عما يريده السائل ؛ فليس ينبغى للمجيب أن يأذن فى السؤال إلا بعد أن يعلم فى أى معنى هو ؛ فان أحس من نفسه القوة على الجدل فيه ؛ وإلا لم يأذن ، فإذا أذن فقد تضمن الجوابَ(٢) ، فان لم يجب فقد عجز ، وإن أجاب فلم يقنع أو وقف الكلام عليه فلم يردد ولم يرجع إلى قول خصمه فقد انقطع ، وإذا استأذن السائل فأذن له فلم يسأل فقد عجز ، وإن تبرع عليه بالإذن من غير أن يستأذن فانه لم ينسب إلى عجز ولا انقطاع ، لأنه مخير فى ذلك ، والإقناع بالجواب الذى يوجب على السائل القبول ، فان لم يقبل ولم يرد فقد انقطع . وإن مال المجيب نحو قول السائل ولم يكن ذلك اعتقاده فقد حاجز خوفا من الانقطاع ، وكذلك إن ادعى أن الجواب قد أقنعه ثم لم يرجع إليه ويعتقده فقد حاجز خوف الانقطاع . وإذا أقنع المجيب السائل فقد زال عنه ما انعقد عليه من تضمن الجواب . والتقصير من السائل والمجيب دون إظهار الحجة فى تحقيق ما تجادلا فيه وإبطاله من حيث تقر به النفس وإن جحده اللسان ؛ إما من الذى قصر عن الزيادة أو من الذى نكل عن الجواب ، والفلج(٣) فى الجدل إظهار الحجة التى تقنع ، والغالب هو المظهر لذلك .

---

(١) الاستهتار بالشيء : الولوع به ولوعا لا يبالى معه ما يقال فيه . والاستظهار (هنا) : بمعنى الحفظ فالمستظهر يقرأ كلامه — كما قالوا — على ظهر لسانه دون كتاب .

(٢) تضمن الجواب : أى التزمه وتكفل به .

(٣) الفلج (بالضم أو بفتحتين) : الفوز والظفر .

ثم إن للمتكلمين من أهل هذه اللغة أوضاعا ليست فى كلام غيرهم مثل : الكيفية ، والكمية ، والمائية ، والكمون ، والتولد ، والجزء ، والطفرة ، وأشباه ذلك(١) ، فمتى كلم به غيرهم كان المتكلم مخطئا ومن الصواب بعيدا ، ومتى خرج عنها فى خطابهم كان فى الصناعة مقصراً . وكذلك للمتقدمين من الفلاسفة والمنطقيين أوضاع متى استعملت مع متكلمى أهل هذا الدهر وأهل هذه اللغة كان المستعمل لها ظالما ، وأشبه من كلم العامة بكلام الخاصة والحاضرة بغريب أهل البادية ؛ فمن ألفاظهم السولوجسموس ، والهيولى ، والقاطاغورياس ، وأشباه ذلك ، مما إذا خاطبنا به متكلمينا أوردنا على أسماعهم ما لا يفهمونه إلا بعد أن نفسره ، وكان ذلك عيا وسوء عبارة ووضعا للأشياء فى غير موضعها . ومتى اضطرتنا حال إلى أن نكلمهم بهذه الأشياء عبرنا لهم عن معانيها بألفاظ قد عهدوها ، فقلنا فى مكان السولوجسموس القرينة ، وفى موضع الهيولى المـــادة ، وفى موضع القاطاغورياس المقولات ، وكذلك ما أشبهه من ألفاظ الفلاسفة(٢).

---

(١) الكيفية : هيئة الشيء وتقع فى جواب « كيف » . والكمية مقدار الشيء وتقع فى جواب « كم » والمائية (وتسمى الماهية أيضا) حقيقة الشيء أو تعريفه وتقع فى جواب « ما هو » . والكمون : استخفاء الشيء فى شيء آخر ككمون النار فى الحجر والحرارة فى البدن . والتولد : نشوء الأشياء بعضها من بعض ، والجزء : ما ينقسم إليه الجسم ، والطفرة : الانتقال على سطح الجسم من مكان إلى مكان بينهما أماكن لا يقطعها المار ولا يحاذيها ولا يحل فيها .

(٢) القرينة هى القياس (Sy]ogis m) ، وهو استنتاج نتيجة من مقدمتين فأكثر ، وتجمع النتيجة ما تفرق فى المقدمتين ، ومتى سلمت بصدقهما وجب التسليم بصدق النتيجة طالما التزمت بشروط القياس المقررة والهيولى أو المادة =

وقد أتى فى شعر من لابس الكلام والجدل وعاشر أهلهما من ألفاظ المتكلمين ما استطرف ؛ لأنه خوطب به من يعلمه وكلم به من يفهمه ؛ فمن

= هى الجزء الداخل فى مكونات الشىء، أما إيجاد علاقة معينة بين هذه المكونات بغرض تحقيق وظيفة لهذا الشىء فيسمى الصورة أو الهيئة ، فمثلا : البناء يتكون من حجارة ورمل وإسمنت وجص وماء وحديد وخشب ، وكل منها مادة ، لكن يلزم لتحقيق وظيفة البناء خلط هذه المواد وإيجاد علاقة معينة بينها ، ولا يجوز جمعها كيفما اتفق ، ومثلا آخر : البيان مادته الألفاظ ، وإيجاد علاقة معينة بين هذه الألفاظ على حسب ما يدور فى الذهن هو الذى يسمى صورة البيان أو هيئته . والمقولات عند أرسطو هى الأجناس العالية وأعلاها الجوهر ويليه الجسم فالجسم النامى فالحيوان . . .

وشرح المتأخرون هذه المقولات وسموها (إيساغوجى) أو (الكليات الخمس — predicables) ،وهى : الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام ، وتستخدم هذه المقولات فى تحديد تعريفات الألفاظ لتوضيح مفهوماتها وتمييز جواهرها ، فالجنس (Cenus) : هو الكلى المقول على كثيرين مختلفين فى الحقيقة مشتركين فى صفات عامة ، والنوع (Species) هو الكلى الذاتى المقول على كثيرين متفقين فى الحقيقة مختلفين بالعدد ، والفصل(Difference) هو الكلى الذاتى المقول على مميزات أفراد النوع بصفات أساسية لا توجد فى الأنواع الأخرى المشتركة معه فى جنسه . والخاصة (Property) الكلى العرضى غير الذاتى المقول على أفراد النوع الواحد ويخص بعضا دون بعض . والعرض العام الكلى العرضى غير الذاتى المقول على عدة أنواع فى الجنس الواحد . وتطبيق هذا على تعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق عاقل قابل للتعلم له عينان — حيوان (جنس) وناطق (نوع) وعاقل (فصل) وقابل للتعلم (خاصة) وله عينان (عرض عام) .

ذلك قول أبي نواس(١) :

تأمل العين منهـــا محاسنا ليس تنفـد
وبعضها قد تناهى وبعضها يتـولد

وقوله :

تركت مني قليـلا من القليـل أقلا
يـكاد لا يتجزا أقل في اللفظ من «لا»

---

(١) سبق التعريف بأبي نواس ص (١١٠). والبيتان الأولان من مقطوعة له في «جنان»، رواية الديوان لها :

وذات خد مـورد فتـانة المتجـــرد
تأمل النـاس فيهـا محاسنا ليس تنفـد
الحسن في كل جزء منها معـاد مردد
فبعضه في انتهـاء وبعضـــه يتولد
وكلما عـــدت فيه يكون بالعود أحمد

والبيتان الأخيران من مقطوعة له رواها ابن عبد ربه في العقد الفريد ٦ / ٢٤٢ :

يا من تموّت عمـــدا فكان للعين أمـــلا
وفي الشعوبة أربى فكان أشهى وأحلى
أردت أن تزدريـــك العيون هيهات. كلا
يا عاقد القلب مني هلا تذكرت خلا
تركت مني قليلا من القليل أقلا
يـكاد لا يتجزا أقل في اللفظ من «لا»

وقول النظام(١) :

أفرغ من نور سمائى مصورٌ فى جسم إنسى
وافتقر الحسن إلى حسنه فجل عن تحديد كيفى

فأما مخاطبة من لم يلابس الكلام ويعرف أوضاع أهله بألفاظ المتكلمين وأوضاع الجدليين ، فهو جهل من قائله وخطأ من فاعله ، ويلحق من ركبه من سوء البناء ما لحق من قال فى بعض خطبه فى دار الخلافة : « ثم إن الله بعد أن سوى الخلق وأنشاهم ، ومكن لهم لا شاهم(٢) » . وكما لحق الآخر حين خطب فقال : « وأخرجه الله من باب الليسية إلى باب الأيسية(٣) » وعلى أن العوام والطغام ومن لا علم له بالكلام إذا سمعوا ألفاظا لم يعهدوها ولم يقفوا على معانيها ربما اعتقدوا فى قائلها الكفر واستحلوا دمه ، ولذلك شهد بعض سفلة العوام على « الخليل » وأصحابه بالزندقة ، لما سمعهم يذكرون أجناس العروض ويقطعون الشعر ، فورد عليه من ذلك ما لم يفهمه ، فظن أنه زندقة ، فقال الخليل فيه :

لو كنتَ تعلم ما أقول عذرتنى أو كنتُ أجهل ما تقول عذلتكا

---

(١) هو إبراهيم بن سيار النظام ، أحد زعماء المعتزلة ، ومن أكبر مناظريهم ، وله شعر منظوم على طريقة المتكلمين ، نشأ بالبصرة وبغداد ، وتوفى سنة ٢٢٥ هـ .

(٢) أنشاهم : أنشأهم ، ولاشاهم : خفضهم من بعد رفعة .

(٣) الليسية : أى العدمية ، والأيسية : أى الوجودية ، مأخوذان من ليس بمعنى المعدوم وأيس بمعنى الموجود ، وقيل : إن ليس أصلها (لا أيس) فطرحت الهمزة وألزقت اللام بالياء ، والمتكلمون يعنون بالليسية نفى الصفات عن الله وبالأيسية إثباتها له .

لكن جهلتَ مقالتى فعذلتنى وعلمتُ أنك جاهل فعذرتكا(١)

وهذا ما فى باب الجـــدل وأدب المجادل ، وفيه بلاغ للمميز العاقل إن شاء الله .

الحديث :

وأما الحديث ، فهو ما يجرى بين الناس فى مخاطباتهم ، ومناقلاتهم ، ومجالسهم . وله وجوه كثيرة ؛ فمنها : الجد والهزل ، والسخيف والجزل ، والحسن والقبيح ، والملحون والفصيح ، والخطأ والصواب ، والصدق والكذب ، والنافع والضار ، والحق والباطل ، والناقص والتام ، والمردود والمقبول ، والمهم والفضول ، والبليغ والعى(٢) .

---

(١) سبق التعريف بالخليل بن أحمد ص (١١٩) وفى العقد الفريد (٨٦/٢) جاء كيسان إلى الخليل يسأله عن شىء ، ففكر فيه الخليل ليجيبه ، فلما استفتح الكلام قال له : لا أدرى ما تقول ، فأنشأ الخليل البيتين . والشطر الثانى من البيت الأول (أو كنت أعلم ما تقول عذلتكا) . وفى وفيات الأعيان (١٨/٢) كان للخليل ولد متخلف ، فدخل على أبيه يوما ، فوجده يقطع بيت شعر بأوزان العروض ، فخرج الولد إلى الناس يزعم أن أباه قد جن ، فدخل الناس عليه ، وأخبروه بمقالة ابنه ، فأنشأ البيتين .

(٢) يلخص المصنف — فيما يلى — هذه الصفات ، وهى أربع وعشرون صفة فى اثنتى عشرة مجموعة ، ولا تمثل المجموعات أقساما متباينة ، وإن كانت كل مجموعة تضم صفتين متقابلتين ، فأى حديث يمكن أن يتصف باثنتى عشرة صفة فى وقت معا ، وإن كان بينا أن الصفات العالية تتناسب ، وأن الصفات الهابطة تتقارض .

[حديث الجد وحديث الهزل] :

فأما الجد ، فإنه كلام أوجبه الرأى وصدر عنه ، وقصد به قائله وضعه موضعه ، وكان مما تدعو الحاجة إليه . وباستعمال ذلك وبالإمساك عما سواه أوصت الحكماء ؛ فقالوا : « من علم أن كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه » . وقالوا : « مغبون من مضى عمره فى غير ما خلق له » . وقال الله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾(١) . ووصف نبيه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ★ إن هو إلا وحى يوحى ﴾(٢).

وأما الهزل ، فما صدر عن الهوى . والناس فى استعماله على ضربين :

أما الحكماء والعلماء، فاستعملوه فى أوقات كلال أذهانهم وتعب أفكارهم ؛ ليستجموا به أنفسهم(٣) ويستدعوا به نشاطهم ويروحوا به عن قلوبهم ؛

---

(١) سورة المؤمنين — الآية ١١٥ وهى من حكاية حديث الله — أو الملك الموكل به من قبله — للناس يوم القيامة . وعبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون ، كلاهما فى موضع المفعول لأجله، والتقدير أحسبتم أننا خلقناكم للعبث فلا حكمة من وراء خلقكم ولتركم غير مرجوعين ويجوز أن يقع « عبثا » موقع الحال من فاعل « خلقناكم » أى عابثين — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ! . ويجوز أن يعطف « أنكم إلينا لا ترجعون » على « أنما خلقناكم » والتقدير أحسبتم الأمرين واقعين .

(٢) سورة النجم — الآيتان ٣و٤ . والهوى هنا هو ميل النفس وإنحرافها نحو رغباتها . والوحى سبق تناوله ص (٧٥) . ويستند إلى الآيتين من يحجب الاجتهاد عن الأنبياء ، ويرد من يثبته بأن الله — سبحانه وتعالى — إذا سوغ لهم الاجتهاد كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحيا لا نطقا عن الهوى.

(٣) أى ليطلبوا به جمامها أى راحتها ، والجمام الراحة ، والإجمام الإراحة ، والاستجمام طلب الراحة .

خوفاً من ملالتها وكلالتها ؛ وأمروا بذلك فقالوا : « روحوا القلوب تع الذكر »(١) . وقالوا : « روحوا من القلوب فإن لها سآمة كسآمة الأبدان » . ومن قصد هذا بالهزل فالجد أراد ؛ لأنه قصد المنفعة وما يوجبه الرأى فى سياسة عقله ونفسه ، وإجمام فكره وقلبه . وقد كان رسول الله - ﷺ - يمزح ولا يقول إلا حقا(٢) . وقال عمر — رضى الله عنه — فى أمير المؤمنين — رحمة الله عليه — : « هو والله لها لولا دعابة فيه »(٣) . وقال الشعبي : « وصلتُ بالعلم ونلت بالمُلَح »(٤) ؛ وذلك لما عليه النفوس من استثقال الحق والجد ، واستخفاف اللهو والهزل .

وأما السفهاء والجهال ، فاستعملوه للخلاعة والمجون ومتابعة الهوى ؛ وذلك المذمومُ الذى قد عاب الله مستعمله ، ومدح المعرض عنه ؛ فقال فيمن عابه : ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾(٥)

---

(١) أى تحفظه . والذكر العلم أو التذكر .

(٢) ومثال مزاحه - ﷺ - ما زاده فى الرهان : (وروى أن عجوزا جاءت إلى النبي - ﷺ - وقالت : يا رسول الله ، إنى أدخل الجنة ؟ فقال - عليه السلام - العجائز لا يدخلن الجنة . أراد - عليه السلام - أنه لا تبقى المرأة فى الجنة عجوزا ؛ بل تكون فى سن أربعة عشر ؛ كما جاء فى الخبر) .

(٣) هذا قول عمر فى على - رضى الله عنهما - وهو لها : أى للخلافة .

(٤) الشعبي : أحد التابعين العلماء وخاصة فى المغازى والأخبار . اشتهر برجاحة العقل كما اشتهر بالمزاح وتوفى عام ١٠٥ هـ والملح جمع ملحة (كلاهما بالضم) وهى الدعابة .

(٥) سورة الجمعة - الآية ١١ . ونزلت فى جماعة من أهل المدينة كانوا يستقبلون يوم الجمعة عير التجارة بالطبل والتصفيق لاهين عن أداء صلاة الجمعة وفعلوا هذا ثلاث مرات وقوله « انفضوا إليها » أى إلى التجارة . والتقدير : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه . وفى قراءة =

وقال : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ﴾(١) . وقال فيمن مدحه بالإعراض عنه : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾(٢) . وقال فى موضع آخر : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما(٢) ﴾ . وقد أوصت العلماء بتجنب هذا اللون من الهزل فقالوا :

= « انفضوا إليه » فيرجع الضمير إلى اللهو ويحذف من الآخر . وقرئ : « انفضوا إليهما » واللهو : كل باطل ألهى عن الخير

(١) سورة لقمان – الآية ٦ . وهى فيمن كان يستبدل الضلالة بالهداية والباطل بالحق فيؤثر حديث اللهو (أو بعض الحديث المعتبر لهوا) ، واللهو كل باطل ألهى عن الخير ؛ من مثل الأساطير والخرافات والمضاحيك وفضول الكلام وسائر ما يصد عن الحق والهدى ؛ وكان أناس من أهل مكة – وعلى رأسهم النضر بن الحارث – يفعلون ذلك ويحدثون قريشا بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة ليصرفوهم عن الاستماع إلى محمد وقرآنه كما يزعمون ؛ ليضلوهم عن سبيل الله بغير علم ؛ وليتخذوا هذه السبيل هزوا وسخرية ومثاراً للتنادر والتغامز . وفى التعبير بقوله « يشترى لهو الحديث » استعارة لاستبدال الضلال بالهدى كما قلنا ، وقد يكون الاشتراء فى معنى الاستحباب مجازا مرسلا أو كناية ، وقد يكون على حقيقته وكان النضر يشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا ، ويكون التجاوز فى لهو الحديث ؛ لأن الشراء واقع على وسائله .

(٢) الآية الأولى من سورة القصص – الآية ٥٥ . والآية الثانية من سورة الفرقان – الآية ٧٢ . والأولى فى نعت المؤمنين من أهل الكتاب ، والثانية فى نعت عباد الرحمان . واللغو كل ما ينبغى أن يلغى ويطرح من نحو اللهو والباطل والشتم والأذى ، وإعراضهم عنه أى عن الاستمرار فى سماعه وعن الخوض فيه وعن اللاغين ، ومرورهم به هو المرور بأهله ، ومرور الكرام هو مرور المعرضين عن أهل اللغو لا يتوقفون عليهم ولا يخوضون معهم ؛ مكرمين أنفسهم أن تنزلق ؛ صيانة لدينهم عما يثلمه ؛ وحتى لا يأثموا بالمشاركة فى الباطل ، أو شهوده ، أو السكوت عنه ، أو الوقوع فى الشبهة .

« إياك والمزاح فانه يجرئ عليك السفلة » . وقالوا « المـــزاح السباب الأصغر » . وقال أمير المؤمنين ـ رضى الله عنه ـ : « من أكثر من شىء عُرف به ، ومن كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استُخف به » .

[الحديث السخيف والحديث الجزل] :

وأما السخيف من الكلام ، فهو كلام الرعاع والعوام الذين لم يتأدبوا ولم يستمعوا كلام الأدباء ولا خالطوا الفصحاء ، وذلك معيب عند ذوى العقول ، لا يرضاه لنفسه إلا مائق جهول(١) ، إلا أن الحكماء ربما استعملته فى خطاب من لا يعرف غيره طلباً لإفهامه ، كما أنه ربما تكلف الانسان لمن لا يحسن العربية بعض رطانة الأعاجم(٢) ليفهمه . فاذا جرى استعمال اللفظ السخيف هذا المجرى ، وغزى به هذا المغزى ، كان جائزاً . وللفظ السخيف موضع آخر لا يجوز أن يستعمل فيه غيره ، وهو حكاية النوادر والمضاحك وألفاظ السخفاء والسفهاء ، فانه متى حكاها الانسان على غير ما قالوه خرجت عن معنى ما أريد بها وبردت عند مستمعها ، وإذا حكاها كما سمعها وعلى لفظ قائلها وقعت موقعها وبلغت غاية ما أريد بها ، ولم يكن على حاكيها عيب فى سخافة لفظها .

وأما الجزل فى الكلام ، فهو كلام الخاصة والعلماء ، والعرب الفصحاء ، والكتاب الأدباء ، الذى قد تقدم وصفه فى الشعر والخطابة . وليس شىء أعون على جزالة الكلام وخروجه عن تحريف ألفاظ العوام ؛ من مجالسة الأدباء ، ومعاشرة الخطباء ، وحفظ أشعار العرب ، ومناقلاتهم ، والمختار من رسائل المولدين الأدباء ، ومكاتباتهم ؛ ولذلك كانت ملوك بنى أمية يخرجون أولادهم إلى البوادى ، لينشئوهم على الفصاحة وجزالة اللفظ ،

---

(١) المائق : الأحمق فى غباوة .

(٢) رطانة الأعاجم : التكلم بلغاتهم .

وله أيضا علم الناس أولادهم الرسائل ، ورووهم أشعار القدماء، وحفظوهم القرآن ، وأمروهم بتحقيقه(١) ، وأمروهم بالقراءة والإنشاد ، ليعتادوا الكلام الجزل ، وتنفتق به لهواتهم ، وتذل به ألسنتهم(٢) ، وتتشكل بتلك الأشكال ألفاظهم ، فان التخلق يأتي دونه الخلق(٣) ، والعادة كالطبيعة. ولا شيء أفسد للكلام وأضر على المتكلم ولا أعون على سخافة اللفظ من معاشرة أضداد من ذكرنا وطول ملابستهم واستماع قولهم . فينبغي لمن أراد تجنب الكلام السخيف ولزوم الجزل الشريف أن يتقي معاشرة من يفسد بمعاشرته بيانه ، كما ينبغي أن يلزم معاشرة من تصلح معاشرته لسانه.

[بلاغة الحديث وعي الحديث] :

وأما البليغ ، فقد ذكرناه حين وصفنا البلاغة ما هي ، وأتينا بأشياء مما حضرنا ذكره من القول البليغ الموجز ، وأغنى ذلك عن إعادته(٤) .

والعي ضد البلاغة ، وهو مذموم من الرجال ، محمود في النساء ؛ لأن

---

(١) المراد من تحقيق القرآن إحكامه وإكماله ، وهذا يقتضي فهمه ورعاية أحكامه وتجويده .

(٢) تنفتق اللهوات : أي انفتاحها، واللهوات جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق . وذل الألسنة : أي انقيادها . وكلاهما كناية عن المرانة على الكلام .

(٣) معناه أن من تكلف ما ليس من طبعه صعب عليه وعاد إلى خلقه الأول . وهذا عجز بيت لسالم بن وابصة من شعراء الأمويين ، وسبق في ص ١٥٣ .

(٤) راجع ص ١٢٧ وما بعدها و ص ١٧٧ وما بعدها .

العى والحصر يجرى منهن مجرى الحياء والخفر(١). ولذلك قال امرؤ القيس :

فتــور القيام قطيع الكلا م تفترّ عن ذى غروب خصر(٢)

وقال آخر :

ليس يستحسن فى وصف الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج(٣)

---

(١) العى فى الكلام العجز عنه أو عدم إحكامه ، والحصر (بالتحريك) هو العى وعدم القدرة على القراءة ، والخفر هو الحياء أو شدته ونظرة المصنف إلى المرأة غير منصفة ، وقد يقبل منه أن تكون للنساء بلاغتهن وأن تنعت بلاغتهن بنعوت خاصة وأحوال متميزة ، وأما ما استشهد به من قول امرئ القيس فى نعت المعشوقة المواصلة ، وهى بطبيعتها سلبية الحديث والحيلة . والبيت الآخر (ليس يستحسن فى وصف الهوى . . .) تقوله امرأة فى صفة العاشق «والعاشق يلاطف من يحبه ولا يحاجه، ويلاينه ولا يلاجه» (*) .

(٢) من قصيدته التى مطلعها :

أحار بن عمرو ، كأنى خمر ويعدو على المرء ما يأتمر

وقوله : (فتور القيام) أى متراخية ليست بوثابة فى قيامها . (قطيع الكلام) أى قليلة الحديث . (تفتر) أى تبسم . (عن ذى غروب خصر) أى عن فم هذه صفته ، والغروب حدة الأسنان وماؤها ، والخصر البارد (عن شرح الديوان للوزير أبى بكر عاصم بن أيوب) .

(٣) البيت لعلية بنت المهدى ، من جملة أبيات تقول فيها :

بنى الحب على الجور ، فلو أنصف المعشوق فيها لسمج
ليس يستحسن فى حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج =

(*) عن الصناعتين : ص ٨٣ .

وقد يستحسن أيضا الحصر والعى فى المسألة ، وعند وصف الفاقة ، والخلة ؛ لأنهما يدلان على كرم الطبع والأنفة من حال المسألة والتصون عن ذكر الخلة . وقد مدح الله قوما بمثل هذا فقال : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾(١) .

= لا تعيبن من محب ذلة ؛ ذلة العاشق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفا خالصا لك خير من كثير قد مزج

وعلية هى أخت إبراهيم بن المهدى ، أولدها أبوها من جارية له مغنية تسمى « مكنونة » . ذكر صاحب الأغانى أن علية كانت من أحسن الناس وأظرفهم تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة ، وأن لها ما يزيد على سبعين لحنا ، وذكر أنها كانت حسنة الدين ، لا تغنى ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ، فلا تلذ بشىء غير قول الشعر فى الأحيان ، إلا أن يدعوها الخليفة إلى شىء فلا تقدر على خلافه (؟!) .

(أخبارها وأشعارها فى الأغانى ج ١٠ ، وزهر الآداب ج ١) .

(١) سورة البقرة — الآية ٢٧٣ . وهى فى صفة الفقراء الذين أحصرهم الجهاد فى سبيل الله لا يستطيعون لاشتغالهم به ضربا فى الأرض للكسب ، يحسبهم الجاهل بحالهم مستغنين من أجل تعففهم عن المسألة، ويعرفون بسيماهم من صفرة الوجوه ورثاثة الحال ، ولا يسألون الناس سؤال إلحاف وإلحاح؛ وهذا معناه أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحوا ، والملحف لا يفارق المسئول إلا إذا لحفه أى أعطاه . وقيل : فيه نفى للسؤال والإلحاف جميعا ، على حد قول الشاعر (على لاحب لا يهتدى بمناره)؛ يريد نفى المنار ونفى الاهتداء به*.

(*) ويسمى هذا فى البديع (نفى الشىء بإيجابه) وهو أن يكون ظاهر الكلام إيجاب شىء وباطنه نفيه بأن ينفى ما هو من سببه وهو المنفى فى الباطن . والشاهد من قول امرىء القيس : =

[الحديث الحسن والحديث القبيح] :

وأما الحسن من الكلام ، فهو كل ما كان فى معالى الأمور وفى محاسنها .
واحسنه الدعاء إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾(١) .

---

(١) سورة الزمر - الآية ٢٣ . وهى فى نعت القرآن نزله الله أحسن الحديث متشابه المعانى فى الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق متناسب الألفاظ فى التخير والإصابة والتأليف وتجاوب النظم ، مثانى ، يضطرب قارئوه من خشية ربهم إذا مروا بآيات الوعيد والزجر ، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان ألم بها من اضطراب وانقباض . وفى الكشاف : فى إيقاع اسم « الله » مبتدأ وبناء « نزل أحسن الحديث » عليه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه واستشهاد على حسنه وتأكيد لاستناده إلى الله وأنه من عنده وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الأحاديث . وكتابا : بدل أو حال من أحسن الحديث . ومثانى : بيان لكونه متشابها لأن القصص المكررة لا تكون متشابهة ، والمثانى جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر ؛ لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه أو لأنه يثنى فى التلاوة فلا يمل ، ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما فى قوله تعالى : « ثم ارجع البصر كرتين » بمعنى =

= وانى زعيم إن رجعت مملكا ... بسير ترى منه الفرانق أزورا
على لاحب لا يهتدى بمناره ... إذا سافه العود النباطى جرجرا

ومعناهما : إن ملكونى فأنا كفيل بسيرة صعبة يزور منها الفرانق وهو الرسول الذى يوصل الخبر المخوف ، وهى مسيرة بغير طريق وبغير أعلام يهتدى بها فى هذا الطريق ، ولو فرضناه طريقا لانسع على الجمل النباطى لو سافه أى شمه لجرجر وردد الصوت فى حنجرته خوفا منه لصعوبته عليه مع تمرنه على السفر .

وقال : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إننى من المسلمين ﴾(١) . ثم يتلوه كل ما كان من مكارم الأخلاق ؛ فإن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « بعثت لأتمم مكارمكم » . وكل ما كان من دعاء إلى بر ، وتعطف ، وإصلاح ، وتألف ، وخير يجتلب ، وشر يجتنب ، فهو من حسن الكلام وجميله ، ومما يستعمله أهل العقل والحكمة ويثابرون عليه ولا يرون تركه ولا السكوت عليه ؛ لأن ترك استعمال الحسن قبيح ، ورأى من أهمله غير صحيح .

والقبيح فى الكلام ، ما كان فى سفساف الأمور وأراذلها : كالنميمة ،

= كرة بعد كرة ، وكذلك لبيك وسعديك وحنانيك . ووصف الكتاب بالمثانى فاختلفا فى الإفراد والجمع لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ونظيره قولك : الإنسان عظام وعروق وأعصاب . ويجوز أن تنصب مثانى على التمييز الملحوظ والتقدير : كتابا متشابهة مثانيه ، وقشعريرة الجلود ولينها إما على الحقيقة أو على طريق التمثيل لتصوير إفراطهم فى الخشية وغاية طمأنينتهم . وذكر الجلود وحدها أولا ثم قرن بها القلوب ثانيا لأنه ذكر الخشية أولا ومحلها القلوب فكأنها ذكرت . وعدى « تلين » بإلى لتضمينه معنى تسكن أو تطمئن والأعضاء إذا سكنت إلى ذكر الله واطمأنت صارت لينة غير منقبضة .

(١) سورة فصلت ـ الآية ٣٣ . وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنها فى نعت الرسول ، وعنه أيضا أنها فى نعت صحابته ، وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها فى نعت المؤذنين . ويرى الزمخشرى أنها عامة فى العالمين العاملين أى فى كل من جمع صفات التوحيد واعتقاد الإسلام دينا وعمل بالخير ودعا إليه ، ومعنى « قال : إننى من المسلمين » : جعل الإسلام مذهبه ومعتقده ، وليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام .

والغيبة ، والسعاية ، والكذب ، وإذاعة السر ، والمكر ، والخديعة ، فكل ذلك قبيح لأنه من مذموم الأخلاق ومعيب الأفعال . وقد قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها »(١). وذم الله النميمة فقال : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ★ هماز مشاء بنميم ﴾(٢) . وقال فى الغيبة : ﴿ ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾(٣) . وقال فى الكذب: ﴿ ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾(٤) . وقال فى السعاية . ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ﴾(٥) . وقال فى النفاق : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ،

---

(١) سفساف الأمور : حقيرها ورديئها .

(٢) سورة القلم — الآيتان ١٠ و ١١ . والحلاف الكثير الحلف فى الحق والباطل . والمهين : الكذاب أو الحقير . والهماز : العياب الطعان . والمشاء بالنميم : نقال الحديث من قوم إلى قوم على وجه السعاية والإفساد .

(٣) سورة الحجرات - الآية ١٢ . والتجسس : تتبع عورات الناس ومعايبهم وما يسترونه من أمورهم لكشفها وفضحها . والغيبة : ذكر السوء فى الغيب . وفى الحديث : سئل رسول الله ﷺ — عن الغيبة ، فقال : « أن تذكر أخاك بما يكره ؛ فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » والبهت الكذب .

(٤) سورة البقرة — الآية ١٠ . وهى فى نعت المنافقين ، والنفاق باب واسع للرذائل ومنها الكذب ، والكذب الإخبار عن الشىء على خلاف ما هو به ، والإيعاد بالعذاب الأليم بسبب الكذب فيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته وأنه من بين الخطايا بخاصة يوردهم النار . ووصف العذاب بالأليم بمعنى المؤلم من باب الإسناد المجازى .

(٥) سورة التوبة - الآية ٤٧ وهى فى نعت المنافقين الذين تخلفوا عن =

ولن تجد لهم نصيراً ﴾(١) وقال فى المكر : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾(٢) وقال فى إذاعة السر : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾(٣) وقال فى الخديعة : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم

= رسول الله وترددوا فى الخروج معه للجهاد ، يقول الله لرسوله ﷺ - : لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا فسادا وشرا ولسعوا بينكم بإفساد ذات البين يطلبون بذلك شيوع الفتنة فى صفوفكم ، وفيكم من يسمعون أحاديثكم فينقلونها إليهم أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم وقوله « ولأوضعوا خلالكم » مأخوذ من وضع البعير وأوضع أى أسرع وأوضعته أنا أسرعت به ، والتقدير أوضعت سعاياتهم أو أوضعوها أى أسرعوا بها .

والسعاية هى النميمة . ولكن المصنف جعلهما رذيلتين .

(١) سورة النساء - الآية ١٤٥ . والدرك الأسفل من النار قعر جهنم ، وفى الأخبار أن لها سبع دركات ، وسميت دركات لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض .

(٢) سورة النحل - الآية ٤٥ ، وهى فى أهل مكة الذين مكروا برسول الله المكرات السيئات . والمكر الخديعة ، أو الاحتيال فى خفية .

(٣) سورة النساء — الآية ٨٣ . وهى فى جماعة من ضعاف المسلمين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال وبما ينبغى أن يذاع أو لا يذاع من الأخبار * ، وكانوا يذيعون كل ما يسمعون أو يعرفون فيعود هذا وبالا على المسلمين . =

---

* قيل : أخبار السرايا وأمنها وسلامتها أو خوفها وخللها . وقيل : الحالة النفسية للرسول وكبار الصحابة من استشعار الأمن والثقة بالنصر واستشعار الخوف والبأس . وقيل كانوا يسمعون من أفواه المنافقين أنباء مظنونة عن الرسول والمسلمين — فيذيعون ذلك دون تحقق منه أو من نتائجه .

وما يشعرون ﴾(١) . وإذا أردت أن تنفي عن نفسك وقولك القبيحَ ، فانظر ما استقبحته من فعل غيرك وقوله فتجنبه فإنه القبيح ، وما استحسنته منهما فاتبعه فإنه الحسن ؛ ولا تسامح نفسك بأن تستحسن منها ما تستقبحه من غيرك ؛ فقد قال الشاعر :

= يقول الله ـ تعالى ـ : ولو أنهم ردوا ذلك إلى الرسول وإلى أولي الأمر ـ أي رجعوا به إليهم أو فوضوه لهم — لكان للرسول وأولي الأمر فيه تدبير واستنباط فيتولونه ببصيرتهم أو يخبرونهم بحقيقته أو يعرفونهم ما يذيعون منه وما يكتمون . وأصل الاستنباط استخراج الماء من البئر أول ما تحفر ، ويستعار لما يستخرجه الذهن من المعاني .

(١) سورة البقرة - الآية ٩ . وهي في جماعة من المنافقين أو اليهود كانوا يظهرون الإيمان بالله وباليوم الآخر ، ولكن إيمانا ليس على الصفة الواجبة من الصحة والاستحكام ، يخادعون بهذا ، وهم في هذا ما يخدعون إلا أنفسهم ؛ حيث يمنونها الأباطيل والأماني ويكذبونها فيما يحدثونها به ، وهم لتمادي غفلتهم لا يشعرون ، قد عدموا الشعور ، وإذا انتفى الشعور — وهو علم الشيء علم حس - انتفى ما هو أعلى منه في مراتب الإدراك . والخدع أن يوهم المرء صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه . والخداع مشاركة في الخدع ، وهو متصور في الآية من عدة وجوه : أحدها أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان وهم في حقيقتهم كافرون وكان سكوت الله والذين آمنوا عن هذا خدعا من باب المشاكلة ، والوجه الثاني أن يكون ذلك ترجمة عن معتقدهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه . والثالث أن يذكر الله ويراد به الرسول لأنه خليفته في أرضه والناطق عنه بأوامره ونواهيه ، ومصداق هذا قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . يد الله فوق أيديهم » . والرابع : أن يكون المعنى يخادعون الذين آمنوا بالله ، على طريقة قولهم : أعجبني سعد وكرمه يريدون قيام الإعجاب بكرم سعد لا بسعد نفسه ، وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص (أورد صاحب الكشاف جل هذه الوجوه) .

وابدأ بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم(١)

(١) البيت من قصيدة طويلة فى الحكمة والعظة منسوبة إلى أبى الأسود الدؤلى ، ومنها :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه	فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها	حسدا وبغضا : إنه لذميم
وترى اللبيب محسدا لم يجترم	شتم الرجال وعرضه مشتوم
فاترك مجاراة السفيه فانها	ندم ، وغب بعد ذاك وخيم
وإذا جريت مع السفيه كما جرى	فكلاكما فى جريه مذموم
لا تكلمن عرض ابن عمك ظالما	فاذا فعلت فعرضك المكلوم
وترى الخلىّ قرير عين لاهيا	وعلى الشجىّ كآبة وهموم
وإذا طلبت الى كريم حاجة	فلقاؤه يكفيك والتسليم
فاذا رآك مسلما ذكر الذى	حملته فكأنه محتوم
واذا طلبت الى لئيم حاجة	فألح فى رفق وأنت مديم
والزم قبالة بيته وفناءه	بأشد ما لزم الغريم غريم
وعجبت للدنيا ورغبة أهلها	والرزق فيما بينهم مقسوم
والأحمق المرزوق أعجب من أرى	من أهلها والعاقل المحروم
ثم انقضى عجبى لعلمى أنه	قدر موافٍ وقته معلوم
يأيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيما يصح به وأنت سقيم

ونراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبدا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويهتدى	بالقول منك وينفع التعليم =

[الحديث الفصيح والحديث الملحون] :

وأما الفصيح من الكلام فهو ما وافق لغة العرب ، ولم يخرج عما عليه أهل الأدب ؛ ولتصحيح ذلك وضع « النحو » ؛ ولجمعه وضعت الكتب فى اللغة ، وذكر المستعمل منها ، والشاذ ، والمهمل . وحق من نشأ فى العرب أن يستعمل الاقتداء بلغتهم ، ولا يخرج عن جملة ألفاظهم ، ولا يقنع من نفسه بمخالفتهم ؛ فيخطئوه ويلحنوه .

واللحن ما خالف اللغة العربية وخرج عن استعمال أهلها وما بنى عليه إعرابها ؛ وهو معيب عند الأدباء فى الجملة ؛ وعلى من يأخذ نفسه بالاعراب ويتكلم بالغريب من لغة الأعراب أعيب ، ويروى أن عمر - رضى الله عنه - كان يضرب على اللحن(١) . فأما العرب فاذا لحن الواحد منهم - لقربه من

= لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك - إذا فعلت - عظيم

وأبو الاسود هو ظالم بن عمرو بن سفيان من الدئل بن بكر بن عبد مناة ، وهو أول من وضع النحو ورسم أصوله باشارة من الإمام على - كرم الله وجهه - أو إشارة من زياد بن سمية ، وهو أول من وضع الشكل بالنقط فى المصاحف فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف والكسرة نقطة أسفله والضمة نقطة من الجهة اليسرى والتنوين نقطتين بمداد مخالف فى لونه سواد الصحيفة . وهو معدود من وجوه التابعين والفقهاء والمحدثين والشعراء والأشراف والفرسان والدهاة والنحاة وذوى الجواب الحاضر والشيعة والبخلاء له نظم رائق فى كثير من الأغراض ، واشتهر بكثير من شعر الحكمة والعظة . وتوفى حوالى سنة ٦٩ هـ عن خمسة وثمانين عاما (أخباره وأشعاره فى الشعر والشعراء والأغانى ج ١٢ ، وخزانة الأدب — الشاهد الأربعين — وغيرها) .

(١) أى كان يعاقب بالضرب بالسوط على مخالفة الفصيح .

الحاضرة ونزوله على طريق السابلة(١) ـ سقطت عند أهل اللغة منزلته، ودُفعت ورفضت لغته، وإنما يصح الإعراب لأحد رجلين: إما أعرابى بدوى قد نشأ حيث لا يسمع غير الفصاحة والإصابة، فيتكلم على حسب عادته وسجيته، ومتى خوطب باللحن لم يفهمه، مثل ما يحكى عن رجل قال لبعض الأعراب وقد سأله عن أهله: «كيف أهلك؟» فقال له الأعرابى: «قتلا بالسيف إن شاء الله»، فظن الأعرابى أنه إنما سأله كيف يموت؛ ولو قال له: «كيف أهلُك» لأجابه بجوابه. ويروى أن الوليد قال لرجل: «من ختنَك؟» قال: «يهودى». فضحك الوليد منه، فقال: «لعلك أردت من ختنُك، فهو فلان بن فلان»(٢) وإما للمولد(٣) الذى قد تأدب ونظر فى النحو واللغة وأخذ بهما نفسه ومرر عليهما لسانه حتى صار ذلك عادة له. فأما لغيرهما فليس يصح إعراب(٤).

وربما اغتفر فى دهرنا هذا اللحن والخطأ للإنسان فى كلامه لكثرة اللحن فى الناس وأنه قد فشا وعظم وفسدت الفصاحة بمخالطة العرب الأعاجمَ

---

(١) الحاضرة: خلاف البادية ومثلها الحضر والحضرة وكذلك الحضارة (بالكسر) أما الحضارة (بالفتح) فهى الإقامة فى الحضر. والسابلة: القوم المختلفون على الطريق المسلوكة، وتسمى هذه الطريق سابلة أيضا.

(٢) الوليد هو الوليد بن عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموى المعروف. تولى الخلافة سنة ٨٦ هـ بعد أبيه، وظل فيها عشرة أعوام، وكان لحانا. وختنك الأولى فعل من الختن والختان وهو قطع الغرلة، وختنك الثانية اسم والختن (بالتحريك) هو الصهر أو كل من كان من قبل المرأة كأبيها وأخيها.

(٣) عطف على قوله: «إما أعرابى بدوى...»

(٤) أى: فأما لغير هذين الرجلين وهما الأعرابى البدوى والمولد المتأدب فليس يستقيم إعراب؛ وهذه محصلة حتمية لم نفد جديدا.

والأقباط(١) وسائر الأجناس . فأما في الكتاب فغير مغتفر له ذلك ، لأن الطرف يتكرر نظره فيه. والروية تجول في إصلاحه ، وليس كمثل الكلام الذي يجرى أكثره على غير روية ولا فكرة . وأما المواضع التي يجب أن يستعمل اللحن فيها ويتعمد له في أمثالها ويكون ذلك مما يوجبه الرأى(٢) ، فهو عند الرؤساء الذين يلحنون ، والملوك الذين لا يعربون . فمن الرأى لذى العقل والحنكة والحكمة والتجربة ألا يعرب بين أيديهم ، وأن يدخل في اللحن مدخلهم ، ولا يريهم أن له فضلا عليهم ، فإن الرئيس والملك لا يحب أن يرى أحداً من أتباعه فوقه ، ومتى رأى أحداً منهم قد فضله في حال من الأحوال نافسه وعاداه وأحب أن يضع منه ، وفي عداوة الرؤساء والملوك لمن تحت أيديهم البوار . ومن ذلك ما يحكى عن بعض من تكلم في مجلس بعض الخلفاء الذين كانوا يلحنون فلحن فعوتب على ذلك ، فقال : « لو كان الإعراب فضلا لكان أمير المؤمنين إليه أسبق » . وسأل الوليد رجلا عن سنيه فقال : « كم سنيك ؟ » ، فقال : « أربعين » ، قال : « لحنت » ، فقال : « إنما أتبعك يا أمير المؤمنين » ، قال : « فكم سنوك ؟ » ، قال : « أربعون » . وقد يستملح اللحن في الجوارى والإماء وذوات الحداثة من النساء ، لأنه يجرى مجرى الغرارة منهن وقلة التجربة ، وفي ذلك يقول الشاعر :

وحديث ألذه هـو مما تشتهيه النفوس يوزن وزنا

---

(١) الأقباط : أهل مصر قبل الإسلام وفي البرهان (الأنباط) وهم جيل نزلوا بالبطائح بين العراقين .

(٢) اتسع المصنف في تجويز اللحن والخطأ والخروج على الفصاحة بداعى التقية والخوف . وليس بمثل هذا يستقيم اللسان ، وإن هذا الاتساع ـ أو هذا السماح ـ يفتح بابا عظيما من الشر على لغة القرآن ، وما أحرانا أن نتواصى بالفصحى ، وأن نيسر تعليمها ، وأن نرغب فيها !

منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا(١)

ولست أدرى كيف صار اللحن عند هذا الشاعر خير الحديث وأحسن أحواله، وأن يغتفر لمستعمليه؛ وأظنه أراد أملح الحديث، فاضطره الوزن إلى أن جعل فى موضع ذلك «خير الحديث». وقد تأول له بعض الناس فقال: إنما أراد باللحن الفطنة للمعانى؛ ومنه قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «إنكم لتتحاكمون إلىّ ولعل أحدكم ألحن بحجته» يريد: أفطن لها؛ وما أتى فى هذا التأويل بشىء لأن قوله «منطق صائب» قد أتى على إصابة المعنى فما وجه فطنتها لذلك أحياناً(٢)؟!.

---

(١) البيتان من شعر يقوله مالك بن أسماء(*) بن خارجة الفزارى فى جارية له، وهو ممن عملوا لبنى أمية؛ ولاه الحجاج بن يوسف ولاية أصبهان. ويقول عنه ابن قتيبة (الشعر والشعراء ٢ / ٧٨٢): كان شاعرا غزلا ظريفا. ورواية البيتين عنده:

وحديث ألذه هو مما يشتهى الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نا وأحلى الحديث ما كان لحنا

وكذا رواية البيت الثانى فى البرهان، وهى لا تتفق مع تعقيب المصنف

(٢) فى الأمالى لأبى على القالى (١ /٥): عن ابن الأعرابى: يقال: لحَن الرجل يلحن لحْنا فهو لاحن إذا أخطأ، ولحِن يلحن لحَنا فهو لحن إذا أصاب وفطن وأنشد البيتين، وعلى هذا يكون معنى «تلحن أحيانا»: تصيب أحيانا قال أبو على: فيكون معنى قوله (منطق صائب) أى قاصد للصواب =

(*) وأسماء هو أبوه. وإذا كان علما لمذكر هل يصرف أو يمنع الصرف؟ الذى يفهم من سيبويه وشراحه أنه يمنع الصرف لأنه أدرجه فى الأسماء التى فى آخرها زيادتان زيدتا معاً فحذفتا فى الترخيم معاً. وقيل يمنع من حيث غلبة تسمية المؤنث به فيلحق بسعاد وزينب؛ وقيل يمنع لأنه فى الأصل «وسماء» ثم قلبت الفاء همزة كما قلبت فى أحد وأجم وأناة. وعند التحقيق نقول بصرفه إذا كان منقولا عن الجمع بزنة (أفعال).

[الحديث الصواب والحديث الخطأ] :

وأما الخطأ والصواب ، فان الصواب كل ما قصدت به شيئاً فأصبت المقصد فيه ولم تعدل عنه . ومنه قيل : « سهم صائب » ، و « أصبت الغرض » ؛ وصواب القول من ذلك مأخوذ . ويقال : « قول صائب » من صاب يصوب

= وإن لم يصب ، و (تلحن أحيانا) أى تصيب وتفطن ، و (خير الحديث ما كان لحنا) أى ما كان إصابة وفطنة . ويقال: لحَنَ الرجل يلحن لحْنا إذا تكلم بلغته ولحَنت له لحْنا إذا قلت له قولا يفهمه عنك ويخفى على غيره ، ولحِنه مني لحْنا أى فهمه ، وألحنته أنا إياه إلحانا ، وهذا مذهب أبى بكر بن دريد فى تفسير البيتين ؛ يريد بقوله (وتلحن أحيانا) « تُعَوِص فى حديثها فتزيله عن جهته لئلا يفهمه الحاضرون » ، وبقوله (وخير الحديث ما كان لحنا) « خير الحديث ما فهمه صاحبك الذى تحب إفهامه وحده وخفى على غيره » .

والمصنف يرفض تأويل ابن الأعرابى . أما تفسير أبى بكر بن دريد فيرتبط بما ذكرناه عن « اللحن » (ص ٦١) وما ذكره المصنف عن الرمز (ص ٧٠) . ومن أمثلته (عن الأمالى) : أن أسيرا من بنى العنبر كان فى يد بكر بن وائل أرسل إلى قومه مع رسول من بكر : أبلغ قومى التحية وقل لهم : ليكرموا أسيرهم فان قومه لى مكرمون ، وقل لهم: إن العرفج قد أدبى ، وقد شكَت النساء ، وأمرهم أن يعروا ناقتى الحمراء فقد أطالوا ركوبها وأن يركبوا جملى الأصهب بآية ما أكلت معكم حَيْساً ، واسألوا الحارث عن خبرى . فلما أدى الرسول الرسالة ظنوا بصاحبهم الجنون ، وقصوا على الحارث خبره فقال لهم : قد أنذركم ؛ أما قوله (قد أدبى العرفج) فانه يريد أن الرجال قد استلأموا أى لبسوا الدروع ؛ وقوله (شكت النساء) أى اتخذن الشكاء للسفر ، وقوله (ناقتى الحمراء) أى ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الصَّمَّان وهو الجمل الأصهب ، وقوله (بآية ما أكلت معكم حيسا) يريد أخلاطا من الناس قد غزوكم ؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط ؛ فامتثلوا ما قال وعرفوا الحوى كلامه .

وهو صائب ، مثل قال يقول وهو قائل . و « قول مصيب » ، من أصبت في القول أصيب إصابة وأنا مصيب والقول مصيب أيضاً ؛ كما تقول أردت الشيء أريده إرادة وأنا مريد . والقول المصيب هو مما أعطى المفعول فيه اسم الفاعل ، مثل « راحلة » ، وإنما هي مرحولة ، و « عيشة راضية » ، وإنما هي مرضية(١) . وقد مدح الله — عز وجل — الصواب فقال : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾(٢) .

ومن الصواب : أن يعرف أوقات الكلام ، وأوقات السكوت ، وأقدار الألفاظ ، وأقدار المعاني ، ومراتب القول أيضاً ، ومراتب المستمعين له ، وحقوق المجالس ، وحقوق المخاطبات فيها ؛ فيعطى كل شيء من ذلك حقه ، ويضمه إلى شكله ، ويأتيه في وقته وبحسب ما يوجبه الرأى له ؛ فانه متى أتى الإنسان بكلام في وقته أنجحت طلبته ، وعظمت في الصواب منزلته ؛ ولذلك ترى من له الحاجة إلى الرئيس يرقب لها وقتاً يراه فيه نشيطاً فيكلمه في حاجته ، فيكون يسير القول منه في ذلك القول منجحاً ؛ لأنه متى كلمه وهو ضيق

(١) وهذا هو الإسناد المجازى وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ماهو له لملابسة مع قرينة صارفة عن أن يكون الإسناد إلى ماهو له ويسمى أيضا المجاز الحكمى ، أو المجاز العقلى ، أو المجاز في الإثبات ، ومن أمثلته (ا) « عيشة راضية » ؛ أسند راضية وهو مبنى للفاعل إلى ضمير العيشة وهو مفعول لأن المعيشة مرضية والراضى صاحبها . (ب) سيل مفعم ؛ أسند مفعم وهو مبنى للمفعول إلى ضمير السيل وهو فاعل لأن السيل هو الذى يقوم بالإفعام . (ح) جد الجد ؛ أسند الفعل للمصدر والجد في الحقيقة للجاد . (ء) ليل قائم ؛ أسند الفعل لضمير الزمان . (ه) طريق سالكة ، أسند الفعل لضمير المكان . (و) حفت بنا المسرات ؛ أسند الفعل للسبب .

(٢) سورة النبأ — الآية ٣٨ . وهى في بعض المواقف يوم القيامة ، يشفع الروح — جبريل — والملائكة إذا أذن الله لهم .

الصدر أو مشغول ببعض الأمر كان ذلك سبب حرمانه وتعذر قضاء حاجته.

وارتقاب الأوقات التى تصلح للقول وانتهاز الفرصة فيها إذا أمكنت من أكثر أسباب الصواب وأوضح طرقه. ثم متى سكت عن الكلام فى الأوقات التى يجب أن يتكلم فيها لحقه من الضرر بترك انتهاز الفرصة مثل ما يلحقه من ضرر الكلام فى غير وقته ؛ ولذلك قال أمير المؤمنين - رضى الله عنه - : « انتهزوا الفرص ؛ فإنها تمر مر السحاب » .

وللسكوت أوقات هو فيها أمثل من الكلام وأصوب ؛ فمنها السكوت عن جواب الأحمق والهازل والمتعنت ؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

وأصمت عن جواب الجهل جهدى   وبعض الصمت أبلغ فى الجواب

وقال بعضهم : « رب سكوت أبلغ من منطق » . ومنها السكوت عن مقابلة السفيه على سفهه ، واللئيم على ما ينالك منه ، والتصون عن إجابتهما ، والحلم عما يبدر منهما . وقـــد مدح الله الحلم فقال : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾(١). وسمى نفسه الحليم(٢) وقال الشاعر :

ولم أر مثل الحلم زينا لصاحب   ولا صاحباً للمرء شراً من الجهل

---

(١) سورة التوبة — الآية ١١٤ . وكان إبراهيم — عليه السلام — وعد أباه أن يستغفر له ، فلما تبين لإبراهيم أن أباه يموت كافراً تبرأ منه وقطع استغفاره والأواه : المبالغ فى التأوه وينشأ عن فرط الرقة، والحليم: الصفوح الستار وذو الحلم ، والحلم الأناة والعقل .

(٢) فى الآيات : ٢٢٥ و ٢٣٥ و ٢٦٣ من سورة البقرة ، و ١٦٥ من آل عمران ، و ١٢ من النساء ، و ١٠١ من المائدة ، ٤٤ من الإسراء و ٥٩ من الحج ، و ٥١ من الأحزاب ، ٤١ من فاطر ، ١٧ من التغابن .

وقال الله - عز وجل - فى وصف المؤمنين وتنزههم عن مقابلة الجاهلين ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاما ﴾(١)، وقال : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾(٢)، وقال : ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾(٣)، وقال الشاعر :

متاركة اللئيم بلا جواب ... أشد على اللئيم من الجواب

وقال آخر :

وقد أسمع القول الذى كاد كلما ... إذا ذكرته النفس قلبي يُصدع

فأبدى لمن أبداه منى بشاشة ... وأنى مسرور بما منه أسمع

وما ذاك من عُجْب به، غير أننى ... أرى أن ترك الشر للشر أقطع

---

(١) سورة الفرقان — الآية ٦٣ . وهى فى عباد الرحمان . يغضون عن الجاهلين وهم السفهاء ولا يقابلونهم بمثل جهالتهم ؛ لئلا يأثموا مثلهم . وقالوا سلاما - معناه : قالوا قولا سديدا يسلمون فيه من الإيذاء والإثم أو معناه : قالوا تسلما منكم لانجاهلكم ومتاركة لكم فلا خير بيننا ولا شر فأقيم السلام مكان التسلم .

(٢) سورة القصص — الآية ٥٥ . وسبقت فى ص (٢٤٧) .

(٣) سورة الأعراف - الآية ١٩٩ وهى مما أدب الله به نبيه - ﷺ قال تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ؛ وأخذ العفو أى أخذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم وذلك فى غير الزكاة المفروضة أو أخذ ما عفا من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة دون تطلب الجهد منهم وما يشق عليهم حتى لا ينفروا . والأمر بالعرف أى الأمر بالمعروف والجميل من الأفعال . والإعراض عن الجاهلين الحلم عنهم والإغضاء على ما يسوء منهم ، ترك مجادلتهم وعدم التسفه بمثل سفاهتهم .

والحلم إنما هو عن نظيرك أو من هو دونك، فأما من هو فوقك أو مسلط عليك فليس يسمى السكوت عن مقابلته حلما ؛ بل هو بباب التقية أشبه ، وبالمدارة أليق ؛ وبذلك أوصى الشاعر حين يقول :

بنى ؛ إذا ما سامك الدهرَ قادرٌ عليك فان الذلَّ أحرى وأحرزُ
ولا تحمَ في كل الأمور تعززاً ؛ فقد يورث الذلَّ الطويل التعززُ(١)

ومما يستحسنه الأدباء ويراه صواباً كثير من العلماء : الحلم عن النظير ومن هو دون النظير ؛ لأنه يبين عن فضل الإنسان في نفسه ويرفعه عن مقابلة من جهل عليه ووضع نفسه لأذيته ! وقد قيل : « من عاجل نفع الحلم كثرة أعوان الحليم على الجاهل » . والتقية والمدارة للسلطان والرئيس في دفع المرهوب من جهتهم واجتذاب المحبوب منهم ومقابلة من يرى نفسه فوقك ، ويتوهم أن إمساكك عنه [خوف] منه ، فيجترئ عليك بحلمك وسكوتك عنه فيما ينوبك منه ؛ ولذلك قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾(٢) ، وقال : ﴿ ولمن انتصر

---

(١) ينسب البيتان إلى أبي الطمَحان القيني ، واسمه حنظلة بن الشرقي ، وقيل : ربيعة بن عوف .

وهو شاعر إسلامي متهم في دينه (الشعر والشعراء : ١/٣٨٨) واختار له أبو تمام في ديوان الحماسة في أكثر من غرض .

(٢) سورة البقرة ـ الآية ١٩٤ . وفيها يعطي الله المسلمين الحق في القصاص عندما يقع عليهم عدوان بالطريقة أو بالمستوى الذي وقع به العدوان . وقد جاءت مؤكدة لما سبق من قـــوله تعالى : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص » . (راجع أيضاً ما قلناه في ص ٢١١ من هذه الآية) .

بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾(١) . وإنما كان الصواب فى مقابلة من هذه حاله ؛ لأن فى مقابلته قطعاً لمادة أذيته ، وردعاً له عن معاودة مثل فعله ؛ وقد قال الشاعر :

إذا كنتَ عند الحلم تزداد جرأة ... علىَّ وعند العفو والصفح تجهل

ردعتُك عنى بالتجاهل والخنا ... فإنهما عندى لِمثلك أمثل(٢)

وقال آخر :

---

(١) سورة الشورى — الآية ٤١ . وقال تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ؛ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ؛ إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ؛ أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . والمعنى : يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ، فمن عفا وأصلح بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء فأجره على الله ؛ إنه لا يحب الظالمين الذين يجاوزون الحد فى الانتقام والانتصار ممن ظلموهم ومن انتصر بعد الظلم الواقع عليه ليس عليه سبيل لمعاقب أو عاتب أو عائب ، إنما السبيل على الذين يبتدئون الناس بالظلم ويبغون فى الأرض تكبرا وعلوا وفسادا ، ولهم عذاب أليم . ومن صبر على الظلم والأذى وغفر وعفا وفوض إلى الله الأمر إن ذلك منه لمن عزم الأمور .

ونعود إلى الآية المستشهد بها ؛ « من » فيها موصولة وعاد الضمير على لفظها أولا وعلى معناها بعد ذلك ، والمصدر « ظلمه » مضاف إلى مفعوله وتفسره قراءة من قرأ : « بعد ما ظُلم » .

(٢) تجهل : تشتم وتسفه . ردعتك : زجرتك التجاهل : أى عدم المبالاة . الخنا : أى حديث الخنا وهو الحديث الفاحش غير اللائق . أمثل : أشبه أو أفضل .

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا(١)

(١) ألا : استفتاحية تنبه إلى ما بعدها . لايجهلن : نهى ، والفعل مؤكد لتقوية النهى . فنجهل : نتيجة مسببة عن جهل الخصوم وسمى عقابه جهلا من باب المشاكلة ، ولم يشأ أن يعاقب بالمثل فهو يتزيد فوق جهل الجاهلين ويربى على سفاهتهم ؛ لأنه فى جاهلية من أمره وعصره . والبيت لعمرو بن كلثوم من معلقته التى مطلعها :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا *

والشاعر هو عمرو بن كلثوم بن مالك من تغلب بن وائل ، ساد قومه وهو ابن خمسة عشر عاما ، وقادهم ضد بكر بن وائل فى حرب البسوس ، التى وضعت أوزارها على يد عمرو بن هند آخر ملوك الحيرة من آل المنذر . ويذكرون فى سبب إنشاد المعلقة أن بنى تغلب وبنى بكر تلاحوا فى مجلس الملك وأن الحارث بن حلزة أنشد الملك قصيدته (آذنتنا ببينها أسماء) واستماله إلى بكر ، فغضب عمرو بن كلثوم وفارق المجلس مغضبا ثم بدا للملك خاطر فسأل ندماءه : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمى ؟ قالوا : نعم أم عمرو بن كلثوم لأن أباها مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل أعز العرب وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب وابنها عمرو بن كلثوم وهو سيد قومه . فركب الملك رأسه وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيره وأمه ، فلما حضرا دخل عمرو بن كلثوم فى رواق الملك ودخلت ليلى أم عمرو بن كلثوم فى قبة من جانب الرواق مع هند أم الملك ، ودعا الملك بالطرف ، فقالت هند لليلى : ناولينى ذاك الطبق . قالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : واذلاه ! يا لتغلب ! فسمعها ابنها وثار الدم فى وجهه ، والتقط سيفا وجده بالرواق معلقا ، ووثب على عمرو بن هند فأطاح برأسه ، وصاح فى بنى تغلب فانتهبوا الرواق وساقوا النجائب ورحلوا .

(*) وبعض يرى مطلعها البيت التاسع بعد هذا البيت ، وهو :

قفى قبل التفرق ياظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

. . . .

ومن المحتمل أن الشاعر بدأ بعد قصيدته مفاخرا ومغاضبا بعد ما فارق مجلس الملك إثر انحيازه إلى بكر، ثم زاد فيها إثر وثوبه عليه، لأن فيها تناولا للأمرين: وقد شهر بها — وإن كانت له مقطعات غيرها — لأن قومه شغلوا بها حتى قيل فيهم:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

وساعد على سيرورتها: سهولة ألفاظها، ورقة عباراتها، وانسياب نغماتها، ووضوح معانيها، وما فيها من حديث الفخر الطويل الذي يشبع النفس الفاخرة ويرضى كبرياءها.

قالوا: عاش عمرو بن كلثوم قرنا ونصف القرن، وتوفي قبيل البعثة المحمدية. ولما حضرته الوفاة جمع بنيه وأوصاهم: «يا بني، قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائي، ولا بد أن ينزل بي ما نزل بهم من الموت، وإني والله ما عيرت أحدا بشيء إلا عيرت بمثله؛ إن كان حقا فحقا، وإن كان باطلا فباطلا. ومن سب سب، فكفوا عن الشتم فانه أسلم لكم، وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم، وامنعوا من ضيم الغريب؛ فرب رجل خير من ألف، ورد خير من خلف. وإذا حدثتم فعوا، وإذا حدثتم فأوجزوا؛ فان مع الإكثار تكون الأهذار. وأشجع القوم العطوف بعد الكر. كما أن أكرم المنايا القتل. ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا من إذا عوتب لم يعتب. ومن الناس من لا يرجى خيره، ولا يخاف شره؛ فبكؤه خير من دره، وعقوقه خير من بره. ولا تتزوجوا في حيكم فانه يؤدي إلى قبيح البغض»*

(أشعاره وأخباره في المعلقات، والشعر والشعراء ج ١. والأغاني ج١٢ وخزانة الأدب، وغيرها).

(*) الأهذار: جمع هذر وهو سقط الكلام. لم يعتب: أي لم يرض عاتبه. بكؤه خير من دره: يعني (منعه خير من عطائه) وأصل البكء قلة اللبن أو انقطاعه.

وأما أقدار الألفاظ وأقدار المعانى ، فهو أن يأتى بالمعنى فيما يليق به من اللفظ ، وقد مضى الكلام فيه بما أغنى عن إعادته (١) .

وأما مراتب القول ومراتب المستمعين له فهـــو حسن التلطف فيه ، والإتيان به على تقدير وتمرين لسامعه ، وحسن حيلة فى إيراد ما يقبل عليه وتجنيب ما ينكره ، وألا يهجم منه عليه بما يغضبه ، أو لا يحتمله قلبه ، ولا يسعه صدره ، ولا يليق به قبوله . ثم يزيده شيئاً بعد شىء حتى يبلغ به أقصى مراده منه ؛ فيكون فى ذلك مثل المربى للصبى ؛ فإنه متى هجم عليه بالغذاء من أول مرة قتله ؛ ولكنه يسقيه اللبن ، ثم ينقله فى الغذاء من حال لطيفة إلى ما هو فوقها حتى يكمل تربيته ؛ أو كالطبيب الحاذق ، الذى إذا رأى

---

(١) لعله يحيل على ما تضمنه كلامه قريبا عن جد الحديث وهزله (ص٢٤٥) وسخيفه وجزله (ص٢٤٨) ، وحسنه وقبيحه (ص٢٥٢) .

وإلى هنا وقف كتاب (نقد النثر) وختم بهذه العبارة : «وأما مراتب القول ومراتب المستمعين له فقد تقدم القول فيه . وبالله التوفيق » وأحال محققا الكتاب على ما ذكره المصنف من أوصاف الخطابة (راجع ص ١٧٩ من كتابنا) .

وقد خطر لى خاطر ، لم أحققه ، وهو أن تأليف ما يلى يغاير تأليف ما مضى ؛ مما يحمل على الظن بأنهما مؤلفان للكتاب لا واحد ، وأن المؤلف الثانى كان من الذكاء والحصافة بحيث استقامت له طريقة سابقه فى التأليف ، وربما كان المؤلف واحداً فى القسمين واختلفت ظروف التأليف .

ومع هذا نستمر فى نقل المتن عن كتاب (البرهان) وحده ؛ ونبذل بعض العناء فى تقويم الأخطاء التى لم تستدرك عند الطبع ؛ ونتحمل تبعة ما نصلحه وإن لم نشر إليه نصا ؛ وسنضع بين عاضدتين كل كلمة أجرينا قلمنا فيها . ونرجو المسامحة إن قصر اجتهادنا .

العليل يكره الدواء ويمتنع من أخذه لطف به ، واحتال فى إقامة شىء مكان مكان شىء ، وخلط ما يستبشع طعمه بما يذهب ببشاعته ، والتدبير لذلك ؛ حتى يسهل عليه أخذه ، ويبلغ مراده من نقهه(١) ، ولذلك بدأ الرسول — عليه السلام — فى أول النذارة(٢) بالدعاء إلى التوحيد بشهادة الإخلاص [فقط] ، ثم لم يزل يزيدهم فريضة بعد فريضة ، وأمراً بعد أمر ، إلى أن أكمل لهم الدين ، وانتهى فى ذلك ، ولو هجم به عليهم فى أول وهلة لاستثقلوه ورفضوه ، وخالفوه ولم يقبلوه ، فينبغى للقائل أن يكون بصيراً بترتيب قوله ، عالما بمراتب المستمعين له فى قبوله ، فلا يأتيهم منه بما ينافر طبائعهم ويكون سبباً إلى إعراضهم ، ثم لا يزال يلطف لهم فى ذلك ويرقيهم [من] حال إلى حال فيه ، حتى يبلغ بهم مقصده ، فإن ذلك أصوب فى الرأى ، وأولى بالقبول . وقد أوصى بعض حكماء العرب بنحو ما قلناه فقال : « اعلم أنه لا يتهيأ لك نقل رجل عن طريقته بالمناقضة والمكابرة(٣) ، ولا سيما إذا كان ذا سلطان أو ذا نخوة »(٤) ، ولكنك تقدر أن تعينه على رأيه ، وتنبهه

---

(١) يقال : نقه من مرضه (كفرح — ومنع) نقها ونقوها صح وفيه ضعف ، أو أفاق ، فهو ناقه .

(٢) النذارة (بالكسر) : الإنذار والنذير .

(٣) يبدو أن المقصود بالمناقضة هنا معارضة المخاطب فى رأيه أو قوله ، بأى طريق من طرق المعارضة ، وهذا أعم من أن نقصره على معارضته بادعاء نقيض رأيه . والمكابرة : المنازعة بغرض بيان فضل المتكلم وليس بغرض إظهار الصواب أو إلزام المخاطب .

(٤) السلطان (بالضم) : القدرة أو الحجة ، وذو السلطان : صاحبهما ، والسلطان أيضا : الوالى . والنخوة (بالفتح) : العظمة والزهو والمروءة ، وذو النخوة : صاحبها .

على إحسانه وتقربه إلى قلبه ، فإنك إذا قربت منه المحاسن كانت هى التى تكفيك المساوىء، وإذا استحكمت من ناحية من الصواب كان ذلك الصواب هو الذى يبصره الخطأ بألطف من تبصيرك ، وأعدل من قضيتك ؛ لأن الصواب يؤيد بعضه بعضا ، ويدعو بعضه إلى بعض .

و[أما] حقوق المجالس وحقوق القول فيها ، فان مجالس السلطان مخالفة لمجالس الرعية ، ومجالس العلماء مخالفة لمجالس الجهال ، ومجالس الجد مخالفة لمجالس الهزل .

فحق العامل أن يعظم مجالس السلطان والعلماء فلا يأتى فيهما مخالفة بشىء من الخنا ولا الهزل ولا اللهو(١) ؛ إلا أن يشاء السلطان ذلك منه ، فيأتى ما يأتى ذلك عن إذنه وطاعة لأمره وتحسب ما يحتمله نشاطه ، من غير زيادة على ما يخرج به عن حد الخلاف عليه ، والعصيان لأمره ، ولا يملى لنفسه مع ذلك فى الاسترسال(٢) ، والجرى على عادة النفس فى الإهمال .

وأن يكون فى مجلس السلطان بين ثلاثة أحوال(٣) : إما أن يكون منصتا ، أو معظماً لحقه عن الابتداء بالكلام فى مجلسه ، أو مجيباً عما يسأل عنه من غير دخول فى جواب مسألة لغيره ، أو منهياً نصحه إليه فيما أصلح

---

(١) الخنا من القول : فاحشه . والهزل : ضد الجد . واللهو : الاشتغال بما لا يعنى بما لا تقتضيه الحكمة ، وقيل : هو اللعب .

(٢) يملى : يطيل والاسترسال : الانبساط والاستئناس . والمعنى : لا يعطى نفسه الحق فى إظهار رغائبها منبسطا بل ينبغى أن يكبح جماح نفسه ولا يدعها تنطلق ، وتجرى – كما قال بعد – على عادتها .

(٣) هى أحوال أربعة كما ترى ، إلا أن يجعل الإنصات وإعظام حق السلطان عن أن يبدأ بالكلام فى مجلسه حالا واحدا ؛ وفى كليهما صمت .

ملكه ورعيته من غير أن يشوب النصح بالسعاية ، أو يخلط المشورة بالنميمة، والتحميل على الرعية ؛ فالتوقير للرؤساء والأئمة مما قد أمر الله ـ سبحانه ـ به حيث يقول :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾(١).

---

(١) سورة الحجرات ـ الآيتان ٢و٣ . وفيهما من الأدب النهى عن إيذاء الرسول برفع الصوت إلى الحد الذى يجاوز صوته ـ ﷺ ـ إذا تكلم وإذا سكت ؛ لئلا يتعرض مرتكب هذا الفعل لحبوط عمله . ومدحت الآية الثانية أولئك الذين تأدبوا بهذا الأدب فغضوا أصواتهم وأسروها ، إكباراً للرسول . وقيل : معنى « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض » : لا تخاطبوه بمثل مخاطباتكم فتقولوا له : يا محمد ـ يا أحمد ، ولكن خاطبوه بالنبوة وبالرسالة . و « أن تحبط أعمالكم » أى خشية أن تحبط ، وهى علة للأمرين المنهى عنهما معا وهما رفع الصوت والجهر بالقول *. وحبوط الأعمال بطلانها مستعار من حبوط البطن ، يقال : حبطت الماشية إذا أكلت الخضر فنفخ بطنها وربما هلكت ، ومنه حديث الرسول : « وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يلم » . وجاءت الآية الثانية منظومة نظما بليغا ؛ ففى مبدئها تأكيد بأن ووقوع المسند إليه موصولا يتعرف بصلته ، وما فى هذه الصلة من حديث عن الأدب الذى تأدبوا به وهو حديث فيه شىء من الطول يشوق إلى غايته ، وتأتى هذه الغاية فى صورة مماثلة مضافا إليها تعريف آخر فى هذه الغاية « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » التى تقع ـ فى الوقت =

---

* وعند الإعراب يكون فى موضع المفعول له للثانى مقدرا فى الأول عند البصريين ، وللأول مقدرا فى الثانى عند الكوفيين .

والنصيحة للأئمة واجبة ، فقد روى « جرير » أنه بايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والنصيحة .

وروى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « إن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين »(١) .

والسعاية والنميمة وتحميل السلطان على الرعية مذمومان عند الحكماء ،

= نفسه - خبراً المسند إليه في أول الآية ، وفي امتحان قلوبهم للتقوى استخلاص لها لتثبت وتظهر تقواها ، ولا تتأتى لها إلا عن صبر واحتمال ، وبعد هذه الغاية استئناف يحدد الجزاء ، ويأتي الجزاء مبهما « مغفرة » و « أجر » فيذهب الذهن في تقديرهما كل مذهب ، ويوصف الأجر بأنه عظيم ؛ وبمثل هذا النظم تطمئن النفس إلى قيمة هـــذا الأدب الذى تأدب به مثل أبى بكر وعمر فى حضرة النبي ، وأن هؤلاء المتأدبين عرفوا منزلة الرسول فأكبروا شأنه ، كما أن فيه تعريضا بالجارمين الذين أجرموا بإيذاء النبي حين رفعوا أصواتهم فوق صوته .

(١) وفى رواية تميم بن أوس الدارى : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » . وشرحنا هذا الحديث شرحا مبسوطا فى كتابنا (الهدية السعدية شرح الأربعين النووية) ج ١ ص ٩٥ ط ٢/١٩٧٢ .

وفى هذا الحديث يقرر الرسول الكريم أن الإسلام مبنى على إخلاص الرأى والقول والعمل ونقائها من الغش والتدليس وعلى جمع الكلمة واستقامة الأمر ، ويظهر ذلك فى أداء حق الله من الإيمان به وطاعته والامتثال له ، وحق القرآن الكريم من الإيمان به وتعظيمه والانتصار له ، وحق الرسول من الإيمان به وطاعته واتباع سنته ؛ وحق أئمة المسلمين وعامتهم من إرشادهم إلى ما يصلح دينهم ودنياهم وإظهار الحق لهم وعدم غشهم .

وقد روى أن « أفلاطون »(١) أعرض عن « أرسطاطاليس » لشيء بلغه عنه ، فسأله عن سبب إعراضه ، فقال : شيء بلغنيه الثقة عنك ، فقال : « الثقة لا يكون نماماً » وروى أن رجلا سعى إلى « الإسكندر »(٢) ببعض أصحابه ، فقال [الإسكندر] : « إن أردت أن أقبل قولك فيه على أن أقبل قوله فيك فعلت ، وإلا فدع الشر يدعك » .

وأن يكون فى مجلس العلماء فى أحد ثلاثة أحوال : إما سائل متعلم ، أو منصت متفهم ، أو مذاكر بالعلم للتعلم . فقد روى : كن عالما أو متعلماً أو منصتاً ، ولا تكن الرابع(٣) فتهلك .

وأن يوقر العلماء ، ويتملقهم ؛ فقد روى فى بعض الحديث : « ليس الملق فى أخلاق المؤمن إلا فى طلب العلم » . وروى عن أمير المؤمنين — عليه السلام : « حق العالم ألا تكثر عليه السؤال حتى تضجره ، وألا تأخذ بثوبه . وإذا دخلت على قوم فسلم عليهم جميعا وخصه بالتحية ، واجلس بين يديه ، ولا تغمز بعينك ، ولا تشر بيدك إلى مجلسه ، ولا تكثر من قول (قال فلان وقال فلان) خلافا عليه ، ولا تضجر بصحبته » .

---

(١) أفلاطون الفيلسوف الإغريقى ، تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو ، وعن أستاذه سقراط أخذ الاتجاه الإشراقى * وقد تبع أستاذه فى الفلسفة الأدبية والأخلاق ، وتبع هيرقليطس فى الطبيعيات ، وفيثاغورس فيما وراء الطبيعة . وقال أفلاطون بثلاثة أصول هى الإله والمادة والإدراك واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح . وتتميز كتاباته ومحادثاته بأسلوب المحاورات .

وسبق التعريف بأرسطو (ص ١٩٠) .

(٢) الاسكندر : أحد الملوك الذين ملكوا الدنيا فى القديم واتسعت فتوحاته فى الغرب والشرق ، وكان مع بسطته فى الملك حكيما شجاعا داعية إلى التوحيد .

(٣) الرابع : الثرثار أو الأحمق أو المتعالم

---

* وهناك اتجاهان آخران : الاتجاه الكريبى ، والاتجاه السكابى

وذكرنا فى [أول] الحديث(١): وأن يكون فى مجلس الجد جادا فى منطقه وقوله، غير مهجن بكلامه ونفسه باستعمال الهزل والإضافة فيه ؛ فقد قيل : لا تخلط الجد بالهزل فيسخفه ، ولا تخلط الهزل بالجد فيكدره(٢) .

وإن اضطرته حال إلى مجالسة السفهاء وأهل الهزل فليكن بينهم [سليما](٣)، وعن جملتهم خارجا ، ولما هم فيه نافيا ، وعنه بسمعه معرضا ، وليكن فى استعمال ما لا إثم فيه من المرح والهزل ، وما لا يسقط مروءة ولا يثلم ديناً ولا جاهاً ، قاصداً إلى ترويح قلبه وإجمامه لمعاودة ما فيه نفعه ؛ فقد روى أن فى حكمة [آل]داود : على العاقل — ما لم يكن مغلوبا على أمره — أن يجعل نهاره أربع ساعات :

فساعة يناجى بها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى بها إلى إخوانه الذين ينصحون له و [يَصْدُقونه] عن عيوبه(٤) ، وساعة يخلى بين نفسه فيها وبين شهواته ولذاته فيما يحل ويجمل ؛ فان فى هذه الساعة له عونا على هذه الساعات .

---

(١) راجع ص (٢٤٥) .

(٢) أى لا تخلط الجد بالهزل فيسخف الهزل الجد ؛ لأن حديث الجد يبدو سخيفا إذا خلط بالهزل، ولا تخلط الهزل بالجد فيكدر الجد الهزل ؛ لأن حديث الهزل قوامه الانبساط والاسترسال فاذا خالطه الجد فقد قوامه

وللجد أوقات وللهزل غيرها   فلا تخلطن بالجد هزلا ولا لعبا
ولا تخلطن بالمزل جدا إذا جرى   حديث مزاح قد جمعت له الصحبا *

(٣) أى سالما مما هم فيه ، على الرغم من وجوده بينهم .

(٤) أى يصدقونه الحديث عن عيوبه ، فيكشفونها له حتى يعرفها ويتلافاها فيتخلص من النقائص . والصديق من صَدَقك لا من صدَّقك .

---

* للشارح عفو الساعة .

وأما مجالس السوقة فليس يخلو من عاش بينهم من حضورها ولا بد للإنسان من ملابستهم فيها ، فحق العاقل ألا يلقاهم بكل رأيه ، ولا بجميع عقله فيها ، وأن يستعمل فى مخاطبتهم ومعاملتهم بعض المقاربة لأحوالهم ؛ فإن ذلك أولى بسياستهم . وقد روى أن عمر — رضى الله عنه — صرف زياداً(١) عن بعض عمله ؛ فقال له : ألذنب كان صرفك إياى ؟ . فقال : لا ؛ ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على العامة . وقد فسر هذا المعنى بعضهم .

والناس فى أشكالهم أمثل ، وربما كان التغابى من الإنسان للعوام والتغاضى لهم فى الأمور العظام أحد الطرق المستقيمة إلى بلوغ المراد منهم ؛ لأنهم متى تصوروا الإنسان [فى] صورة من هو أعلى فى الفهم والضبط منهم ؛ حذروه ، واستعملوا الاحتراس منه فيما ينبغى أن يحترس منه [و] فيما لا ينبغى ، واستشعروا [منه] فى جميع أمره الحيلة عليهم ، فاستدت الطرق بذلك على معاملهم فى بلوغ مراده منهم ؛ وإذا كان عندهم مساوياً لهم فى

---

(١) هو زياد بن سمية ، وكانت سمية أمة للحارث بن كلدة الثقفى فقرنها بعبد رومى يسمى عبيداً فولدت له زيادا فى السنة الأولى للهجرة ، فنشأ غلاما شجاعا فصيحا ، وأظهر نجابة وذكاء جعلت عمر بن الخطاب يستعمله ثم يعزله خشية أن يتسلط بعقله على الناس فلا يطيقوه . ولما رأى أبو سفيان بعد إسلامه فصاحة زياد وذكاءه الخارق أسر إلى بعض قريش أن زيادا ابنه اشتملت عليه سمية منه وهو مشرك وأنف من استلحاقه علانية . وعمل زياد للإمام على فأبلى بلاء حسنا فى توطيد الأمر له بفارس ، ولما قتل على خشى معاوية بأسه فقربه إليه ، واستلحقه بنسب أبيه ، واستعمله واليا على العراقين ، فغالى فى تخويف الناس وتثبيت الأمر لمعاوية . توفى بالكوفة فى رمضان سنة ٥٣ هـ .

العقل والحيلة والتجربة والرجلة(١) استرسلوا إليه . وعاملوه بمثل معاملة بعضهم لبعض ؛ فلا بأس أن يتغابى العاقل لهم ، وأن يظهر ما يستديم به أنسهم واسترسالهم ، ولا يفتح باستعمال غيره باب التقبض والاحتشام(٢) بينه وبينهم من غير أن يزيد فى ذلك على مقدار ما توجبه السياسة ، فانهم متى اجترءوا عليه وطمعوا فيه لحقه من الضرر بذلك أكثر مما يلحقه بانقباضهم عنه . وقد أمر معاوية عمراً حين أرسله للحكومة هذا الذى ذكرناه بعينه فقال : « قد وجهتك إلى رجل قريب الغور ؛ فلا تلقه بكل عقلك ، وأجد الحز ، وأصب المفصل » ؛ ولولا مقاربة عمرو لأبى موسى وتخادعه له لما تم له ما يريد منه(٣) .

---

(١) الرجلة هى الرجلية (كلتاهما بالضم) والرجولية (بالضم أو الفتح) وهى الكمال فى صفات الرجل . والناس اليوم يقولون : « الرجولة » وهم لم يبعدوا قياسا على الأنوثة والطفولة

(٢) الاحتشام : الاستحياء ، والحشمة : الحياء والانقباض .

(٣) قصة التحكيم ملخصها أن أهل العراق — وكانوا مع الإمام على — زحفوا على أهل الشام — وكانوا مع معاوية — فى يوم الهدير وهو أعظم أيام صفين فأزالوهم عن مراكزهم حتى هم معاوية بالهزيمة فأشار عليه عمرو ابن العاص برفع المصاحف فى أطراف الرماح والمناداة : (هذا كتاب الله يحكم بيننا وبينكم) . نظر أهل العراق إلى المصاحف فارتدعوا واختلفوا وبعد ممانعة من على فى قبول التحكيم رضخ لرأى جمهوره فى قبوله وهم أن يغيب عنه أبا الأسود الدؤلى فأبى الناس عليه وقدموا أبا موسى الأشعرى فقدمه وقدم معاوية عمرا ، وجعل عمرو يخادع أبا موسى حتى خدع ، ثم اتفقا على أن يخلع كل منهما صاحبه ويجعلا الأمر لعبد الله بن عمر بدعوى انه لم يحضر فى فتنة ولم يغمس يده فى دم مسلم ، وعند إعلان الحكومة تقدم أبو موسى فخلع عليا وتلاه عمرو فأثبت معاوية . (تفصيل التحكيم فى العقد الفريد : ٥ / ١٠٣) .

وينبغي أن يجعل وَكْده وكَدّه مداراتهم على طبقاتهم، وإعطاء كل صنف منهم من القول ما يرضيه ؛ فان العاقل من داری أهل زمانه ، وقد قال رسول الله — ﷺ — : « رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس» ، فان أمكنك ذلك باستعمال الحق في بعض والمعارضة في البعض ، فقد ظفرت بما إليه أجرت الحكماء وقصدت العلماء ؛ وإن لم تظفر بذلك — لاختلاف جبلات الناس ، وأن اجتماعهم على الرضا بالشيء من الأمور العسرة الوجود — فليكن وكدك مداراة خواصهم وأهل العقل منهم ؛ فان لكل قوم رؤساء وأفاضل ، والمرءوسون أتباع الرؤساء ، والمفضولون تبع للفاضلين ؛ فاذا حزت رضا الرؤساء والنظراء فانك قد حزت رضا الجميع .

وأما الخطأ : فهو ضد الصواب ؛ ومعناه العدول عن المقصد من غير تعمد . وإنما الفرق بين الخطأ والجور — وإن كانا جميعا عدولا عن الطريق المقصود و السبيل المسلوك — أن [الجور عدول عن الطريق بقصد ، و](١) الخطأ إنما هو عدول عن الطريق بغير قصد . والخاطيء اسم الفاعل من خطيء يخطأ خطأ مثل عمل يعمل عملا وهو عامل ، وقال الشاعر في خطيء :

والناس يلحون الأمير إذا هم خطئوا الصواب، ولا يلام المرشد(٢)

والمخطيء اسم فاعل من أخطأ يخطيء وهو مخطيء — مثل أكرم يكرم وهو مكرم .

---

(١) هذه زيادة حتمية ، ويبدو أنها سقطت من الناسخ ، ولعلها تصلح ما بين المحققين في مصر والعراق .

(٢) للأمير عدة معان ، منها ذو الأمر ، والآمر ، والوالي ، والملك .

والذى ذمه الله ـ عز وجل ـ فقال : ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ (١) فهو المأخوذ من الخطيئة لا من الخطأ الذى هو السهو ؛ ولذلك أمر الله عباده أن يسألوه ألا يؤاخذهم بالخطأ الذى من جهة الخطيئة ، لأنه قد وضع عنهم ما لا [يتعمدونه](٢) .

وكل ما قلناه [عن] الصواب فان الخطأ فى ضده .

[حديث الصدق والكذب ، وحديث الحق والباطل] :

وأما الصدق والكذب : فقد ذكرناهما فيما تقدم من كتابنا هذا ، وكذلك الحق والباطل (٣).

---

(١) سورة الحاقة ـ الآية ٣٧ . والمأكول المضمر فى الفعل هو الغسلين المذكور قبل ذلك ، وهو ـ على ما تصوروا ـ غسالة أهل النار وما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم ، لا يجد الخاطئون أى الآثمون طعاما يطعمونه إلا هو ، والعياذ بالله تعالى .

(٢) فى الحديث عن الخطأ والخطيئة كلام كثير ، بعض يرى أنهما بمعنى ، وبعض يرى بينهما فارقا ، ويجعل الخطأ اسما من الفعل « أخطأ » والخطيئة اسما من الفعل « خطىء » ـ من باب علم والمصنف جعله من باب عمل ـ وأخطأ أى أراد الصواب فصار إلى غيره أو أذنب عامدا أو غير عامد فالخطأ ضد الصواب أو هو الذنب أيا كان . وخطىء أى تعمد الذنب أو تعمد ما نهى عنه أو أذنب فى أمور الدين بخاصة عامدا أو غير عامد فالخطيئة الإثم أو الذنب المتعمد أو الذنب فى أمور الدين .

(٣) سبق أن تناول فى البيان بالاعتبار أن من القياس ما يكون تشبيها فى الوصف ، الذى يحكم لشبيه به فى بعض الأشياء فيكون صادقا وفى بعضها فيكون كاذبا ، « والأشياء التى يقع بها الوصف تسعة ، وهى أعراض كلها ؛ =

وقد أمر الله - عز وجل - باستعمال الحق والصدق ، ووصف نفسه بهما فقال : ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ ، ﴿ ومن أصدق من الله قيلا(١) ﴾ ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾(٢). وقال : ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾(٣) ،

= فمنها الحال كقولنا : زيد ظريف ، ومنها العدد كقولنا : المال درهمان ، ومنها المكان كقولنا : زيد خلفك ، ومنها الزمان كقولنا : جاءنى زيد أمس ، ومنها الإضافة كقولنا : هذا ابن زيد ، ومنها القنية (أى الملك) كقولنا : هذا مالك وغلامك ، والنصبة كقولنا : زيد مضطجع وقاعد ، ومنها الفاعل كقولنا : يضرب زيد ، ومنها المنفعل كقولنا : زيد مضروب » ؛ ولهذه الأشياء تفريعات . وتناول المصنف فى البيان بالاعتقاد الحق والباطل ، فالحق هو الذى لاشبهة فيه فهو علم اليقين ، واليقين ماظهر عن مقدمات طبيعية أو ظاهرة فى العقل ، أو خلقية مسلمة بين جميع الناس . والباطل هو ماظهر عن مقدمات كاذبة مخالفة للطبيعة مضادة للعقل، أو جاء فى أخبار الكاذبين الذين يخبرون بالمحال وما يخالف العرف والعادة . وتناول المصنف فى أول (أدب الجدل) - ص ٢٣٠ - ما ينبغى أن يقصد إليه المجادل من رعاية الحق والصدق ومحاذرة الباطل والكذب .

(١) الآيتان ٨٧ و ١٢٢ من سورة النساء على التوالى وقد جمعهما المصنف فأدمجهما ولم يراع ترتيبهما وآثرنا أن نقيله من عثرته .

(٢) سورة يونس - الآية ٣٢ . وجاءت بعد أن قررهم بأنه رازقهم من السماء والأرض ، ومالك أسماعهم وأبصارهم ، ومخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ومدبر الأمر .

(٣) سورة الزمر - الآية ٣٣ . والذى جاء بالصدق وصدق به أى آمن به هو الرسول الكريم ﷺ وأريد به إياه ومن تبعوه بدليل الجموع فى ختام الآية وقراءة ابن مسعود « والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به » . ويجوز أن يكون « الذى » وصفا للفريق الذى جاء بالصدق وصدق به وهو فريق الرسول الذى جاء بالصدق وصحابته الذين صدقوا به .

﴿ وقل : جاء الحق وزهق الباطل . إن الباطل كان زهوقا ﴾(١) .

ولو لم يكن فى شرف الحق والصدق إلا أن جميع الأمم على كثرتها واختلاف طبائعها وهمتها تمدحهما ، وسائر الناس إنما يقصدون بقولهم وفعلهم إصابتهما ؛ [لكفى]، فلا ترى أحداً إلا وهو (يحرص) أن يصدق فى قوله ، وأن يصيب الحق اعتقاده وفعله ، حتى إن الكاذب انما يكذب ليصدق على كذبه ؛ فطلب الصدق قصده ، ونيله بغيته ، والمبطل إنما يقصد الحق فيخطىء فى الوصول إليه ، وطلب الحق قصده وإن كان من المموهين على الناس ؛ فانما يزخرف لهم باطله حتى يقيمه مقام الحق الذى يقبل ويعمل به . وكفى بهذا فضيلة للحق والصدق ، ولمن عرف بهما ، ونسب إليهما ؛ فان الصادق المحق عظيم المنزلة عند الله ـ عز وجل ـ وعند خلقه ، والكاذب المبطل ساقط المحل عند الله ـ عز وجل ـ وعند خلقه . فالعاقل حرىٌّ بلزوم شرف المنزلتين وطلب أعلى الدرجتين إن شاء الله .

ولما علم ـ سبحانه ـ أن الباطل والكذب قرينان [فى] طبائع كثير من عباده ، ملائمان لشهواتهم ، مطابقان [لمداركهم] ، وكان طول استماع الكذب ومعاشرة أهله مخوفين على [أخلاق] الناس ، خليقين بأن يصيرا عادة لهم على طول الملابسة ؛ نهى الله ـ سبحانه ـ عن القعود مع المبطلين ،

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية ٨١ . والحق الإسلام ، والباطل الشرك . ومجىء الحق ظهوره وانبلاجه وزهوق الباطل ذهابه واضمحلاله مأخوذ من زهوق النفس وهو خروجها ومفارقتها الجسد . وقد وصلت الجملة الثانية بالجملة الاولى لتوسطهما بين الكمالين ؛ اتفقتا فى الخبر وبينهما جامع يجمعهما فى المعنى . وفصلت الجملة الثالثة لما بينها وبين الجملة الثانية من كمال الاتصال ؛ فالجملة الثالثة تأكيد لسابقتها ، والتأكيد بمنزلة الشىء ويقتضى هذا ترك الوصل لأن الشىء لايعطف على نفسه ولا على ما هو بمنزلته . وهذه الجملة الثالثة ـ فى الوقت ذاته ـ إطناب من نوع التذييل الجارى مجرى المثل .

كما نهى عن الخوض فى الباطل ، وذم مستمعى الكذب ، كما ذم الكاذبين ؛ فقال ـ عز وجل ـ : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذن مثلهم)(١) ، وقال فى ذم قوم : (سماعون للكذب أكالون للسحت)(٢) .

---

(١) سورة النساء — الآية ١٤٠ وهى فى نهى المسلمين عن القعود مع أحبار اليهود الذين كانوا يخوضون فى ذكر القرآن مستهزئين به ، وكان المنافقون بالمدينة يجالسونهم . و(أن) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وخبرها جملة الشرط ، وأن ومدخولها فى موقع المفعول به للفعل (نزل) * ، والضمير فى (معهم) يعود إلى الكافرين والمستهزئين الذين دل عليهم قوله (يكفر بها ويستهزأ بها) ، والنهى مقيد بوقت خوضهم فى القرآن ، وقوله (إنكم إذن مثلهم) أى إنكم أيها القاعدون مثل هؤلاء الخائضين فى القرآن فى الوزر ، وهذا مبنى على أن القاعدين يرضون أن يستمعوا إلى كفر الكافرين واستهزاء المستهزئين دون أن ينكروا عليهم مع قدرتهم على هذا الإنكار ، ولهذا استحقوا جميعا العذاب بقوله : « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » .

(٢) سورة المائدة — الآية ٤٢ . وهى فى ذم اليهود ، كانوا قابلين لما يفتريه أحبارهم ويفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه ، وكانوا يتعاطون السحت وهو كل ما لا يحل كسبه وكانوا يعطون حكامهم وقضاتهم الرشا ويأخذها الحكام والقضاة لتحريف الأحكام وتحليل الحرام. وفى اختيار الإخبار عنهم بصيغتى المبالغة إشعار بتصميمهم على ارتكاب الفعلين المنكرين كثيراً . وفى إيقاع الأكل على السحت استعارة لأنهم استطعموه وساغته حلوقهم .

---

* وعلى قراءة (نزل) مبنياً للمفعول تكون فى موقع نائب الفاعل .

وكقول الشاعر :

فسامع القول كمن قاله ومطعم المأكول كالآكل(١)

وإنما أمر الله ـ عز وجل ـ الحكماء بذلك ؛ لما قدمناه من الاحتياط على الناس ؛ لئلا يصير ذلك عادة لهم ؛ ولأن استماع الكذب والصبر على معاشرة المبطلين على باطلهم رضا بذلك ؛ ومن رضى بالباطل فهو مبطل ، ومن قنع بالكذب فهو كاذب (فعليه أن يتجنبهم) ويهرب من استماع كذبهم وباطلهم ما أمكنه ذلك ، فإن اضطرته نفسه إلى حضور ذلك أو استماعه صدف عنه ، ولم يرعه سمعه ، وكان كالغائب عنه ؛ فإن ذلك أولى به فى إصلاح أخلاقه وتأديب نفسه .

[الحديث النافع والحديث الضار] :

وأما النافع والضار : فإن النافع من الحديث ما كانت عواقب القول فيه والاستماع له والعمل عليه مفضية بسامعه إلى نفع عاجل أو آجل ؛ والضار ضد ذلك ، فمن النافع طلب الحوائج ، ومنه الشكر للمنعم ، ومنه

---

(١) لعل البيت من قول أحد الطائيين بعد قوله :

إن أدع الشعر فلم أكده إذ أزم الحق على الباطل

قد كنت أجريه على وجهه وأكثر الصد عن الجاهل

ومعنى هذين البيتين : لم أترك الشعر عن عجز وانقطاع حين كبرت وأخذت نفسى برعاية الحق والرجوع عن باطل الصبا ولهوه فقد كنت أجريه على حقه وكنهه ومع ذلك كنت أكثر الإعراض عن الجهال (راجع شرح ديوان الحماسة للتبريزى : ٢٩٤/١) .

ومعنى البيت الشاهد : إن سامع القول الساكت عنه لا ينكره ولا يناقشه بل يكون عنه راضياً فهو كقائله . ومثله مثل من يتولى الاطعام يحس لذة الطعام كما يحسه طاعمه .

حفظ السر ، ومنه [معاتبة] المذنب ، ومنه معاتبة المتنصل من الذنب ، ومنه [التودد] ، ومنه الأخذ [بمشهور] الحديث فى حكايته .

والطلب ينقسم أربعة أقسام : دعاء ، ومسألة ، وطلب ، وأمر(١) .

فالدعاء لله وحده ؛ قال سبحانه : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . أيا ماتدعو فله الأسماء الحسنى ﴾(٢) . والمسألة قد تكون لله ـ عز وجل ـ

---

(١) راجع ما قاله عن الطلب وتعليقنا عليه ص ٠٩ وما بعدها وتلاحظ أولا أنه قسم الطلب إلى أقسام منها الطلب ، وليس ينقسم الشىء إلى نفسه — وهو مأخذ عليه سبق أن نبهنا الى مثله ص ٢٩ عندما قسم الخبر الى خبر وجواب ا — وتلاحظ ثانيا أنه تناول بالتلخيص كلا من الدعاء والمسألة والأمر ، ولم يتناول الطلب المعتبر قسيما لها ، ورجحنا — على نحو ما نشير إليه بعد — أنه قصد بالطلب طلب العلة من المناظر فى الجدل — راجع ص ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) سورة الإسراء الآية ١١٠ . وفيها تخيير للدعاة أن يدعوا الرب باسم الله أو باسم الرحمان ؛ فالرب ذات واحد ومسمى واحد وإن تعددت أسماؤه — جل شأنه روى أن أبا جهل سمع ابن العبس يقول : يا الله — يارحمن ، فقال أبو جهل : ينهانا محمد أن نعبد إلهين وهو يدعو إلها وإلها آخر ؛ ظن أنهما معبودان وروى أن أهل الكتاب قالوا للرسول : إنك تقل من ذكر الرحمان وقد كثر ذكره فى التوراة . وعن الزمخشرى : الدعاء فى الآية بمعنى التسمية لا بمعنى النداء ، والمراد بلفظ «الله» ولفظ «الرحمان» الاسم لا المسمى ، ومرجع الضمير فى قوله « فله الأسماء الحسنى » المسمى وهو ذاته تعالى لأن التسمية للذات لا للاسم ، ويلزم من اختصاصه بالأسماء الحسنى أن دعاءه باسم الله أو باسم الرحمان حسن ؛ لأنهما من جملة هذه الأسماء . وفى إبهام الشرط إشارة إلى استواء الدعاء بأى من الاسمين .

وقد تكون لمن هو فوقك من الرؤساء(١) وفى المسألة لله - عز وجل - يقول الله - عز وجل - ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾(٢) والطلب من النظير ، ومن هو دون النظير . والأمر لمن هو دونك .

فحق العاقل أن يدعو الله - عز وجل - بحوائجه . ويرغب إليه فى أموره ، وأن يعلم أن الخير والشر فى خزائنه ، وتحت قدرته وملكه ، وأنه لا يملك ذلك أحد إلا بإذنه ، فيكون دعاؤه إياه بالإخلاص والإخبات والتضرع(٣) ، كما قال

---

(١) فى نسخة البرهان المطبوعة (من الرؤساء والمديرين) . ولم أسغ المعطوف فحذفته .

(٢) سورة النساء - الآية ٣٢ أى اسألوا الله من خزائنه التى لا تنفد . والآية بتمامها : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ؛ للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ؛ واسألوا الله من فضله ؛ إن الله كان بكل شىء عليما » . نهوا عن التحاسد وتمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من المال والجاه ؛ لأن هذا التفضيل قسمة من الله عن حكمة وتدبير ؛ فليرض كل إنسان بحظه المقسوم له رجلا كان أو امرأة ، وجعل الله ما قسمه لكل من الرجال والنساء مكتسبا لهم وجاء الأمر بسؤال الله من فضله عقيب هذا مما يشعر بخصوصية ، بيد أن العموم منظور إليه فى كل حال .

(٣) الإخلاص لله : إصفاء النفس له ، وهو من الخلوص وهو الصفاء والنقاء مما يكدر ، وأصله فى المحسوسات ونقل إلى المعنويات اتساعا ومنه كلمة الشهادة . والإخبات لله : الخشوع والاطمئنان إليه ؛ مستعار من أخبت صار فى الخبت ، والخبت الأرض الواسعة المطمئنة . والتضرع : تفعل من الضراعة وهى الاستكانة ، وأصله طلب للضرع ، والرضيع يطلب ضرع أمه فهو مستكين لها .

سبحانه : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾(١) وكما قال فى وصف أنبيائه : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾(٢) ، وأن يقدم قبل الدعاء التحميد والتمجيد والثناء على الله — سبحانه ؛ فإن المدح قبل المسألة ؛ وقد روى ذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى حديث مشهور(٣) ، وأن يعلم أن الدعاء هو العبادة الكبرى ؛ ولذلك قال الله - عز وجل - : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾(٤)

---

(١) سورة الأعراف — الآية ٥٥ . أى ادعوا ربكم ذوى تضرع وذوى خفية ، فتضرعا وخفية نصب على الحال والخفية الخفاء والسر . ودعاء السر صاحبه أقرب ما يكون إلى الوقار والخشوع وأبعد ما يكون عن الرياء والسمعة .

(٢) سورة الأنبياء — الآية ٩٠ . وإسراعهم فى الخيرات أى اسراعهم فى تحصيلها ومبادرتهم إليها ، ودعاؤهم رغبا ورهبا أى دعاؤهم وهم على حال من الثقة بالله وإجابته والرهبة منه وخوفه ، وخشوعهم تواضعهم أو خوفهم الدائم .

(٣) حديث سلمة بن الأكوع : « ما سمعت رسول الله — ﷺ — يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول : سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » .

(٤) سورة الفرقان — الآية ٧٧ . والمعنى : قل ما يعتد بكم ربى لولا عبادتكم — والدعاء هنا العبادة على ما ارتآه المصنف — وما نافية وهى عند الزجاج والزمخشرى مضمنة معنى الاستفهام والتقدير عند الأول : أى وزن يكون لكم عند ربى لولا عبادتكم . وعند الثانى : أى اعتداد يعتد بكم ربى أى لا تستأهلون شيئا من العبء بكم لولا عبادتكم ودعاؤكم على هذا مصدر مضاف إلى فاعله والمخاطبون هم عباد الرحمان ، ويجوز أن يكون المعنى ما يصنع بعذابكم ربى لولا دعاؤكم معه آلهة ، ويجوز أن يكون المصدر مضافا إلى المفعول والتقدير ما يصنع بكم ربى لولا دعاؤه إياكم الى الإسلام والمخاطبون فى التفسيرين الأخيرين هم الناس جميعا عابدين مؤمنين وعصاة كافرين . والله أعلم .

فإن من دعا ربه فقد أطاع أمره ، وعرف قدره ؛ لأن الله — سبحانه — بذلك أمره حيث يقول : ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾(١) . [فإن] قال قائل : فإذا كان الله - عز وجل - قد قدر الأشياء تقديراً واحداً ، وعلم ما يكون منها ، وكان غير جائز أن يقع شيء بخلاف ما علم منه ؛ فما معنى الدعاء وقد فرغ الله - عز وجل - مما [يدعى] فيه ؟ قلنا : لو كانت الأشياء السابقة فى علم الله محتومة كلها لكان ما قلت ولم يكن للدعاء موقع ولا للاستجابة موضع ، لكن لله - تعالى - علمين ، أحدهما محتوم ، والآخر موقوف على شرط ؛ وبذلك نطق كتابه ، فقال : ﴿ هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ﴾(٢) .

---

(١) سورة غافر — الآية ٦٠ وفيها عدة تفسيرات ، عن ابن عباس : وحدونى أغفر لكم ؛ فسر الدعاء بالعبادة ثم فسر العبادة بالتوحيد . وعن مجاهد : اعبدونى أثبكم . وعن الحسن : اعملوا وأبشروا فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله

هذا . وقد وعد الله داعيه بالإجابة ووعد الله حق ، ولكن إجابة الدعوة تكون فى واحدة من صور ثلاث : الإسعاف بالمطلوب ، أو ادخار ما قدره الله أفضل مما يطلبه الداعى ، أو أن يحط عنه من ذنوبه ؛ عن الرسول — ﷺ — أنه قال : « ما من داع يدعو إلا كان بين ثلاث : إما أن يستجاب له ، وإما أن يدخر له ، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه » — للإستزادة ترجع الى كتابنا « الهدية السعدية شرح الأربعين النووية » : ١/١٥٣) .

(٢) سورة الأنعام — الآية ٢ . وخلقكم من طين : أى خلق أباكم آدم ؛ فحذف المضاف ، أو خلقكم ابتداء من طين ؛ لأن الطين مادة الخلق الأولى ومنها خلق آدم والأجل المقضى هو أجل الموت ، والأجل المسمى عنده هو أجل للقيامة ، وقيل : الأول أجل الحياة والثانى أجل البرزخ فالأول ما بين أن يولد المخلوق الى أن يموت والثانى ما بين الموت والبعث =

والمحتوم لايتأخر عن وقتـــه ؛ كما قال سبحانه : ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾(١) ؛ والآخر الموقوف على الشرط هو الذى يُدفع مكروهه بالدعاء والصدقة والبر - وغيرى خرجوه بمثل ذلك - وبالإنابة والتوبة ؛ وهو الذى يقول (فيه) الله - عز وجل - : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾(٢) وفيه يقول : ﴿ ومايعمر من معمر

= وقيل : الأول النوم والثانى الموت وقيل: الأول ان مضى والثانى ان بقى ويأتى . هذا ، وسوغ الابتداء بالنكرة فى قوله : « وأجل مسمى عنده » تخصيصها بالنعت ، وقدم المبتدأ — مع إمكان تأخيره — للتنبيه إليه والاهتمام به .

(١) سورة الأعراف — الآية ٣٤ . والمراد بالساعة أقل وقت فى استعمال الناس .

(٢) سورة الرعد — الآية ٣٩ . وفيها كلام كثير ، نبدؤه ببيان المراد من « أم الكتاب » ، قيل : هو اللوح المحفوظ الذى خلقه الله وسجل فيه أحوال الخلق جميعاً حتى قيام الساعة ، وقيل : هو علم الله وهو أصل الكتاب الذى كتب فى الأزل ، وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — : هما كتابان كتاب هو أم الكتاب لا يغير منه شىء وكتاب آخر هو الذى يمحو الله ما يشاء منه ويثبت وهو الكتاب الذى تكتبه الملائكة على الخلق . أما المحو والإثبات فهما حالتان تعتوران الرزق والأجل والسعادة والشقاوة وقيل والإيمان والكفر ، وقيل : ليس الأمر على اطلاقه فالمحو والإثبات يختصان بأشياء دون أشياء ، واختلفوا فى هذه ؛ قيل يمحو الشرائع والفرائض أى ينسخها ويبدلها أو يثبتها فلا تنسخ ولا تبدل ، وقيل يمحو ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء منها فلا يغفرها ، وقيل يمحو القمر ويثبت الشمس كما قال تعالى : « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » ، وقيل يمحو الخطايا من ديوان الحفظة بالصدقات والدعاء والإنابة والتوبة ويثبتها فيه بالاصرار عليها دون التماس غفرانها بشىء مما ذكر ، وقيل يمحو الأجل فيذهب به ويثبت من لم يجىء أجله الى أجله . وقيل غير ذلك .

ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ﴾(١) . ومثله مما قد قص علينا فى القرآن قوله :﴿ ياقوم، ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ﴾،وكانت مكتوبة فى سابق علمه لهم على شرط ، وهو أن يطيعوه فى دخولها،فلما عصوه حرمها عليهم(٢). وقد تواترت الأخبار بأن الصدقة ترد القضاء، وأن بر الوالدين

(١) سورة فاطر – الآية ١١ . والمعمر الطويل العمر ، وعن قتادة – رضى الله عنه – المعمر من بلغ الستين والمنقوص من عمره من يموت قبل الستين . والمعنى ما يعمر من أحد (وإنما عبر عنه بالمعمر تسمية له بما هو صائر إليه) وما ينقص من عمره إلا فى كتاب (وهو اللوح المحفوظ أو علم الله كما بينا أو صحيفة الإنسان) . وقيل : صورة ذلك أن يكتب فى الكتاب الذى بأيدى الملائكة : إن حج فلان فعمره أربعون وإن حج وغزا فعمره ستون .. ونحو ذلك . وعن سعيد بن جبير – رضى الله عنه – يكتب فى صحيفته: عمره كذا سنة ثم يكتب فى أسفلها : ذهب يوم/ذهب يومان/ذهب ثلاثة أيام/وهكذا حتى يأتى على آخرها .

(٢) الآية من سورة المائدة – الآية ٢١ .وهى من حكاية مقال موسى –عليه السلام – لقومه بنى إسرائيل حين خرجوا من مصر . والأرض المقدسة بيت المقدس ، وقيل الطور وما حوله . وكتبها تسميتها أو خطها فى اللوح المحفوظ . وبعد هذه الآية بعدة آيات قال تعالى : « قال : فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ؛ فلا تأس على القوم الفاسقين » – المائدة٢٦– أى فان الأرض المقدسة محرمة عليهم لا يدخلونها ولا يملكونها ، ويبدو شىء من التعارض بين تحريمها و كتبها لهم قال فيه المفسرون : إنه كتبها لهم بشرط أن يجاهدوا الجبارين – اقرأ الآيات من ٢١ إلى ٢٦ – فلما أبوا الجهاد وآثروا القعود قال : فانها محرمة عليهم . وقال بعض المفسرين : إنها محرمة عليهم مدة الأربعين سنة فإذا مضت تحقق ما كتب لهم من دخولها . وقال بعض: لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قالوا: إنا لن ندخلها،وهلكوا فى التيه على مدى الأربعين سنة،ثم نشأت ذرياتهم فقاتلوا الجبارين ودخلوها .

يزيد العمر ، وأشباه هذا ؛ وإنما ذلك فيما هو من علم الله - سبحانه - معلق بشرط عنده ، وقد ذكرنا هذا فى (كتاب الإيضاح) عند ذكرنا [ما] لله - عز وجل - فيه من المشيئة بما أغنى عن إعادته . ولعل من لم يقو تمييزه ويكمل عقله يسوء ظنه بربه - سبحانه - إذا دعاه فلم يستجب له ، ويتوهم أن ذلك بخلف وقع من الله - سبحانه - فى وعده ، أو تهاون بدعاء عبده ؛ وليس الأمر كذلك ؛ لكن ههنا سر فى الدعاء ؛ فيه تنبيه لكثير من الناس على رشدهم ، وهو أن كل أحد مجبول على أن يهيئ لنفسه أعلى المنازل وأشرف المراتب ؛ فهو لا يسأل الله - تعالى - إلا على قدر تمنيه وشهوته ، ولو أعطى الله - عز وجل - كل أحد ما يشاء كان الناس جميعاً فى أعلى طبقة وأشرف منزلة ، ولو صار الناس على هذا يوماً واحداً لاستغنى بعضهم عن بعض ، ولو استغنى بعضهم عن بعض ما ترافدوا ولا تعاونوا(١) ، ولو لم يترافدوا ويتعاونوا لبطلت الحكمة فى سياستهم، ودخل الخلل والإضاعة على جماعتهم؛ لأن الصناع والتجار والمهان(٢) كانوا (يصرفون) عن صنائعهم وتجاراتهم ومهنهم ويستغنون عنها ، فيبقى كل واحد من الناس بغير معين ، وإذا لحق ذلك كل واحد منهم دخل عليه من الضرر فى نفسه وأهله وماله وولده ما لا بقاء معه ولا صلاح بعده ، فإذا دعوت الله - سبحانه - فاعلم أنك تدعو حكيما يسوس الخلق ، ويدبرهم بحكمته ؛ والحكيم لا يعطيك فى نفسك وأنت جزء من خلقه ما ينتقض به تدبيره فى سائر خلقه ويفسد به سياسته فى جميع ملكه ؛ لكنه يستجيب لك فيما ينفعك ولا يضر غيرك ، فإذا منعك فإنما يمنعك ما تفسد به تدبير الكل الذى أنت جزء منه كمنعه إياك لنفعك [إذ] كان حكم الجزء تابعاً لحكم الكل .

---

(١) ترافدوا : تعاونوا وتواصلوا وأعطى بعضهم بعضا ، والرفد (بالكسر) العطاء والصلة . وتعاونوا : أعان بعضهم بعضا .

(٢) جمع صانع وتاجر وماهن . والماهن العامل والخادم ، والمهنة العمل والخدمة .

وأما السؤال فينبغى أن يكون لله -عز وجل- بالتذلل والاستكانة، وللناس بالتعفف والقناعة. ومجانبة التذلل والضراعة؛ فقد روى أن بعض الحكماء سئل عما يقرب العبد من الله - عز وجل - وما يقرب من الناس فقال: أما مايقربك من الله - عز وجل - فأن [تسأله]، وأما مايقربك من الناس فألا [تسألهم]. وروى أن رجلا سأل رسول الله - ﷺ -أن يعلمه عملا يدخله الجنة، فقال: «لا تسأل الناس شيئاً». فإذا أردت حاجة من الله -عز وجل- فاسأله إياها فيما بينك وبينه، وأخلص النية له، وتطهر من الذنوب الموبقة والاستغفار، فإنه سميع الدعاء، فعال لما يريد، واستشعر الإجابة فيما عرفناك فاشكره، ولا تتهمه إن منعك وحماك. وإذا أردت حاجة من المخلوقين فمثل فى نفسك عز الغنى وذل الحاجة وما تريقه من ماء وجهك فى المسألة، ثم انظر فإن كان لك مندوحة عن تلك الحاجة تكرمت عنها وعزفت عن التذلل للمسألة فيها، وإن وجدت الحال يضطرك إليها عملت فى مسألة من لا تعرك مسألته ولا يخلفك بذل له(١)، من رئيس مسلط منبسط اليد، أو رجل معروف بالاسعاف والتكرم والسماحة والتذمم(٢)، وأتيت ما تأتيه من ذلك على سبيل تعفف وتجمل؛ فقد وصف الله - عز وجل - قوماً بذلك فقال: ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ (٣).

---

(١) لاتعرك مسألته: لا تسوءك ولا تؤذيك مسألته، والمعرة المساءة والأذى والإثم والغرم والدية والجناية. ولا يخلفك بذل له: بمعنى لايكون سؤالك إياه سببا فى ذلك ووقوعك ذليلا له.

(٢) المسلط: ذو السلطان. منبسط اليد: أى كريم جواد باذل. الإسعاف: أى الإنقاد فى سرعة؛ يقال: أسعف بالشىء قضاه وساعد عليه وأسرع إليه. التكرم: التماؤ بالخير ويلزمه الجود والكرم. السماحة: الكرم والجود والسهولة. التذمم: الاستنكاف والأنفة والاستحياء.

(٣) سورة البقرة — الآية ٢٧٣. وفسرناها فى ص (٢٥١)

واعلم أن السؤال وإن قل ثمن كل نوال وإن جل ؛ كما قال أكثم بن صيفي(١) . ولم يزل السؤال مكروها عند ذوى المروءة من الرجال ؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

وفتى خــلا من ماله ومن المروءة غير خال

---

(١) أكثم بن صيفى : عرف فى الجاهلية ومبدأ الإسلام بالخطابة والحكمة وضرب المثل ومعرفة الأنساب وتميزت خطبه بالإيجاز مع رشاقة لفظ وإصابة معنى واعتماد على قوة التأثير والإقناع بالبرهان أوفده النعمان ابن المنذر ملك الحيرة إلى كسرى على رأس وفد كلهم خطيب لسن . وأدرك الإسلام فبعث ابنه يأتيه بخبر الدعوة الجديدة وصاحبها ، فلما عاد إليه جمع قومه بنى تميم وحثهم على الدخول فى الإسلام واتباع الرسول وكان ما قاله لهم : « إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران . وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه . إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم ، فان يكن الذى يدعو إليه حقا فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه وبالستر عليه . وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبل وسمى ابنه محمدا ، فكونوا فى أمره أولا ولا تكونوا آخراً ، ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين . إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً كان فى أخلاق الناس حسنا . أطيعونى واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً ، وأصبحتم أعز حى فى العرب ، وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم دارا ، فانى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا يلزمه ذليل إلا عز . إن الأول لم يدع للآخر شيئاً ؛ وهذا أمر له ما بعده ؛ من سبق إليه غمر المعالى ، واقتدى به التالى والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز » (مجمع الأمثال للميدانى) — وأسقف نجران هو قس بن ساعدة الإيادى ، وسفيان ابن مجاشع أحد أجداد الفرزدق الشاعر .

أعطـاك قبل سؤاله وكفاك مكروه السؤال(١)

وليس ينبغى للعاقل أن يسأل مشهوراً بالبخل، ولا لئيما بالطبع، ولا قليل ماء الوجه، ولا حديث عهد بسلطان أو نعمة، فان نتيجة سؤال هؤلاء الحرمان، وهم أعوان الزمان على الانسان، وينبغى له ألا يسأل إلا ممكناً يجوز أن يسعفه، فقد قيل: إن العاقل لا يرد عن حاجته ؛ فقيل: وكيف ذلك؟. قيل: لأنه لا يسأل إلا ما يجوز. وألا يحمل المسئول — إذا أنس منه كرم طبع وحسن إسعاف — فوق طاقته، أو أن ينزل به من مئونته ما يستنفد وسعه؛ فانه إذا فعل ذلك أحوجه (أن) يفظع به(٢)، وفى هذا المعنى يقول الشاعر:

إنك إن كلفتنى ما لم أطق ساءك ما سرك منى من خُلق(٣)

وينبغى له ألا يلح على من يسأله حاجته ولا يبرمه، وأن ينظر أى حالى الاثنين أقرب إلى قلبه وأولى باسعافه، [أهو] طيب النفس بقضاء حاجته إليه بالحياء والاعظام، أم حال من يطلبها إليه بالالحاح والابرام(٤).

(١) البيتان لسلم الخاسر. وهو من شعراء العصر العباسى الأول، تتلمذ فى الشعر لبشار بن برد، وروى عنه، وسلك طريقه، وكثيراً ما كان يأخذ شعره وينسج على منواله فيذهب شعر سلم وينسى شعر بشار. مدح الخلفاء والوزراء وخاصة البرامكة ونال جوائزهم، وله غير المدح شعر فى المجون يعكس طبيعة معيشته الماجنة.

(أخباره وأشعاره فى طبقات الشعراء لابن المعتز، وفى الأغانى للأصبهانى).

(٢) يقال: فظع فلان بالأمر ويفظع به (من باب فرح) أى استعظمه وضاق به ولم يثق فى قدرته على أدائه.

(٣) البيت لعروة بن الورد. سبق التعريف به فى ص (١٢٤)

(٤) الإلحاح على الشىء: الاقبال عليه فى مواظبة ومثابرة والإبرام: التدبير ويستدعى الاحكام، أو الإضجار والإملال. ويستدعيان التكرار.

ثم ليحكم على نفسه بحكمه فى ذلك على غيره ، فلا ينبغى أن تسأل رجلا معونتك على غيره فى حاجة لك ؛ ولذلك الرجل - إلى من حاجتك إليه - حاجة مثل حاجتك ، فإنه لا يقدم حاجتك على حاجته ، ولا يستفرغ الوسع فى معونتك ويدع نفسه ، وربما ضرك إذا اعتمدت عليه وكان من أمرك مقصراً وبجاهه على غير حاجتك موفراً . وقد حكى « الأصمعى »[1] عن بعض موالى قريش أنه قال : « لا تطلبن حاجتك إلى كذاب ؛ فانه يقربها وهى بعيدة ، ويبعدها وهى قريبة ، ولا إلى أحمق ؛ فانه يريد أن ينفعك فيضرك ؛ ولا إلى رجل له عند القوم مثل حاجتك ؛ فانه سيجعل حاجتك وفاء لحاجته » .

---

(١) الأصمعى هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن أصمع الباهلى القيسى البصرى . وإلى جده أصمع ينسب . ولد سنة ١٢٣ هـ من بيت عربى قديم العهد بالكتابة ، ونشأ فى البصرة ، وتلقى علوم اللغة والنحو والغريب عن أعلامها أمثال عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وحماد بن سلمة وحماد بن دريد وعبد الله بن عون وشعبة بن الحجاج ، وكان يكثر الخروج إلى البادية ؛ لمشافهة الأعراب والرواية عنهم ، حتى أثرى رواية وصار أحفظ أهل زمانه فى الشعر والأخبار والأنساب والأيام والنوادر ، وقالوا : إنه كان يحفظ من الأراجيز وحدها أكثر من عشرة آلاف أرجوزة ؛ ولهذا سماه « الرشيد » شيطان الشعر .

وتوفى الأصمعى سنة ٢١٤ هـ تاركا أكثر من أربعين كتابا ، عرف منها : الأصمعيات (وهى مختاراته من الشعر) ، والإبل ، والخيل ، والشاء ، والنبات والشجر ، والنخل والكرم ، والدارات ، وأسماء الوحوش ، وخلق الإنسان ، والغريب ، ورجز العجاج ، والفرق .

(أخباره ونوادره فى : وفيات الأعيان ، وطبقات الأدباء ، والفهرست ، وأخبار النحويين البصريين ، وبغية الوعاة ، والأنساب ، وغيرها) .

وإن كان سؤالك فى طلب العلم ، فالذى يليق بالعاقل ويحسن بالعاقل الالحاح بالطلب ، واللزوم فى الدأب ، وألا يرد وجهه عن الاستقصاء فى استخراج الفائدة ، فقد روى عن الصادق - عليه السلام - أنه قال : على العلوم أقفال ، ومفاتحها السؤال . وقيل : من رق وجهه رق علمه(١) . وقيل لابن عباس : أنى لك هذا العلم ؟ فقال : لسان سئول ، وقلب عقول . وقد ذكرنا [الطلب] والأدب فيه فى الجدل بما أغنى عن إعادته(٢) .

وأما الأمر فينقسم قسمين : أحدهما ما أمرت أن يعمل فيخص باسم الأمر، والآخر ما أمرت بأن يترك فيسمى به نهيا .

ومن الواجب على ذى الحجى وأخى النهى ألا يأمر إذا أمر ، ولا ينهى إذا نهى وزجر ؛ إلا بعد تثبت ونظر ، وأن يأتى فى الأمر والنهى ما هو عند العلماء مألوف ، وعند الحكماء معروف ، بما هو بين النفع لذى الأدب، خارج عن العبث واللعب .

ومن أوجب ما أمر به الانسان ونهى عنه: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأن الله - تعالى - قد حض على ذلك وعنف على تركه وعاقب على إهماله؛ فقال - عز من قائل: (كنتم خير أمة أخرجت للناس؛ تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن

---

(١) أى من استحيا جاء ضعيفا عمله (وربما كان « علمه » على مارجحه الدكتور شرف)

(٢) هذه العبارة فى البرهان (وقد ذكرنا السؤال والأدب فيه فى الجدل بما أغنى عن إعادته) . وسبق فى ص (٢٨٥) تقسيمه الطلب إلى أربعة أقسام هى الدعاء والمسألة والطلب والأمر ، وقد خص القول فى الدعاء والمسألة ، ولم يخص الأمر كما ترى ولم يتناول الطلب بحديث ولا إشارة ، مما يحملنا على الزعم بأنه يقصده بهذه العبارة ، فهو يحيل على ما خصه فى ص (٢٢٠) . ولقد نزعم أنه يريد السؤال لا الطلب فهو يحيل على ص (٢٣٩) .

المنكر ﴾(١) . وقال: ﴿ يا بنى ؛ أقم الصلاة، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، واصبر على ما أصابك ﴾(٢) ، وقال : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه؛

---

(١) سورة آل عمران — الآية ١١٠ . والمخاطب بها أمة الاسلام ، والمعنى : وجدتم خير أمة أظهرت للناس ، أو كنتم فى علم الله — تعالى — كذلك ، أو كنتم فى الأمم قبلكم مذكورين موصوفين بأنكم خير أمة . والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمانة فى عنق الأئمة من العلماء والرؤساء والحكام وأولى الأمر ؛ لتبصير المجتمع والأفراد بما ينبغى لهم وما لا ينبغى ، ولإرشادهم إلى ما يستمسكون به وما ينأون عنه ، ولإرساء أسس العدالة والسلامة فيهم وعلاج الانحراف وحماية المجتمع من المنحرفين . والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب وجوباً كفائياً على القادر عليه ، ومن قام بهذا الواجب استحق النجاة ومن أعرض عنه أخذه الله بعذاب بئيس (لمزيد من التفصيل كتابنا . فى رحاب الهدى النبوى — شرح الحديث الثالث والعشرين : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ؛ فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً ») .

(٢) سورة لقمان — الآية ١٧ . وهى من وصايا لقمان لابنه وهو يعظه . وأقم الصلاة بمعنى عدل أركانها (أخذا من إقامة العود وتقويمه، فشبه تعديل الأركان بتقويم العود واستعير له الإقامة واشتق هذا الفعل بمعناه المستعار على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية) . وبمعنى داوم على الصلاة وحافظ عليها (من قامت السوق وأقيمت — وهذا يقتضى دوامها — على سبيل الكناية) ، وبمعنى تشمر للصلاة واجعلها قائمة (من باب المجاز الاسنادى) . وقوله تعالى : « واصبر على ما أصابك » يجوز أن يكون خاصا بما يصيبه من الأذى بسبب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويجوز أن عاما فى كل ما يصيبه ، وهو المختار .

لبئس ما كانوا يفعلون ﴾(١) ، وقال : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ؛ بما كانوا يفسقون ﴾(٢) .

والمنفعة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بينة ظاهرة ؛ لأن الله - عز وجل - لما خلق الخلق فباعد بين هممهم وفطرهم وخالف بين عقولهم وفكرهم وكان أكثرهم إلى الفساد سراعا وللهوى أتباعا وكانوا متى تركوا (وما) تدعوهم إليه نفوسهم فسدوا وأفسدوا غيرهم وليس للفساد خلقوا ولا بما خالف الصلاح جعلوا ؛ أمر الله - عز وجل - الأنبياء بتأديبهم وأمرهم بحثهم والأخذ على أيدى سفهائهم ، وأقام الأئمة فى ذلك بعد الأنبياء

---

(١) سورة المائدة - الآية ٧٩ . وهى فى صفة الذين كفروا من بنى إسرائيل وجاءت تفسيرا لما اتهموا به فى الآية السابقة من العصيان والاعتداء ، وقوله : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » أى كانوا لا ينتهون عنه ولا يمتنعون منه بل كانوا يداومون على فعله ويصرون عليه ، ويجوز أن يكون المعنى كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن المنكر . وتدل الجملة — من أخصر لفظ وأوجزه — على أنهم كانوا يفعلون المنكر وأنهم كانوا يتركون النهى عنه أى عن أمثاله بعد وقوعه . وجاء قوله : « لبئس ما كانوا يفعلون » توبيخا مؤكدا بالقسم يحمل معنى الذم على ما فعلوه ويتضمن التعجيب من سوء فعلهم .

(٢) سورة الأعراف - الآية ١٦٥ . كان أهل قرية أيلة - وقيل : طبرية وقيل : مدين - نهوا عن الصيد فى يوم السبت ؛ ابتلاء واختبارا أو عقابا ، فلم ينتهوا وتحايلوا على الصيد فيه ، ووعظهم صلحاؤهم ونهوهم عن السوء فلم يتعظوا ولم ينتهوا أيضا ، فلما نسوا - أى تركوا ترك نسيان - ما ذكروا به أنجى الله الصلحاء الواعظين وأخذ أصحاب الخطيئة بعذاب بئيس أى شديد ؛ بسبب فسقهم وهو عدوانهم على حدود الله وتماديهم فى الشر .

مقامهم ؛ وقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾(١)؛ فجعل الأمر والنهى باللسان لذوى العقول والأبصار ومن يردعهم الحياء عن مقارفة ما لا يليق بذوى الأخطار ، وجعل السوط لمن لا ينفعه الزجر من شراب الخمور ومن مرتكبي الفجور، وجعل السيف لمن لا [ينفع] فى تأديبه [السوط] من المتقاتلين والبغاة والمارقين ؛ وكل ذلك أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . وقد روى : «من رأى منكم منكرا فلينكره بيده ،فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان »(٢) .

---

(١) سورة البقرة ــ الآية ٢٥١ . وفى الكشاف : المعنى « ولولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون وفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض وقيل: ولولا أن الله ينصر المسلمين على الكفار لفسدت الأرض بعبث الكفار فيها وقتل المسلمين . أو لو لم يدفعهم بهم لعم الكفر ونزلت السخطة فاستؤصل أهل الأرض » .

(٢) وهذه رواية مسلم عن أبى سعيد مرفوعا . وفى رواية « من رأى منكم منكرا فليغيره .. الحديث » وفى إحياء علوم الدين ــ كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « ما بعث الله ــ عز وجل ــ نبيا إلا وله حوارى ، فيمكث النبى بين أظهرهم ما شاء الله ــ تعالى ــ يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره ، حتى إذا قبض الله نبيه مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وبسنة نبيهم ، فاذا انقرضوا كان من بعدهم قوم يركبون رءوس المقابر يقولون ما يعرفون ويعملون ما ينكرون ، فاذا رأيتم ذلك فحق على كل مؤمن جهادهم بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وليس وراء ذلك إسلام » . وروى مسلم نحوه .

وليس من العدل عند ذوى العقول أن يصلح الانسان غيره وهو غير صالح فى نفسه ، ويقوم أخلاق الناس بقوله وفعله وهو غير مقوم فى خلقه ؛ وإنما ينبغى أن يبتدئ بنفسه فيحملها على ما يريد إحلاء الناس به(١) ؛ فإنها أقرب إليه وأولى بنصيحته ، فاذا انقادت له أخذ فى إصلاح عيوب غيره ؛ ومن ذلك قول الله ـ عز وجل: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾(٢) وقال المسيح ـ عليه السلام : «ما بالك ترى القذاة فى عين أخيك ولا ترى السارية التى فى عينك ! . أخرج أولا السارية من عينك ، ثم أخرج القذاة من عين أخيك»(٣) . وقد روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ : «أنه يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه(٤) فيدور بها كما يدور

---

(١) إحلاء : مصدر أحلى . يقال : أحليت فلانا بكذا جعلته يتحلى به ويتصف .

(٢) سورة البقرة ـ الآية ٤٤ : نزلت فى أحبار اليهود ؛ قيل : كانوا يقولون لأقاربهم سرا : هذا الدين الذى جاء به محمد هو الحق ، ولا يتبعون محمدا ؛ وقيل كانوا يحثون على الصدقة ولا يتصدقون ، أو كانوا يأمرون بالأمانة فاذا أوتوا بصدقات ليفرقوها خانوا فيها . والاستفهام للتقرير المتضمن التعجيب والتوبيخ والتقريع . والبر المعروف وسعة الخير . ونسيانهم أنفسهم أى تركهم لها من البر كالمنسيات.

(٣) القذاة : ما يسقط فى العين من الغبار ونحوه ، والسارية : الأسطوانة . وليست القذاة والسارية مقصودتين لذاتيهما ، وإنما أريد بهما فى الجملة تصوير اشتغال المرء بالعيب التافه يراه فى غيره وانصرافه عن العيب الجسيم يكون فى نفسه .

(٤) تندلق أقتاب بطنه : تخرج من مكانها . والأقتاب الأمعاء واحدها قتب (بالكسر) .

الحمار بالرحى فتجتمع عليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، أما كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر !. فيقول : كنت آمر بالمعروف ولا أفعله وأنهى عن المنكر وآتيه » .

ومن الحق أيضاً عند ذوى الحكمة ألا يبذلوا نصيحتهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمن يعاديهم على ذلك ويخافون سطوته فيه ولا يرجون قبوله إياه ولا رجوعه إليه ؛ فإن ذلك جهل من فاعله ، وهو شبيه بوعظ الأصم ومخاطبة الموتى فى قلة الانتفاع به ، والتضبيع له ؛ ونظيره التعرض للسبع بما يغضبه وللأفعى بما يوثبه(١) ، فهو إنما يتعرض من بلاء هذه الطبقة لما لا يطيقه ؛ ولذلك استعمل أهل الدين والفضل والحكمة والعقل التقية هذه وأمروا بها وأطلقها الله ورسوله ؛ فروى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال لأبى ثعلبة الخشنى : « يا أبا ثعلبة ، ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحا مطاعا وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك نفسك » - وذكر باقى الحديث (٢) ،

---

(١) يوثبه : يجعله يثب أى يقفز ، وقفز الأفاعى بمعنى اندفاعها نحو فرائسها وحقه أن يعيد الضمير مؤنثا لأن الأفعى مؤنث ومذكرها الأفعوان - راجع كتاب مبادى اللغة للخطيب الإسكافى ص ١٥٤ .

(٢) روى الحديث أبو داود والترمذى وابن ماجه، وأخرجه ابن حبان والحاكم وإسحاق وأبو يعلى والطبرانى قال أبو أمية الصنعانى أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له : كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ . قلت : قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » (*) قال : أما - والله - لقد سألت عنها خبيراً ؛ سألت رسول الله ﷺ - فقال =

(*) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

وروى عن الحسن أنه قال: قال رسول الله - ﷺ -. «ليس للمؤمن أن يذل نفسه. قيل: وكيف إذلاله لنفسه؟ قال: أن يتعرض من البلاء لما لا يطيقه». وقال سفيان: «أنا لا أنهاك عن أن تأمر وتنهى؛ إنما أخاف عليك أن تبتلى فلا تصبر». وأما ما روى عن الصادقين - عليهم السلام - من أنه لا دين لمن لا تقية له، وقال العالم - عليه السلام -: «التقية ديني ودين آبائي»(١).

فإن قال قائل: إنك قلت: إن الأمر والنهى لمن هو دونك، ثم ذكرت ههنا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فجعلتهما لمن هو دونك ولمن هو فوقك ممن يبسط يده عليك وتخاف أن يسبق بمكروه إليك؛ فما وجه ذلك؟ قلنا: إن المأمور المنهى من الملوك وغيرهم، فإن كانوا فوق الآمر لهم والناهى بالقدرة والسلطان فإنهم دونه فى حقيقة الإيمان؛ لأنهم إذا ارتكبوا من الأمور الموبقة المفسدة ما يوجب [عليه] نهيهم عنها ووعظهم فيها، فقد صارت منزلتهم دون منزلته فى حكم الشريعة وترتيب العقل.

فأما من دون الانسان من تابع وعبد وغيرهما؛ فالواجب على العاقل ألا يأمرهم من حوائجه إلا بما يطيقونه، ولا (يحملهم) منها مالا يحملونه،

= «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا مارأيتم شحا مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه؛ فعليك نفسك ودع أمر العوام. وإن من ورائكم أياما الصبر فيهن كالقبض على الجمر، العامل منهم أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله». وفى رواية: «... إن من ورائكم فتنا كقطع الليل المظلم، المتمسك فيها بمثل الذى أنتم عليه أجر خمسين منكم» قيل: بل منهم يارسول الله، قال: «لا. بل منكم؛ لأنكم تجدون على الخير أعوانا، ولا يجدون عليه أعوانا».

(١) لم يذكر المصنف جواب «أما». ولعله لا يقبل قبولا مطلقاً ماروى عن الصادقين — أى أئمة الشيعة، وعن هذا «العالم» الذى نجهل اسمه.

وأن يعلم أنهم بشر مثله . فان الله - سبحانه - فضله عليهم ، ليبلو شكره ، وصبرهم دونه ، ليبتلي صبرهم. وإن من العدل عليهم ألا يأتي إليهم إلا ما يجب أن يؤتى إليه لو كان في مثل حالهم ، فلا يضر بهم ، ولا يجهدهم، ولا يمنعهم مصلحة لهم ، وأن يأتي في صلاحهم وسياستهم ما يأتيه في سياسة نفسه وولده وأخص أهله ، من حيث لا (يرخى) لهم العذار فيما يفسدهم ، ولا يلزمهم من الدعة ما يعيقهم(١) ، فاذا فعل ذلك كان قد مضى بحبهم ، وبلغ مراده منهم إن شاء الله . وقد جاء في الخبر عن النبي - ﷺ - أنه قال: « أوصاني جبريل بالمماليك حتى ظننت أنه سيورثهم ،وبالنساء حتى ظننت أن طلاقهن حرام » ، وروى أيضاً أنه قال - عليه السلام : « إذا ملك أحدكم مملوكا فليحسن إليه ، فانه كما ملككم رقابهم فلا بد أن يملكهم رقابكم(٢) » . والله أعلم .

---

(١) العذار : ما سال على خد الفرس من اللجام ، وشده كناية عن العزم والمضي والتصميم وهو المقصود بعدم إرخائه ، فقوله « لا يرخى لهم العذار » بمعنى لا يترك لهم التصرف على هواهم بل عليه أن يأخذهم بعزم ومضاء لا ينثني عن قصده والدعة . الخفض والسعة في العيش، ومعنى قوله : « لا يلزمهم من الدعة ما يعيقهم » لا يترك لهم أن يتسعوا فيستنيموا ولا يبالوا النصيحة .

(٢) في إحياء علوم الدين (كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق) : كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ قوله : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون ، فما أحببتم فأمسكوا ، وما كرهتم فبيعوا . ولا تعذبوا خلق الله ، فإن الله ملككم إياهم ، ولو شاء لملكهم إياكم» وهذا النص مفرق في عدة أحاديث رواها الشيخان وأبو داود.

وأما الشكر ، فان فيه امتراء للمزيد(١) ومكافأة للنعمة . وقد أمر الله ـ سبحانه ـ به ؛ فقال ـ عز وجل : ﴿ فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ، ولا تكفرون ﴾(٢) ، وقال : ﴿ ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم ﴾(٣) ، وقال : ﴿ اعملوا ـ آل داود ـ شكرا ﴾ (٤) . والمنفعة أن المنعم إذا شُكر تبين ثمرة عمله وزكاة حرثه ، وقد قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾(٥) .

(١) أى طلبا له واستخراجا . وأصله من مرى الضرع وامترائه أى حلبه واستخراج ما فيه من لبن . وفى المثل (بالشكر تمترى النعم) .

(٢) سورة البقرة — الآية ١٥٢ . أمروا بذكر الله — سبحانه — وشكره ، ونهوا عن كفره وذكرهم الله يكون بالطاعة والعبادة والنصيحة والإخلاص ، وشكرهم إياه لما أنعم عليهم . أما الكفر فهو جحد النعمة وقد نهوا عن ذلك وإذا ذكروا الله ذكرهم بالثواب ، وقد جرى هذا على معتاد أمورهم .

(٣) سورة النمل — الآية ٤٠ وجاءت فى حكاية سليمان وبلقيس عندما رأى عرشها مستقراً قائما عنده ، واعتد هذا من فضل الله ؛ ابتلاء له أيشكر أم يكفر ، قال سليمان : « ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى حميد » والمعنى : من شكر فانما يحط بشكره عن نفسه عبء الواجب ويصونها عن سمة الكفران ، ومن كفر النعمة فان الله غنى عن الشكر كريم بالإنعام على من يكفر نعمته .

(٤) سورة سبأ — الآية ١٣ . أمر الله آل داود أن يعملوا لله ويعبدوه على وجه الشكر لنعمائه . وينتصب « شكراً » على أنه مفعول لأجله ، أو على الحال بتقديره (شاكرين) ، أو على المصدرية بتضمين « اعملوا » معنى (اشكروا) .

(٥) سورة إبراهيم — الآية ٧ . وهى مما قال موسى لبنى إسرائيل حكاية عن المولى — عز وجل — والمعنى : لئن شكرتم — يا بنى إسرائيل — ما خولتكم من النجاة من آل فرعون وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح لأزيدنكم نعمة إلى نعمة ، ولئن كفرتم ما أنعمت به عليكم إن عذابى لشديد جزاء جحودكم وكفرانكم .

وقال الشاعر :

نبئت عمراً غير شاكر نعمتى والكفر مخبثة لنفس المنعم(١)

ومن فعل بك جميلا فأنت مرتهن بشكره أو مكافأته ، بذلك حكمت شريعة العقل ، وقضى محض العدل . وقد أوجب الله المكافأة على القول والفعل ؛ فقال : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾(٢) ، وقال : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾(٣) .

---

(١) البيت لعنترة من معلقته . واخترنا فى ص ١٣٧ أن أباه « شداد » ، وقد قيل : إن أباه عمرو بن شداد . وربما كان شداد وعمرو لمسمى واحد ـ الأول لقب والثانى اسم ـ فقد اعتادوا أن يسموا بهما وبالكنية معا . وهذا البيت يقول فيه : نبئت أن عمرا لا يشكر نعمتى ـ ولعلها قيام عنترة بتخليصه وأهله من الأسر — وكفران النعمة وهو عدم شكرها ينفر نفس المنعم عن الإنعام . والفعل « نبأ » أحد سبعة أفعال تنصب ثلاثة مفاعيل ، وهى : أعلم وأرى وأنبأ ونبأ وأخبر وخبر وحدث . والكفر الجحود والإنكار . ومخبثة مصدر كالخبث وهو ضد الطيب وبمعنى مفسدة ، وكفران النعمة مخبثة لنفس المنعم ؛ لأنها لا تطيب للاقدام على مثلها ، وقد يحملها هذا الكفران على تغيير خيمها فتفسد .

(٢) سورة النساء — الآية ٨٦. وهى فى التحية وردها أى إجابتها . والمختار أن ابتداء التحية سنة وردها واجب . والتخيير فى الآية بين رد التحية بمثلها والزيادة عليها بما يجعلها أحسن منها ، وكلاهما حسن ، وجعلت الزيادة أولا للتنبيه على اختيارها والحث عليها . وإفشاء السلام نافذة على المحبة والتآلف ، وسبب من أسباب التودد والتواصل ، وسبيل إلى التأدب بأدب النبوة (راجع فى كتابنا — التعريف بالحديث الشريف ص ٨٧ — ما كتبناه عن « العلاقات العامة ») .

(٣) سورة الرحمن ـ الآية ٦٠. أى ما جزاء الاحسان إلا الاحسان =

فجزاء من أحسن إليك أن تكافئه بمثل فعله إن لم يتهيأ لك ما هو أفضل منه ؛ فإن أعجزتك المكافأة شكرته ، ونشرت محاسن فعله ، وذكرت ما نالك من فضله ؛ فقد أمرك الله - سبحانه - بأن تشكره ، وتتحدث بنعمته لما أعجزك عن مكافأته ؛ فقال : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾(١).
وقال الشاعر :

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه ... يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك فإن من ... أثنى عليك بما فعلت فقد جزى(٢)

= عبارة تفيد القصر بطريق النفي والاستثناء - والتقدير: جزاء الإحسان في العمل الإحسان في الثواب ولقد تعلم أن النفي بأداة الاستفهام «هل» مراعى فيه اجتذاب المخاطب إلى المشاركة في الحكم والتصديق بما تتضمنه الجملة .

(١) سورة الضحا - الآية ١١ . والمخاطب بها أصلا رسول الله - ﷺ - أمره الله - جل شأنه - أن يحدث بنعمة ربه عليه ، والتحديث بالنعمة شكرها وإشاعتها ، وقد أنعم الله عليه بالإيواء من يتم وبالهداية من ضلال وبالغنى من العيلة والفقر ، وهذه هي النعم التي تضمنتها الآيات السابقة . والمؤمنون يأتسون بالرسول الكريم ؛ فليحدثوا بما آتاه الله عليهم من خير ، وليكن تحديثهم كما كان تحديث الرسول شكرا وثناء على المولى - عز وجل - وأنعمه ؛ بشرط أن يأمنوا الفتنة على أنفسهم وأن يكونوا قدوة لغيرهم .

(٢) في النص عدة روايات: ارفع / فارفع - لا يحر بك ضعفه / لا يحل بك ضعفه - فتدركه العواقب قد نما / فتدركه عواقب ما جنى - وإن من/ فإن من - فقد جزى/ كمن جزى (راجع الشعر والشعراء : ١/ ٣٧٩ والعقد الفريد : ١/ ٢١٤ و ٦/ ١٢٦ والأغاني : ٣/ ١١٤ وما بعدها ودلائل الإعجاز : ١٦) .

وفي تعيين منشئه عدة أقوال ذكرها في الأغاني (٣/ ١١٥) قال : «الشعر =

. . . .

= لغريض اليهودى وهو السموءل بن عادياء، وقيل: إنه لابنه سعية بن غريض، وقيل: إنه لزيد بن عمرو بن نفيل، وقيل: إنه لورقة بن نوفل، وقيل: إنه لزهير ابن جناب، وقيل: إنه لعامر بن المجنون الجرمى الذى يقال له مدرج الريح. والصحيح أنه لغريض أو لابنه ». والأصبهانى لم يقطع - مع هذا الترجيح - بنسبة البيتين، ونسبهما ابن قتيبة إلى زهير بن جناب وعدهما من جيد شعره، وكذلك نسبهما ابن عبد ربه إلى زهير، ونسبهما البغدادى فى الخزانة إلى ورقة ابن نوفل.

وفى أكثر من موضع أن النبى — ﷺ — كان يطلب إلى السيدة عائشة أن تنشده البيتين، وأنه عقب مرة بما أورده المصنف، ومرة بقوله: « صدق يا عائشة. لا شكر الله من لا يشكر الناس » (الشعر والشعراء والعقد الفريد) ومرة بقوله: « لقد أتانى جبريل برسالة من ربى: أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه » (الأغانى)، ومرة بقوله: « يقول الله — تعالى — لعبد من عبيده: صنع إليك عبدى معروفا، فهل شكرته عليه؟ فيقول: يارب، علمت أنه منك فشكرتك عليه. فيقول الله - عز وجل -: لم تشكرنى إذ لم تشكر من أجريته على يده ».

ومعنى (لا يحر بك ضعفه): لا يرجع بك ضعفه إلى النقص. و(لا يحل بك) لا يعدل، أو لا يتحول.

وغريض اليهودى من ولد الكاهن بن هارون بن عمران. أخرج بنو إسرائيل أجداده من الشأم فذهبوا إلى يثرب وأقاموا بها، وكان منهم بنو قريظة والنضير وقينقاع يهود المدينة، وذكر الأصبهانى كما نقلنا قريبا أنه السموءل بن عادياء، وذكر بعد عدة صفحات عن ابنه « سعية »: كان سعية ابن غريض شاعرا وذكرنا خبر جده السموءل بن غريض بن عادياء =

. . . .

= فى موضع غير هذا . وقال فى ترجمة السموءل :إنه السموءل بن غريض وأسلم سعية وعمر طويلا . ومن شعره يرثى نفسه حين حضرته الوفاة :

ياليت شعرى حين أندب هالكا ماذا تؤبننى به نواحى

أيقلن : لا تبعد . فرب كريهة فرجتها ببشارة وسماح

وإذا دعيت لصعبة سهلتها أدعى بأفلح تارة ونجاح

وزيد بن عمرو بن نفيل أحد الجاهليين الذين اعتزلوا عبادة الأوثان ، وامتنع من أكل ذبائح النصب ، وأخرجته قريش من مكة لهـذا . ومن شعره :

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى غنم أزور

ولا هبلا أدين وكان ربا لنا فى الدهر إذ حلمى صغير

أربا واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

ألم تعلم بان الله أفنى رجالا كان شأنهم الفجور

وأبقى آخرين ببر قوم فيربو منهم الطفل الصغير

وبينا المرء يعثر ثاب يوما كما يتروح الغصن النضير

وقيل : إنه دان بدين إبراهيم ، وإن دعوة النبي بلغته وهو فى الشأم فأقبل إلى الحجاز يريد الإسلام فقتله أهل « ميفعة » وهى قرية من أرض البلقاء فى الشام .

وورقة بن نوفل أحد من اعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية ، وطلب =

. . . .

= الدين ، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان ، وهو ابن عم السيدة خديجة — رضى الله عنها — وقد رجعت إليه فى شأن الوحى أول ما نزل على الرسول — ﷺ — فبشرها، ووعد أن ينصر الرسول إذا أدركه ولكنه لم يلبث أن مات .

وله شعر فى الالهيات والحكمة . ومن ينسب البيتين إليه يجعلهما فى ختام هذه الأبيات :

رحلت قتيلة عيرها قبل الضحا	وأخال أن شحطت بجارتك النوى
او كلما رحلت قتيلة غدوة	وغدت مفارقة لأرضهم بكى
ولقد ركبت على السفين ملجيجا	أذر الصديق وأنتحى دار العدا
ولقد دخلت البيت يخشى أهله	بعد الهدوء وبعد ما سقط الندى
فوجدته فيه طفلة قد زينت	بالحلى تحسبه بها جمر الغضا
فنعمت بالا إذ أتيت فراشها	وسقطت منها حين جئت على هوى
فلتلك لذات الشباب قضيتها	عنى. فسائل بعضهم ماذا قضى (*)

وزهير بن جناب سيد كلب من قضاعة وقائدهم فى حروبهم، عمر طويلا (قيل إنه عاش ١٥٠ سنة — وقيل ٢٥٠ سنة — وقيل ٤٠٠ سنة) ، وكان مسموع الكلمة إلا فى أخريات أيامه حين تولى ابن أخيه رياسة قومه، فخالفه عن أمره ، فصب زهير همه فى الخمر يشربها صرفا حتى قتلته (**) ومن شعره فى كبره : =

(*) ملجيجا (بصيغة الفاعل) أى خائضا اللجة وهى معظم الماء . طفلة (بفتح الطاء) المرأة الناعمة الرخصة .

(**) وهو أحد ثلاثة شربوا الخمر صرفا فقتلتهم : زهير بن جناب وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الاسنة وعمرو بن كلثوم التغلبى .

ويروى أن رسول الله - ﷺ - سمع هذين البيتين، فقال: قال لى جبريل عن الله: «من أسديت إليه - يا محمد - معروفا فكافأك فذلك: وإن عجز وأثنى عليك فقد كافأك». وقد قال أمير المؤمنين - عليه السلام -: «كفران النعمة لؤم، وصحبة الأحمق شؤم».

وقد يستعمل الناس الحمد فى موضع الشكر. وبينهما من الفرق ما أنا ذاكره؛ وهو أن الحمد أعم من الشكر؛ لأن الشكر إنما هو الثناء بالفعل الجميل الذى قد وصل إليك نفعه، والحمد الثناء بالفعل الجميل وإن لم يصل إليك نفعه؛ ألا ترى أنك تحمد الرجل فى صواب منطقه، وتحمد السيف فى مضى ضريبته، والفرس فى سرعة عدوه؛ ولا تشكر شيئا من ذلك!. وتشكر الله - سبحانه - على نعمته!. وتشكر الرجل على معروفه!؛ فهذا ما بين الحمد والشكر.

وأما حفظ السر والمنفعة به؛ فإنه سبب لنيل كل مطلوب، والاحتراس من كل مرهوب؛ ولذلك قال رسول الله - ﷺ -: «استعينوا على نجح

= لقد عمرت حتى ما أبالى أحتفى فى صباحى أو مسائى
وحق لمن أتت مائتان عاما عليه أن يمل من الثواء

وعامر بن المجنون الجرمى، شاعر جاهلى محمق، وإنما سمى (مدرج الريح) بهذا الشعر الذى قاله فى امرأة من الجن، زعم أنه يهواها وأنه يسكن إليها فى الهواء وتتراءى له، قال:

لابنة الجنى فى الجو طلل دارس الآيات عاف كالخلل
درسته الريح من بين صبا وجنوب درجت حينا، وطل

(أخبارهم وأشعارهم فى الشعر والشعراء، والأغانى، وشعراء النصرانية. وغيرها).

حوائجكم بالكتمان ، فان لكل ذى نعمة حاسدا »(١)، وقال - عليه السلام - « من كتم سره ملك أمره » (٢) ، وأوصت الأئمة - عليهم السلام - بكتمان أسرارها . وما أتى من ذلك من وصايا القدماء والحكماء فى تحصين الأسرار وكتمها من الأشرار كثير لا يحتمله كتابنا . وليس كتمان السر من سائر الناس محموداً ؛ لأن الإنسان إذا كتم سره من نصيحه (٣) وذى الثقة عنده أخطأ الرأى من جهتين : إحداهما أنه يعدم المشورة ، وقد أمر الله بها فقال : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ (٤) وأمننا الرسول - عليه السلام - من سوء عاقبتها فقال : « لن يهلك امرؤ بعد

---

(١) الرواية المشهورة : « استعينوا على الحاجات بالكتمان ، فإن كل ذى نعمة محسود » — راجع أدب الدنيا والدين ، فصل كتمان السر .

(٢) يبدو أنه من قول الإمام على — كرم الله وجهه — من قوله أيضاً : « سرك أسيرك ، فإن تكلمت به صرت أسيره » — المرجع السابق .

(٣) النصيح هو الناصح . قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن	برأى نصيح ، أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغُل اختها	وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وأدن على القربى المقرب نفسه	ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم

(٤) سورة آل عمران - الآية ١٥٩ ، وسياقها يدل على أن المقصود بالأمر أمر الحرب ويمكن أن ننظر إلى عموم اللفظ - لا خصوص السبب - لما يتضمنه من مبدأ المشاركة بين الحاكم والمحكوم ، ويدل له قوله تعالى فى صفة الذين آمنوا : « وأمرهم شورى بينهم » (الشورى : ٣٨) . وعن الحسن البصرى : علم الله أن ليست بالرسول حاجة إلى مشاوراتهم ولكنه أراد أن يستن به من بعده وعن الضحاك : أمره الله بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل وعن قتادة أمره بمشاورتهم تألفاً لهم وتطييبا لأنفسهم .

مشورة »(١) ، وقيل : ما [خاب] من استخار ، ولا ندم من استشار(٢) ؛ فمن كتم النصيح أمره وطوى عنه سره واستغنى برأيه عنه ؛ كان كمن كتم الطبيبَ علته واستغنى بتجربته عن مشاورته ؛ فهو حقيق بزيادة علته حتى يؤديه إلى ما يعجز عن تلافيه . [والثانية] : إيحاش أخى النصيحة وإفساد قلبه إذا رآك قد حصنت سرك دونه واستظهرت عليه بالمكاتمة له . والعدل فى ذلك وصواب الرأى أن تحصن [سرك] ممن اتهمته وتغلق باب الأنس بينك وبينه ، حتى لا يطلع لك على مكنون بظن ولا يقين ؛ وأن تحترس أيضا ممن لا تثق غاية الثقة به ، فلا تطلعه من أمرك على ما تخاف منه بدوّ سرك . وإذا وثقت الثقة كلها بالإنسان وكشفتْ [لك] عن صحة [غيبه] شواهدُ الامتحان ؛ فلا عليك أن تطلعه على أكثر أمرك ، وعلى ما يصلح أن تطلعه عليه من سرك ؛ فتشترى بما تطلعه عليه أنسه ، وتملك به قلبه ، وتزيد به فى تأكيد الحال بينك وبينه ، وتقيس الصواب من مشورته فيما اشتبه عليك من رأيه ؛ فإن الرأى فى صدور الرجال كما قال الأول . وإنما صار الإنسان محتاجاً إلى المشورة ، وكان المشير أولى بالصواب من المستشير ؛ لأن المستشير يلقى من استشاره بقلب فارغ مما قلبه مشغول به وذهن غير مكدود بما ذهنه مكدود به ؛ فيكون إلى إصابة الرأى أقرب(٣) ؛ فليس ينبغى أن يكتفى المستشير بنصيحة المستشار حتى يأنس منه عقلا صحيحا ورأيا مصيبا ؛ فإن النصيحة من

---

(١) نص الحديث فى كتاب أدب الدنيا والدين ـ فصل المشورة : « رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس ، وما استغنى مستبد برأيه ، وما هلك أحد عن مشورة ، فاذا أراد الله بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه » .

(٢) راجع أدب الدنيا والدين ـ فصل المشورة .

(٣) القلب الفارغ هو قلب المشير ، والذهن غير المكدود هو ذهن المشير ؛ فقلبه فارغ مما قلب المستشير مشغول به ، وذهنه غير مكدود بما ذهن المستشير مكدود به ؛ فيكون ـ أى المشير ـ إلى إصابة الرأى أقرب .

الجاهل غير نافعة ؛ لأن رأيه غير صحيح ، والرأى من العاقل الذى لا يوثق بنصيحته غير نافع أيضا ؛ لما لا يوثق من غشة . فاذا اجتمعت النصيحة والعقل فى رجل فحق المستشير أن يصغى إلى قوله ويعمل برأيه(١) ؛ فقد قال رسول الله - ﷺ - لما سئل عن الحزم ما هو ؟ . قال : « أن تستشير ذا الرأى ، وتطيع أمره » . ومن كانت هذه صورته فليس لك أن تخالف مشورته إلا فيما يبين لك أنه أخطأ وجه الرأى فيه ؛ فان المستشار مجتهد ؛ والاجتهاد يخطئ ويصيب ؛ فليس على المجتهد أن يصيب ، وإنما عليه الاجتهاد فى الإصابة. وإذا كنت مشيراً فاعلم أن المستشار مؤتمن(٢) . وأن من أشار بغير الحق عنده سلب رأيه ؛ فامحض من استشارك النصيحة ، وإياك ومقاربته فى رأيه المتفق عليه والتقريب من قلبه إذا كان ذلك مدخلا عليه ضررا فى عاجل أمره أو آجله ؛ فان ذلك من الخيانة ، ولا يكرثك كراهيته لقولك فيما أصلحه(٣) فإن الطبيب العالم لا يلتفت إلى كراهية العليل للدواء إذا علم أنه ينفعه ، بل يحمله من ذلك ما [يستبشعه] ويحميه ، [و] من لذيذ الغذاء ما يشتهيه ويلذه(٤) .

---

(١) أى يصغى إلى قول هذا الرجل الذى اجتمع فيه النصيحة والعقل ، ويعمل برأى هذا الرجل .

(٢) المشير والمستشار واحد . وكان يمكنه القول : (وإذا كنت مشيراً فاعلم أنك مؤتمن) ؛ بيد أنه أظهر فى موضع الإضمار ليذهب إلى الصفة التى خوطبت بها ، وما تستوجبه من سلوك الأمانة والعدالة والنزاهة ..

(٣) أى لا تشتد عليك كراهيته . ولا تبال بكراهيته .. فى المعجم : كرثه الغم (من بابى ضرب ونصر) وأكرثه اشتد عليه ، وما أكترث له ما أبالى به . والفصيح استعمال هذا الفعل منفيا ، وقيل : يمكن استعماله مثبتا ، وقيل : اكترث كالتفت وكاعتنى وزنا ومعنى .

(٤) البشع (وزان كتف) الكريه الطعم يأخذ بالحلق لما فيه من مرارة ، =

وإن استشارك عدوك فى أمر فانصح له فيه ؛ فإنك تجمع بذلك — مع تأدية الأمانة فى المشورة — شيئين : أحدهما أن يكون عدوك عاقلا ويراك قد اجتهدت فى نصحه فيتبين عقلك وفضلك ، وربما كان ذلك سبيلا إلى نزوعه عن عداوتك ، ورجوعه إلى تلافيك واستقالتك(١) . والآخر أن يكون عدوك جاهلا بموقع النصيحة ومخارج الرأى وهو مع ذلك معتقد لعداوتك فيتيقن أنك تغشه فيما تشير به، فربما خالف مشورتك بجهله بصحتها وقد محضته النصيحة فيها ، فإذا فعل ذلك فقد أهلك نفسه ، وأراحك من عداوته ، وكنت موفوراً(٢) ، وعند ذوى العقول مشكورا .

وقد مدحت (العرب) الاستبداد بالرأى ووصفت نفسها بالاستغناء عن المشاورة فقال بعضهم :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعِد ... وشفت أنفسنا مما نجِد
واستبدت مرة واحدة ... إنما العاجز من لا يستبد(٣)

= وبشع الشىء (من باب فرح) ساء ، وأبشعنى الطعام واستبشعته عددته بشعا . ومن المجاز : فلان بشع الخلق وبشيع المنظر إذا كان لا يحلى فى العين ، وبشع بالأمر ضاق به ذرعا ، وبشع الوادى بالناس ضاق بهم .

(١) تلافيك : تداركك . واستقالتك (أى من العداوة) : بمعنى أن يطلب منك أن تقيله — أى تعفيه — منها ؛ وهذان يؤديان إلى نزوعه — أى انتهائه — عن عداوتك .

(٢) الموفور : التام الكامل ، ومثله الوافر . سوى أن الأول من وفر المتعدى والثانى من اللازم . وفى المثل « توفر وتحمد » أى يصان عرضك ويثنى عليك .

(٣) نجد (بكسر العين) مضارع وجد (بفتحها) بمعنى حزن، وبمعنى =

وقال الآخر :

إذ هم ألقى بين عينيه عزمه ⁂ فأعرض عن قول العواذل جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ⁂ ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا (١)

= أحب وهذا يتعدى بالجار فيقال : وجد بفلانة وعليها . واستبدت (أى برأيها) : انفردت به من غير مشارك لهـا فيه . والرجاء المعبر عنه بأداة التمنى منصب على الثلاثة الأمور : إنجاز الوعد ، وشفاء النفس مما بها ، والاستبداد برأيها فى وصاله وكان رجاء لأن هـذه الأمور الثلاثة من المطموع فى نيله (*)

وإنما صيغ بأداة التمنى لإظهار المرجو فى صورة المستحيل مبالغة فى العبارة عن بعد نيله .

والبيتان للشاعر عمر بن أبى ربيعة (سبق التعريف به ص ٨٩) من شعره الغزلى القصصى ، وبعدهما :

ولقد قالت لجارات لهـا ⁂ ذات يوم وتعرت تبترد :
أكما ينعتـنى تبصرننى ⁂ - عمركن الله - أم لا يقتصد؟
فتضاحكن وقد قلن لهـا : ⁂ حسن فى كل عين من تود
حسداً حملنـه من أجلهـا ⁂ وقديماً كان فى الناس الحسد

(١) من قصيدة سعد بن ناشب المشهورة . ونصها على رواية ديوان الحماسة لأبى تمام (شرح التبريزى : ٦٩/١) :

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا ⁂ على قضاء الله ما كان جالبا
وأذهل عن دارى ، وأجعل هدمها ⁂ لعرضى من باقى المذمـة حاجبا
ويصغر فى عينى تلادى إذا انثنت ⁂ يمينى بإدراك الذى كنت طالبا
فإن تهدموا بالغـدر دارى فإنها ⁂ تراث كريم لا يبالى العواقبا
أخى غمـرات لا يريد على الذى ⁂ يهم به من مقطع الأمر صاحبا =

(*) أما التمنى فهو طلب المستحيل أو طلب الممكن غير المطموع فى نيله .

. . . .

إذا هم لم تردع عزيمة همه ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
فيالرزام رشحوا بى مقدما إلى الموت خواضا إليه الكتائبا
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

وتختلف عنها رواية الشعر والشعراء : ٢/ ٦٩٦ . وقضاء الله بمعنى حكمه فيرفع فاعلا لاسم فاعل « جالبا » قبله ومفعوله «ما كان جالبا » ، أو قضاء الله بمعنى الموت المحتوم فينصب مفعولا وما فاعل وغسل العار : إزالته على سبيل الاستعارة . أذهل عن دارى : أتركها متناسيا لها . أجعل : بمعنى أصير فيتعدى إلى مفعولين . تلادى : مالى القديم وخصه بالصغر لأن النفس أضن به فاذا هان عليه كان ماعداه أهون . كنت طالبا : أى طالبه والضمير يعود إلى الموصول ، وجواب إذا محذوف دل عليه ماقبله . تراث كريم : ميراثه وعنى نفسه وسماه تراثاً من باب تسمية الشىء بما يؤول إليه . أخى غمرات : صاحب شدائد . مفظع الأمر : فظيعه وهو مايضيق به الذرع . ولا يريد عليه صاحبا : أى أنه يستبد برأيه فيه . هائبا : خائفا مذعوراً وجبانا . يا لرزام : استغاثة . رشحوا بى مقدما . . . الخ البيت : تلخيصه : رشحوا بترشيحكم إياى رجلا جسوراً مقدما يخوض إلى الموت الجيوش لجراءته . والترشيح أصله التغبيت والتربية ومنه « رشحت المرأة ولدها » إذا درجته فى اللبن ثم قيل على سبيل التوسع : رشح فلان لكذا . ومقدما : اسم فاعل أى متقدما ، واسم مفعول بمعنى أنه يقدم على غيره ليتولى الدفاع عنهم ويقيهم الموت . الكتائب : الجيوش المجتمعة ويقع مفعولا لخواض ، وفى خوضها استعارة من خوض الماء . ألقى بين عينيه عزمه : أى جعله بمرأى منه لايغفل عنه . نكب: بمعنى مال فينتصب « جانبا » على الظرفية ، أو بمعنى حرّف فينتصب « جانبا » على المفعول والمراد : انحرف عن ذكر العواقب .

وليس ذلك أخلاق ذوى العلم والأدب ، وإنما هو شيء امتدحت به العرب على طريق الوصف لأنفسها بالجرأة والأنفة والإقدام . ومن أمثالهم فى ذلك : « من طلب غرر . ومن فكر قصر »[١] . وليس العمل عند الحكماء على ذلك[٢] .

وأما الاستعتاب ، فإن المنفعة به بينة فى تلافى من تريد تلافيه واستصلاح من لك رأى فيه ، فإنك متى تركت صديقك للذنب يذنبه أو للجرم يجرمه ولم [تعاتبه] على ذنبه ولم تؤنبه بجرمه ؛ بقيت بلا صديق ؛ لأنك لا تجد أحداً ممن تصاحبه بعده أو من يعتاض به منه إلا ولا بد أن تأتى بمثل فعله لك ؛ لما فى جبلات الناس من الخلاف وقلة المراقبة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وكنت إذا الصديق أراد هجرى	وأشرقنى على حَنَق بريق
غفرت ذنوبه وصفحت عنه	مخافة أن أكون بلا صديق[٣]

= وسعد بن ناشب من الشعراء الإسلاميين المقلين ، وكان قد اتهم فى قتل فهرب ، فهدم « بلال » قاضى البصرة داره تنكيلا به وإرهابا لأمثاله ، فأنشأ سعد هذه القصيدة الحماسية ؛ فاخرا ، متوعدا ، مصمما على المخاطرة والمغامرة ، مستبداً برأيه وعزمه ، وهى قصيدة ترتد فى معانيها — وفى أسلوبها — إلى العصر الجاهلى .

(١) ربما كان المعنى : من طلب شيئا من غيره غرر بنفسه ؛ أى حملها على الغرر (وهو الخطر وزنا ومعنى) ، ومن فكر فى أمر قصر فيه أى توانى فيه .

(٢) راجع فصل المشورة فى كتاب أدب الدنيا والدين .

(٣) هذان البيتان رواهما أبو على القالى (الأمالى : ٣/١١١) غير منسوبين بهذه الرواية :

=

واعلم أن من طلب عيبا وجده ، ومن أراد السالم من العيوب فقده . ولا بد للانسان من الناس ، وقد قال أمير المؤمنين - عليه السلام - : « العاجز من عجز عن اتخاذ الأصدقاء ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم ، وأكمل الأصدقاء أقلهم عيوبا ، وأشدهم مؤالفة ، وأقلهم مخالفة » . فأما [متى] لاتجد فى الصديق عيبا ولا تراه فى شىء من هواك مخالفا فهذا عسر وجوده ، ومن طلبه أوشك أن ينفد عمره ولا يجده ولا يظفر به ، فكن فى أمور أصدقائك كما قال الشاعر :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا ... صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فعش واحداً ، أوصل أخاك ، فانه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت . وأى الناس تصفو مشاربه ؟(١)

= وكنت إذا الصديق أراد غيظى ... وأشرقنى على حنق بريقى (*)
غفرت ذنوبه وصفحت عنه ... مخافة أن أعيش بلا صديق
وربما كانا من قول عبد الله بن طاهر الخراسانى (العقد الفريد : ٢/ ٤٦) :
أميل مع الرفاق على ابن أمى ... وأحمل للصديق على الشقيق
وإن ألفيتنى ملكا مطاعاً ... فانك واجدى عبد الصديق
أفرق بين معروفى ومنى ... وأجمع بين مالى والحقوق

(٢) الأبيات لبشار بن برد (سبق التعريف به ص ١٥٨) من قصيدته التى يمدح فيها يزيد بن عمر بن هبيرة ، ومطلعها :

جفا وده ، فازور أو مل صاحبه ... وأزرى به أن لايزال يعاتبه
وهى من فرائد شعره ، تكشف عن عبقرية وبصيرة ، وبخاصة أبياته التى وصف فيها الجيش وحركته . والأبيات التى جاء بها المصنف تعتبر =

(*) الحنق (بالتحريك) : الغيظ أو شدته .

واعلم أن ترك العتاب من دلائل الزهادة، ومن دواعى القطيعة ، ولذلك قال الشاعر :

إذا انقرض العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقى العتاب(١)

وإن كانت المعاتبة على كل ذنب والتعلق بكل جرم من دلائل التجنى والملالة . وقد قال الشاعر :

إذا العتاب أتى فى غير موضعه فانه مفصح عن شدة الملل

ونتيجة كثرة العتاب فى غير موضعه قلة احتفال المعاتب ؛ فان الشىء إذا كثر هان .

ومن العدل إذا أذنب صديقك إليك أن تفحص عن [جرمه] ؛ فان كان أتاه من غير تعمد له اغتفرته وتناسيته ولم تعاتبه على ارتكابه ، بل تنبه على موضع خطئه ليحترس من معاودة مثله ، وإن وجدته قد أتى ذلك عامدا وكان من الأمور التى يصير بالمودة والإخاء احتمالها احتملتها وصفحت عنها ، وإن كان [مما] إذا أغضى على مثله عاد بالضرر وقبح فيه الخبر عاتبته عليه غير (مهتبل) لزلته ولا (مغتنم) لصرعته ، فان اعتذر بما يوجب حجة قبلته فأقلته ، وإن اعترف وسأل الصفح صفحت عنه ؛ فان المقدرة توجب المغفرة ، والتوبة تمحو الحوبة ، والاعتراف يزيل الاقتراف(٢) .

= أمثالا ، والحكمة فيها وسط بين الرأى والتجربة .

ومقارف الذنب : مرتكبه . والقذى : ما يسقط فى الشراب .

(١) رواه فى العقد الفريد (٢/١٤٥و٤/٣٢٠) : إذا ذهب العتاب .. بيتا مفردا غير منسوب .

(٢) المغفرة كالغفر والغفران : الصفح ،وأصله الستر ، والحوبة (هنا) =

وقد قال الشاعر :

إذا اعتذر الجانى محا العذرُ ذنبه وكل امرىءٍ لا يقبل العذرَ ظالم

وعلى هذا الترتيب رتب الله ـ عز وجل ـ عباده فى ذنوبهم . فعفا عن الخطأ وما جرى على غير تعمد ، وعفا عن (صغائر) ما [تعمده]، وتجاوز عن الكبائر مع الندم والتوبة ، وعذب على الإصرار على ما يعود العفو عنه بالإضرار .

وإذا كنت معتذراً أو متنصلا فلا تعتذر إلا إلى من تحب أن يجد لك عذرا، ولا تعتذر إلى [متجن] أو متعنت(١). فإن الاعتذار إلى هذين الصنفين ضائع . ولا تخلط الاعتذار ـ إذا وجب أن تعتذر ـ بالاحتجاج ، فإن ذلك يدل على مقامك على الذنب ، لأنك [لست] تحتج إلا فيما لا ذنب لك فيه ، وليس هذا موقف التنصل والاعتذار وإنما هو موقف [النضح] عن النفس(٢) والاحتجاج ، فإن كنت على حجة فأنت غنى عن الاعتذار ، وسبيلك أن تقيمها ، وتجتهد فى التخلص من اسم الذنب بما تظهره منها ، وإن كنت مذنبا فسبيلك أن تعترف بذنبك وتعتذر منه وتسأل الصفح عنه ؛ فإن مزج الاعتذار بالاحتجاج يدل على استئناف الذنب ، ولذلك قال بعضهم ـ وقد اعتذر رجل إليه فأتى فى اعتذاره بما قدمناه ـ : ما رأيت عذرا أشبه باستئناف ذنب من عذرك ، وذلك أن المذنب إذا كان عند

= الإثم وهى بالفتح ، ومثلها الحابة والحاب والحوب (بالفتح أو بالضم) والحيابة (بالكسر) والاقتراف : الاكتساب واقتراف الذنب إتيانه وفعله .

(١) المتجنى : الذى يدعى عليك ذنبا لم تفعله . والمتعنت : طالب الزلة والمتشدد الذى يطالبك بما يصعب أداؤه .

(٢) النضح عن النفس : الدفاع عنها .

نفسه غير مذنب وكان له - فيما يظن - حجة تزيل عنه الذنب ، فهو غير مقلع عن ذنبه ؛ لأنه إنما يرجى الإقلاع عن الذنب للمذنب إذا عرف ذنبه وقبح فعله [وعلم] أنه لاحجة له فيه . وكان يقال : من وثق بحسن العذر وقع فى الذنب .

وإذا اعتذر إليك معتذر فاقبل عذره ، وصدق فى ذلك ظنه ؛ إلا أن يكون ممن ترى أن الراحة فى قطيعته ؛ فإن كان كذلك فاجعل ذنبه سبباً لهجرك له ، ولا تستعتبه ، ولا تسمع عذره،فإن العضو الفاسد ليس لصاحبه راحة إلا فى قطعه ومفارقته .

ومن جاهرك بذنب أو ذكرك بما يسوءك فى ملأ ثم جاء معتذراً فيما بينك وبينه فلا تقبل تنصله وعذره حتى تكونا فى ملأ وعلى المجاهرة كما كانت زلته وذنبه ؛ وكذلك من أذنب إليك فيما بينك وبينه فلا تكلفه الاشتهار بالذنب عند من لم يعرف ذنبه، واقبل عذره فيما بينك وبينه.واعلم أن الأنس بمواقف الاعتذار ، وليس باختلاف ذوى الأقدار ؛ فاهرب مما تحتاج إلى إقامة العذر فيه هربك من التلف؛فليس فى كل حين تقال الهفوة(١) ولا فى كل وقت تغتفر الزلة . ومن القبيح أن يختار الإنسان اللوم من الحمد عوضا ، وأن يجعل نفسه للألسن غرضا . وقد قيل : إياك وما يعتذر منه ؛ فقلما اعتذر أحد إلا كذب ؛ ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أوقع به الظنة .

وأما التودد، فمن أنفع الأشياء للإنسان وأعونها على الزمان لأن ؛ بالمودة صلاح جميع الأمور ، وبالعداوة فسادها؛ وبذلك أمر الله - سبحانه - (بالتواصل) والمودة ، ونهى عن التعادى والفرقة ، وقال : ﴿إن الذين آمنوا

---

(١) من الإقالة . والهفوة الزلة . وإقالتها الصفح عنها .

وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾(١) ، وقال : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾(٢) ، وقال : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ﴾(٣) .

---

(١) سورة مريم — الآية ٩٦ . وفى الكشاف : « المعنى : سيحدث لهم فى القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التى توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك ؛ وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصا منه لأوليائه بكرامة خاصة ، كما قذف فى قلوب أعدائهم الرعب والهيبة ؛ إعظاما لهم وإجلالا لمكانهم » . وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه . وعن قتادة : ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه . وفى الحديث : « يقول الله — عز وجل — يا جبريل ؛ قد أحببت فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يضع المحبة له فى أهل الأرض » والسين فى قوله تعالى : « سيجعل لهم الرحمن ودا » تفيد تأكيد الفعل الذى هو وعد من الله .

(٢) سورة الحجرات — الآية ١٠ . وفيها قصر حقيقى ادعائى ؛ بقصد المبالغة فى أن المؤمنين يجمعهم الإخاء فى الدين ، فهم يتواصلون ويتناسبون بسبب هذا الإخاء الذى يشبه إخاء القرابة .

(٣) سورة آل عمران — الآية ١٠٣ . وحبل الله : المراد به الإيمان أو الطاعة أو القرآن أو العهد أو الحق . والاعتصام به مستعار للاستمساك والاستظهار به . وفى الآية إرشاد إلى الاعتصام بحبل الله وإلى نبذ التفرقة . والاعتصام بحبل الله يعنى اجتماع الكلمة واستبقاء المودة والألفة الجامعة ، وترك الفرقة يعنى ترك الخلاف والاختلاف كما خالف المشركون عن الدين وخالف اليهود والنصارى عن الحق وهم يعلمون أنه الحق ، وكما اختلف أهل الجاهلية فأثاروا العداوة والبغضاء بينهم واختلف اليهود والنصارى فأعنتوا أنبياءهم وأنفسهم وتعادوا .

والود ودان : ود للمشاكلة والمجانسة ، وهو الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : « القلوب كأجناد مجندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »(١) . وود بالعرض ؛ وهو ينقسم قسمين : أحدهما ود العصمة فى الدين(٢) ، والآخر ود المنفعة فى الدنيا . فأما العصمة فى الدين فالود فيه والمحبة هى الولاية التى فرضها الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين لأئمتهم وإخوانهم ، فقال ـ عز من قائل ـ : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾(٣) ،

---

(١) رواية البخارى من حديث عائشة ورواية مسلم من حديث أبى هريرة : « الأرواح جنود مجندة .. الخ الحديث » . ويقول الغزالى (الإحياء — كتاب آداب الألفة) : قد تستحسن الصورة الظاهرة وهى حسن الخلقة ، وقد تستحسن الصورة الباطنة وهى كمال العقل وحسن الخلق ، وكل مستحسن مستلذ به ومحبوب ، لكن فى ائتلاف القلوب ما هو أغمض من هذا ؛ فقد تستحكم المودة بين شخصين من غير ملاحة فى صورة ولا حسن فى خَلق وخُلق ، ولكن لمناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة ؛ فإن شبه الشىء ينجذب إليه بالطبع ، والأشباه الباطنة خفية ، ولها أسباب دقيقة ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، فما تعارف من الأرواح — أى تناسب — ائتلف وما تناكر منها — أى تباين — اختلف . وهذا معنى فطن له الشعراء حتى قال قائلهم :

وقائل : كيف تفارقتما ؟ فقلت قولاً فيه إنصاف
لم يك من شكلى ففارقته والناس أشكال وألاف

(٢) يقصد بالعصمة فى الدين الامتناع به والاجتماع على أمره فإنه يعصمهم أى يحفظهم ويقيهم ويكون سبباً فى قوتهم .

(٣) سورة المائدة ـ الآية ٥٥ ، وجاءت عقيب عدة آيات نهى الله ـ سبحانه ـ فيها عن موالاة الأعداء ؛ جاءت هذه الآية لبيان من تجب =

وقال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾(١) . وحظرها على المخالفين إلا فى حال التقية ، فقال : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾(٢) .

= موالاتهم ؛ أى نصرتهم واستنصارهم ومصافاتهم . وأفرد الولى بالذكر مع أن المختصين بالولاية جماعة للتنبيه على أن أصل الولاية لله — تعالى — وأنها لغيره تبع .

(١) سورة التوبة — الآية ٧١ . واقرأها إلى نهايتها لتعرف وجوه الموالاة : « يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ؛ أولئك سيرحمهم الله ؛ إن الله عزيز حكيم » . وجاءت هذه الآية فى مقابلة قوله تعالى فى المنافقين : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ؛ يأمرون بالمنكر ، وينهون عن عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ؛ نسوا الله فنسيهم ؛ إن المنافقين هم الفاسقون » .

(١) سورة آل عمران — الآية ٢٨ . وفيها ينهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء يؤثرونهم بالولاية من دون المؤمنين ، ويتوعد الله من يفعل ذلك بأنه ليس من الله فى شىء أى أنه منسلخ من ولاية الله . يقول الزمخشرى : وهذا أمر معقول ؛ لأن موالاة الولى وموالاة عدوه متنافيان ؛ كما قال الشاعر :

تود عدوى ثم تزعم أننى صديقك . ليس الحمق عنك بعازب

فليس أخى من ودنى رأى عينه ولكن أخى من ودنى فى المغايب

ولكنه رخص للمؤمنين فى إظهار الموالاة للكافرين إذا خافوهم عندما يكون للكافرين تسلط عليهم يخشى منه على الانفس والأموال . و « تقاة » مصدر بمعنى المفعول ، وتقدير جملة الاستثناء : إلا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه ، ويجوز أن ينصب على المصدر والتقدير إلا أن تخافوا منهم خوفا .

وجاء عن رسول الله - ﷺ - : «إن أوثق عرا الإيمان الحب فى الله - عز وجل - والبغض فيه»(١). والذى [تحاز] به مودة ذى العصمة ألا يرى أخاه مفارقا لما جمعهما عليه الدين فى سر وعلانية . وأما المودة للمنفعة فى الدنيا فتتأكد بتأكد الأسباب الموجبة لها ، ويزيد فيها الإحسان والإفضال ؛ كما قال النبى - ﷺ - : «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها» ؛ وينمى ذلك ويزيد فيه البشر والطلاقة والكلمة الطيبة ؛ فانه يروى عن رسول الله - ﷺ - : «إنكم لم تسعوا الناس بأموالكم ؛ فسعوهم بأخلاقكم»(٢) ، وفى حديث آخر : «بالبشر وطلاقة الوجوه»(٢). وقد قال الله - عز وجل - : ﴿ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء﴾(٣) .

---

(١) رواه أحمد من حديث البراء بن عازب . وأورده فى الإحياء - كتاب آداب الألفة - فى جملة نقول تقرر فضيلة الألفة والأخوة .

(٢) وروى الحديث « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ؛ ولكن ليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق » ، وفى رواية « ... بسط الوجه وحسن الخلق » - رواه الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة .

(٣) سورة إبراهيم - الآية ٢٤ . و « ضرب الله مثلا » جعله - على التضمين - فينتصب « مثلا » مفعولا ثانيا و « كلمة » مفعولا أول وتقع « كشجرة » فى مكان الخبر لمبتدأ محذوف تقديره (هى) . أو « ضرب الله مثلا » بينه واعتمده ؛ فينتصب « كلمة » مفعولا أول لفعل محذوف تقديره (جعل) وتقع « كشجرة » فى مكان المفعول الثانى ، ويكون مجموع (جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة) مفسرا لقوله « ضرب الله مثلا » .

والكلمة الطيبة كلمة التوحيد - وقيل : هى كل كلمة حسنة كالتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد والدعاء والاستغفار - وأصلها ثابت فى القلب بتصديقه وإذعانه ، وفرعها فى اللسان بذكره وإقراره ، وأكلها صالح الأعمال . شبهت بالشجرة الطيبة - وهى النخلة فى رأى الجمهور - أصلها =

وقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ: «من لانت كلمته وجبت محبته». والذى يحوز به الإنسان هذه المودة ممن يرومها منه هو أن يرى له مواسيا بما يقدر عليه؛ فقد قال «أرسطاطاليس»: «ليس مع الإيثار بغضة، ولا مع الاستكثار محبة». وأن يكون متابعا له فيما يقوده إليه؛ فان الخلاف أذى، والأذى مخالف للهوى؛ وقد قال الشاعر:

يحبّ ويدنَى من يقل خلافُه   وليس بمحمود حبيب مخالف

وقال آخر فأحسن:

فانى رأيت الحب فى الصدر والأذى   إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فتودد إلى الناس جهدك، واجعل نيل محبتهم وكدك؛ فانك لن تعدم بذلك مروءة كريم، أو أمن عداوة لئيم؛ فتكون قد نلت المحبوب وكفيت المرهوب إن شاء الله.

وأما الأخذ بالمشهور من الحديث والقول وحكايته؛ وترك الغريب والمنكر منهما واجتناب روايته؛ فان المنفعة فى ذلك عظيمة، والفائدة جسيمة؛ وذلك أنك تحرز به النبل فى عيون الناس والجلالة فى صدورهم. ومتى أخذت بالشذوذ وبالبديع والغريب من الأحاديث والروايات(١)

= ثابت فى الأرض بامتداد عروقها، وفرعها أى أعلاها ورأسها سامق فى السماء أى فى جهتها، وتؤتى أكلها أى ثمرها كل حين وقته الله لإثمارها باذنه وتيسيره.

(١) المشهور: ما شاع واشتهر على الألسنة. والغريب: الغامض والنادر. والمنكر: القول ينفرد بقوله غير المتثبت. والشاذ: القول يقوله الثقة لكنه يخالف فيه الناس. والبديع: الجديد والمستحدث المستطرف الذى لم تجر العادة بمثله، ومثله الطريف (على ما يأتى).

وأحكمت ذلك ونقلته ، كنت عند الناس غير محصل ؛ ولا يغرنك: « إنما أحكى ما أسمع »؛ فكفاك عيبا أن تحكى كل ما تسمع ؛ لأن أكثر ما تسمع الباطلُ ، وإنما الحق جزء من أجزاء كثيرة مما تسمعه . وقد قيل: « حسبك من شر سماعه »(١) ، فكيف حكايته و [نقله] . ومن رضى بأن يكون حاملا للأباطيل وراوية للأكاذيب فقد رضى بما لا يرضى به اللبيب ؛ فان استطعت [ألا] تحكى إلا ما تصدق فيه وما لا تحتاج إلى إقامة شاهد عليه فافعل ، فهو أولى بك إن كنت من أهل التحصيل وأردت أن تسلم من العيب والتجهيل ؛ فقد روى عن بعض الأعراب أنه قال: إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره ؛ فليس كل من حكى عنك نكرا يوسعك عذرا . واحذر الحذر كله من شهوة الاستطراف وطلب الغرائب ؛ فان

---

(١) من حكم « أكثم بن صيفى » (سبق التعريف به ص ٢٩٣) ، وهى من خطبته أمام كسرى ملك الفرس ، وهى : « إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شر الملوك من خافه البرىء . المرء يعجز لا المحالة . أفضل الأولاد البررة . خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة . أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شر سماعه . الصمت حكم وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدد نفر ، ومن تراخى تألف »(*) .

(*) الشر لجاجة : أى أصل الشر اللجاجة واللجاجة تمادى الخصوم وتماحكهم . العجز مركب وطىء : أى سهل . حسن الظن ورطة : أى هلكة تعسر النجاة منه . البطانة : الأصدقاء . المحالة : الحيلة . الصمت حكم : أى حكمة .

كثيراً من الناس يطلب ما كان طريفا ولم يكن عند الناس معروفا ، وذلك لما في النفوس من التطلع إلى استماع ما لم يسمعوه والكلف بما لم يعهدوه ويعرفوه ، وكلما كان الشيء ليس عندهم كان إليهم أعجب ومن قلوبهم أقرب؛ ومن ههنا ضل كثير من الناس ودخلت عليهم الشبهة في اعتقاداتهم ودياناتهم؛ فإنك إذا نظرت في كثير من مذاهب أهل المذاهب وجدتها لم تنفق(١) على أهلها إلا بطرافتها وغرابتها وامتناع دعاتهم [من] إظهارها لهم ، والنفس طلعة(٢) ، وهي ضنينة بما تمنعه ، وليس عندها فيما قدرت عليه من الرأي والهوى مثل الذي عندها في الغريب المستطرف، و [كلما] كان في ملك غيرها كانت إليه أشوق ونحوه أتوق ؛ ولهذا صار أزهد الناس في العالم جيرانه، وصار الإنسان بما استفاده منه أشدنا ما ورثه ؛ فاحترس من هذا الباب ، ولا تراعين في (المستطرف) من الأمور إلا ما كانت أمارات الحق فيه ظاهرة والشكوك التي تعرضه واهية ؛ فقد قال رسول الله - ﷺ - « شر الأمور محدثاتها »(٣) ، وقال : « كل بدعة ضلالة » (٤) .

---

(١) من النفاق (وزان سحاب) بمعنى الرواج والقيام ؛ يقال : نفق البيع (من باب دخل) راج ، ونفقت السوق قامت .

(٢) النفس طلعة (بوزان همزة) : تكثر التطلع إلى الشيء .

(٣) في صحيح البخاري - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - حدثنا آدم ابن أبي إياس، حدثنا شعبة، أخبرنا عمرو بن مرة: سمعت مرة الهمداني يقول: قال عبد الله : « إن أحسن الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ - وشر الأمور محدثاتها، وإن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ».

(٤) أخرج الترمذي وأبو داود حديث أبي نجيح العرباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ؛ عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل بدعة ضلالة » .

ولا يثقل عليك الحق وإن كبر عليك استماعه، ولا تملَّنه وإن كثر على سمعك مروره؛ فإن الحق جديد لا تخلقه الأيام(١).

[الحديث المقبول والحديث المردود] :

وأما المقبول والمردود، فإن المقبول كل ما أريد به المنفعة من الأمور التي ذكرناها (وعددناها)، وكانت القلوب له قابلة، وبفضل اقتنائه غير جاهلة. والمردود ضد ذلك.

فما ينبغي أن يقبل: وعظ من وعظك، ونصح من نصحك بما وقّرك فيهما(٢)، وألان لك القول فيما [يورد] عليك منهما. وإن تعجرف مخاطبك في ذلك بما يغلظ عليك استماعه؛ فإن كان ممن تثق بنيته ولا تستريب بمودته وطويته؛ تشجعت على الصبر له والقبول منه، وكنت كالعاقل الذي يتشجع على أخذ الدواء الكريه إذا علم أنه ينفعه، ويصبر في ساعة الخوف تحت ظلال السيوف إذا علم أن الصبر خير له. فإن كان ممن تعرفه بعداوة وسوء نية وخبث طوية؛ رددت عليه قوله على استماعك المكروه الذي حصل [لك] (٣)؛ فإن في الناس من يريد عيب عدوه والإشارة بمساويه(٤)

---

(١) الحق جديد أي يتضح دائماً لكل ذي بصيرة، ويمثل للناس في كل زمان؛ ملاذاً لإرساء العدالة، ومثالا لبلوغ السلامة؛ ومهما حاول المبطلون طمسه تراءى لهم، وفرض عليهم وجوده؛ فلا تخلقه الأيام ولا تبليه ولا تهلكه ولا تفنيه.

(٢) لعل المعنى: يقبل الوعظ والنصح بما وقرك — أي عظمك — في عيني الواعظ والناصح.

(٣) الجملة غير محررة، ولعله يريد: رددت عليه قوله بدلا من أن تستمع إلى هذا القول المكروه.

(٤) لعلها من أشار النار وبها رفعها أي أذكاها؛ فهو يشهر بمساويه أي يشهر بها.

فلا يجد طريقاً إلى ذلك أبلغ وأسهل من الوعظ والنصيحة ، لأنهما يشتملان على ذكر عيوبه ؛ فهو يبلغ مراده من فضيحته والإغلاظ [له] من حيث لا يستحق فى الظاهر لوما منه ولا مكافأة على قبيح ما يلقاه به .

وقد ذكر « أرد شير » هذه الطبقة وزرايتها على الملوك وتوصلها إلى عيبهم بالوعظ وحذر منهم ، وعرَّف الملوك كيف السبيل إلى الراحة منهم ، ونحن نذكر قوله إذا صرنا إلى موضعه(١) ، فاعرفهم أنت ، وأنزلهم منزلهم.

وقد حكى عن بعض أهل هذه الطبقة أنه قال لبعض الخلفاء : إنى أريد أن أنصحك ـ يا أمير المؤمنين ـ بكلمات ، فاحتمل إغلاظى فيها ، فقال : لا ،

---

(١) فى الوجه الرابع من أوجه البيان (وهو البيان بالكتاب — أى الكتابة) تناول المصنف معاملة الوزير للرعية ، فقال : ينبغى للوزير أن يتفقد رعيته ، وينزل كل أحد منزلته ، فإنما يستخرج ما عند الرعية ولاتها ، وما فى الدين علماؤه ، وما عند الجنود قادتها . وليوسع على الكريم منهم ، وليضيق على اللئيم ويسقط رتبته ؛ فإن الكريم إذا احتاج خيف ضره ، واللئيم إذا شبع ظهر شره . وقد قال أرد شير : إن العاقل المحروم سل عليكم لسانه وهو أقطع سيفيه ، وإن أشد ما ضركم به من لسانه ما صرف القول فيه والحيلة إلى الدين ، فكان بالدين يحتج ، وله فيما يظهر يغضب ، فيكون الدين بكاؤه ، وإليه دعاؤه ، وهو أحد التابعين والمصدقين والمناصحين منكم ؛ لأن بغضة الناس موكلة بالملوك ، ومحبتهم ورأفتهم موكلتان بالضعفاء .

ثم قال : وقد كان من قبلنا يحتالون للطاعنين على الملوك بالدين فيسمونهم المبتدعة ، فيكون الدين هو الذى يقتلهم ويريح الملك منهم . ولا ينبغى للملك أن يعترف للعباد والنساك بأنه ليس أعرفُ بالدين ولا أحدب عليه ولا أشد تعصبا له منه . وألا يدعهم من الأمر والنهى فى نسكهم ودينهم ، فإن خروج النساك من أمر الملوك ونهيه عيب عليه وثلمة فى سلطانه .

وكرامة(١) ، إن الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني فقال له : ﴿ فقولا له قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى ﴾(٢) .

---

(١) الكرامة الإكرام أو اسم للإكرام والتكريم . وتقول العرب : نعم وكرامة (بالنصب ولا تظهر له فعلا) ؛ أي وأكرمك إكراماً . وكذلك لا وكرامة . والوصل هنا واجب لما بين الجملتين من كمال الانقطاع مع الإيهام ؛ فقولهم «لا» في موضع الجواب فهو خبر (راجع ص ٢٨) . وقولهم « كرامة » دعاء للمخاطب فهو إنشاء . وهذه الواو زائدة شبيهة بالعاطفة يؤتى بها لدفع الإيهام ، وإن اعتبرتها عاطفة كان التقدير (لا وأقول كرامة) ، ومثلها في الدعاء للمخاطب قولهم : لا وأشكرك — لا وشفاك الله — لا وأيدك الله ؛ فلو حذفت الواو لأوهم الدعاء عليه .

(٢) الآية ٤٤ من سورة طه . وفي العقد الفريد (١/٤٧) : دخل الحارث ابن مسكين على المأمون ، فسأله عن مسألة ، فقال الحارث : أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد . . فلم يعجب المأمون وقال له : لقد تتيست وتتيس مالك . قال الحارث : فالسامع يا أمير المؤمنين من التيسين أتيس ، فتغير وجه المأمون ، وقام الحارث نادما على ما كان من قوله ، فلم يستقر في منزله حتى أتاه رسول المأمون ، فأيقن الحارث بالشر ولبس ثياب أكفانه ، ثم أقبل على دار الخلافة حتى دخل على المأمون ، فقربه المأمون منه وأقبل عليه بوجهه وقال له : يا هذا ؛ إن الله قد أمر من هو خير منك بالانة القول لمن هو شر مني ؛ قال لنبيه موسى — عليه السلام — إذ أرسله إلى فرعون : « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » قال الحارث : يا أمير المؤمنين إني أبوء بالذنب ، وأستغفر الله تعالى ! . قال المأمون : عفا الله عنك ، وانصرف متى شئت .

وروى مثل هذا عن الرشيد (العقد الفريد : ٣/١١٤) .

وفي العقد الفريد أيضا (٢/٢٢٢) : أن الأزارقة من الخوارج — وهم =

ومن ذلك قبول العذر ممن اعتذر إليك إن صدق فى عذره وإن كذب، فقد قال الشاعر :

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا   إن بر عندك فيما قال ، أو فجرا
فقد أطاعك من أرضاك ظاهره   وقد أجلك من يعصيك مستترا(١)

فإذا قبلت معذرته وأقلته عثرته مرة بعد أخرى وثانية بعد أولى ورأيته مقيما على الإصرار ولا يزيدك على الاعتذار عند تخوفه عواقب الإنكار ،

= أصحاب نافع بن الأزرق الحنفى ـ دخلوا على عبد الله بن الزبير يمتحنونه ، وكان مما قالوا له : ما تقول فى الشيخين : ـ أبى بكر وعمر ؟ وفى عثمان الذى حمى الحمى ، وآوى الحكم بن أبى العاص طريد رسول الله ﷺ ... ؟ وما تقول فى الذى بعده (يقصدون عليا) الذى حكم الرجال فى دين الله وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم ؟ وما تقول فى أبيك (الزبير بن العوام) وصاحبه (طلحة بن عبيد الله) وقد بايعا عليا وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر، ثم نكثا بيعته وأخرجا عائشة فقاتلت وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن فى بيوتهن ؟ وكان فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة ، فان أنت قبلت كل ما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا إن شاء الله ونسأل الله لك التوفيق ، وإن أبيت خذلك الله وانتصر منك بأيدينا . فقال ابن الزبير : إن الله أمر ـ وله العزة والقدرة ـ فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العاتين بأرق من هذا القول ؛ قال لموسى وأخيه ـ عليهما السلام ـ « اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . . ومضى ابن الزبير فى الرد على أسئلتهم . .

(١) البيتان فى العقد الفريد (١٨/٢) فى كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك ـ فصل التنصل والاعتذار ، وفى أدب الدنيا والدين ـ فصل المروءة برواية (من يرضيك ظاهره) ، ولم ينسبها .

علمت أنه يريد مخادعتك فيطلب الحيلة عليك ، فحينئذ لا تقبل عذره ، وتأس برسول الله - ﷺ - فيما صنعه ببعض أسرائه - وأحسبه أبا عزة - فإنه أمر بضرب عنقه ، وقال : « لا تقعد فى نادى قومك فتقول : خدعت محمداً ثلاث مرات »(١) .

ومما يقبله العاقل مدح من مدحه بما فيه ، ولم يخرج فى وصفه عما يستحقه بمساعيه ، فقد سمع رسول الله - ﷺ - المدح وأثاب عليه . فأما إذا رأيت المادح يزكيك بما ليس فيك ويواريك ويريد أن يخدعك عن نفسك ويغتمز جانبك(٢) ، فلا يكونن من شأنك الإصغاء إلى قوله ولا الاستماع منه ولا الرضا بمنطقه ، فإن ذلك ثلمة فى عقلك(٣) ، فإن لم تسدها اقتحم الناس

---

(١) روى شراح الحديث أن شاعراً مشركاً هجاء اسمه « أبو عزة الجمحى » كان يهجو المسلمين ويثلبهم ويحرض عليهم ويعيبهم اشترك مع المشركين فى معركة « بدر » ضد المسلمين ، فأسروه فيمن أسروا ، فجعل يتذلل للنبى ﷺ ويستعطفه ويضرع إليه أن يمن عليه بالحرية بدون فداء ، لضعفه ولفقره ، فتأثر الرسول ، ومن عليه وأطلقه ، ولكنه عندما راح إلى مكة استأنف هجاء المسلمين . وفى معركة « أحد » حضر مع المشركين ، وأسره المسلمون ثانية ، فعاد إلى التذلل والاستعطاف والضراعة وإلى ذكر الضعف والفقر ، فقال له الرسول : لا تمسح عارضيك بمكة وتقول سخرت بمحمد مرتين ، وأمر به فقتل ، وقال فيه : الحديث : « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » (رواه البخارى) . ولا تقف الجدوى من هذه القصة وهذا الحديث عند سببه فان الرسول ﷺ يطرح قضية الحذر والفطنة والكياسة التى ينبغى أن يأخذ بها المؤمن نفسه فى مقابل الغفلة والبلاهة والحمق التى يجب أن يتحاشاها (راجع كتابنا : فى رحاب الهدى النبوى - شرح الحديث الحادى والعشرين) .

(٢) أى يطعن عليك . فى القاموس : اغتمزه : طعن عليه .

(٣) أى خلل فيه . والثلمة (بالضم) الخلل فى الحائط وغيره .

عليك منها ، وتوصلوا إلى حوائجهم منك بها ، ثم لم تسلم بعد ذلك من غيبتهم لك وضحكهم منك ، وقد قالت الحكماء : « قابل المدح كالمادح نفسه » ، وإنما قالوا ذلك لهذه الطبقة من المادحين ، وهم الذين أمر النبي - ﷺ - بأن يحثى التراب فى وجوههم .

ومن المقبول أيضاً إطالة القول فيما أريد به تأنيس المستوحش وتسكين روع المرتاع ؛ فإن ذلك مما قد امتدحوا به ، فقال شاعرهم :

سلى الطارق المعتر - يا أم مالك - إذا ما اعترانى بين قدرى ومجزرى
وأبسط وجهى ، إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكرى(١)

(١) البيتان لعروة بن الورد (سبق فى ص ١٢٤ التعريف به) . وروايتهما فى ديوان الحماسة لأبى تمام :

سلى الطارق المعتر - يا أم مالك - إذا ما أتانى بين قدرى ومجزرى
أيسفر وجهى أنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكرى

أى سليه أيسفر وجهى لقراه أم لا . والطارق : الآتى ليلا . والمعتر : المتعرض ولا يسأل . وقوله: بين قدرى ومجزرى كناية عن موضع الضيافة ، وبعضهم يقول : المعنى أعطيه لحما مطبوخا من قدرى أو لحما نيئا من مجزرى . والاستفهام فى البيت الثانى فى موضع المفعول الثانى للفعل « سلى » ، وأضمر معادل الهمزة كما ذكرنا لما يدل عليه من قرينة اللفظ والحال . ومعنى « أنه أول القرى » أن إظهار البشاشة للضيف من أوائل قراه أى إكرامه ، والضمير فى « أنه » للإسفار (أو البسط) المفهوم من الفعل . والمعروف الذى يبذله هو القرى والإيناس والبشاشة وما إليها ، أما المنكر فقيل : هو أن يسأله عن اسمه ونسبه وبلده ومقصده ونحو ذلك مما يجلب عليه حياء ، وقيل : المنكر الحرمات أى أنه لا يستر من ضيفه شيئا سواها ، ومثله قول جبيهاء الأشجعى فى صفة ضيف:

=

وقال آخر:

أحدثه ؛ إن الحديث من القرى ... وتعلم نفسى أنه سوف يهجع(١)

= وقلت: تخفض،ما لضيف بضيفنا ... كنين سوى حسن النساء الحرائر
(راجع شرح التبريزى : ٤/ ١٣٤) .

(١) نسبه أبو تمام فى الحماسة إلى عتبة بن بجير ، وذكر التبريزى (شرح الحماسة : ٤/ ٢٤٣) أنه ينسب فى قول إلى مسكين الدارى ، وقبل البيت بيت آخر هو :

لحافى لحاف الضيف ، والبيت بيته ... ولم يلهنى عنه غزال مقنع

يقول الشاعر : إننى أوثر الضيف بثيابى ومكانى ، ولا يشغلنى عنه الأهل والولد ، وإننى أحدثه — على الطعام وبعده — زيادة فى قراه وإكرامه ومسامرة له حتى يميل إلى النوم ، وحين أدرك هذا منه أخليه .

وعتبة هو عتبة بن بجير بن زهير بن أبى سلمى .

ومسكين الدارى هو ربيعة بن عامر بن أنيف من بنى دارم وهم بطن من تميم . كان من وجوه قومه ، وإنما سمى مسكينا لقوله :

أنا مسكين لمن أنكرنى ... ولمن يعرفنى جد نطق

ويقول بعضهم : سمى مسكينا لقوله

وسميت مسكينا وليست لحاجة ... وإنى لمسكين إلى الله راغب

قال أبو العلاء (شرح التبريزى لحماسة أبى تمام : ٤/ ٢٣٤) : وإنما هذا البيت اعتذار من هذا الاسم وليس دليلا على أنه سمى به .

ومسكين شاعر مقل . يذكرون أنه ذهب إلى معاوية بن أبى سفيان ليفرض له عطاء، فرفض معاوية أول الأمر؛ لأن هواه مع اليمنيين ، فخرج مسكين من عنده وقال له :

أخاك أخاك! إن من لا أخا له ... كساع إلى الهيجا بغير سلاح =

. . . .

وان ابن عم المرء ـ فاعلم ـ جناحه   وهل ينهض البازى بغير جناح

وبعد وقت احتاج إليه معاوية ، فقربه ، وأوعز إليه أن يعد شعرا فى الدعوة لابنه يزيد . وكانت ولاية العهد بدعة يراها معاوية وكان يخشى أن يجاهر بها الناس ويفرضها عليهم ، وكان يخشى وجوه بنى أمية بخاصة ، الذين إن قبلوا مبدأ الوراثة فلن يقبلوا شخص يزيد . وحانت الفرصة حين اصطنع معاوية حفلا حضره وجوه الناس بعامة وعبد الله بن عامر ومروان ابن الحكم وسعيد بن العاص من وجهاء بنى أمية بخاصة ، ودخل مسكين الحفل ، وأنشد قصيدته الدالية ، وفيها يقول :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر   ومروان أم ماذا يقول سعيد

بنى خلفاء الله مهلا ، فانما   يبوئها الرحمان حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاه ربه   فان أمير المؤمنين « يزيد »

على الطائر الميمون والجد صاعد   لكل أناس طائر وجدود

فلا زلت أعلى الناس كعبا ولا تزل   وفود تساميها إليك وفود

ولا زال بيت الملك فوقك عاليا   تشيد أطناب له وعمود

ولما فرغ منها قال معاوية : « ننظر فيما قلت ـ يامسكين ـ ونستخير الله » وتكلم بعض من حضر بالموافقة وأحجم المعارضون عن المعارضة .

ولمسكين   هذا الشعر السياسى شعر فى الفخر والهجاء والحكمة ، ووقعت بينه وبين   ردق مهاجاة لونت بالمفاخرة ، واستحسن ابن قتيبة قوله (الشعر والشعراء : ١ / ٥٤٤) :

وإذا الفاحش لاقى فاحشا   فهناكم وافق الشن الطبق

إنما الفحش ومن يعتاده   كغراب السوء ما شاء نعق

حمار السوء إن أشبعته   رمح الناس ، وإن جاع نهق =

ومما يتسع فيه القول ويكون عند ذوى العقل مقبولا : أن يجد القائل فيمن يقصد القول فيه مقالا بما يظهر من خلقه وفعله ونقصه أو فضله، فيكون المادح له أو الذام لفعله منبسطى اللسان غير كليلى البيان ، ويكون سامع ذلك منهما قابلا مصدقا ولقولهما فيه محققا(١) ، وقد قال الشاعر :

بهواك صيرنى العذول نكالا   وجد السبيلَ إلى المقال فقالا(٢)

= أو غلام السوء ، إن جوعته   سرق الجار ، وإن يشبع فسق

أو كغيرى رفعت من ذيلها   ثم أرخته ضرارا فامزق

ومن شعره المتخير :

ولست إذا ماسرنى الدهر ضاحكا   ولا خاشعا ماعشت من حادث الدهر

ولا جاعلا عرضى لمالى وقاية   ولكن أقى عرضى فيحرزه وفرى

أعف لدى عسرى وأبدى تجملا   ولا خير فيمن لا يعف لدى العسر

وإنى لأستحيي إذا كنت معسرا   صديقى وإخوانى بأن يعلموا فقرى

وأقطع إخوانى وما حال عهدهم   حياء وإعراضا وما بى من كبر

(أخباره وأشعاره فى : الشعر والشعراء ، والأغانى ، وخزانة الأدب)

(١) يقصد أن يقول : ويكون سامع ذلك القول من المادح أو الذام قابلا مصدقا، ومحققا لقولها فى المدح أو الذم ، أو محققا لقولهما فى الممدوح أو المذموم .

(٢) من شعر الغزل . وفى العقد الفريد (٧/٢٣) : قال عبد الله بن جعفر لابن أبى عتيق : لو غنتك فلانة جاريتى صوتا ما أدركت ذكابك . قال ابن أبى عتيق : قل لها تفعل وليس عليك إن مت ضمان . فأخذ ابن جعفر بيده وأدخله منزله ، وأمر الجارية أن تغنيه ، فغنته :

بهواك صيرنى العذول نكالا   وجد السبيل إلى المقال فقالا

ونهيت نومى عن جفونى فانتهى   وأمرت ليلى أن يطول فطالا =

وقال آخر يعتذر من تركه مديح قومه :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ، ولكن الرماح أجرت(١)

= قال : فرمى ابن أبى عتيق بنفسه إلى الأرض ؛ طربا .

(والعذول : اللوام . والنكال — بزنة سحاب — الاسم من التنكيل ، يقال : نكل فلان بفلان جعله نكالا أى عبرة لغيره لأنه صنع به صنيعا يخزى منه غيره) .

(١) البيت من شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدى . وأجرت فعل متعد حذف مفعوله والتقدير ولكن الرماح قطعت لسانى عن القول لأنها — ويعنى أصحابها — لم تفعل شيئاً يذكر يستحق المدح (راجع دلائل الإعجاز ص ١٢١) . وعمرو هو أحد فرسان العرب المعدودين(*) ، وينتسب إلى قحطان ، ويكنى أبا ثور ، وأبوه سيد قومه وفارسهم ، وأمه من المنجبات . وعندما بلغه الإسلام أدرك الرسول ﷺ وهو منصرف من غزوة تبوك — فى رجب من السنة التاسعة — وأسلم ، وابلى فى الجهاد بلاء حسنا ، وتوفى فى خلافة عمر بن الخطاب على الأرجح .

وقال ابن قتيبة عنه (الشعر والشعراء : ١/٣٧٢) : هو أحد من يصدق عن نفسه فى شعره ؛ يعنى أنه ممن يفاخر بواقع حاله ولا يفاخر بالمحال . ومن شعره الحماسى :

أعددت للحدثان سابغة وعداء علندى
نهدا ، وذا شطب يقد البيض والأبدان قدّا
وعلمت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدّا =

(*) ومن أشهرهم غير عمرو : زيد الخيل ، وعامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث ابن شهاب ، وعنترة العبسى ، والسليك بن السلكة ، والعباس بن مرداس ، وطليحة ابن خويلد .

. . . .

= كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا

وبدت « لميس » كأنها بدر السماء إذا تبدى

وبدت محاسنها التى تخفى وكان الأمر جدا

نازلت كبشهم ، ولم أر من نزال الكبش بدا

هم ينذرون دمى وأنـــذر إن لقيتُ بأن أشدا

كم من أخ لى صالح بوأته بيدىّ لحدا

ما إن جزعت ولا هلعــت ولا يرد بكاى زندا

ألبســـته أثوابـــه وخلقت يوم خلقت جلدا

أغـــنى غناء الذاهبيـــن أعد للأعداء عدا

ذهب الذين أحبهـــم وبقيت مثل السيف فردا

(أعددت للحدثان : هيأت للأحداث . سابغة : أى درعا سابغة وهى الواسعة . عداء : أى فرسا كثير العدو . علندى : ضخما أو غليظا شديدا . نهدا : ضخما طويلا . ذا شطب : أى سيفا به شطب وهى طرائق السيف . يقد البيض: يقطعها والبيض بالفتح الحديد والواحدة بيضة وبالكسر السيوف والواحد أبيض . الأبدان : جمع بدن وهى الدرع القصيرة . منازل: محارب . تنمروا : تشبهوا بالنمر . حلقا : بالحاء وبالتحريك : أى دروعا نسجت حلقتين حلقتين وهو بدل من الحديد . قدا (بالكسر) : شبه درع يسمى « اليلب » كان يتخذ من القد وهو السير يقد من جلد غير مدبوغ . ويروى خلقا بالخاء والضم وقدا بالفتح فينصب خلقا على التمييز أى تشبهوا بالنمر فى أخلاقهم وخلقتهم ، وقال أبو العلاء : تنمروا حلقا وقدا أى لبسوها فصارت لهم كالنمرات ، والنمرات جمع نمرة وهى كساء صغير فيه بياض وسواد ، وعليه ينصب حلقا مفعولا ، ويحتمل أن يراد من تنمروا =

ومما تقبل فيه الاطالة المذاكرة بالعلم، فان مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها. وروى عن الصادقين ـ عليهم السلام ـ : « المذاكرة بالعلم عبادة حسنة » .

فهذا ما فى المردود والمقبول .

[الحديث المهم والحديث الفضول] :

وأما المهم والفضول ؛ فان المهم كل مادعت الانسان حاجة إليه ؛ فى قوام

= اختلفوا فى ألوان ما لبسوه فينتصب حلقا على التفسير . يفحصن بالمعزاء : يؤثرن فيها تأثيرا من شدة العدو حتى يصير بها كالأفاحيص ، والمعزاء الأرض الصلبة ذات الحجارة والأفاحيص جمع أفحوص وهو فى الأصل مجثم القطاة تتخذه فى التراب . ويروى يمحصن (بالميم) والمحص العدو الشديد ، وعلى هذه الرواية ينتصب شدا مفعولا مطلقا من باب المرادف ، وعلى الرواية الأولى ينتصب مفعولا لأجله أو حالا بتأويل المصدر . وأشار بقوله . وبدت لميس .. البيتين إلى أن المرأة كشفت عن وجهها فعل الإماء حتى تأمن السبي أو فعل المروعة الخائفة . كبشهم : أى رئيسهم . بوأته . أنزلته . لحدا : أى قبرا واللحد حفرة فى جانب القبر . جزعت : لم أصبر ، وهلعت : جزعت أفحش الجزع كأنه يقول : ماجزعت عليه جزعا هينا ولا فظيعا وفيه نفى للجزع رأسا . وقوله : ولا يرد بكاى زندا أى شيئا يستعملون الزند فى معنى القلة كما يستعملون الفوف والنقير والقطمير وروى « ردأ » أى مردودا . أغنى غناء الذاهبين : أى من ذهبوا من عشيرته وانقرضوا أى أنه المعتمد عليه بعدهم . أعد : روى مضارع « عد » أى أعد لأعدائى وقماتى وأيامى عند المفاخرة أو أعد لهم ما يحتاج إليه من عدد وعدة ، وروى مضارع «أعد» مبنيا للفاعل أى أعد لهم السلاح ، ومبنيا للمفعول بمعنى أعددت أى هيئت لهم أو بمعنى يعدنى الأعداء ويحسبون فروسيتى . وكان يقال : إن عمرا بألف فارس . فردا : منفردا ، ومعنى البيت الأخير : مضى قرنائى فصرت وحدى لا صاحب لى يعيننى على الأمور كالسيف لاثانى له فى غمده — راجع شرح الحماسة للتبريزى ١/١٧٠) .

معيشته ، وإصلاح عاقبته ، أو سياسة نفسه وخاصته ، وذلك مطلق له الكلام فيه ، وغير مستقبح منه الطلب له من حيث لا يشوب المبالغة بالهذر ، ولا الطلب بالطمع ، ولا المسألة بالإلحاف ، ولا الوعظ بالتسليط ، ولا الأمر بالعنف ، ولا النهي بالغلظة ، ولا التنبيه على الذنب بالتوبيخ(١) ، فقد قال سفيان بن عيينة : يستحب للعالم إذا علم ألا يعنف ، وأن يتلطف فيما قاله ؛ حتى يأتي به على ما ذكرناه(٢) ؛ فيبلغ مراده من حيث لا يلحقه عيب ولا ينسب إلى تقصير . وقد أمر الله ـ عز وجل ـ بالكلام فيما تدعو الحاجة إليه وبالرفق واللين والتأني ؛ فقال ـ عز وجل ـ : ﴿ خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين(٣) ﴾ ، وقال : ﴿ وقولوا للناس حسناً(٤) ﴾ ،

---

(١) الهذر بالتحريك : سقط الكلام أو الكثير الرديء لأنه ينحو نحو الخطأ والباطل . والمسألة : السؤال . والإلحاف : الإلحاح والإضرار والاستئصال ؛ يقال : ألحف عليه ألح وألحف به أضر وألحف ظفره استأصله . والوعظ : ذكر مايلين القلب من الثواب والعقاب . والتسليط : إظهار القدرة والقهر ومنه التسلط وهو التحكم . والأمر : الطلب ، وفعله من باب نصر ويتعدى إلى مفعولين ثانيهما بالباء الجارة ، تقول أمرته بكذا ، ويستعمل متعديا إلى مفعول واحد بمعنى أشار . والنهي : الكف وضد الأمر ويستعمل بمعنى التحريم . والعنف (مثلثة) والغلظة : كلاهما في القول التخشين والشدة فيه والتوبيخ : التأنيب واللوم والتهديد .

(٢) يغلب على الظن أن المصنف عطف كلامه هو على مقال سفيان .

(٣) سورة الأعراف ـ الآية ١٩٩ . وسبقت في ص (٢٦٥) .

(٤) سورة البقرة ـ الآية ٨٣ . وقولوا للناس حسنا أي قولا هو الحسن نفسه فوضع المصدر موضع الاسم المبالغة في تأكيد الوصف كمثل قولهم : رجل عدل وصدق . وقرئ (حسنى) وهو مصدر كالحسن بالإسكان . وقرئ (حسنا) بالتحريك صفة مشبهة أي قولا حسنا جميلا .

وقال : ﴿ فقولا له قولا ليناً ، لعله يتذكر أو يخشى(١) ﴾ ، ولم يقنع من أنبيائه وصلحاء خلقه بترك الكلام فى المهم من أمر الدين ؛ بل قد عاب من ترك الكلام فى ذلك فقال فيما أمر به نبيه - ﷺ - من البشارة والنذارة : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم(٢) ﴾ ، وقال فى غير هذا : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره(٣) ﴾ ،

---

(١) سورة طه - الآية ٤٤ . وسبقت فى ص (٧٠)

(٢) سورة الأنعام - الآية ٥٤ . أمر الله — تعالى شأنه — رسوله ﷺ إذا جاءه المؤمنون بآيات الله المقرون بها المصدقون لها أن يبلغهم سلام الله إليهم ويبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم - ويحتمل أن يكون الأمر بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييباً لقلوبهم . وهذه الرحمة التى وعد الله بها وعداً مؤكداً هى ماذكره بعد — على سبيل البدلية — « أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة .. » الآية (*) ؛ والسوء الذنب ، والجهالة الجهل ، وقوله « بجهالة » فى موضع الحال والتقدير : عمل السوء وهو جاهل أى سفيه بعيد من الحكمة والتدبير ، أو وهو جاهل ما يتعلق بعمله من المضرة والمكروه . والضمير فى قوله : « ثم تاب من بعده » للسوء أو للعمل . والتقدير ثم تاب من بعد السوء أو ثم تاب من بعد عمل السوء . « وأصلح » : أى وأخلص التوبة .

(٣) سورة الأنعام — الآية ٦٨ — أمر الله — جل جلاله — رسوله الكريم أن يعرض عن الذين يخوضون فى آيات الله - أى آيات القرآن الكريم - يطعنون فيها ويستهزئون بها ويكذبونها ، وكانت قريش تفعل ذلك فى =

(*) وهذا على قراءة (أنه) بالفتح . وأما على قراءتها بالكسر فتكون الجملة استئنافا جواباً من سؤال تقديره : وما الرحمة ؟

وقال أمير المؤمنين عليه السلام - : «إن الله - عز وجل - لم يرض للأئمة أن تعصى في أكناف الأرض وهم ممسكون، لا يأمرون ولا ينهون». وقد أجاب الله - عز وجل - عباده عما (يسألونه) عنه من مبهم دينهم، فقال : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل : قتال فيه كبير(١)﴾ . . إلى آخر الآية ، وقال : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس(٢)﴾ ،

= أنديتها . وإعراض الرسول عنهم معناه أن يقوم عنهم ولا يجالسهم ، وهذا الإعراض موقوت بخوضهم في آيات الله فإذا خاضوا في حديث غيره مما يحل فللرسول حينئذ ألا يعرض عنهم .

(١) سورة البقرة — الآية ٢١٧ . وكان الرسول ﷺ بعث سرية على رأسها عبد الله بن جحش في جمادى الآخرة قبل قتال « بدر » بشهرين ؛ لترصد عيرا لقريش فيها عمرو بن الله الحضرمي وثلاثة معه ، فقتلته السرية وأسرت اثنين واستاقت العير ، وكان ذلك أول يوم من رجب والسرية تظن أن شهر جمادى الآخرة لم ينته ، فقالت قريش : استحل محمد الشهر الحرام الذي يأمن فيه الخائف ويبتشر الناس في الأرض لمعاشهم ، ورد الرسول العير والأسيرين والسائلون في الآية الكفار أو المسلمون ، والسؤال عن القتال في الشهر الحرام ، ولذا وقع « قتال » بدل اشتمال من «الشهر الحرام» .

(٢) سورة البقرة — الآية ٢١٩ . والسؤال ليس عن حقيقة الخمر وحقيقة الميسر بل عن تعاطيهما ، بدليل الجواب : « فيهما إثم كبير ومنافع للناس » . والخمر : المسكر ، ويقال خمره خمراً ستره وغطاه ، وسميت الخمر خمراً — نقلا عن المصدر — لأنها تستر العقل وتغطي التمييز . والميسر : القمار مفعل من يسر إذا قمر ، قال الزمخشري : واشتقاقه من اليسر أو السهولة لأنه أخذ المال بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب ، أو من اليسار أي الغنى لأنه يسلب الرجل يساره . ومعتمد الميسر الحظ . وكانوا في الجاهلية يلعبون الميسر بالأقداح ، وهي عشرة : الفذ (ونصيبه سهم واحد) والتوأم (وله سهمان) ، والرقيب (ثلاثة) ، والحلس (أربعة) ، والنافس (خمسة) =

وقال : ﴿ ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى ؛ فاعتزلوا النساء فى المحيض(١) ﴾، وكذلك سائر ما سألوا عنه مما يهمهم من أمر دينهم . فلما سألوا عما لا يهمهم وما هو فضول منهم [و] كانت نتيجته [اختلافهم] وتفرقهم أمسك عن جوابهم، فقال : ﴿ ويسألونك عن الروح . قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا(٢) ﴾ ، ولما سألوا عن آبائهم قال : ﴿ يأيها الذين

= والمسبل (ستة) والمعلى (سبعة) والمنيح والسفيح والوغد (ولا نصيب لأى منها) ، وكانوا يجزئون الجزور التى يقامرون عليها ثمانية وعشرين جزءاً ، ويضعون الأقداح فى خريطة يجاجئها أحدهم ويدخل فيها يده ويخرج منها قدحا قدحا باسم المقامرين ، فمن خرج له قدح ذو نصيب أخذ نصيبه ، ومن خرج له قدح لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور .

هذا . وقد حرمت الخمر تدريجياً ، وبدأ التحريم بهذه الآية ، وبعدها نزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (النساء ٤٣) ، وبعدها قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ... » الآيتين ٩٠ و٩١ من سورة المائدة . وكذلك حرم الميسر تدريجياً بالآيتين الأولى والثالثة .

(١) سورة البقرة — الآية ٢٢٢ . والمحيض الحيض وهو الدم الذى تنزفه المرأة فى الدورة الشهرية . وهو أذى أى يؤذى من يقربه نفرة منه واستقذاراً . واعتزال النساء فيه بمعنى اجتناب المباشرة الجنسية .

(٢) سورة الإسراء — الآية ٨٥ والروح المسئول عنه هو فيما نرجحه الروح الذى فى الحيوان ، والسؤال عن حقيقته ، والروح من أمر الله أى مما استأثر الله بعلمه ، والخطاب فى قوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » عام ، ووصف علمهم بالقلة بالإضافة إلى جنب علم الله وإن كان علمهم هذا كثيراً فى نظر أصحابه ونظر الناس .

آمنوا ، لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾(١) ، وقال : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ . قل : إنما علمها عند ربي(٢) ﴾ .

فكل ما جرى مجرى المهم : الذي ينتفع به وتدعو الحاجة إلى استعماله فحسن الكلام فيه . وكل ما خالف ذلك وجرى غير مجراه فيما لا يعنى الانسان ولا يجدى نفعاً فهو الفضول(٣)، الذي سمعت العلماء تذمه ، ورأيت الحكماء تنهى عنه .فقالوا : « إنما يهلك الناس فى فضول المال وفضول القول » ،

---

(١) سورة المائدة — الآية ١٠١ . روى أن قوماً كانوا يكثرون سؤال الرسول ﷺ حتى يعنتوه ، فأحدهم وكان دعياً متهما فى نسبه يسأله عن أبيه ، وآخر يسأله عن مستقر أبيه أفى الجنة هو أم فى النار ، وآخر يسأله عن ناقته الضالة . وقيل : كانوا يسألونه عن التكاليف الشاقة كسؤال عكاشة ابن محصن لما نزلت آية الحج : أفى كل عام يارسول الله ؟ وكرر سؤاله ثلاث مرات والرسول يعرض عنه ، ثم يقول له : « أما أنا لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم . اسكتوا عنى ما سكت عنكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » — أخرجه الطبرى من رواية أبى هريرة — فنزلت الآية .

(٢) سورة الأعراف — الآية ١٨٧ والساعة من أسماء القيامة ، سميت بالساعة لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو - على العكس- لطولها . وسؤالهم عن زمان إرسائها أى وقت إثباتها واستقرارها . وقد استأثر الله بعلم هذا الوقت ، ولهذا جاء الجواب عنه بطريق الحصر أكثر من مرة : « قل إنما علمها عند ربى — لا يجليها لوقتها إلا هو — ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة — يسألونك كأنك حفى عنها قل : إنما علمها عند الله » .

(٣) الفضول (بالضم) جمع الفضل وهو فى الأصل الزيادة . واستعمل الجمع استعمال المفرد فيما لا خير فيه ، ونسبوا إليه على لفظه فقالوا لمن يشتغل بما لا يعنيه « فضولى » .

وقال رجل لابنته وقد نقلها إلى زوجها : « يابنية ، أمسكي عليك الفصلين : فضل القول ، وفضل الشهوة » . ومن ذلك يكون العطب ، فكم [من] قتله كثرة فضوله ! ولم ير أحد قط قتل لسكوته ، ولا ضرب بالسوط على قلة كلامه ، وإنما يفعل به تلك الأفاعيل ويورده تلك الموارد فضول قوله ولسانه ؛ ولذلك قال الشاعر (١) :

* وجرح اللسان كجرح اليد *

وقال الآخر (٢) :

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل

[الحديث التام والحديث الناقص] :

وأما التام والناقص ، (فإن) التام من الكلام ما اجتمعت فيه فضائل هذه الأقسام ، فكان بليغاً صحيحاً ، وجزلا فصيحاً ، وكان جداً صواباً ، وحسناً حقاً ، ونافعاً صدقا ، وعند ذوي العقول مقبولا ، ولم يكن تكلفا ولا فضولا ، فإذا اجتمع ذلك فيه ووضعه قائله موضعه وأتى به في حينه وأصاب به مقصده فهو التام . ومثله من الكلام ما روى عن رجل قدم من اليمامة على عمر بن عبد العزيز فسأله : كيف الناس ؟ : فقال : « ظالم مقهور ، ومظلوم منصور ، وفقير مجبور ، وغني موفور » . فقال : « سرك الله وأحسن بشراك ! » (٣) . وما روى عن رجل من سمرقند قام بين يدي المهدي فقال :

(١) هو امرؤ القيس . وسبق القول في الشعر والشاعر في (ص ١٤) .

(٢) هو ابن المعتز . وسبق تناول البيت وصاحبه في (ص ١٥) .

(٣) الظالم مقهور — أي مغلوب — لأنه يوضع موضع المحاسبة ولا يقره أحد على ظلمه . والمظلوم منصور — أي معان — لأنه يمكن من حقه ويخلص من الظلم الواقع عليه . والفقير مجبور — أي ميسور الحال — لأنه يعان بما يغنيه . والغني موفور — أي تام الغنى — لأنه غير مطموع في ماله .

« يا أمير المؤمنين ؛ إنا قوم نأينا عن العرب ، وشغلتنا الحروب عن تحفظ الخطب . وأمير المؤمنين يعرف طاعتنا ، ويعلم ما فيه مصلحتنا ؛ فيجتزئ منا باليسير من الكثير ، وبما فى الضمير دون التفسير(١) » فقال له : « أصبت وأجدت . أنت خطيب القوم ! » . وشكا بعضهم حاله إلى بعض الرؤساء فقال : « إن الدهر كلح فجرح ، وجمح فطمح ، وأفسد ما صلح ، فإن لم تمن عليه فضح (٢) » . وأوصى خالد بن صفوان ابنه فقال : « كن - يابنى - أحسن ما تكون فى الظاهر حالا ، [و] أقل ما تكون فى الباطن مآلا ؛ فإن الكريم من كرمت طبيعته ، واللئيم من خبثت عند الحاجة طعمته . وإياك وكثرة الكلام فيما لا يعنيك ؛ فإنه فضل ؛ ولا آمن عليك فيه الوزر . والموت خير من طلب الحاجة إلى غير أهلها(٣) » .

---

(١) فى أساس البلاغة : « احتفظ بالشىء وتحفظ به : عنى بحفظه » ، والحفظ الرعاية ، وإذا أوقع على الكلام كان بمعنى استظهاره . واليسير : القليل فى مقابلة الكثير ، والهين فى مقابلة العظيم .

(٢) كلح الدهر اشتد (نقلا من كلوح الإنسان أى عبوسه) ، وجمح الدهر اشتد أيضاً (نقلا من جموح الفرس أى امتناعه من فارسه وانفلاته من من القياد) ، وطمح الدهر اشتد كذلك (نقلا من طموح الفرس أى ركوبه رأسه فى عدوه) . والدهر يفضح أى يكشف المستور . وإسناد الأفعال كلها إلى الدهر من باب المجاز الحكمى .

(٣) يعد خالد بن صفوان فى فصحاء العرب وحكمائهم وخطبائهم وذوى الرأى فيهم . وينسب إليه بعض الشعر . عاش أيام الأمويين . نقلت كتب الأمالى كثيراً من أقواله . وفى العقد الفريد (١ / ١٨٤) عبارة قريبة مما أورده المصنف . والطبيعة السجية جبل عليها الإنسان كالطبع . والطعمة (بوزن الحرفة) : الجهة التى منها يرتزق الشخص ، فإن كانت طيبة قيل : طيب الطعمة ، وإن كانت خبيثة قيل : خبيث الطعمة . والطعمة أيضاً السيرة فى الأكل . والطعمة (بالضم) المأدبة .

والناقص (عن) التمام وما قصر عن هذه الأقسام كان معيبا عند ذوى الأفهام ؛ كما روى أن بعض جلساء عبد الملك تنقص مصعب بن الزبير(١) وقد أفاضوا فى ذكره بحضرته ؛ فقال: « مه . أما علمت أن من صغر مقتولا فقد صغر قاتله(٢) » ؛ وهو(٣) إنما أراد التقرب من قلب عبد الملك بتنقصه وتصغير شأنه(٤) ، وجهل(٣) ما فى ذلك من التقصير بعبد الملك والوضع من ظفره(٥) ، فكان(٣) كلامه بادى النقص عند ذوى العقول غير محمود عند ذوى التحصيل . وكذلك قال بعض الأعراب لرجل رآه نطق بمنطق مذموم غير

---

(١) انضم مصعب بن الزبير إلى أخيه عبد الله فى ثورته على بنى أمية ، وقد أعمل عبد الملك بن مروان الحيلة مع العراقيين حتى ينصرفوا عن مصعب فى الوقت الذى أعد جيشا للقائه به بين الشام والعراق ، وفوجئ مصعب قبيل الالتحام بانصراف أصحابه عنه حتى لم يبق معه إلا قليل ، فجاءه عبيد الله ابن ظبيان وهو يقول : أيها الناس ؛ أين الأمير ؟ ! قال مصعب : قد غدرتم يا أهل العراق ، فرفع ابن ظبيان السيف ليضربه به ، فبدأه مصعب فوقع سيفه على بيضة ابن ظبيان ونشب السيف فى البيضة ، فجاء غلام لابن ظبيان وضرب مصعبا بالسيف فأرداه قتيلا ، ودخل عبد الملك العراق بعد ذلك منتصراً (العقد الفريد — الجزء الخامس) .

(٢) مه : اسم فعل أمر بمعنى (انكفف) . وإذا نونت كان طلب الانكفاف بها مطلقا عن كل أمر ، وإذا لم تنون كان طلب الانكفاف بها خاصا بالأمر المعهود بين المتكلم والمخاطب .

(٣) أى الجليس .

(٤) أى بتنقص مصعب بن الزبير وتصغير شأنه .

(٥) يقصد ما فى ذلك من نسبته إلى التقصير أى العجز وقلة القدرة ، والوضع من ظفره أى الحط من قدر هذا الظفر .

ناص ولا مقبول(١) ، فقال : « يا هذا ، إن عورات الرجال بين أرجلهم ، وإن عورتك لبين فكيك ! » . وهذا في هذا الباب مقنع إن شاء الله .

أدب الحديث :

فأما أدب الحديث فإن أصله وعمدته وبهاءه وزينته اتقاء الخطأ فيه والزلل واللحن والخطل(٢) . ثم أن يكون حقاً سالماً مما يهجنه من معايب القول التي قدمنا ذكرها . ثم أن يقدر المحدث مقدار كلامه ومقدار نشاط مستمعه فلا يحمله منه ما يضجره ويقصر عنه شيئاً ؛ وإلا وقع من مخاطبه موقع « إياس بن معاوية »(٣) من « ابن شبرمة »(٤) ؛

(١) غير ناص أي غير ظاهر . وفي القاموس المحيط : نص الشيء أظهره ، ونص الحديث إليه رفعه ، ونص المتاع جعل بعضه فوق بعض ، ونص فلانا استقصى مسألته عن الشيء ، ونص العروس أقعدها على المنصة .

(٢) الخطأ : مجانبة الصواب . والزلل : النقصان والسقوط . واللحن (هنا) : العدول بالكلام عن الصواب . والخطل : فساد الكلام واضطرابه .

(٣) هو إياس بن معاوية المزني ، يضرب به المثل في الذكاء ؛ كما قال أبو تمام في قصيدته التي مدح بها أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو ، في سماحة حاتم * في حلم أحنف ، في ذكاء إياس

وقال في مالك بن طوق :

أصبحت حاتمها جودا ، وأحنفها * حلماً ، وكيسها علماً ، ودغفلها (*)

وكان إياس — مع ذكائه — قارئاً للقرآن ، خبيراً بالفرائض ، عارفاً أيام العرب والعجم . ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة فأعمل ذكاءه في استنباط الحق وإقراره (العقد الفريد : ١/١٥ وما بعدها) .

(٤) هو ابن شبرمة القاضي ، من بني زيد الفوارس في العقد الفريد : =

(*) يعني عمرو بن معديكرب ، وحاتم الطائي ، والأحنف بن قيس ، وإياس بن معاوية ، والكيس بن أبي الكيس المحدث (أو زيد بن الكيس النمري النسابة) ودغفل بن حنظلة الشيباني النسابة .

فإن ابن شبرمة قال له : « أنا وأنت لا نتفق » . قال : « ولم ؟ » قال : « لأنك لا تشتهى أن تسكت ، وأنا لا أشتهى أن أسمع » .

وألا يردد القول إذا أعجبه ؛ فإن فى التوراة :(لا يعاد الحديث مرتين) . وروى أن « ربيعة الرأى » تكلم يوما فأعجبه كلامه فقال لأعرابى حضره : « ما تعدُّون العىّ فيكم ؟» ؛ قال : « ما أنت فيه منذ اليوم »(١). وتكلم «ابن السماك » فى قصصه فردد أشياء من مواعظه ، فقالت له جاريته : « لم تردد كلامك ؟ » ، فقال : « ليفهمه من لا يفهمه » ؛ فقالت : « إلى أن يفهمه من لم يفهمه (يكون) قد مله من فهمه »(٢) .

= ٢ / ١٨٩ : تولى القضاء للأمويين وهو كاره . فأحسن السيرة ، ولما عزل قال : عزلت من القضاء وأنا كاره وما بى فى ذلك إلا مخافة أن يلى هذه الوجوه من لا يعرف حقها . ثم تمثل بقول الشاعر :

فما السجن أبكانى ولا القيد شفنى * ولا أننى من خشية الموت أجزع

ولكن أقواماً أخاف عليهم * إذا مت أن يعطوا الذى كنت أمنع

(١) ربيعة الرأى هو أحد الأئمة الحافظين والفقهاء المجتهدين ، وصاحب الفتوى بالمدينة على عهد الأمويين وفى بعض الروايات : تكلم ربيعة الرأى يوما فأكثر فكأن العجب داخله ، وإلى جنبه أعرابى ، فالتفت إليه فقال: ما تعدون البلاغة يا أعرابى ؟ قال : قلة فضول الكلام وإيجاز الصواب . قال : فما تعدون العى ؟ . قال : ما كنت فيه منذ اليوم ! . فكأنما ألقمه الأعرابى حجراً . (العقد الفريد : ٤ / ٢٤١) .

(٢) ابن السماك من الوعاظ ، وكان يراجع الخلفاء العباسيين ويعظهم ويبكيهم ، وخاصة المهدى وهارون الرشيد (العقد الفريد ٢/ ٥٩ و ٣ / ٩٦ و ١١١ وفى ص ١٩٢ مثال من عظاته الطويلة) . وروى ابن عبد ربه فى العقد الفريد : ٢ / ١٢٠ أن ابن السماك هو الذى سأل جاريته : كيف سمعت =

وألا يكون نزر الكلام فينسب إلى العى ، ولا كثير الكلام فينسب إلى الهذر(١) ، بل يتوسط فى منطقه ؛ فان خير الأمور أوساطها . وإذا أعجبه الكلام فليصمت ، وإذا أعجبه الصمت فليتكلم ؛ فان البركة فى مخالفة الهوى .

وأن يتجنب الأيمان فى حديثه ، فانما يحمل الرجل على اليمين إحدى ثلاث خلال : إما مهانة يجدها فى نفسه،وقد وصف الله - سبحانه - الحلاف بذلك ، فقال : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾(٢) . أو عى فى الكلام ، فهو يجعل الأيمان حشواً له . أو تهمة ظهرت منه ؛ فهو لايثق من الناس بتصديقه إلا بعد اليمين ؛ ولذلك قال بعض الأعراب فى بعض ما تكلم به : « والله فإنها مهانة أو فجور » أى : [فإن] الإنسان لايحلف بالله إلا من فجور قد ظهر منه فأحوجه إلى استعمال اليمين حتى يصدق ، أو مهانة يجدها فى نفسه .

ولا يبتدئ كلامه إلا بعد أن يتروى فيه ؛ فإن الرجوع عن الصمت إلى الكلام أحسن من الرجوع عن الكلام بعد الشروع فيه . وقد روى

= كلامى ؟ . فقالت له : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده ! فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد مله من فهمه !.

(١) الهذر (بالتحريك) الكلام الكثير الردىء أو سقط المنطق وباطله (عن القاموس) .

(٢) سورة القلم — الآية ١٠ . والحلاف الكثير الحلف فى الحق والباطل ، والمهين الكذاب أو الحقير أو القليل الرأى والتمييز . وهذه الآية من جملة آيات متتابعة فى صفة الوليد بن المغيرة المخزومى ومن إليه من وجهاء قريش الذين كانوا يناوئون الرسول ﷺ ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا (وانظر ص ٢٥٤) .

عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه أوصى رجلا سأله أن يخصه بشيء من العلم ؛ فقال له : « أمستوص أنت ؟ » ، فقال : « نعم » ، فقال : « إذا أردت أمراً فتدبر عواقبه ؛ فان كان خيرا فأمضه ،وإن كان شرآ فانته عنه » .

وأن يخزن كلامه إلا عند إصابة [المواقع] ؛ فانه ليس فى كل حين يحسن الصواب ، وإنما تمام الإصابة بإصابة الموقع ، فان أخطأه دخل على كلامه الهجنة ولم يبلغ به البغية(١) .

وألا يحضر كلاماً لم يحضره ، ولا يدخل بين اثنين فى شيء لم يُدخَل فيه . ولا يجيبن عن شيء لم يسأل عنه ، وألا يجيب من خاصمه وأغضبه بجواب الغضب والشر ؛ فانه ربما ظهرت عليه عند الغضب أمارات تصدق عليه قول العائب له . ولكن ليكن جوابه بالحلم والوقار ؛ فان الغلبة للحليم ، وليعلم أن جهل خصمه يبين عن فضله إذا لم يقابله (٢) ، فقد قيل : « لولا جهل الجاهل ماعرف عقل العاقل » ؛ وقد قال أمير المؤمنين — عليه السلام — : « الغالب بالشر مغلوب » .

وألا يتهاون بالكذبة تحفظ عليه فى الجد أو الهزل ؛ فإنها سريعة فى إبطال ما يأتى من الحق، وقد قال رسول الله ﷺ — : « إن الرجل ليكذب الكذبة فلا يزال بها حتى يصير عند الله كاذباً » (٣) .

---

(١) الهجنة (بالضم) من الكلام : ما يعيبه . والبغية (بالضم وبالكسر) : الطلبة وهى كل ما تبتغيه أى تطلبه .

(٢) أى : وليعلم أن جهل خصمه يبين عن فضل العاقل الحليم الوقور إذا لم يقابل خصمه (أى هذا الجاهل) بمثل جهالته .

(٣) الحديث متفق عليه بهذه الرواية : « لايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

وإذا سئل غيره فلا يسلب الجواب منه . وإذا حُدث أنصت لمحدثه وإن كان يعرف الحديث ؛ فقد روى عن الأحنف(١) :

(١) هو الأحنف بن قيس التميمي ، المضروب به المثل في الحلم (راجع ص٢٤٩) . كان ذا بصر ورأى وبلاغة وحكمة على الرغم من إصابته بالعور والعرج (العقد الفريد ٢ / ٩٣) ولكنه إذا تكلم جلا عن نفسه . وكان الخلفاء والولاة يقدمونه ويطلبون رأيه ، وفد على عمر بن الخطاب وخطب بين يديه فأعجب عمر بقوله وعقله (الخطبة في العقد الفريد ١/ ٢٩٥) واستنصره الزبير بن العوام وطلحة وعائشة فأبى أن ينحاز إليهم وينقض بيعته لعلى بن أبي طالب ، واعتزل بالجلحاء قريبا من البصرة ومعه ستة آلاف من قومه (العقد الفريد ٥ / ٧٧) . وحمله معاوية على تحقير على فأبى فأكرهه على ذلك إكراها فقال له الأحنف : إذن أصعد المنبر وأقول : « أيها الناس ؛ إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليا . وإن عليا ومعاوية اختلفا فاقتتلا ، وادعى كل واحد منهما أنه بغى عليه وعلى فئته . فإذا دعوت فأمنوا — رحمكم الله — ثم أقول : اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ! والعن الفئة الباغية ! . اللهم العنهم لعناً كبيراً ! . أمنوا — رحمكم الله — يا معاوية ، لا أزيد على هذا ولا أنقص منه حرفا ولو كان فيه ذهاب نفسي » . فقال معاوية : إذن نعفيك يا أبا بحر (العقد الفريد ٤ / ١١١) . وعندما دبر معاوية أمر البيعة لابنه يزيد سكت الأحنف عن القول فيها فسأله في هذا معاوية فقال له : « أخافك إن صدقت وأخاف الله إن كذبت » ، ولما قدمت الوفود تبايع حمله معاوية على الكلام فقال : « يا أمير المؤمنين ؛ أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه . فان كنت تعلمه لله رضا ولهذه الأمة فلا تشاور الناس فيه ، وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة » قالوا : فتفرق الناس ولم يذكروا إلا كلام الأحنف (العقد الفريد ٥/ ١٣١) . =

« تجنب فى حديث جليسك ثلاثا : الإعراض عنه ، وسوء الاستماع منه ، وأن تريه أنك قد عرفت ما أراد » .

وإذا بلى بالجواب عن شىء قد سئل عنه هو وجماعة معه فلا يبادرهم بالجواب ؛ فيكونوا متعقبين لقوله آخذين بأحسنه ممكنين من عيبه ؛ بل يكون آخرهم جوابا ؛ فإنه يجمع بذلك: أخذ محاسن قولهم ، وتعقب آثارهم ، والسلامة من عيبهم وطعنهم .

وليدع التطاول فى المجالس على أهلها بالقول مما يعرض له من الصواب ؛ لئلا يظنوا أنه يريد التكبر عليهم ، والوضع منهم ؛ فيعادوه .

وليكن قصده بحضرة العلماء أن يعرفوا منه أنه على الاستماع أحرص منه على القول ؛ فإن نازعته نفسه إلى القول بحضرتهم — وهم نقاد القول وجهابذته (١) — فلا يخرجن منه إليهم إلا ما كان صحيحاً جائزاً .

[وليستحين] من تكذيب صاحبه فى حديثه . وإن كذب(٢) فأراد تنبيهه على كذبه تلطف له فى ذلك بألطف القول ؛ فإنه يجمع بذلك : البقيا

= ومن لطيف ما يحكى قول الأحنف عن نفسه : لقد تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقرى ؛ رأيته قاعدا بفناء داره ، محتبيا بحمائل سيفه يحدث قومه ، حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك !! . فو الله ما حل حبوته ولا قطع كلامه ، ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له : يابن أخى ، أثمت بربك ، ورميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك ، ثم قال لابن له آخر : قم - يا بنى - فحل كتاف ابن عمك ، ووار أخاك ، وسق إلى أمه مائة ناقة دية ابنها فانها غريبة . (العقد الفريد ٢/١٢١) .

(١) الجهابذة : جمع جهبذ (وزان زبرج) وهو الناقد الخبير .

(٢) أى صاحبه .

على مودته ، وقضاء حقه فى التأنى لإصلاح خلقه .

وليحدث الناس بما يعرفون ، ويعفيهم مما يكرهون ؛ تدوم له بذلك مودتهم (١) ؛ وقد روى عن الصادقين — عليهم السلام — : « رحم الله من حببنا إلى الناس بأن حدثهم عنا بما يعرفون » .

وليعلم أن لسانه آفة مرسلة عليه ، إذا أطلقه فليضبطه ؛ وقد روى عن العباس بن عبد المطلب أنه قال لابنه عبد الله (٢) :

---

(١) الفعل (يحدث) مجزوم بعد لام الأمر ، والفعل (يعفى) منصوب بعد واو المعية ، والفعل (تدوم) مرفوع على الاستئناف . ومن الجائز جزم الأفعال الثلاثة : الأول بعد لام الأمر ، والثانى من باب العطف ، والثالث لوقوعه فى جواب شرط مقدر مع فعله دل عليه الأمر السابق ، والتقدير : إن يحدث الناس بما يعرفون تدم له مودتهم .

(٢) العباس بن عبد المطلب هو عم الرسول ﷺ ، أسلم ، وناصره ، ووقف إلى جانبه ، وكان له دور خطير فى التمهيد لفتح مكة . وعبد الله ابن العباس هو حبر هذه الأمة،ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات فى الشعب حينما كان بنو هاشم محصورين فيه . وكانت له — وهو صغير مميز — صحبة بالرسول ، أفاد منها إفادة كبيرة ، حتى إنه روى له (١٦٦٠) حديث . وعاش فقيها قديرا على الفتيا فى مسائل الدين ، بصيرا بتفسير القرآن الكريم وتأويله ، ضليعا فى توزيع الفرائض (المواريث) ، عالما بالعربية والشعر والغريب وأيام العرب . وكان له جلد على المناقشة ومطارحة الكلام حتى قال مسروق : أدركت خمسمائة من الصحابة ، إذا خالفوا ابن عباس لم يزل يقررهم حتى يرجعوا إلى قوله . وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان يدعوانه إلى مجلسيهما ويستشيرانه . وولاه على بن أبى طالب البصرة ، فلم تشغله الولاية عن الجلوس إلى الناس للفتيا وتفسير القرآن الكريم . =

« يابنى ؛ احفظ لسانك إلا مما لك ، واقد نفسك إلا عما أمرت به » .

وإذا غُلب على الكلام فلا يُغلب على السكوت ؛ فقد قيل : إذا فاتك المنطق فلا يفوتك الصمت . واستشعر ما وصى به « أكثم بن صيفى » (١) بعض ولده ؛ فانه قال له : « ومن الجمال والمروءة أن تكون عالماً كجاهل ، وناطقاً كعيي . والعلم مرشدة ، والصمت محمدة . وفضل القول على العمل لؤم ، وفضل العمل على القول كرم . ولم يلزم الكذب شيئاً إلا غُلب . والانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم ، والتقرب منهم مجلبة لقرين السوء ؛ فكن من الناس بين (المنقبض) والمشترك ؛ فان خير الأمور أوساطها . ومن لم يكن له من نفسه واعظ تمكن منه عدوه على شر فعله » .

ولا ينبغى أن يمنعه حذر المراء من حسن المجادلة ، ولا خوف العى من استعمال الصمت فى وقته . وليعلم أن الرجل قد يكون « زميتا » فيحمله الحرص على أن يقال : « لسن » ، والخوف من أن يقال : « عيي » (٢) — على أن يتكلم فى غير موضعه ، فيصير ماهرب منه خيراً مما أوقع نفسه فيه .

وليعلم أن من عاب الناس وذكر مساوئهم جمع (مع) الإثم فى الغيبة التى

= وكف بصره فى أخريات عمره ، ولم يزل ودوداً للناس ، بارأبهم وبالفقراء منهم بخاصة ، حتى توفى بالطائف سنة ٦٨ هـ .

(١) سبق التعريف به ص (٢٩٣) . وللاستزادة : تقرأ له فى العقد الفريد طائفة من نصائحه (١/١٧٣) وخطبته أمام كسرى (١/٢٥٩) وطائفة كبيرة من أمثاله (٣/١٤) وتعزيته لعمرو بن هند فى أخيه (٣/٢٥٣) .

(٢) الزميت (بوزن الرزين) : الوقور ، والزميت (بوزن السكيت) : الأكثر وقاراً . واللسن (بوزن الكتف) : الفصيح المتكلم . والعيى فى المنطق : العاجز فيه الذى لا يهتدى لوجه الصواب .

نهى الله عنها الاستهداف لعيبهم والتعرض لشر قولهم ؛ وقد قال الشاعر :

ومن دعا الناس إلى ذمه * ذموه بالحق وبالباطل
مقالة السوء إلى أهلها * أسرع من منحدر سائل(١)

وقال آخر :

ولا ينطلق منك اللسان بسوأة ، * فللناس عورات ، وللناس ألسن

---

(١) ورد البيتان دون نسبة فى عيون الأخبار لابن قتيبة - كتاب الطبائع والأخلاق المذمومة : ٢٦/٢ . وفى العقد الفريد - كتاب الياقوتة فى العلم والأدب - باب التحفظ من المقالة القبيحة : ٢٦٨/٢ .

وفى خزانة الأدب - الشاهد ٧١٤ - أورد البغدادى فى ترجمة كعب ابن زهير مما يستجاد له قوله :

إن كنت لاترهب ذمى ، لما	تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى إذ أنا منصت	فيك لمسموع خنا القائل
والسامع الذم شريك له	ومطعم المأكول كالآكل
مقالة السوء إلى أهلها	أسرع من منحدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه	ذموه بالحق وبالباطل

وهذان البيتان الأخيران هما بيتا المصنف بوضع كليهما موضع الآخر .

تنبيه: وأرجو أن أنبه إلى أن البيت الأوسط فى هذه المقطوعة، وهو قوله :

والسامع الذم شريك له ومطعم المأكول كالآكل

هو البيت الذى أورده المصنف فى ذم مستمعى الكذب (راجع ص ٢٨٤) وإن اختلفت الرواية وقصر القلم هناك فنسبته - ظنا - إلى أحد الطائيين . وهنا تأتى نسبته - يقينا أو رجحانا - إلى كعب بن زهير . (وسبق التعريف به ص ١٣٠) .

وليعلم أنه ليس من علم يذكره عند غير أهله إلا عادوه واستثقلوه ، فلا تجالس أحداً بغير طريقته ، ولا تحدثه إلا بما يستحقه ؛ فان للعلم حقين : أحدهما بذله لمستحقيه ، والآخر صرفه عمن ليس من أهله .

وألا تستعمل المزاح إلا فى الأحوال التى يخرج بها من حد العبوس ، ومتى زاد فى المزح على إنسان فأجابه بما يحرك من طبعه فلا يلومن إلا نفسه ، إذ ليس من العدل أن يغضب من شىء وهو المبتدئ به ؛ فقد قال حكيم العرب :

* وأول راضٍ سنةً من يسنها * (١)

---

(١) فى لسان العرب — مادة سنن — السنة السيرة حسنة كانت أو قبيحة ، قال خالد بن عتبة الهذلى :

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها ... فأول راض سنة من يسيرها

وفى الأغانى (٦/٢٧٤) : كان أبو ذؤيب الهذلى يهوى امرأة يقال لها أم عمرو ، وكان يرسل إليها خالد بن زهير أحد أقاربه — وخالد يومئذ غلام على ما ذكره التبريزى فى شرح ديوان الحماسة : ٤/٢٠ — فلما كبر خانه فيها ، وكان أبو ذؤيب قد فعل مثل ذلك فى عويم بن مالك بن عويمر . فقال أبو ذؤيب فى ذلك :

وما حمل البختى عام غياره ... عليه الوسوق : بُرها وشعيرُها
أتى قرية كانت كثيراً طعامها ... كرفغ التراب كل شىء يميرها
فقيل : تحمل فوق طوقك إنها ... مطبعة من يأتها لا يضيرها
بأعظم مما كنتُ حملت خالداً ... وبعضُ أمانات الرجال غُرورها
ولو أننى حملته البزل ما مشت ... به البزل حتى تتلئب صدورها
خليلى الذى دلى لغىٍّ خليلتى ... جهاراً فكل قد أصاب عرورها =

. . . .

= فشأنكها . إنى أمين وإننى ... إذا ما تحالى مثلها لا أطورها

أحاذر يوما أن تبين قرينتى ... ويسلمها أحرازها ونصيرها

وما أنفُس الفتيان إلا قرائن ... تبين ويبقى هامها وقبورها

فنفسَك فاحفظها ولا تُفش للعدا ... من السر ما يُطوَى عليه ضميرها

وما يحفظ المكتومَ من سر أهله ... إذا عُقد الأسرار ضاع كبيرها

من القوم إلا ذو عفاف يعينه ... على ذاك منه صِدق نفس وخيرها

رعى خالد سرّى ليالى نفسُه ... تَوالى على قصد السبيل أمورها

فلما تراماه الشبابُ وغيُّــه ... وفى النفس منه فتنة وفجورها

لوى رأسه عنى ومال بوده ... أغانيجُ خود كان فينا يزورها

تعلقه منها دلال ومقلة ... تظل لأصحاب الشقاء تديرها(*)

فأجابه خالد بن زهير :

لا يُبعدن اللهُ لبَّك إذ غزا ... وسافر والأحلامُ جمٌّ عثورها

وكنتَ إماما للعشيرة تنتهى ... إليك إذا ضاقت بأمر صدورها

لعمرك إما أم عمرو تبدلت ... سواك خليلا شاتمى تستخيرها

فان التى فينا زعمتَ ومثلها ... لفيك . ولكنى أراك تجورها =

(*) البختى : الجمل الخراسانى . غياره : إتيانه بالميرة . الوسوق : جمع وسق وهو حمل البعير . رفع القراب : أى الرفع منه وهو الكثير اللين . إنها مطبعة : إن القرية كذلك والمطبعة بمعنى المملوءة بالطعام : البزل : الهدائد والنياق الفتية : تتلئب : تستقيم وتنتصب وتمتد . دلى لغى خليلتى : أوقعها فيه . عرورها : عيبها ومعرتها . لا أطورها : لا أقربها . قرينتى : أى نفسى . أحرازها : حصونها . توالى على قصد السبيل : تتتابع على السبيل القاصده أى المستقيمة . تراماه : رمى به . أغانيج خود : تكسرها وتدللها والخود الشابة الحسنة .

وينبغى أن تتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول .

وهذا آخر باب العبارة . وقد أتينا بجمل مما حضرنا فيه تغنى عن الإطالة ؛ إن شاء الله — تعالى .

=ألم تنتقذها من عويم بن مالك ... وأنت صفى نفسه وسجيرها

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها ... فأول راض سنة من يسيرها

فان كنت تشكو من خليل مخانة ... فتلك الجوازى عقبها ونصورها

وإن كنت تبغى للظلامة مركبا ... ذلولا فانى ليس عندى بعيرها

نشأت عسيراً لاتلين عريكتى ... ولم يعل يوما فوق ظهرى كورها

متى ما تشأ أحملك والرأس مائل ... على صعبة حرف وشيك طمورها

فلا تك كالثور الذى دفنت له ... حديدة حتف ثم أمسى يثيرها

يطيل ثواء عندها ليردها ... وهيهات منها دورها وقصورها

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ... ألذ من السلوى إذا ما نشورها

فلم يغن عنه خدعه يوم أزمعت ... صريمتها . والنفس مر ضميرها

ولم يلف جلداً حازما ذا عزيمة ... وذا قوة ينفى بها من يزورها

فأقصر ولم تأخذك منى سحابة ... ينفر شاء المقلعين خريرها

ولا تسبقن الناس منى بخمطة ... من السم مذرور عليها ذرورها(**)

(**) غزا وسافر : أى الاب وغزوه وسفره بمعنى ذهابه . عثورها : أخطاؤها . تستخيرها : تستعطفها . تجورها : تعرض عنها . تنتقذها : تأخذها . سجيرها : خليلها وصفيها . مخانة : خيانة . عقبها : أى عاقبتها . نصورها : جمع نصر أو ناصر والمقصود انتصاراتها . كورها : رحلها . والرأس مائل : أى من المرح والنشاط حرف : ضامرة . وشيك طمورها : سريع وثوبها . ثواء : إقامة . السلوى : هنا العسل . نشورها : نجتنيها . والنفس مر ضميرها : أى والنفس خبيثة كارهة . أقصر : كف والمقلعين الذين أصابهم القلع وهو الضباب ومعنى البيت : كف ولم تأخذك منى سحابة منطق وهجاء كأنه مطر ينفر شاء الناس . ولا تسبقن الناس .. معنى البيت لا تتعرض لشتمى وهجائى والخمطة المراد بها اللوم والكلام القبيح وأصل الخمطة النبتة الطرية التى أخذت طعما ولم تستحكم أو التى أخذت ريح الإدراك ولم تدرك بعد .

المصادر والمراجع

١ ـ اتجاهات النقد الأدبي العربي للدكتور محمد السعدى فرهود ـ المحمدية ـ ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م .

٢ ـ احياء علوم الدين للغزالى .

٣ ـ الأدب العربى وتاريخه ـ محمود مصطفى ـ مصطفى البابى الحلبي ـ ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧ م .

٤ ـ أدب الدنيا والدين لأبى الحسن البصرى الماوردى .

٥ ـ أدب الكتاب للصولى .

٦ ـ أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ـ المنار ـ ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٩ م .

٧ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى .

٨ ـ الأمالى لأبى على القالى ـ دار الكتب ـ ١٣٤٤ هـ/١٩٢٦ م .

٩ ـ البديعيات لابن حجة الحموى .

١٠ ـ البرهان فى وجوه البيان لأبى الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ـ تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف ـ مكتبة الشباب ـ ١٩٦٩ م .

١١ ـ البصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدى ـ تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر ـ لجنة التأليف ـ ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٣ م .

١٢ ـ البيان والتبيين للجاحظ .

١٣ ـ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان .

١٤ ـ التعريف بالحديث الشريف للدكتور محمد السعدى فرهود ـ المحمدية ـ ١٣٨٩ هـ/ ١٩٧ م .

١٥- التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه لأبي عبيد البكري - دار الكتب - ١٣٤٤ هـ/١٩٢٦ م .
١٦- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه .
١٧- خاص الخاص للثعالبي .
١٨- خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي .
١٩- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني - المنار - ١٣٦٧ هـ .
٢٠- دواوين الشعراء وشروحها .
٢١- ديوان المعاني لأبي هلال العسكري - القدسي - ١٣٥٢ هـ .
٢٢- ذيل الأمالي لأبي علي القالي - دار الكتب - ١٣٤٤ هـ/ ١٩٢٦ م .
٢٣- رسالة الغفران لأبي العلاء المعري - هندية - ١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م .
٢٤- زهر الآداب للحصري القيرواني - بشرح الدكتور زكي مبارك - التجارية - ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣١ م .
٢٥- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي - بتعليق عبد المتعال الصعيدي - صبيح - ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٢ م .
٢٦- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك .
٢٧- شرح المعلقات السبع للزوزني .
٢٨- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام - للخطيب التبريزي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - التجارية - ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م .
٢٩- شعراء النصرانية للأب لويس شيخو - بيروت - ١٨٩١ م .
٣٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة - تحقيق أحمد محمد شاكر - المعارف - ١٩٦٦ و ١٩٦٧م .
٣١- الصناعتين لأبي هلال العسكري - تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - ١٣٧١ هـ/١٩٥٢ م .
٣٢- العقد الفريد لابن عبد ربه - تحقيق محمد سعيد العريان - التجارية - ١٣٥٩ هـ/ ١٩٤٠ م .

٣٣- العمدة لابن رشيق القيرواني — تحقيق محيي الدين — التجارية -- ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م .
٣٤- عيار الشعر لابن طباطبا - تحقيق الدكتور طه الحاجري والدكتور محمد زغلول سلام - التجارية - ١٩٥٦ م .
٣٥- فرق الشيعة للنوبختي .
٣٦- قضايا النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد السعدي فرهود — زهران — ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م .
٣٧- الكامل في اللغة والأدب المبرد - التجارية - ١٣٦٤ هـ .
٣٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري .
٣٩- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير الموصلي — تحقيق محيي الدين — مصطفى البابي الحلبي — ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م .
٤٠- الموازنة للآمدي - تحقيق محيي الدين - التجارية - ١٣٧٨هـ/١٩٥٩ م
٤١- الموشح للمرزباني — تحقيق علي محمد البجاوي — نهضة مصر — ١٩٦٥م
٤٢- نقائض جرير والاخطل للأب صالحاني .
٤٣- نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة .
٤٤- نقد النثر - بتحقيق الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادي - مصر - ١٩٣٩ م .
٤٥- النوادر لأبي علي القالي — دار الكتب — ١٣٤٤هـ/١٩٢٦ م .
٤٦- الهدية السعدية شرح الأربعين النووية للدكتور محمد السعدي فرهود .
٤٧- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني — تحقيق أبي الفضل والبجاوي — دار إحياء الكتب العربية - ١٣٧٠هـ/١٩٥١ م .
٤٨- وفيات الأعيان لابن خلكان .

وهذا آخر ما وفق الله - جل جلاله - إليه من تجلية القول في العبارة ، وتحلية الحديث عن تأليفها .
وعلى الله قصد السبيل ؟ الشارح

محمد السعدي فرهود

الموضـــوعات(*)

	صفحة
تقـــديم	(ح)
مقـــدمة للمؤلف	١
ترجمة الجـاحظ	١
تفسير « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »	٥
تفسير « ولقد كرمنا بنى آدم ... » الآية	٦
وجوه البيـــان	٧
تفسير « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين »	٧
تفسير « ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون »	٨
تفسير « أولم يسيروا فى الأرض ... » الآية	٨
ترجمة الحارث بن خالد المخزومى	٨
ترجمة مجنون ليلى — قيس بن الملوح	٩
ترجمة زهير بن أبى سلمى	١٢
تفسير « ولتعرفنهم فى لحن القول »	١٣
ترجمة امرئ القيس	١٤
ترجمة ابن المعتز	١٥
تفسير « اقرأ وربك الأكرم ... » الآيات	١٨
تفسير « أولم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى »	١٨
تفسير « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم »	١٩
تفسير « وعلم آدم الأسماء كلها ... » الآيات	٢٠
تفسير « ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا »	٢١
تفسير « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ... » الآية	٢١
تفسير « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله »	٢١
تفسير « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث »	٢٢
شرح الحديث « نية المرء خير من عمله »	٢٢

(*) موضوعات المتن تحتها خطوط ، وغيرها من موضوعات الشرح .

	صفحة
تفسير « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن »	٢٣
تفسير « قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ... » الآية	٢٣
البيان بالقول وهو العبارة	٢٦
تفسير « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير »	٢٦
تفسير « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ... » الآية	٢٧
الخبر	٢٨
الطلب	٢٩
أقسام الطلب	٢٩
الاستفهام : معناه وأدواته	٣٠
معنى التقرير واستعمال الاستفهام فيه	٣٠
تفسير « ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ... » الآية	٣٠
وجوه الخبر	٣٢
تحرير القول فى الجملة الشرطية	٣٢
عموم الخبر وخصوصه وإهماله	٣٤
تفسير « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما »	٣٤
تفسير « بل الإنسان على نفسه بصيرة »	٣٥
تفسير « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »	٣٥
صدق الخبر وكذبه	٣٧
ترجمة عامر بن الطفيل العامرى	٣٨
النسخ فى الحكم	٣٨
تفسير « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »	٣٩
تفسير « ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد »	٤١
المعارضة فى الكلام واستعمالاتها	٤٢
تفسير « أيتها العير إنكم لسارقون »	٤٣
شرح الحديث « الكذب مجانب للإيمان »	٤٣
تفسير « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون »	٤٤

صفحة

تفسير «ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ...» الآية ٤٤
أمثلة من التسمية بالكنى والألقاب ٤٦
التشبيه ٥٠
علاقة التشبيه بالشعر ٥٠
ترجمة الراعى النميرى ٥١
ترجمة ذى الرمة ٥٢
تفسير «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ...» الآية ٥٣
ترجمة النابغة الذبيانى ٥٤
ترجمة أبى تمام ٥٨
اللحن ٦٠
معنى التعريض وعلاقته باللحن ٦٠
ترجمة الأحوص ٦٤
تفسير «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين» ٦٥
ترجمة حسان بن ثابت ٦٦
رأينا فى نظرية الإلهام فى الفن القولى ٦٩
تفسير «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ...» الآية ٧٠
تفسير «فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» ٧٠
الرمز ٧٠
معنى الرمز ٧٠
تفسير «قال رب اجعل لى آية ...» الآية ٧١
أسلوب الرمز فى القديم والحديث ٧٣
الوحى ٧٥
تفسير «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا» ٧٥
تفسير «فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم ...» الآية ٧٦
تفسير «إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى» ٧٦
شرح الحديث «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا
من النبوة» ٧٧

	صفحة
تفسير « وأوحى ربك إلى النحل . . » الآية	٧٧
ترجمة عمر بن أبى ربيعة	٧٨
الاستعارة	٨٢
وسائل نمو اللغة	٨٢
تفسير « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة . . » الآيتين	٨٤
تفسير « وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم . . . » الآية	٨٥
تفسير « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا »	٨٥
تفسير « يوم نقول لجهنم هل امتلأت . . . » الآية	٨٦
تفسير « ثم استوى إلى السماء وهى دخان . . . » الآية	٨٦
تفسير « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه »	٨٧
الأمثال	٨٨
تفسير « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم . » الآية	٨٨
المثل فى صورته التعبيرية	٨٨
نقلة من كلام الإمام عبد القاهر فى التمثيل	٨٩
تفسير « ضرب لكم مثلا من أنفسكم . . » الآية	٩٠
الأمثال الحقيقية والأمثال الفرضية	٩٠
تفسير « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون »	٩٢
من أمثال القرآن	٩٢
اللغز	٩٤
ترجمة ابن دريد	٩٧
الحذف	٩٧
نوعا الإيجاز	٩٧
تفسير « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم . . الآية	٩٨
أمثلة من إيجاز الحذف	١٠٠

	صفحة
الصرف	١٠١
مسائل فى معنى الصرف والالتفات ودواعيهما	١٠١
أمثلة للالتفات عند الجمهور وعند السكاكى	١٠٢
أمثلة لصرف القول من الواحد أو المثنى أو الجمع إلى آخر	١٠٣
تفسير « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة »	١٠٤
ترجمة الحطيئة	١٠٤
المبالغة	١٠٧
تفسير « وقالت اليهود يد الله مغلولة »	١٠٨
ترجمة أبى نواس	١١٠
ترجمة الفند الزمانى	١١٣
القطع والعطف	١١٤
تحقيق القول فيهما وفى صلتهما بالفصل والوصل	١١٤
تفسير « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم .. » الآية	١١٥
تفسير « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل . » الآيات	١١٦
التقديم والتأخير	١١٦
تفسير « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى »	١١٦
تفسير « ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا » الآية	١١٧
الاختراع	١١٧
ترجمة الخليل بن أحمد	١١٩
باب تأليف العبارة	١٢١
الشعر وما جاء فيه	١٢١
الشعر بين البلاغة والضرورات	١٢٢
ترجمة عروة بن الورد	١٢٣
رأى أبى هلال العسكرى فى الضرورات	١٢٥
الزحاف وأشكاله	١٢٥
العلل العروضية وأشكالها	١٢٦

صفحة

	صفحة
حد البلاغة	١٢٧
صفة الشاعر	١٢٨
موقف الدين من الشعر	١٢٨
ترجمة كعب بن زهير	١٣٠
تفسير « والشعراء يتبعهم الغاوون . . » الآيات	١٣١
الشعر ديوان العرب	١٣٢
أجواد العرب	١٣٣
ترجمة الفرزدق	١٣٣
ترجمة جرير	١٣٥
ترجمة عنترة بن شداد	١٣٦
ترجمة الحارث بن حلزة	١٣٧
ترجمة القطامى	١٣٨
ترجمة ابن الاطنابة	١٣٩
فنون الشعر	١٤٠
ترجمة صريع الغوانى — مسلم بن الوليد	١٤١
ترجمة الخنساء السلمية	١٤٢
ترجمة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر	١٤٤
ترجمة طرفة بن العبد	١٤٥
ترجمة أبى العتاهية	١٤٧
أدوات الشاعر	١٤٩
ترجمة على بن الجهم	١٥١
صناعة الشعر	١٥٢
ترجمة عبد الله بن طاهر	١٥٢
ترجمة الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٥٤
ترجمة أشجع السلمى	١٥٥
ترجمة بشار بن برد	١٥٧

	صفحة
ترجمة كثير عزة	١٥٩
المطابقة والمشاكلة فى كلام البلاغيين	١٦٣
ترجمة أبى الشيص	١٦٧
ترجمة الأعشى — أعشى قيس	١٦٧
المنثور وما جاء فيه	١٧٧
الخطابة والترسل	١٧٧
التوقيعات ومعناها	١٨٧
ترجمة أرسطو واقليدس وجالينوس ويوحنا النحوى	١٩٠
شرح الحديث « اللهم بارك له فى محضها ومخضها »	١٩٢
سجع الكهان	١٩٣
ترجمـــة العمانى	١٩٦
ترجمة ثابت قطنة	١٩٨
ترجمة النمر بن تولب	١٩٩
ترجمة عمرو بن سعيد الأشدق	٢٠١
عيوب المنطق	٢٠٣
اختيار الرسول	٢٠٦
تفسير « الله أعلم حيث يجعل رسالته »	٢٠٦
تفسير « فإنما عليه ما حمل ... » الآية »	٢٠٧
تفسير « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »	٢٠٨
تفسير « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ... » الآية	٢١١
الجدل والمجادلة	٢١٢
تفسير « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن »	٢١٢
تفسير « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها »	٢١٢
تفسير « وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان .. »	٢١٣
تفسير « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ... » الآية	٢١٣
تفسير « لتنذر به قوما لدا »	٢١٤

صفحة

تفسير « فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد »	٢١٤
تفسير « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا . . » الآية	٢١٥
تفسير « وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة »	٢١٥
تفسير « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين »	٢١٦
تفسير « ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ... » الآية	٢١٧
تفسير « والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب لهم . » الآية	٢١٧
الجدل والبحث	٢١٨
تفسير « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل . . » الآيتين	٢١٩
فيم يقع الجدل ؟	٢٢٠
أنواع البحث والسؤال	٢٢٠
دلالة الشىء بالمشاكلة والمضادة والعرض والفعل	٢٢٢
تفسير « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . . . » الآيتين	٢٢٤
الخلاف والمناقضة	٢٢٥
ترجمة إسحاق الموصلى وإسحاق الظاهرى	٢٢٦
تفسير « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم . . . » الآية	٢٢٨
ترجمة عبد الله بن مسعود	٢٢٩
أدب الجدل	٢٣٠
أصل المثل « إن البلاء موكل بالمنطق »	٢٣١
معنى « النكتة »	٢٣٧
معانى الكيفية والكمية والمائية والكمون والتولد والجزء والطفرة	٢٤٠
معانى القرينة والهيولى والصورة والمقولات	٢٤٠
معنى الليسية والأيسية	٢٤٣
الحديث	٢٤٤
حديث الجد وحديث الهزل	٢٤٥
تفسير « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا . . . » الآية	٢٤٥

صفحة

تفسير « وما ينطق عن الهوى ... » الآيتين ٢٤٥

تفسير « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ... » الآية ٢٤٦

تفسير « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ... » الآية ٢٤٧

تفسير « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » ٢٤٧

تفسير « وإذا مروا باللغو مروا كراما » ٢٤٧

الحديث السخيف والحديث الجزل ٢٤٨

بلاغة الحديث وعى الحديث ٢٤٩

ترجمة علية بنت المهدى ٢٥٠

تفسير « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ... » الآية ٢٥١

الحديث الحسن والحديث القبيح ٢٥٢

تفسير « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهامثانى .. » الآية ٢٥٢

تفسير « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا . الآية ٢٥٣

تفسير « ولا تطع كل حلاف مهين ... » الآيتين ٢٥٤

تفسير « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » ٢٥٤

تفسير « ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » ٢٥٤

تفسير « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ... » الآية ٢٥٤

تفسير « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ... » الآية ٢٥٥

تفسير « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله ... » الآية ٢٥٥

تفسير « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به .. » الآية ٢٥٥

تفسير « يخادعون الله والذين آمنوا ... الآية ٢٥٦

ترجمة أبى الأسود الدؤلى ٢٥٧

الحديث الفصيح والحديث الملحون ٢٥٨

نقلة عن أبى على القالى فى معنى « اللحن » وتصريفه ٢٦١

الحديث الصواب والحديث الخطأ ٢٦٢

الإسناد المجازى ٢٦٣

تفسير « إن إبراهيم لأواه حليم » ٢٦٤

تفسير « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ٢٦٥

تفسير « وأعرض عن الجاهلين » ٢٦٥

صفحة

ترجمة أبي الطمحان القيني ٢٦٦
تفسير « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » ٢٦٧
ترجمة عمرو بن كلثوم ٢٦٧
خاطر في تأليف الكتاب ٢٧٠
تفسير « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي .. »
الآيتين ٢٧٣
شرح الحديث « إن الدين النصيحة ... » ٢٧٤
ترجمة أفلاطون والإسكندر ٢٧٥
ترجمة زياد بن سمية — زياد ابن أبيه ٢٧٧
قصة التحكيم بين علي ومعاوية ٢٧٨
تفسير « لا يأكله إلا الخاطئون » ٢٨٠
الفرق بين الخطيئة والخطأ ٢٨٠
حديث الصدق والكذب وحديث الحق والباطل ٢٨٠
الأشياء التي يقع بها الوصف ٢٨٠
تفسير « فذلكم الله ربكم الحق » ٢٨١
تفسير « والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون » ٢٨١
تفسير « وقل جاء الحق وزهق الباطل .. » الآية ٢٨٢
تفسير « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر
بها .. » الآية ٢٨٣
تفسير « سماعون للكذب أكالون للسحت » ٢٨٣
الحديث النافع والحديث الضار ٢٨٤
أقسام الطلب ٢٨٥
تفسير « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن.. » الآية ٢٨٥
تفسير « واسألوا الله من فضله » ٢٨٦
معنى الإخلاص والإخبات والتضرع ٢٨٦
تفسير « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » ٢٨٧
تفسير « إنهم كانوا يسارعون في الخيرات .. » الآية ٢٨٧

صفحة

تفسير « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » ٢٨٧
تفسير « ادعونى أستجب لكم » ٢٨٨
تفسير « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا . . » الآية ٢٨٨
تفسير « يمحو الله ما يشاء ويثبت . . » الآية ٢٨٩
تفسير « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب » ٢٩٠
تفسير « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » ٢٩٠
ترجمة أكثم بن صيفى ٢٩٣
ترجمة سلم الخاسر ٢٩٤
ترجمة الأصمعى ٢٩٥
تفسير « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف . . » الآية ٢٩٧
تفسير « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . . » الآية ٢٩٨
تفسير « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء . . » الآية ٢٩٨
تفسير « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ٢٩٩
تفسير « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » ٣٠٠
تفسير « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » ٣٠٤
تفسير « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه . . » الآية ٣٠٤
تفسير « اعملوا آل داود شكرا » ٣٠٤
تفسير « لئن شكرتم لأزيدنكم . . » الآية ٣٠٤
كلمة فى أبى عنترة ٣٠٥
تفسير « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » ٣٠٥
تفسير « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ٣٠٥
تفسير « وأما بنعمة ربك فحدث » ٣٠٦
ترجمة غريض اليهودى وابنه سعية ٣٠٧

	صفحة
ترجمة زيد بن عمرو بن نفيل	٣٠٨
ترجمة ورقة بن نوفل	٣٠٨
ترجمة زهير بن جناب	٣٠٩
ترجمة عامر بن المجنون الجرمى — مدرج الريح	٣١٠
تفسير « وشاورهم فى الأمر »	٣١١
ترجمة سعد بن ناشب	٣١٥
تفسير « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »	٣٢٢
تفسير « إنما المؤمنون اخوة »	٣٢٢
تفسير « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »	٣٢٢
شرح الحديث « الأرواح جنود مجندة . . »	٣٢٣
تفسير « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا . . » الآية	٣٢٣
تفسير « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض »	٣٢٤
تفسير « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء . . » الآية	٣٢٤
تفسير « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة . » الآية	٣٢٥
خطبة أكثم بن صيفى أمام كسرى	٣٢٧
الحديث المقبول والحديث المردود	٣٢٩
بلاغة قولهم : نعم وكرامة — لا وكرامة	٣٣١
تفسير « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »	٣٣١
حديث « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين »	٣٣٣
ترجمة مسكين الدارمى	٣٣٥
ترجمة عمرو بن معد يكرب الزبيدى	٣٣٨
الحديث المهم من الحديث الفضول	٣٤٠
تفسير « وقولوا للناس حسنا »	٣٤١
تفسير « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم . » الآية	٣٤٢

	صفحة
تفسير « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم » الآية	٣٤٢
تفسير « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . . » الآية	٣٤٣
تفسير « يسألونك عن الخمر والميسر . . » الآية	٣٤٣
تفسير « ويسألونك عن المحيض . . » الآية	٣٤٤
تفسير « ويسألونك عن الروح . . » الآية	٣٤٤
تفسير « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء . . » الآية	٣٤٥
تفسير « يسألونك عن الساعة أيان مرساها . » الآية	٣٤٥
الحديث التام والحديث الناقص	٣٤٦
ترجمة خالد بن صفوان	٣٤٧
ترجمة مصعب بن الزبير	٣٤٨
أدب الحديث	٣٤٩
ترجمة إياس بن معاوية	٣٤٩
ترجمة ابن شبرمة القاضي	٣٤٩
ترجمة ربيعة الرأي	٣٥٠
ترجمة ابن السماك	٣٥٠
تفسير تكميلي « ولا تطع كل حلاف مهين »	٣٥١
ترجمة الاحنف بن قيس	٣٥٣
ترجمة العباس وابن عباس	٣٥٥

رقم الإيداع ٣٤٨١ / ١٩٧٢